

د. عمرو عبد العزيز منير

الأساطير المتعلقة بمصر

في كتابات المؤرخين المسلمين

الأساطير المتعلقة بمصر
فى كتابات المؤرخين المسلمين

تأليف

دكتور عمرو عبد العزيز منير

الطبعة الأولى

٢٠٠٨م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

بطاقة فهرسة	المستشارون
منير ، عمرو عبد العزيز الأساطير المتعلقة بمصر فى كتابات المؤرخين المسلمين / تأليف عمرو عبد العزيز منير . - ط١ . - الجيزة ؛ عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٨ . ٣٠٠ص ؛ ٢٤سم تدمك ٢ ٢٢٢ ٣٢٢ ٩٧٧ ١- العالم العربى - تاريخ - عصر المماليك ٢- المماليك أ- العنوان	د . أحمد إبراهيم الهوارى د . شوقى عبد القوى حبيب د . قاسم عبده قاسم **المشرف العام :** د. قاسم عبده قاسم **المدير التنفيذى :** شريف قاسم **مدير الانتاج :** جمال عابد **تصميم الغلاف : د. منى العيسوى**

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693
web site: WWW.Dar-Ein.com E-mail : dar_Ein@hotmail.com

إهـــداء

إلى روحين تفيأت ظلالهما فى صحراء القلب وهجير العقل.

إلى أمي علّه يفيها قطرة من بحر حنانهاوفيض عطائها .. وإلى نورا .. نـــور العين ونبت الأرض الطيبة إليكما أهدى شيئًا ممـــا منحتمانى إيـــاه.

إلى محمد .. صاحب فضل كبير.

إلى روح جدي .. محمد المعلم ، الذي أغراني عشقه للكتاب ، عرفانًا وتقديرًا.

إلى أستاذي الدكتور ..قاسم عبده قاسم ، معلمي الذي تتلمذت على يديه السخيتين .

إلى روح الرائدة سهير القلماوى نبت بحثي أخضر ، أقدمه عرفاناً بالفضل.

عمرو

تقديم

مصر ، بلد عريق ، قديم قدم الحضارة نفسها . ومصر أولى خطوات التاريخ ، ومحور الحكايات والأساطير ، أعجوبة الدنيا وعجيبة الزمان . ورد اسمها في كل الكتب المقدسة من التوراة إلى القرآن الكريم ؛ تغنى بها الإغريق والرومان ، وأحبها من سكنها ، وطمع فيها كل الغزاة ... من الهكسوس حتى الإنجليز. وبقيت مصر بوتقة تنصهر فيها الثقافات، وتلتقى فيها الأعراق ، وظلت دُرة الدنيا ، ورمزاً لفجر الإنسان، وما تزال تعجب الناس من أرجاء العالم حتى الآن .

مصر ، التى يظلمها الآن نفر من بنيها الفاسدين المارقين ، مدت يدها إلى الإنسانية بشعلة المعرفة ، ومصباح العلم حين كانت البشرية ما تزال تحبو فى طفولتها . مصر التى طالما أطعمت الشعوب المجاورة تعجز الآن عن أن تنتج حاجتها من الطعام بسبب هذا النفر من بنيها الفاسدين ، مصر الغنية دائمًا بما حباها الله من موادر وخيرات أفقرها الاستبداد والفساد .

مصر، بهرت من غزوها وقهرت من احتلوا أرضها ؛ فقد حولت سلالة البطالمة إلى سلالة تحكم دولة راقية متقدمة ذات حضارة وثقافة وقدرة سياسية واقتصادية مهمة طوال الفترة من بطليموس الأول (خليفة الاسكندر الأكبر) حتى كيلوباترا السابعة الملكة التى جعلت روما ترتعد فرائصها . وطوال عصر البطالمة كانت مصر منارة عالم البحر المتوسط ، ورائدة الثقافة والعلم ، وهو العصر الذى قامت فيه مكتبة الاسكندرية القديمة بالدور الأكبر . وحين هُزمت كيلوباترا السابعة فى معركة اكتيوم فقدت مصر استقلالها وصارت ولاية رومانية حتى الفتح الإسلامى فى العقود الأولى من القرن السابع الميلادى .

وبدخول مصر تحت راية الإسلام ، وبعد تمام تعريبها ، عادت تمارس دورها فى خدمة الحضارة الإنسانية من جديد، بعد أن كانت مجرد «ولاية» رومانية، لم تستطع أن تقدم شيئًا سوى سلة الخبز لروما ، ثم الرهبنة والأديرة والمذاهب المسيحية فيما بعد .

وطوال تاريخها القديم بهرت الإغريق ، وتودد الاسكندر الأكبر إلى شعبها حين زعم أنه ابن الإله آمون ، وتبنى البطالمة الديانة المصرية القديمة بكل ما تحمله من أساطير ، وذابت السلالة البطلمية وتمصرت وصارت ثقافتها هي ثقافة كل المصريين . وحين جاء الإسلام تصحبه اللغة العربية ؛ امتزج ما جاء به الإسلام بتراث مصر العريق . ولم يتنكر العلماء والباحثون المسلمون

لتراث مصر القديم- كما يفعل بعض السفهاء اليوم بزعم أنه تراث وثنى - وإنما انبهروا به وتبنوه ، وأظهروا إعجابهم بالحضارة المصرية القديمة ونسجوا حولها الأساطير التى أضافوها إلى رصيد مصر الثقافى ، ولأن الأساطير تحمل الذاكرة الاجتماعية وتعبر عن العقلية التى صاغتها فقد كان طبيعيًا أن نجد فى الأساطير العربية التى حملتها كتب المؤرخين المسلمين أصداء تتعلق بأرض مصر ، نيلها وأصول شعبها ، ورؤية المصريين لأنفسهم ... وما إلى ذلك.

ومن هناك تأتى أهمية الدراسة التى يقدمها الدكتور عمرو عبد العزيز فى هذا الكتاب الذى كان فى الأصل رسالة حصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة الزقازيق ؛ وهى بالتأكيد الدراسة الأولى التى بحثت فى منطقة الحدود بين التاريخ والموروث الشعبى. وفى هذه الدراسة يقارن الدكتور عمرو بين القراءة الأكاديمية العلمية للتاريخ والقراءة الشعبية للتاريخ . وفى هذه الدراسة الفريدة فى بابها أظهر الدكتور عمرو موهبة وقدرة تنبئ بباحث واعد فى مجال ما يزال جديدا إلى درجة البكارة.

وتسعد دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية بتقديم الكاتب والكتاب إلى القارئ العربى، ونحن على ثقة من أننا نقدم باحثًا جاداً من شباب الأمة الذين يزرعون الأمل فى حيوية أمتنا.

والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

(... وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها ، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل، وَهَمُوا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المُضْعَفَةَ لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الآثارَ الكثيرُ ممن بعدهم واتبعوها. وأدَّوْها إلينا كمَا سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا تُرَّهات الأحاديث ،ولا دفعوها. فالتحقيق قليل ، وطَرْف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل ، والتقليد عريق في الآدميين سليل ، والتطفل على الفنون عريض وطويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل ، والحق لا يقاوم سلطانُهُ والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانُهُ، والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تَمُقل، والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل....).

ابن خلدون

(العبر وديوان المبتدأ والخبر)١/٣

(المقدمة)١/٢٨٢

ثمة علاقة جدلية بين الموروث الشعبي والتاريخ. فالموروث الشعبي مادة من مواد التدوين التاريخي، التي تساعد على تفسير الظواهر التاريخية وفهمها، والتاريخ بدوره يشترك معه في دعامات ثلاث: الإنسان، الزمان، المكان.

وهكذا؛ فإن مادة المؤرخ ومصادره تشمل فيما تشمل، الموروث الشعبي بكافة أجناسه وإبداعاته التراثية للشعوب.سواء كانت بدائية أو متحضرة، أي كل ما تم إنجازه عن طريق استخدام الأصوات والكلمات، في أشكال غنائية شعرية، أو نثرية متضمنة الاعتقادات الشعبية أو الخرافات والأساطير والعادات والتقاليد والرقصات والتمثيليات وغيرها. مما تنم به عن أساسيات التفكير وما تفصح عنه النظرة إلى علاقة الإنسان مقترناً ببيئته في إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد والتي تحمل رؤية العصر الذي يصوره. كما تكشف عن وجدان الإنسان الذي يحيا فيه، كما يصور هذا الإنسان بقضاياه التي يتعامل معها في سياق فني محكم وببساطة وعمق آسرين، وفوق هذا كله فهو يأتي في مواجهة ما يكتبه المؤرخون المحترفون، سواء في العصور السابقة أو في عصرنا الحالي، من مؤلفات تعكس آراء أولئك المؤرخين وتفسيراتهم.

فقد مكث المؤرخون ردحاً من الزمن، يتجاهلون نتاج العامة الثقافي بروح من التعالي والغطرسة، التي جعلتهم يضربون عرض الحائط بما ظنوه ضرباً من العبث والخرافة[١]، التي تناسب عقول العامة وإدراكهم. بيد أن التطورات التي ألمت بمجال الدراسات التاريخية دفعت بالمؤرخين إلى الاعتراف المتزايد بما طال السكوت عنه في (الموروث الشعبي) الذي يقدم لنا رؤية جمعية للحقيقة التاريخية. إذ أن الجماعة في رؤيتها للحدث التاريخي تقفز فوق التفاصيل ،وعلاقات الزمان والمكان، ولا تهتم سوى برسم صورة كلية حُبلى بكل الرموز الاجتماعية والثقافية، كما تحرص على بلورة موقفها التاريخي إزاء الحدث، وهذه الصورة الشعبية غالبًا ما تحمل وعي الجماعة بذاتها ، وتختزن في طيات أحداثها الخيالية كثيراً من المضامين التاريخية ولهذا تبرز أهمية اعتماد المؤرخ على (الموروث الشعبي). إلى جانب مصادره التقليدية، ذلك أن المزاوجة بين هذين النوعين من المصادر يساعد المؤرخ على استيعاب الظاهرة التاريخية ورسم صورة كلية لها.

من هنا تأتي مشروعية تلك الدراسة. التي تحاول أن تملأ فجوات في بنية (المسكوت عنه تاريخياً عمداً أو بدون قصد) في المصادر التاريخية التقليدية، والتي لا تستطيع وحدها أن تقدم لنا الحقيقة التاريخية ،إذ أنه لا يمكن للشهادات الجزئية أن تقدم لنا الحقيقة التاريخية، وإنما غاية ما يمكنها أن تقدم لنا، جانباً جزئياً من تلك الحقيقة التاريخية. فالتاريخ وحده لا يمكن أن يطلعنا على وجدان الشعب ،لأنه يصنف الحوادث ،ويحتفل بالأسباب والنتائج ، ويتسم بالتعميم.وقد أخذ هذا التاريخ في صورته الرسمية إلى سنوات قليلة خلت ، يقص سيرة مصر من قمة الكيان الاجتماعي ويرتب مراحل هذه السيرة بالدول الحاكمة أى تاريخ (القمم) بحيث إنها نادراً ما تطرقت إلي تاريخ الناس العاديين الذين يقبعون في (سفوح المجتمعات) إن صح التعبيرمما جعلنا نستقرأ تراثاً ناقصاً،ولا نلتفت إلى ما أنشاه الشعب لنفسه عن نفسه.

---

[١] – لم يحظَ الأدب الشعبي العربي بالقيمة الفنية الاعتبارية اللائقة به على المستوى الرسمي ، وظلّ، بعد معرفته الطويلة، مهمشاً ومنبوذاً، وبعيداً عن التناول والدرس، والبحث والتقصي لأسباب عديدة، في طالعها: عدم اهتمام أولي الأمر، الولاة والأمراء، والملوك، وأصحاب الأدب.. به لأنهم جميعاً عدّوه أدباً للعامة، يحتفي بالصعاليك، والشذّاذ، والجواري والقينات، والمعارك الوهمية، وطقوس السحر والشعوذة، وفنون الاحتيال والمداورة، والتشاطر الكاذب (من الشطارة)، وبالحكايات التي لا تؤهلها خرافاتُها أن تدوّن وتسجل في القراطيس، ومن ثم لأن منشئي الأدب الشعبي كانوا يحتفون بالسجع، والترادف، والتوازن، والإطناب، والتطويل، والالتفات، وبصياغات بعيدة عن نهج البلاغة العربية، ومن بعد هذا كله لأن مصنفي الأدب العربي وناسخيه عدّوا الأدب الشعبي بلا قيمة أحياناً لما فيه من سلوكيات وأساليب بعيدة عن الأخلاق وتوجهاتها، وأحياناً لأنه يدور في عوالم الخيال والإضافات كالغولة، والعفاريت، والبحور السبعة،.. الخ. وإضافة إلى ما سلف اقتنع مصنفو الأدب العربي أن الكثير من الأدب الشعبي أدبٌ وظيفي– شفهي، حاضنته الأساسية، بل موزعته الأساسية هي الجدات اللواتي ابتدعن الخرافات، والحكايات من أجل السمر في الليالي، وهدهدة الأطفال وتخويفهم حصراً من الليل والعتمة.

وتراثنا العربي الذي وصلنا من عصور التألق الفكري في رحاب الحضارة العربية الإسلامية، قد ضم الكثير من الموروث الشعبي بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية، فضلاً عن الموسوعات ودوائر المعارف، المتخمة بالأساطير والحكايات الشعبية،والأحاجي والألغاز والمحاورات الفكاهية والسِّير والملاحم الشعبية والطرائف وما إلى ذلك ، كلها فنون تنطوي على قيمة إنسانية ليس من الصواب الاستعلاء عليها . خاصة وقد دونها لنا أعلام الثقافة العربية ربما لأنهم كانوا من اتساع الأفق ورحابة الصدر بمكان ، فلم يقيموا الحدود أو السدود بين ثقافة الخاصة وثقافة العامة ، أو بين أدب الصفوة وأدب العامة ، في مؤلفاتهم ومدوناتهم . التي تتطلب – في حقيقة الأمر – دراسة مستقلة ومستفيضة لا تقتصر على جمع النصوص وتحقيقها فحسب. وإنما عليها أن تستخلص أيضاً ما قد تنم عليه من دلالات، وأساسيات في التفكير العربي والإسلامي، وما تفصح عنه النظرة إلى علاقة الإنسان بالكون وأن نفتح ما نسميه بالنافذة الفولكلورية (العلمية / المنهجية) على تراثنا المدون ، الممتد طويلاً في المكان والزمان العربيين ، فتتجدّد الرؤى المعرفية ، وتتعدّد القراءات ، فتتجذّر المناهج ، وتتواصل الدراسات الشعبية العربية ، اكتشافاً وتأويلاً ، دراسة وتأصيلاً ، فتتجدّد الإفادة من هذا التراث بقدر ما يتنامى الوعي التاريخي والمعرفي والثقافي به ويضيق بنا المقام لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر ذلك الموروث الشعبي في كتب التراث العربي.

لذا تأتي هذه الدراسة الموسومة بـ (الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين في محاولة لإثارة الوعي أو قل (عودة الوعي) بتراثنا الحضاري، وهي تصدر عن رؤية تلتمس في الماضي التفسير الشعبي للتاريخ. أو ما يمكن أن نسميه بـ (البعد الثالث) للدراسات التاريخية ؛ أي التفسير النفسي والوجداني ورؤية الجماعة الإنسانية لذاتها وللكون والظواهر والأحداث من حولها.

والمتأمل في موضوعات الدراسة يلمس خيطاً أو عقداً فريداً يربط فصولها. إذ أنها تعالج فكرة محددة فحواها أن التاريخ والموروث الشعبي وجهان متوازيان يفهم أحدهما بواسطة الآخر مما يسر على الباحث أن يتخذ المنهج التاريخي والتحليلي في رصد الأساطير والحكايات الشعبية والخرافية في كتابات المؤرخين القدامى وما نفذ إلى النصوص المتعلقة بمصر من مضامين فكرية ذات محتوى أسطوري موروث من المرحلة الغيبية السابقة التي كانت تشكل أراء التاريخ وموضوعاته على الرغم من صياغتها صياغة تاريخية فنية على يد المؤرخين إلا أن أصولها لم تستغلق – في الأغلب الأعم – مستفيداً من أشتات المعلومات الدينية والتاريخية الممزوجة بالحكايات الشعبية والخرافات والأساطير المتناثرة عن مصر في بطون الكتابات التاريخية .

ولقد اتخذت الدراسة من (مصر) محوراً بوصفها نموذجاً طيباً يمثل العنصر الثابت – نسبياً – في أركان العملية التاريخية (المكان) فضلاً عن أنها اكتسبت في مخيلة المؤرخين والكُتاب أبعاداً ودلالات

اقتربت من الأسطورة والخيال ، وأخذ هذا التصور يتمتع في تلك المخيلة بصفة تكاد تكون "نمطية " تنطوي على الصدق حيناً ، وعلى الكثير من التصورات والأوهام الغامضة في أحيان أخرى ، ولعل هذه التصورات التي راحت تتضخم عبر العصور هي التي اجتذبت باقة من أعلام الشرق والغرب ؛ أدباء ومؤرخين وفلاسفة ورحالة وشعراء وغيرهم. فأقبلوا بأقلامهم وريشاتهم مشوقين إلى روائع الماضي في مصر، بما تحمله من دلالات جغرافية وتاريخية تمثل نمطاً فريداً مفعماً بالعلوم والفنون والسياسة والحكم، ومحوراً للعلاقات القائمة بين أفريقيا وآسيا.. بين أوروبا والشرق بين ذاكرة الماضي والواقع الفعلي ومسرحاً لأهم الأحداث التاريخية العالمية.

هذه الدلالات كلها كانت الأرضية التي استندت إليها مبادئ الدراسة الموزعة على تسعة فصول رئيسية ومسبوقة بمقدمة ومودعة نتائجها في خاتمة تلاها ثبت بالمصادر والمراجع المعتمدة ؛ حيث أفرد الفصل الأول للحديث عن أبعاد العلاقة بين التاريخ والأسطورة، وأوجه الائتلاف والاختلاف فيما بينهما، وعرضنا لتعريف كلٍّ من التاريخ والأسطورة ومدلولهما ، وجاءَ الفصلُ الثاني منها عن الأساطير والحكايات المرتبطة بأصل اسم مصر ، وأصول المصريين أنفسهم، وما حملته تلك الحكايات الخيالية عن اعتزاز المصريين ببلادهم ،وعن تنازع نسبة أصولهم إلى الحاميين ، أو اليونانيين أو العرب والكشف عن أن هذه الاتجاهات الثلاثة في "الموروث الشعبي" كان يرضي حاجة ثقافية/اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك .

وخُصصَ الفصل الثالث لعرض المادة الفولكلورية التي تدور حول "فضائل مصر " باعتباره نوعاً من التأليف نشأ بداية من القرن الثالث الهجري التاسع الميلادى جمع بين التاريخ والأساطير والموروث الشعبي، وكان إفرازاً للتفاعل القائم بين ما جاء به الإسلام ، واللغة العربية ، والموروثات الثقافية المحلية في كل مصر من أمصار دار الخلافة . أما الفصل الرابع فيتناول الأساطير والحكايات التي تناولت الحضارة المصرية القديمة وإنجازاتها والتي تشي بمدى إعجاب أصحاب هذه الحكايات وجمهورهم بإنجازات الحضارة المصرية القديمة التي بقيت رغم عوادي الزمن.وتم تخصيص الفصل الخامس للحديث عن الأساطير والحكايات التي تناولت الدفائن والكنوز المصرية القديمة وفراعنة مصر . والتي كان الحديث فيها عن الكنوز يحمل بعضها ثمة من الحقيقة، علي حين حمل البعض الآخر رائحة المبالغة. كما حاولنا أن نكشف عن صورة ملوك مصر القدامى التي تاهت في كتابات المؤرخين التي حفلت في بعض موضوعاتها بالخيال الواسع .وعرضت في الفصل السادس لأساطير أصول المدن المصرية القديمة ، بما تحويه من أخبار العجائب والغرائب والذي يدل على مدى إعجاب الرواة وانبهارهم بانجازات الحضارة المصرية القديمة وهو الأمر الذي بدا واضحاً من خلال تلك القصص الخيالية عن الأعمال الإعجازية لملوك مصر القديمة .

الفصل السابع جمع بين الحديث عن عمران مصر وما دار عنه من حكايات شعبية إضافة إلى الحديث عن العجائب الموجودة على أرض مصر على نحو يكشف عن حجم الخيال الذي غلف تاريخ مصر وتكشف عن عجز الرواة عن الوقوف على تاريخها الحقيقي ، والتي كانت تحاول أن تقدم إجابات "تاريخية " عن حضارة تليدة مضت ولكن آثارها مازالت ماثلة أمام عيون الناس ، والتي تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلى أعمال السحر والخوارق . بيد أن بعض هذه الحكايات كانت تحمل ظلاً، أو نواة من الحقيقة التاريخية في غالب الأحوال.

ودرست في الفصل الثامن الأساطير والحكايات التي تناولت النيل ومصادر المياه في مصر. حيث أحب المصريون بلادهم وعشقوا نيلهم، وصاغت أساطيرهم وحكاياتهم الشعبية هذا الحب وهذا العشق صياغة جميلة ومثيرة. أكدت أن حياة المصريين ووجودهم اعتمدت علي النهر النبيل اعتماداً مطلقاً، وأن إحساسهم بهذا كان كبيراً للغاية. وأُفرد الفصل الأخير عن الموروث الشعبي المتعلق بالشخصية المصرية التي ظلت عرضة للأخذ والرد وتضارب الآراء والتحليلات عند المؤرخين عبر عهود مختلفة والتي جاءت كتاباتهم متسمة ببعض المبالغة أحيانا والواقع أحيانا أخرى . وتلك هي مفردات الخطة التي اهتديت إلى وضعها آملاً أن تكون مستوفية موضوع الدراسة من الجوانب كافة ،ومتكفلة بتحقيق النتائج المرجوة لي في هذا المجال، وهى أيضاً خطوة لا تخلو من نقص ضروري، يدعوني إلى المزيد من الحرص على البحث، والتنقيب والتأمل والتسلح بطموح ورغبة في الفهم والتساؤل.

ويقتضي واجب العرفان بالجميل أن أتقدم بالشكر والامتنان لأستاذي الدكتور قاسم عبده قاسم لوقوفه بجانبي يشد من أزري ويوجهني التوجيه الطيب ، حرصاً منه على أن تكون ريادته في التاريخ الوسيط والاجتماعي (حركة) وليست (حالة) يمثلها هو . كما كان حريصاً على أن يخرج هذا العمل في صورة لائقة. مما تعجز معه كل أساليب البلاغة والبيان، على أن توفيه حقه من الشكر والثناء.

والحمد لله ، في البداية والنهاية ، له سبحانه الفضل ، وهو من وراء كل توفيق .

نظرة في المصـــادر

أما عن طبيعة المصادر التي أفاد منها البحث واستقى مادته التاريخية فقد تراوحت بين المصادر الأصلية والمراجع الثانوية فالمصادر الأصلية ، والكتابات القلمية لقدامى المؤرخين المسلمين، فهي مصدر أول للاعتماد عليها في الدراسات التاريخية، سواء للباحثين في مجال التاريخ الإسلامي أو الوسيط على حد سواء . لأهميتها؛ إذ هي شاهد عيان حي صامت ونبع ثري جليل الفائدة بمادته التاريخية ذات القيمة الثابتة الغير قابلة للتغيير ، فهي بنصوصها تقف مباشرة على روح العصر وأحداثه، وأفكاره، وطريقة حياة الناس، وموروثاتهم، وهي بذلك ضرورية للتاريخ الإسلامي والوسيط إذ لا يقومان بدونها، مما يحقق الفائدة بما ورد بها من معلومات وأفكار ، وترجع أهيمتها إلى قرب مؤلفيها من الأحداث وما تناولوه من مظاهر العصر ، ومشاركتهم فيها بحكم المكانة ، وبمعايشتهم لها ،ولأوضاع المجتمع، مما يحملنا على الاطمئنان إليها وإن تباينت مسالكهم في استخدام المصادر ؛ حيث لم يقتصر هؤلاء المؤرخون في كتاباتهم التاريخية على المصادر المكتوبة – معاصرة وغير معاصرة – فقط وإنما استمدوا مادتهم التاريخية – كذلك من مصادر أدبية، أو دينية، أو علمية بحتة. كما أنهم لم يقتصروا في مؤلفاتهم على تلك المصادر المكتوبة فحسب وإنما استمدوا معارفهم، او عناصر حوادثهم – غالباً – من مصادر مكملة كالمشاهدة والمشافهة، والآثار، والنقوش، والإجازات، والسماعات، فضلاً عن المكاتبات التي كانت متبادلة فيما بينهم . مما أفسح الطريق أمام الخرافات، والأساطير لتتسرب بعمق إلى متون الكتابات التاريخية.

كما أنهم أظهروا في مواضع كأروع ما يكون في دقة النقل عن المصدر، وفي مواضع أخرى أخلوا بعبارة المصدر إخلالاً فاحشاً. كما اتفقوا في النقل عن المصدر بعباراته أو تصرفاً في النسقين ؛ التعبيري والترتيبي المصاحبين للمنقول عنه أو في أحدهما.والجدير أنه لم يكن في الإمكان إفادة البحث من مصادر أصلية خلافها نظراً لطبيعة الدراسة وعذريتها ونوعية ما تناولته من الأساطير والخرافات التي امتلأت بها تلك المصادر كما تفاوتت طبيعة إفادته منها في جوانبه المختلفة تبعاً لتباين طبيعتها. وتلك المصادر التي لم يكن محتماً الأخذ عنها. فقد ساهمت – في الغالب – وأعانت على إيضاح صورة المجتمع، وأفكاره السائدة عن مصر، وتأكيدها، وفي ذلك إفادة للبحث غير مباشرة.

وأبرز ما اعتمد عليه البحث من مصادر : (فتوح مصر وأخبارها) لابن عبد الحكم ، و(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) للمقريزي ، و(الاستبصار في عجائب الأمصار) لكاتب مراكشي مجهول ، و(آثار البلاد وأخبار العباد) للقزويني ، و(فضائل مصر وأخبارها وخواصها) لابن زولاق، و(الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة) لابن ظهيرة ، (وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي، (وصورة الأرض) لابن حوقل و(مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي) ، و(مقدمة وتاريخ) ابن خلدون ،وغيرها .

ونظراً لأن المصادر التي اعتمدت عليها الدراسة لم تكن بها المادة التاريخية متاحة – بالمعنى المفهوم – إذ احتوت على أساطير، وحكايات شعبية بين سطورها، وردت كأنها مرويات، وآقانيم لا جدال فيها، فقد لزم تتبعها في بطونها لجمع شذراتها وترتيبها ونقدها وتحليلها بقدر الإمكان ومناقشتها أحياناً إذا لزم الأمر. وكان جل اعتمادنا على ما كتبه المؤرخون المسلمون ،كما اعتمدنا على بعض المصادر التي تعالج موضوعات العلوم المختلفة أو تتعرض بطرف أو بآخر لمصر والحكايات الخرافية والأساطير المتعلقة بها.

ومن أهم المصادر التاريخية الأصلية التي اعتمد عليها البحث ؛ كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمؤرخ تقي الدين أحمد المقريزي[1] أشهر مؤرخي العصر المملوكي دون منازع والمولود سنة (١٣٦٤م/ ٧٦٦هـ) بحارة برجوان بالقاهرة ، والمتوفى بها سنة (١٤٤٢م/ ٨٤٥هـ) وهو في سن الثمانين من العمر، ليعكف على الكتابة، والإضافة لمؤلفاته. وقد بدأ منذ مرحلة باكرة من حياته في وضع كتاب تاريخ القاهرة المسمى (المواعظ والاعتبار)، وهو الكتاب المشهور باسم (الخطط) لأنه توفر فيه على دراسة المعالم القاهرية من حارات وشوارع ودروب وقياسر وحمامات ورباع وأسواق ومدارس وخوانق ومستشفيات فضلاً عن أخبار المدن المصرية الكبرى، وتراجم رجال الدول ونظم الحكم في مختلف العصور [2] وقد جعل المقريزي كتاب

([1]) هو تقي الدين أبو محمد أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبي الحسن بن عبد الصمد بن تميم المقريزي الشافعي. انظر: محمد كمال الدين عز الدين: الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسية، دراسة عن التاريخ والمؤرخين (رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية البنات جامعة عين شمس، ١٩٨٩م)، ص٢٧٢، ص٢٧٣.

([2]) محمد مصطفى زيادة وآخرون: دراسات عن المقريزي(الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧١م)، ص٧؛ محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي(الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٤م)، ص١٢، ص١٣.

(المواعظ والاعتبار) أساساً قامت عليه مؤلفاته التاريخية في مختلف التاريخ المصري في العصور الوسطى[١].

ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي تحوي مادة ثرية من الموروث الشعبي ،ولا غرو فالكتاب بمثابة موسوعة جامعة، حشد فيها تقي الدين المقريزي معظم التراث المدون حول مصر، وعاصمتها القاهرة: تاريخاً وجغرافية وأساطير ومأثورات شعبية ومعلومات عن المدن، والسكان، والأعياد،والأديان، والأقليات. فضلاً عن أخبار المؤسسات ذات الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والتعليمية التي ذكرناها آنفاً . وفي ثنايا هذه الأخبار نجد الأسطورة مبثوثة والخرافة مسرودة ليتمخض لدينا كم هائل من (الموروث الشعبي) بكل اتجاهاته وانتماءاته[٢].

وقد أمضى المقريزي حوالي ثلاثة وعشرين عاماً في جمع مادة هذا الكتاب وتأليفه فيما بين سنة (٨٢٠هـ وسنة ٨٤٣هـ) وكان الغرض منه : (جمع ما تفرق من أخبار مصر وأحوال سكانها كي يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مصر وهي التي إذا حصلت في ذهن إنسان اقتدر على أن يخبر في كل وقت بما كان في أرض مصر من الآثار الباقية والبائدة، ويقص أحوال من ابتدأها ومن حلها وكيف كانت مصائر أمورها.. فتتهذب بتدبر ذلك نفسه وترتاض أخلاقه فيحب الخير ويفعله ويكره الشر ويتجنبه)[٣] مما يدلنا على مدى ضخامة الجهد الذي بذله من ناحية والكم الهائل من المعلومات، والقصص والأشعار والأساطير والخرافات التي جمعها. ليجمع الكتاب بذلك بين العديد من المباحث التاريخية والأثرية والجغرافية واللغوية والفقهية والاقتصادية والاجتماعية ومادة فولكلورية خالصة وأنماط متنوعة من الموروث الشعبي مما جعله موسوعة لتاريخ مصر على كافة الأصعدة فقد اتسعت رقعته الفولكلورية والمكانية لتشتمل على كافة أرجاء مصر ورقعته الزمنية لتشتمل على تاريخها فيما بين عصر الفراعنة وعصره.

وتنوعت مصادر (الخطط) وتعددت بحيث يمكن إجمالها في المشاهدة والمشاركة ويمثلها قوله في معرض الحديث عن سور القاهرة: (فشاهدت من كبر لبنها ما يتعجب منه في زماننا حتى إن اللبنة تكون قدر ذراع في ثلثي ذراع)[٤] وكذلك نجد المشافهة وتتمثل في قوله: (وأخبرني الشيخ المعمر

---

(١) نفسه، ص١٩

(٢) قاسم عبده قاسم : بين التاريخ والفولكلور(الطبعة الثانية ، دار عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٨)، ص٤٧، ص ٤٨.

(٣) المقريزي (تقي الدين أبي العباس بن أحمد بن علي) (ت ٨٤٥هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار(الجزء الأول، طبعة مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ٢٠٠٢) ص٣، ٤.

(٤) المصدر السابق : جـ١، ص٣٧٧.

حسام الدين حسين بن عمر الشهرزوري أنه يعرف خليج الذكر وفيه الماء وسبح فيه غير مرة وأراني آثاره)[١] وفي قوله عن باب زويلة بالقاهرة لجده أنه استخدم أسلوب الاطلاع على الخطوط والآثار في قوله: (ومن تأمل الأسطر التي قد كتبت على أعلاه من خارجه فإنه يجد فيه اسم أمير الجيوش)[٢] أضف لذلك تنوع استخدام المقريزي للمصادر المتداولة في عصره كاللغة والأدب والحديث والتفسير والفقه والتصوف والعقائد والفلسفة والطب والصيدلة والنبات والفلاحة والجغرافيا والرحلات والتاريخ بشتى فنونه.

والمطلع على ما دونه المقريزي في الخطط سيجد كثيراً ما تردد فيها الخرافات والأساطير والروايات الشعبية و (مستغربات الحدوث) المثبتة لديه عن مصادره خاصة (ابن وصيف شاه) وقد وثق فيه على النحو الوارد في قوله: (..فإن ابن وصيف شاه أعرف بأخبار أهل مصر)[٣] ومثال الخرافة عنده قوله: (إن عمود السواري الموجود الآن خارج مدينة الإسكندرية أحد سبعة أعمدة أتى بأحدها البتون بن مرة العادي وهو يحمله تحت إبطه من جبل بريم الأحمر قبلي أسوان إلى الإسكندرية)[٤] مما جعل من كتابه (الخطط) واحداً من أنفس الكتب التي اعتمد عليها البحث وأعذبها مورداً وأصفاها منهلاً وأسداها منهجاً. بل كان بمثابة العمود الفقري الذي أتكأ عليه البحث في رحلته.

ومن المصادر الهامة التي نهل منها البحث في نواحيه، كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي[٥] المولود بالقاهرة ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمنمائة للهجرة[٦] والذي كانت له أسفار كثيرة في البلاد المصرية كالفيوم حيث

---

(١) نفسه : جـ٢، ص١٤٥.

(٢) نفسه : جـ١ ، ص٣٨١.

(٣) المقريزي : الخطط، جـ١، ص١٥٠.

(٤) المقريزي : الخطط، جـ١، ص١٦٠.

(٥) هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد بن الهمام الخضيري السيوطي الشافعي.وقد أشار السيوطي في كتاب (التحدث بنعمة الله) إلى أن أباه لم يسمه إلا يوم الأسبوع ويبدو أن ذلك لم يكن تهاوناً من الأب في حق الجلال وإنما كان تحرياً في تخير الاسم المناسب مما دفع بمؤرخنا إلى إنشاء فصل في كتابه التحدث بنعمة الله ص٣٢: ص٣٨ اظهر فيه اعتداده باسمه مشيراً إلى أفضليته ومناسبته لاسم أبيه، انظر: التحدث بنعمة الله للحافظ جلال الدين السيوطي (تحقيق: اليزابث ماري سارتين، تقديم: عوض الغباري، سلسلة الذخائر، العدد ١٠٦، القاهرة ٢٠٠٣)، ص٣٢.

(٦) السيوطي : التحدث بنعمة الله، ص٣٢؛ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، الجزء الأول، ص٢٣٦.

أشار إلى أن له مؤلفاً فيها اسمه (الرحلة الفيومية) ودمياط والإسكندرية وأعمالهما وفي خارجها كالحجاز والشام واليمن والهند والمغرب وقد قام برحلة دمياط والإسكندرية في شهر رجب سنة سبعين وثمانمائة للهجرة (١٤٦٦م) ومع فوائدها في تأليف يسمى : (الاغتباط في الرحلة إلى الإسكندرية ودمياط) أو (قطف الزهر في رحلة الشهر) مما يستفاد منه أنها استغرقت نحو الثلاثين يوماً توسطت شهري رجب وشعبان – فكان هناك مفيداً إلى جانب كونه مستفيداً بما حدث فيها من عشارياته أو كتب عنه هناك من مسموعاته كصحيح البخاري والشفاء أو مصنفاته كشرح الألفية والجزء الأول من نور الحديقة وعشارياته والمسلسل بالأولية وبإجازته فيها لمن قابلهم – هناك – وأولادهم[١] .

وهكذا تأهل مؤرخنا ليمدنا بفيض من المعلومات التي امتزجت فيها الحقيقة بالخيال والروايات الشعبية التي صقلها المنهج وأكدها المشاهدة والمعاينة الأمر الذي أوثق المرئيات وأكد حدوث الوقائع هذا علاوة على سعة كتابه من أفق ومدارك : بسبب دائرة اتصاله بالأقوام وحواره مع العلماء وأصحاب المعرفة بأحوال البشر وتقلبات الأحوال في الزمان والمكان جمع فيه تاريخ مصر والقاهرة بوجه خاص وبعض فصول إضافية مسهبة عن النظام المملوكي وأساليبه وتكلم عن طبقات العلماء والصوفية بمصر وعن القضاة والأطباء وحكام مصر والأسرات التي حكمت مصر ومن دخل مصر من الأنبياء والصحابة والتابعين والأئمة والمجتهدين[٢] ولنجد موضوع ومنهج الأساطير في ثنايا الكتاب.

وما من شك في أن "حسن المحاضرة " يفيد كثيراً في التعرف على جانب لا بأس به من السمات الفكرية لعصر "السيوطي" حيث كتبه في عصر السلطان قايتباي واعتمد في تأليفه على ثمانية وعشرين مؤلفاً عددها في مقدمته وقد لخص ذلك عن آثار المتقدمين ولاسيما ابن عبد الحكم والكندي وابن زولاق والقضاعي[٣] فقد نقل كثيراً عن مؤلفات الذين عاصروه والذين سبقوه وكان النقل مألوفاً في العصور الوسطى. كذلك كان المؤرخون يميلون إلى ذكر الأساطير العجيبة

---

(١) السيوطي: التحدث بنعمة الله، ص٨٣: ص٨٧.

(٢) علي إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي العام والتاريخ المصري الوسيط (الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٠م)، ص ١٩٤.

(٣) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي(الطبعة الأولى، مطبعة دار التأليف، القاهرة، د. ت)، ص٢١٥.

والخرافات والأشياء الخارقة للعادة كما كانوا يبالغون في الإحصاءات المختلفة وكانت هذه المبالغات ظاهرة بوجه خاص حين يتحدثون في عصور ما قبل الإسلام[١] .

ووضح لنا أن السيوطي اهتم بإظهار أهمية ومحورية دور مصر منذ العصور القديمة ؛ فيشير إلى ما ذكر في فضائل مصر في القرآن الكريم وذكر السيوطي أن "المدينة" في بعض الآيات القرآنية يراد بها "منف" عاصمة مصر القديمة مثل قوله تعالى: ﴿وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى﴾[٢] القصص :٢٨ كذلك حاول السيوطي جمع الأحاديث النبوية الشريفة التي ورد فيها ذكر مصر ثم ثناه بذكر تاريخ مصر في عهدها القديم؛ عهد الفراعنة وبناة الأهرام على حسب ما وقع لديه من المعارف والأفكار الشائعة في عصره حول تلك الآثار ثم وصف الفتح الإسلامي وما صاحبه من وقائع وأحداث وما شابه من معتقدات وروايات شعبية وما تم من امتزاج المصريين بالعرب تحت راية الإسلام ثم ذكر الوافدين على مصر ومن نبغ فيها من أصحاب المذاهب ومن عاش بها من الحفاظ والمؤرخين والقراء والقصاص والشعراء والمتطببين وغيرهم مع ذكر نبذ من حياقم وتاريخ موالدهم ووفياقم ومن أمتع ما ورد فيه تلك الفصول التي عقدها في ذكر عادات المصريين ومواسمهم وأعيادهم والأسباب الدائرة بينهم وما كان فيها من أندية الأدب ومجالس الشعر والسهر على منهج طريف أخاذ وكان سبيله في كل ما أورده من هذا الكتاب النقل عن الكتب المتخصصة في هذا الشأن مضافاً إليها ما وقع له من المشاهدة أو ما نقله سماعاً من علماء مصر أو الناس[٣] مما فتح الباب على مصراعيه أمام الأساطير والخرافات والتي نظر إليها البعض على أنها من نواحي القصور التي شابت كتاب "حسن المحاضرة" وأنه بتلك الأساطير والخرافات الشعبية التي كانت إفرازاً للحكايات الشعبية المتداولة آنذاك جاء الكتاب غير عميق الاستنباط وغير معلل للحوادث إلا ما ندر وعدم تمحيص صاحبه للروايات الخرافية التي كانت في الكتب التاريخية القديمة فهو نقلها كما هي بحذافيرها وإن أسندها إلى رواتها[٤].

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف: دراسة نقدية لكتاب حسن المحاضرة للسيوطي، ضمن كتاب جلال الدين السيوطي، الطبعة الأولى(الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨م)، ص١٣٨، ص١٣٩.

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة، جـ١ ، ص٣.

(٣) محمد أبو الفضل إبراهيم: مقدمة تحقيق كتاب حسن المحاضرة (الجزء الأول ، الطبعة الأولى، دار عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٧م)، ص٤.

(٤) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي ، ص٢١٦: ص٢١٧.

من ذلك : ذكر النيل وأنه ينبع من الجنة. ومنها ذكر ما أذل الأسد وحملت عرشه الشياطين "في باب ملك مصر قبل الطوفان"[١] ومثل قوله في الإسكندرية أنها بنيت في ثلاثمائة سنة وسكنت ثلاثمائة سنة وخربت ثلاثمائة سنة ومثل عجائب منارة الإسكندرية والتمثال والمرآة فيها تلك المرآة التي كانت ترى خلالها جيوش الأعداء وغير ذلك كثير[٢] بيد أن هذا لا يغيض من قيمة الكتاب بل هو من أهم مراجع تاريخ مصر وأعلامها كما أنه كان في مقدمة المصادر التي استعان بها البحث في مجال الحقل التطبيقي على المصادر.

ومن أمتع المؤلفات التي أفاد منها البحث كان كتاب "سياحة نامه مصر" للرحالة المسلم "أولياچلبي " لما به من تصوير فريد لبناء المجتمع المصري وأفكاره وحياته وأحواله في العصور الوسطى ، وبصفة خاصة أساسيات الفكر السائد وطبيعة العلاقات الاجتماعية ومحورها القائم على التجارة. كما كانت تلك الرحلة مجالاً خصباً للحكايات الشعبية الخرافية والأسطورية . إذ أن حكايات الرحلة وخرافاتها وموضوعاتها التي شدت انتباه صاحبها، جعلته أكثر قرباً من المعتقدات الشعبية ، إذ احتلت المسائل المتعلقة بالخرافات وحكايات الكرامات والغرائب والدرواويش مكانة هامة بالنسبة له وقد لا نجيز لأنفسنا أن نؤاخذه إذا لم يلق بالاً لجوانب الحياة الي تهم عصرنا ولكنه كان بدوره يعكس بدقة وإخلاص العصر والوسط اللذين عاش فيهما وذلك على ضوء الظروف الحضارية السائدة إذ ذاك . ولكن هل تشابهت المعتقدات وتجانسب الموروثات في البيئات الإسلامية المتعددة التنوع والتي خبرها الرحالة وعاش فيها سنوات طوالاً من المعتقدات والموروثات الموجودة في البيئة التي نشأ فيها ؟ أقول: نعم وبمقدار هذا التجانس القائم بين خرافات الرحلة وحكاياتها من مختلف البلدان يتبين لنا أن هذا التجانس لم يكن إلا باختياره هو نفسه وكل ما أورده ورواه إنما لمصادفته هوى خاصاً لدية يتفق ومقوماته الشخصية. (٣)

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة،جـ١، ص٣٢.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة،جـ١، ص٨٤: ص٨٨.

(٣) حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب(الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٧٦م)، ص٧٧. وانظر : أحمد فؤاد متولي : مقدمة رحلة أولياچلبي (تحقيق عبد الوهاب عزام وآخرون، الطبعة الأولى، دار الكتب ، القاهرة ٢٠٠٥م)، ص١٨.

إذ أن الأسطورة تتضمن تصوراً ما عن حدث معين أو شخص كان ذا وجود تاريخي ولكن الخيال الشعبي أو التراث في حرصه على تأكيد قيمة معينة أو رمزية خاصة يلجأ إلى تصوير ذلك الحدث أو تلك الشخصية في إطار المبالغة والتضخيم، ومن المعروف أن المفهوم الإنثوجرافي لا يجرد الأساطير تجريداً تاماً من الحقيقة بل يرى أن في كل أسطورة شيئاً من الحقيقة لا يلبث أن ينمو ويتضخم بفعل الخيال الشعبي(١).

وتأتي أهمية رحلة أولياچلبي إلى مصر، في أنها تتم في فترة تندر فيها المصادر العربية والتركية والأوربية عن وصف مصر، كما أنها تعد من أشهر الرحلات التي قامت بها عقلية شرقية إسلامية إلى الديار المصرية، وتأتي هذه الرحلة في الوقت الذي اكتسب فيها أولياچلبي علماً وخبرة أكثر لأنها تعتبر نهاية المطاف بالنسبة له حيث توفي بعدها بقليل(٢) ، فكان كتابه "سياحتنا مه مصر" منهلاً ثرياً أفاد البحث في كثير من نواحيه. إذ يعد كتابه من أدق وأوفى ما كتب عن مصر في القرن السابع عشر الميلادي فلو استبعدنا الخرافات والأساطير التي ألمت به في تفسير بعض الظواهر لاعتبر هذا الكتاب سجلاً وافياً لما كان في الحجاز ومصر من آثار ومساجد وجوامع وتكايا وزوايا ومستشفيات وكنائس وخانات وقصور وبرك وترع وقنوات ومعسكرات وعائلات. وكذا مرجعاً لا يستهان به للوضع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والعسكري والإداري لمصر في تلك الحقبة التاريخية الغامضة من تاريخ مصر ووصف لنا ما كانت عليه ما يسودها من عادات وتقاليد وأفكار وأعراف.

أولياچلبي كان يدون ملاحظاته ومشاهداته عن مصر ثم يرجع إلى كتب التاريخ والرحلات التي سبقته إليها وخاصة الثقاة منهم . أمثال القزويني، والمقريزي والطبري، والذهبي، وجلال زادة، وصولق زادة ،والأطلس الصغير ثم يدعم هذا كله بالرجوع إلى القوانين والسجلات، وكتب المناقب، وسجلات الولايات ودفاترها وميزانياتها. وقد كان يستخدم أساليب عصره في القياس فما أن يمر بجامع أو قلعة حتى يحصي الأبواب والأدوار والمخازن ويقيس بالخطوة والذراع كل ما

---

(١)حسين محمد فهيم: أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣٨، الكويت ١٩٨٩م)، ص١٣٨، ص١٣٩.

(٢) أحمد متولي: مقدمة رحلة أولياچلبي، ص١٦. وقد ولد أولياچلبي في ٢٥ مارس ١٦١١م/١٠ المحرم ١٠٢٠هـ وتوفي عام ١٦٨٢م/ ١٠٩٤هـ على وجه التقريب.

يصادفه من آثار وأطلال كما كان يعود إلى ما سجله أو رجع إليه من مراجع في كتبه السابقة على حد قوله [١].

وكان من أهم مقومات الاعتماد على كتاب أولياچلبي في سياق إعداد هذا البحث هو اعتماده على الدراسة الميدانية التي تتوافر فيها ثلاث مراحل وهي؛ المشاهدة الدقيقة المصحوبة أحياناً بالانبهار، ثم تسجيل المشاهدات وتدوينها، فالتفسير والشرح والوصف طبقاً للانطباع الذي خرج به وقد اعتمد على قراءاته السابقة المتنوعة عن مصر وأرضها وأهلها وتاريخها وجغرافيتها وآثارها في إثراء ما كتب عن مصر التي انبهر بها. وقد اجتهد أولياچلبي في وصف الشكل الخارجي للأماكن التي زارها في مصر مدعماً كلامه بطريقة التقصي والتتبع ومزج ذلك بمشاعره وعواطفه وأحاسيسه تجاه المعالم التي حازت على إعجابه وخلبت لبه.

نقل أولياچلبي لهذا البحث صوراً حية وصادقة عن مشاهداته وكانت هناك عاطفة قوية نحو ما يصف وما يصور سواء كانت هذ العاطفة مبعثها الحب والإعجاب أو البغض والكراهية وكان مغرماً بذكر المواقف الغريبة والنادرة وشغوفاً بالحديث عن القصص والأساطير والخرافات الخيالية التي سمع بها مهما كانت شطحاتها لأنها تشكل جزءاً من تراث الشعوب. وكان يركز أحياناً على النوادر والغرائب والعجائب ويأتي من أحوال البلاد بما يستغربه الناس فيشيع الإثارة والبهجة ويجعل القارئ يستمتع بمتابعته فاسلوبه لا يخلو من الطرافة والجاذبية في عرض الأحداث وإيراد المعلومات[٢] وتأثير عامل الخيال يبدو واضحاً في كتاباته وقد قاده خياله في بعض المرات إلى المبالغة والمغالاة وهو يصور الأحداث ويجسدها مما أثرى البحث الذي نحن بصدده إيما ثراء.

ومن أمثلة ذلك حديثه عن مدينة "أمسوس" بعد طوفان نوح فيقول: (ولم يكن هناك شيء ظاهر سوى جبل الهرة الذي كان قد أقيم بإشارة من النبي إدريس تجاه النيل ليأووا إليه ومع ذلك فإن الذين لجأوا إليه عند الطوفان قد غرقوا بأموالهم وكنوزهم في مياه الطوفان)(٣).

---

(١) محمد حرب: قاهرة القرن السابع عشر في رحلة أولياچلبي، دراسة بمجلة الهلال(عدد يناير، القاهرة ١٩٨٦م)، ص٩٠: ص ٩٧.

(٢)أحمد فؤاد متولي: مرجع سابق ، ص١٧.

(٣) أولياچلبي: سياحتنا مه مصر (ترجمة : محمد علي عوني، تحقيق: عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان، تقديم: أحمد فؤاد متولي، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٥م)، ص٣٥.

ومن الكتب الهامة التي نهل منها البحث في نواحيه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" وهو أشهر من أن يعرف لشيوعه في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادى فهو كتاب في التاريخ ولكن إذا شئنا الدقة فإن الكتاب ليس تاريخاً فحسب وإنما هو موسوعة ضمت معارف المسعودي جميعها تلك المعارف التي حصدها أثناء رحلاته المتعددة الطويلة. صحيح أن الجزء الأكبر من الكتاب مخصص للتاريخ الذي يعني بالماضي أساساً ولا يتيح للمؤلف مجالاً لحكاية تجاربه الذاتية غير أن المسعودي لم ينس عصره ولم ينس شخصه فظفرا – عصره وشخصه – بقسط من اهتمامه وكان ذلك الربط بين الماضي والحاضر زماناً والقريب والبعيد مكاناً والموضوع والذات منهجاً – كان ذلك كل سبباً في نجاح مؤلفات المسعودي والإقبال عليها[1].

وعلى هذا فإن نسبة الكتاب إلى محيط الأدب أقرب إلى الدقة خاصة أن المسعودي كان أديباً قبل كل شيء حريصاً على التأنق في عباراته والاستشهاد بالمأثورات الأدبية والشعبية. ولذا فالكتاب يسمح في محتواه بأن يضم إليه مجموعات من العجائب والأساطير تسير معه في نسق واحد ويمكن أن يحملها معه مختصر يجمع كل شاذ وغريب والواقع أن المسعودي نفسه استهوته حكايات الأساطير وقصص العجائب فجمعها بكثرة إما من الكتب وإما من خلال أسفاره ومشاهداته في رحلاته المتعددة[2].

فالكتاب يعتمد على مصادر رحلات ولكن هذا الحصاد مبعثر في جنباته وما يمكن جمعه من إشارات إلى وجوه في أماكن معينة[3] فالمسعودي اعتبر هذه الرحلات مصدراً رئيسياً وحقيقياً فيما يتعلق بالعادات والتقاليد أو الممارسة العقلية للحياة ولهذا فهو يضيف مشاهداته إلى ما جمع من أخبار ، يسأل ويستقصي السر وراء كل ظاهرة، ثم يقدم ما يرى وما يسمع كشاهد حي على حركة التاريخ في عصره كمستقصي باحثاً عن أسرار الظواهر ومعانيها وهو يقول عن الواحات بمصر: (وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الإخشيد محمد بن طغج وذلك من سنة ثلاثين وثلاثمائة وسألته عن كثير من أخبار بلدهم وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم

---

(1) ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري(الطبعة الأولى، دار الوفاء – دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة ١٩٩٥م)، ص١٤٢.

(2) فاروق خورشيد: جولة في التراث معادن الجوهر(سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م)، ص١٨.

(3) انظر – مثلاً: ١/١٠٠، ١/٣٤٣، ١/٧٦٧ (مروج الذهب).

وكلك كان فعلي مع غيره في سائر الأوقات ممن لم أصل إلى بلادهم وأخبرني هذا الرجل عما بأرضهم من العشب وأنواع الزاج وما يحمل من بلادهم وما بأرضهم من أنواع العيون)[١].

بالإضافة إلى ذلك اعتمد المسعودي على مصادر حية في إمداده بالمعلومات كما جاء في الخبر السابق وكذلك : (لم أترك ممن شاهدت من التجار ممن له أدب وفهم وممن لا فهم عنده من أرباب المراكب إلا سألته عن ذلك)[٢] فالمسعودي إذن يشاهد ويسأل أهل العلم والفهم ثم يسأل أهل الخبرة والمهنة ممن لا فهم عندهم ولكن عندهم التجربة الممارسة والفعل اليومي الدائم وقد أكسبته هذه الممارسة الفعلية للمواقع التي يصفها نوعاً من الإحساس بالثقة فيما يذكر من معلومات وما يناقش من آراء أوردها غيره ممن لم يتمتعوا بهذا المصدر الرئيسي أعنى به الرؤية والمشاهدة فيقول في ص ٨١ من الجزء الأول: (وقد زعم عمر بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذي هو نهر السند من النيل ويستدل على أنه من النيل لوجود التماسيح فيه.. فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل.. لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار ولا يعرف المسالك والأمصار وإنما كان حاطب ليل ينقل من كتب الوراقين) [٣].

كتاب المسعودي إذن هو عمل موسوعي يضم إلى جوار التاريخ مشاهدات الكاتب وأرائه وما وقع عليه من معرفة بعادات الشعوب وثقافاتها ومعتقداتها فقد دون المسعودي كل ما سمع وشاهد الكثير من المعتقدات الشعبية الموجودة في عصره وأيضاً مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية التي تكشف الستار عن حقيقة نبض الشعوب التي تحدث عنها وأفاض في وصفها والنقل عن "الثقات" من أهلها مما جعل كتابه حقلاً خصباً يفيد منه البحث في تقصي الخرافات والأساطير.

أما كتاب " صورة الأرض" فهو كتاب جغرافي جامع يكشف عن النظرة الجغرافية لمصر والعالم المعروف آنذاك تأليف ابن حوقل من جغرافي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الذي حاول أن يضع كتاباً لا يأخذه من أفواه الناس ولا مما قرأه وإنما يأخذه عن عينه ومشاهداته[٤] في العالم

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، جـ١، ص٣٤١.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، جـ١، ص١٢٥.

(٣) نفسه، جـ١ ، ص٨١.

(٤) شوقي ضيف: الرحلات(الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م)، ص١٢.

الإسلامي ولكننا في النهاية نتنقل في كتابه بين أخبار جغرافية وتاريخية وقصصية ومشاهدات يرويها ومن هنا كانت أهمية المادة الموجودة به والتي أفاد منها البحث في جوانب شتى.

ويبدو أن ابن حوقل كان معنياً بتدوين كل ما يصل إليه علمه مما يفيد موضوعه منذ بداية خروجه عام ٣٣١هـ والدليل على ذلك هذا التوثيق لبداية رحلاته كما يدل عليه أيضاً ذكر أسماء مصادره أو صفاتهم في أغلب الأحوال مما يعني اهتماماً بالخبر والمخبر معاً . بل إنه كان يسأل مصدره أكثر من مرة عن الخبر الواحد – في أزمنة مختلفة – حتى يتأكد من صحته، يقول: (وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقاً وأخاله بما أسأله عنه خبيراً فأجد – عند إعادة الخبر الذي أعتقد فيه صدقه وقد حفظت نسقه وتأملت طرقه ووصفه – أكثر ذلك باطلاً وأرى الحاكي بأكثر ما حكاه جاهلاً ثم أعاوده الخبر الذي التمسه منه.. وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية فتتنافر الأقوال وتتنافى الحكايات)[١].

أهمية "صورة الأرض" لهذا البحث تتلخص في كون ابن حوقل كان موقفه من العجائب والغرائب علمي فقد نزه كتابه عن ذكر ما لا يعقل قدر الإمكان وحاول أن يتأكد من صحة ما يروى له فقد سمع عن سمكة "العروس" بالإسكندرية حكاية غريبة (ورأيتها أنا وجماعة من ذوي التحصيل فشهدوا بكذب هذه الحكاية)[٢] وهو ما لم يفعله غيره ممن رووا الحكاية نفسها[٣].

ويحسب له أيضاً أنه ناقش المعتقدات الجغرافية الخرافية المستقرة في عصره وانتهى إلى نقدها مثل أن الأرض مصورة بصورة طائر[٤] وأن الدنيا مسيرة خمسمائة عام[٥] ومع هذا جاءت لغة كتاب ابن حوقل مميزة – إذا قورنت بغيرها – حسبما يرى "آدم متز" فقد (جاءت كتب المقدسي وابن حوقل في القرن الرابع الهجري فكانت هي الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان وكلاهما قد

---

(١) ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي) (ت ٣٦٧هـ) : صورة الأرض(تحقيق : كرامرس، ليدن ١٩٦٧م)، ص ٣٢٩.

(٢)ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٥٧.

(٣) انظر: مروج الذهب، جـ١،ص ٣٥٦؛المسالك والممالك للإصطخري، ص٤١؛ أحسن التقاسيم، ص٢٠٨، الإفادة والاعتبار للبغدادي، ص ٤٣.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٢٠٩.

(٥) نفسه : ص ٥٢٧.

سافر حتى دوخ المسالك وحمل تيار الأسفار واستهوته حياة الارتحال والسياحة على طريقة المسلمين.. وكلاهما قد انتهت إليه اللغة و.. وقد استعملاها في فنهما استعمال من يملك ناصيتها وإن كان ابن حوقل في ذلك أقل إظهاراً لتكلف الطرافة والجمال من المقدسي) [١].

من المصادر الهامة التي ساهمت في هذا البحث كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي الذي يعد من الأعمال القليلة التي نالت تأييد رهط غير قليل من الباحثين — من عرب ومستعربين — على أنه عمل مميز مما جعل تأييدهم يكتسي أهمية بالغة وقد أيد البحث العلمي الموضوعي ذلك الإجماع مما جعل من هذا العمل أكثر قيمة وأدعى للاحترام ونال — وما زال ينال — إعجاب وتقدير كل من تعاملوا معه نظراً لما تميز به من جدة وطرافة.

وقد تناول فيه أحوال كل بلدة وأهلها من طبائع وعادات حتى في لغاتهم والكتاب بذلك يعد طرفة حقيقة ففيه مادة غنية عن سكان كل بلدة بما فيها مصر وما يمتازون به في طعامهم وثيابهم وعباداتهم ونسكهم فيعرض علينا سكان العالم الإسلامي بكل خصائصهم وصفاتهم[٢] كقوله عن سكان العالم الإسلامي: (وأكثرها عباداً وقراءً وأموالاً ومتجراً وخصائص وحبوباً مصر..) .

والكتاب هكذا (نموذج للكتاب العلمي المرتب المنظم المبوب المقسم) [٣] برغم أنه قد اختلطت في هذا الكتاب الجغرافيا بالأخبار وعجائب الآثار والخرافات والأساطير بجانب أحوال الناس والعمران في تناغم آسرين وكانت مخيلة المقدسي من المخيلات اللاقطة التي تلتقط كل ما تشاهده وتسجله مع التحقيق والتدقيق في الرؤية وما ينقله عن الأفواه والشفاه[٤] مما جعله حقلاً خصيباً ينهل منه البحث في جوانب شتى وإشارات غزيرة منها صريح الدلالة ومنها خفيها واتبع في ذلك نهجاً علمياً صارماً — في أغلب الأحيان — كفل له تقديم صورة شديدة الوضوح غنية المحتوى لمصر

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري(الجزء الثاني، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريدة، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص٤، ص٥.

(٢) شوقي ضيف: الرحلات، مرجع سابق، ص ١٥، ص١٦.

(٣) نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب(دار الكتاب اللبناني المصري، القاهرة ١٩٦٢م)، ص٥٠.

(٤) ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، ص ١٧٢.

والعالم الإسلامي. واعتمد كذلك على الدراسة الميدانية المباشرة مما أحدث شيئاً من التوازن في المضمون وأبعد عن الكتاب شبح الجفاف الصرف أو العلمية البحتة[١].

وحفظ لنا المقدسي عن مصر بعض الملاحظات الطريفة التي تدل على دقة النظر مثل أن النيل كان يصب في البحرين الأحمر والمتوسط قديماً ونقل ذلك عن بعض العلماء المصريين ليؤيد نظريته في التقاء البحرين وتحديدهما وأن بنائي المسجد الحرام من مصر والشام بدليل أسمائهم المكتوبة على الحائط[٢] وكذلك لاحظ المقدسي أن المصريين (يكثرون الإشارة في الصلاة والنخع والمخاط في المساجد ويجعلونه تحت الحصير وأنهم يحبون رؤوس السمك)[٣] ويصف أبا الهول بأنه صنم يزعم أن (الشيطان كان يدخله فيكلمه حتى كسر أنفه وشفتاه)[٤] ومعنى هذا كله أن كتاب المقدسي يحتوي على ثروة من الموروث الشعبي كبيرة جديرة بدرس خاص يكشف عن أسرارها أضاءت لنا العديد من النقاط الهامة.

كما تجدر الإشارة إلى كتابين؛أولهما: "آثار البلاد وأخبار العباد" في الجغرافيا والثاني "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" للقزويني الذي عاش في القرن السابع الهجري وتوفي سنة (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) واسمه زكريا بن محمد. ويعد كتابه الجغرافي من أطرف الكتب الجغرافية عند العرب وهو فيه لا يهتم بالمسالك إنما يهتم بأحوال البلاد والسكان مضيفاً كل ما يستطيع من طرفه نادرة وعجيبة خارقة وقد قسم الكتاب إلى سبعة أقاليم تكلم في كل إقليم عن بلاده مرتباً لها على حروف المعجم[٥] وآثار القزويني كلها تتصل بعلمي الجغرافية ووصف الكائنات وكتابه هذا "آثار البلاد وأخبار العباد" يساوي في قيمته كتابه عجائب المخلوقات فقد جمع فيه كما يقول في مقدمته: (كل ما وقع له وعرفه وسمع به وشاهده من لطائف صنع الله وعجائب حكمته المودعة في

---

(١) نفسه : ص ١٨٦، ص١٨٧.

(٢) المقدسي (شمس الدين أبي عبد الله): كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم(الطبعة الثانية، مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٩م)، ص٧٣.

(٣) المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢٠٥.

(٤) المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢١٠.

(٥) شوقي ضيف: الرحلات، ص ٢١.

بلاده وعباده) [١] ليفتح القزويني في كتابه باب الخرافة والأساطير على مصراعيه ليجمع الكتاب لنا خوارق النساك والمتصوفة بجانب خوارق البنيان والآثار ومن حين إلى حين نلتقي بغرائب الأخبار لا في الإنسان، بل أيضاً في الطير والحيوان البري والبحري والزواحف وعجائب الحيوانات النيلية ونقل أخباراً وحكايات كثيرة عن الرواة الذين كانوا يوردون الخرافات والمستحيلات دون تمحيص وكان يقبلها على علاتها ويثبتها دون أن يحكم عقله على أنه كان يتخلص أحياناً من تبعتها بقوله: (والله أعلم).

ومن أمثلة وصفه قوله: (عجائب مصر حوض لعين ماء منقور في حجر عظيم يسيل الماء إلى الحوض من تلك العين من جبل بجنب كنيسة فإذا مس ذلك الماء جنب أو حائض انقطع الماء السائل من ساعته وينتن) [٢] .

فالكتاب حافل بالأفكار العامية السيَّارة والشائعة غير المحققة علمياً . وبرغم ذلك فالكتاب يعتبر من بواكير دراسة الإنسان مقترناً ببيئته الجغرافية وفي إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد والغرائب ولا غرو في ذلك فقد كان الاهتمام بـ "عجائب المخلوقات" قاسماً مشتركاً بين كتب الجغرافيين والمؤرخين والأدباء في العصور الوسطى والإسلامية. المهم أن المؤلفين العرب والمسلمين في تلك العصور حرصوا على الالتزام بالمفهوم القديم للأدب بمعناه العام أي ذلك الأدب الذي يصلح زاداً للإنسان الشريف الذي يقع في منزلة بين المنزلتين في المجتمع الإسلامي فلا هو من عامة الناس الذين يعيشون على إبداعهم الشعبي تأليفاً وتلقيناً ولا هو من الطغاة والحكام والقادة العسكريين، بل هو من الطبقة – ذاتها – التي ينتمي إليها هؤلاء المؤلفون : التجار والإداريون والعلماء والكتاب.

فالفكر العجائبي والغرائبي والخرافي في المؤلفات القديمة ينهل بغير حساب من كل مناهل المعرفة – عالم البحر والبلدان والأساطير والجبال والكائنات ناقصي الخلقة والشعوب الأسطورية مثل : يأجوج ومأجوج والموروثات الشعبية الفارسية والهندية والعربية – والعجائب التي تقع عليها عيون

---

(١) القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) (ت ١٢٨٣م): آثار البلاد وأخبار العباد، (الجـزء الأول، سلسلة الدراسات الشعبية ، العدد ٧٧، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٥.

(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٧٠.

الرحالة والتجار في عوالم الجماد والحيوان والنبات[1] وقد بلغ الاهتمام بتلك العوامل الغرائبية أن فرضت نفسها على كتاب القزويني الذي ألفه أساساً لوصف الأرض ومسالكها وممالكها فسماه بـ "عجائب المخلوقات" الذي أفاد الدراسة التي فوق راحة اليد الآن في كثير من نواحيها.

ولابد أن نشير هنا إلى كثرة الكتب التي ألفت في العصور الوسطى على هذا الطراز وربما كان أقربها إلى الواقع "معجم البلدان" لياقوت الحموي الذي ألفه سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م ورتب البلدان فيه على حروف الهجاء ولم يفتح في كتابه باب الخرافة والأساطير على مصراعيه كما صنع القزويني وراء هذه الكتب التي وصفناها كتب جغرافية كثيرة تذهب مذهبها من مزج المعلومات الخاصة بوصف الأرض بمعلومات كثيرة تاريخية وعمرانية مع ذكر العجائب في البنيان والحيوان والطير في عالمي البر والبحر في امتزاج حيوي مع الخرافات والأساطير. ومن أشهرها "كتاب البلدان لليعقوبي" و "الأعلاق النفيسة"لابن رسته و "البلدان" لابن الفقيه وأفردت كتب للعجائب التي ساقها الجغرافيون والمؤرخون وأعانت تلك الدراسة كثيراً بمعين لا ينضب بما دار فيها من حكايات خرافية شاعت في الأوساط الشعبية آنذاك ومن أشهرها "خريدة العجائب وفريدة الغرائب" لابن الوردي و"نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" وجميعها تلبي رغبة الناس في قراءة الخوارق والعجائب وتعكس بالضرورة نماذجاً للفكر والسلوك سادت في مصر والبلدان الإسلامية وغيرها طوال فترة التاريخ الإسلامي وقد أسهمت كل هذه الدراسات في إثراء بنية البحث الذي نحن بصدده.

كما أفاد البحث من المراجع الحديثة الفرعية – لمؤلفين حديثين شرقيين ومستشرقين – التي تناولت الأسطورة كمصطلح ودلالة أو بحثت عنها في الكتابات التاريخية بجمع ولملمة شذراتها من بطون الكتب القديمة مع الإفادة منها بالاهتداء إلى المصادر الأصلية للموضوع وكذا الكتب المتخصصة في الأساطير والفولكلور كدراسة قاسم عبده قاسم "بين التاريخ والفولكلور" وقد خَصَّصَ فيها فصلاً تحت عنوان (الموروث الشعبي والدراسات التاريخية – خطط المقريزي دراسة تطبيقية) تناول فيه بالدرس والتحليل أبعاد العلاقة بين الموروث الشعبي والدراسات التاريخية بما يحتويه ذلك الموروث من أسطورة وسيرة وحكايات شعبية وشعر شعبي وتتبع المادة التراثية الشعبية

---

(1)سيد خميس: وصل ما انقطع قراءات في التراث العربي الإسلامي(سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢م)، ص٤٤.

في التراث العربي باعتبارها (التفسير الشعبي أو الرؤية الشعبية للتاريخ) والتي تأتي في مواجهة ما يكتبه المؤرخون المحترفون سواء في العصور السابقة أو في عصرنا الحالي وأفصح عن حدود الموروث الشعبي وطبيعته في الخطط المقريزية وقدم لنا ورقة عمل حول أهمية المادة التراثية في الخطط للمؤرخ في محاولة منه للكشف عن المسكوت عنه في الدراسات التاريخية في العصور الإسلامية في أسلوب جمع بين الموروث الشعبي والتاريخ من خلال منظومة متكاملة جعلت من كتابه القسيم المشترك الذي اعتمدت عليه الدراسة -- التي فوق راحة اليد الآن -- والنواة التي تربي في حجرها ومن رحمها خرج.

أضف لذلك كتاب (النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك) للمؤلف ذاته حيث تحدث فيه عن الأساطير والخرافات التي دارت حول النيل في كتابات المؤرخين إلى جانب العديد من الكتب الهامة والدراسات كدراسة كارم عزيز بعنوان "الأسطورة فجر الإبداع الإنساني" ودراسة محمد خليفة حسن الموسومة بـــ "الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم". وكذا العديد من المراجع الحديثة ـــ سواء العربية منها أو المترجمة أو الأجنبية ـــ التي ساعدت كثيراً في استجلاء غوامض هذا البحث وقد قمت بإثباتها في قائمة المصادر الملحقة والتي لا يمكن معها الظن بأن موضوع الأساطير والخرافات في كتابات المؤرخين قد استكمل حقه بحثاً ونقداً وتحليلاً وذلك لضيق المقام بنا لو حاولنا تتبع الخطوات العامة لأنماط عناصر الموروث الشعبي في كتب التراث العربي ومصادره ومع كل فإن هذه الدراسة إنما هي محاولة لدراستها يرجى أن تتبعها محاولات أكثر شمولاً ومنهجية لكشف جوانب هذه النوعية من التاريخ ، واقتحام منطقة بحثية معرفية تحتاج إلى الكثير من جهود الباحثين العرب لاكتشاف الكثير من جوانبها الخفية كشفاً عربياً صرفاً لا نحتاج بعده إلا للتواصل مع الغرب في هذا المجال كأنداد لا متلقين تابعين .

الفصل الأول

أبعاد العلاقة بين التاريخ والأسطورة

"كلما بَعُدَ التاريخُ عن القصصِ والخيالِ ، ازداد
بُعْد العامة عن تذوقه وتعلمه"

سَهير القلماوي

ألف ليلة وليلة/٢٠٧

بدأت رحلة العلاقة بين التاريخ والأسطورة منذ زمن مبكر في عمر الإنسان على سطح هذا الكوكب، كانت البداية مرتبطة برغبة الإنسان في معرفة أصول الأشياء والعلاقات داخل هذا الكون، ولما كانت التسجيلات "التاريخية" ناقصة وجزئية، وربما غائبة في كثير من الأحيان، لجأ الإنسان إلى الخيال لكي يعوض به النقص ويسد الثغرات في تاريخ نشاطه في الماضي، وهنا اختلطت حقائق التاريخ بموضوعات الأساطير، وجاءت "القراءة" الأولى لتاريخ الإنسانية قراءة أسطورية تمثلت في نواة تاريخية محملة بالكثير من الخيال والتصورات والإسقاطات والصياغات التعويضية، وفي هذه "القراءة" الأولى لم يكن "المنهج" بمعناه العلمي موجوداً وإنما وجد بشكل بدائي، إذ كان الهدف هو رسم صورة للماضي تروي ظمأ الإنسان وتعطشه إلى المعرفة "التاريخية" فالإنسان مولع بمعرفة الماضي لكي يفهم أصول الحاضر، وهذه الرغبة الطبيعية في معرفة الماضي هي التي حفزته على هذا النوع من القراءة الأسطورية للتاريخ في محاولة للإجابة على السؤال المضني "لماذا "؟ لماذا جرت الأمور على هذا النحو؟ وما هي أصول الأشياء والظواهر والعلاقات داخل الكون؟.[١]

وفي طيات المحاولات الدائبة التي بذلها الإنسان للحصول على إجابة مرضية لهذا السؤال ظهر "علم التاريخ" باعتباره أحد الأدوات التي يستخدمها الإنسان لفهم حقيقة الوجود الإنساني في ماضيه وحاضره ومستقبله، وهكذا تحددت، منذ البداية، قيمة المعرفة التاريخية بوظيفتها الثقافية / الاجتماعية، ومن ثم كانت المعرفة التاريخية سواء في شكلها الأولي المثقل بالعناصر الأسطورية والدينية، أو في تطورها الحالي ليتمخض لدينا الرأي القائل بأن المعرفة التاريخية نشأت في رحم

---

[١] – قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية (ط. أولى، دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٠م)، ص٥، ٦.

الأسطورة (التي هي نمط من التصور الشعبي للكون والعلاقات والأشياء داخل هذا الكون من ناحية، كما أنها تعبير شعبي عن رؤية الجماعة لذاتها، وأصولها وتطورها التاريخي من ناحية ثانية) ثم عادت في تطورها الأخير لتمد وشائج الصلة بكل أنماط الموروث الشعبي.[1]

وعلى الرغم من كثرة الشكوك التي أثيرت حول القيمة التاريخية للأساطير، فإن كثيراً من الباحثين عدَّ الأسطورة مصدراً من مصادر التاريخ، وتمكن هؤلاء من التعامل مع المادة الواردة في الأساطير واستخلاص القيمة التاريخية منها، وذهبوا إلى أنه على كل حال ستبقى الأسطورة أحد مصادر الاستدلال في البحث التاريخي وإن لم تكن هي التاريخ.[2]

وزعم الباحثون وعلماء الميثولوجيا أن الأساطير تمثل طفولة العقل البشري ،وبدايات تعبيره عن الحقائق وتفسيره للظواهر الطبيعية برؤى خيالية توارثتها الأجيال، وهو زعم قائم على فرضية أن الأوائل اخترعوا أساطيرهم لأنهم اختلقوا دينهم تأثراً بجهلهم في تفسير قوى الطبيعة التي هي غيب وقوى خفية وأسرار وسحر بالنسبة لهم، فلما نضج العقل اعتمد العلم بدلاً من الأساطير".[3]

هذه الفرضية تبدو غير صحيحة، ولعل السبب الذي حذا بهم إلى ذلك؛ نظرتهم إلى أساطير كل العالم نظرة واحدة دون تفريق، فملاحظاتهم تبدو صحيحة وقد تنطبق على مدونات وأساطير بعض الشعوب، إذ جنحت أغلب أساطير الشعوب إلى الخيال واللامعقولية، إلا أن تعميم هذه الافتراضات على كل ما خلفه لنا التراث القديم يعد تعميماً مجحفاً في حق أولئك الذين سجلوا بأساطيرهم حقيقة وحفظوا تاريخاً.

واتفق المؤرخون على أن الأسطورة تعود إلى أزمان سحيقة للتاريخ الإنساني قبل معرفة الكتابة بزمن طويل[4]، أما متى بدأ عصر الكتابة الرمزية وأين فلا يعرف حتى الآن، وفي التراث نجد أن

---

[1] – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور (الطبعة الثانية، دار عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٨م) ، صـ٦.

[2] – وديع بشور: الميثولوجيا السورية وأساطير آرام (الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠١م)، صـ١٧.

[3] – مجموعة باحثين: الأسطورة توثيق حضاري (سلسلة السراة ، الطبعة الأولى، البحرين ٢٠٠٥)، صـ ٢٩

[4] – فراس السواح: مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة السورية، وبلاد الرافدين (الطبعة العاشرة ،دار علاء الدين، دمشق ١٩٩٣) ، صـ ١٤.

[آنوش هو أول من خدش الخدوش][1] ، وآنوش من سلالة آدم الإنسان الأول، اهتدى إلى النقش على الطين بعد أن لاحظ طباعة أقدامه على الأرض.

والأسطورة في اللغة العربية من (سطر) الفعل الثلاثي، ففي "العين" نطالع ما نصه "سطر" يسطُر، إذا كتب[2]، وفي التتريل : ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ [3]، وهي بمعنى تقسيم وتصفيف الأشياء، فالأسطورة تعني الكلام المسطور المصفوف، ولا يشترط فيها أن تكون مدونة أو مكتوبة، ولكن بالضرورة هي الكلام المنظوم سطراً وراء سطر، فتظهر مصفوفة كقصائد الشعر مما يسهل حفظها وتداولها ويحافظ على بنيانها وكلماتها[4]، وعلى ذلك يقول المعاندون للقرآن: "ما هذا إلا أساطير" ولم يروا الأساطير مكتوبة، وليس أغلبهم لهم علم بتدوينها بل هو علم بها تناقلوه شفوياً بسطورها المحفوظة.

وقد زعم بعض الباحثين أن الكلمة مقتبسة من اللغة اليونانية، يقول إبراهيم شعلان: "الأساطير: الأباطيل، الواحدة "أسطورة"، والأصل يوناني هُستريا: حكاية، تاريخ، ومنه istoreya، "إسطوريا" بالمعنى نفسه في السريانية. وفي الفارسية ustur " أسطور" بمعنى حكاية عن اليونانية هستريا[5]، وهي على حد قول وديع بشور: "مقتبسة من كلمة "أستوريا" historia اليونانية وتعني

---

[1] – (الخدش): في كلام أهل مصر يعني الجرح، يقولون : "خدشه" إذا جرحه قليلا، ويخدشه من باب ضـربه وأدماه أو لم يدمه، خدشته خدشاً من باب جرحته في ظاهر الجلد، وسواء دمي الجلد، أو لا فهي أوضـح. انظـر الشافعي: (محمد بن أبي السرور) ت ١٠٨٧هـ: القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغـات العـرب،(تحقيق: السيد إبراهيم سالم، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٢م)، ص ٧١، ويقال من المجاز: وقع في الأرض تخديش وهو القليل من المطر، وبقلبه خدشه وهي الشئ من الأذى. انظر: الزمخشري(جـار الله أبي القاسـم محمود)، أساس البلاغة، (الجزء الأول، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتـاب، القـاهرة ١٩٨٥م)، صـ ٢١٨.

[2] – الفراهيدي (الخليل بن أحمد) (ت ١٧٥ هـ): العيـن،(تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السـامرائي، دار الحرية، بغداد ١٩٨٤م)، صـ ٢١٠.

[3] – القلم: آية ١

[4] – مجموعة من الباحثين: الأسطورة توثيق حضاري، صـ ١٥.

[5] – إبراهيم خليفة شعلان، ثنائية الألفـاظ في العربيـة أسبابهـا وأصولهـا (ط الأولى، الزقازيق ١٩٩٨م)، صـ ١٤.

حكاية أو قصة"[١]. فهل الكلمة حديثة لم يعثر لها على أصل في معاجم اللغة العربية لكي يقال عنها أنها يونانية!! ، رغم تسليمنا بأن حروفاً أعجمية سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية. ثم نزل القرآن فاختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال: إنها عربية فقد صدق، ومن قال: إنها أعجمية فقد صدق أيضاً.[٢]

ونجد في المحيط: "سطر تسطيراً، ألف وعلينا أتانا بالأساطير"[٣]، ومنها "السطر: الصف من الشئ كالكتاب والشجر والنخل وغيره"[٤] والأساطير: جمع أسطورة نحو أرجوحة وأراجيح، وأثفية وأثافي، وأحدوثة وأحاديث، وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾، أي شئ كتبوه كذباً ومينا فيما زعموا، نحو قوله تعالى: ﴿أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾، ومن هذا الباب أيضا يقال: "هو يُسطِّر ما لا أصل له، أي يؤلف وسطر يسطر إذا كتب".[٥]

فالكلمة عربية الأصل وجذرها من الفعل الثلاثي "سطر" وباعتبار أن لكل كلمة مشتقة (في العربية) جانبان: الأول مادتها، والثاني صيغتها أو وزنها، فمادة كلمة "أسطورة" تقوم على جذور يدل على المعنى العام الذي يجمع بين سائر المشتقات منه كما ذكرنا، أما وزنها فوجدناه كما سبق عند الأزهري على وزن "أفعولة" كأحدوثة وألعوبة وغيرها" وجمعها "أساطير" على وزن "أفاعيل" كأحاديث، وهذا ما يؤكد أن كلمة أسطورة هي أحد اشتقاقات الجذر الثلاثي (س ط ر) على وزن أفعولة، ما يعني أن الرأي المذكور سابقاً قلب الحقيقة تماماً، وهو من آثار فرض آراء الغربيين وتفسيراتهم على تراثنا وتاريخنا.

---

[١] – وديع بشور: الميثولوجيا السورية: أساطير آرام (ط الأولى، دار الحوار للنشر ، دمشق٢٠٠١م)، صـ ٩

[٢] – حسين مجيب المصري:الأسطورة بين العرب والفرس والترك دراسة مقارنة(الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩١م)،صـ ١٣

[٣] – الفيروز آبادي (أبو طاهر محمد بن يعقوب) (ت ٨١٧ هـ): القاموس المحيط(مطبعة السعادة بمصر، د.ت)، فصل السين باب الراء.

[٤] – الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني) (ت ١٢٠٥ هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت د.ت)، صـ ٣٠٢.

[٥] –الأزهري (أبو منصور محمد) (ت ٣٧٠ هـ): تهذيب اللغة (تحقيق: عبد السلام هارون، الدار القومية للطباعة، القاهرة ١٣٨٤ هـ)، ص ٣٢٦

إذن؛ الكلمة عربية في أصلها عبرت إلى شبه الجزيرة اليونانية مع حركة القدماء العرب وهجرتهم، هذه الكلمة كغيرها من الكلمات العربية شكلت جذور اللغة اليونانية التي نسب إليها واضعوا التاريخ في عصرنا الحديث الأصول الإغريقية للمصطلحات والألفاظ، وغضوا الطرف عن أصولها العربية، وهو ما أفقدهم في كثير من الأحيان الموضوعية.[١]

والحق أن الكلمة، حديثاً أصبحت تعني السطور أو الأخبار القديمة المدونة المسطورة، وهي بمثابة أول كتاب في التاريخ، وقد انتقلت الكلمة إلى اللغات الأجنبية، وتطورت لتصبح [هــ ـــ ستوريا]، والهاء حرف تعريف في اللهجة العربية الفينيقية، ثم صارت تعني فيما بعد بــ "التاريخ" في عدة لغات، مع قليل من الاختلافات، فعند اليونان إستورا، وتعني حكاية أو قصة كما تعني "تاريخ"، وفي الإنجليزية نجد كلمة history بمعنى تاريخ، وهي كلمة مشتقة من الكلمة العربية أسطورة، التي تعني بكتابة التاريخ وتدوينه.

على جانب آخر؛ نجد أن الأسطورة لا تعني بالضرورة كل ما كتب وسُطر، وليس كل المسطور في التاريخ هو من الأساطير، ولا يقال عن المسطور أنه "أسطورة" إلا باعتبارات معينة أهمها مادها العلمية ذات الطابع المقدس، وصياغتها في هيئة رمزية تضفي عليها طابعا سحرياً قادرا على تحفيز وقيادة المشاعر والاتجاهات، وعلينا البحث عن تلك الاعتبارات واستخلاصها من المدونات التي بين أيدينا فليست كلها نصوصاً مقدسة.[٢] ويعد ذلك مرتكزاً أساسياً في تناولنا للأساطير واعتمادنا عليها في تفسير التاريخ والحقائق، خاصة في ضوء الكميات الكبيرة جداً من المدونات القديمة التي تناولت موضوعات متعددة في شئون التاريخ والحياة المختلفة.

أما إشكالية التعامل العربي مع الأسطورة ومفهومها بكل ما تستثيره من تحيزات أو إخفاقات أو صناعة للقوالب الذهنية تثير مفارقة واضحة، خاصة لدى من يحاولون استلهام الإدراك الحقيقي لماهية الأسطورة، أو حتى لوضع تعريف لها من خلال الغرب. ولا يمكن القول: أن مفهوم الأسطورة اصطلاحاً ينتمي إلى الغرب أو الشرق على حد سواء؛ مرجع هذا إلى اختلاف مفهومها في تراث كل منهما، فهي ليست أبناً شرعياً أو غير شرعي للغرب بشكل مطلق كما أنها لم تكن في أولويات تطبيقات الدرس العربي.

[١] – مجموعة من الباحثين: اللسان العربي بُعد فطري وارتباط كوني(جمعية التجديد، البحرين ٢٠٠٥م) صـــ ١٧٠.

[٢] – مجموعة من الباحثين: الأسطورة توثيق حضاري، صـــ ٢٤

جاء في كتاب الميثولوجيا السورية، تعريف الأسطورة عن الباحث (ميرسيا إيلياد) : "أن الميتوس (mythos) وهي عند الإغريق تعني حكاية، والأسطورة تروي قصة مقدسة وحادثاً وقع في زمن البدء سواء أكان ما أتي إلى الوجود هو الكون أو جزء منه، ولا يروي الميتوس إلا ما حدث فعلاً ويفسر ما هو كائن وموجود فعلاً، لذلك فهو قصة حقيقية" ويضيف: "أن الأساطير تنبعث من حاجة دينية عميقة وتوق أخلاقي وانضباطات وتحديات تظهر في صيغة اجتماعية ومتطلبات عملية. وفي الحضارات القديمة البدائية تلعب الأساطير دوراً ضرورياً إذ أنها تعبر عن المعتقدات، أنها تشريع حقيقي للديانة البدائية وللحكمة العملية كما يقول مالينوفسكي".[١]

ويضيف (مالينوفسكي) أن الأسطورة إذا درست وهي حية فعالة، فإنها لا تكون تفسيراً يتطلبه إشباع الولع بالعلم، وإنما هي بعث روائي لحقيقة أزلية، يروى لإشباع رغبات دينية عميقة وحاجات أخلاقية ومتطلبات اجتماعية واحتياجات عملية".[٢]

ويرى (يوهيمروس): "أن الأسطورة هي التاريخ في صورة متنكرة" كما يضيف (ماكس موللر): "أنها مرض من أمراض اللغة".[٣]

أما "أرنست كاسيرر" فيؤكد:" أن الأسطورة لا تمثل قوة أساسية في تطور الحضارة الإنسانية، عبر الإنسان من خلال رموزها عن اهتماماته وتطلعاته، وقد وجد أنها تكون مع اللغة والفن والدين صوراً حضارية، تبدعها طاقة الإنسان الرمزية".[٤]

هذا، في حين أن البعض رأى أن "الأساطير علم قديم، وهو أقدم مصدر لجميع المعارف الإنسانية، لذا فإن الكلمة ترتبط دائما ببداية الناس"[٥]، لذا فهي "قصة تراثية تم قبولها باعتبارها

---

[١] – وديع بشور: الميثولوجيا السورية، صـ ١١

[٢] – Malinowski, Bronislaw, Magic. Science and Religion, and other Essays, Doubleday, Company, Inc, New York, 1954, P. 101.

[٣] – محمد عبد المعيد خان: الأساطير والخرافات عند العرب (الطبعة الثالثة، دار الحداثة، بيروت ١٩٨١م)، ص١٧.

[٤] –عبد الباسط سيدا، من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري، بلاد الرافدين تحديداً(الطبعة الأولى، دار الحصاد للنشر، سوريا، ١٩٩٥)، صـ ١٩.

[٥] –أحمد كمال زكي: الأساطير دراسة حضارية مقارنة(ط١، مكتبة الشباب، مصر، ١٩٧٥)، ص ٤٤.

قصة تاريخية تشتمل على معتقدات الناس فيما يتعلق بالخلق والآلهة والكون والحياة والموت".[١]، كما رآها البعض أنها : "روايات محرفة للأحداث التاريخية".[٢]

ويقدم فراس السواح في كتابه "الأسطورة والمعنى " مقدمة مهمة قبل طرح تعريف الأسطورة عيّن فيها المعايير الدقيقة التي تميز النص الأسطوري عن غيره من النصوص، وهو يرى أن تحديد المعايير يعتبر أمراً بعيد التحقق في ضوء الوضعية الراهنة للبحث الميثولوجي[٣]، حيث يخلص إلى عدة نقاط نجتزئ منها ما هو آت:-[٤]

١- من حيث الشكل، الأسطورة هي قصة بما تحويه من حبكة وعقدة، وشخصيات مصاغة في قالب شعري يساعد على سرعة تداولها وحفظها.

٢- يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة دون أن يعني ذلك الجمود أو التحجر، فالفكر الأسطوري قادر على خلق أساطير جديدة أو تجديد الأساطير نفسها أو تعديلها.

٣- تتميز موضوعات الأساطير بالجدية والشمولية، مثل مواضيع التكوين والأصول والموت والعالم الآخر ومعنى الحياة وسر الوجود.

٤- تبعث الأسطورة رسالة غير زمنية وغير مرتبطة بفترة ما، فهي تنطلق من وراء تقلبات الزمن الإنساني تجعلها أكثر صدقا وحقيقة عند المؤمن بها من أي مضامين تاريخية أو روائية أخرى.

٥- ترتبط الأساطير ارتباطا وثيقا بنظام ديني معين وتعمل على توضيح معتقداته.

٦- تتمتع الأساطير بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم، وليست نتائج خيال فردي، بل ظاهرة جمعية يخلقها الخيال المشترك للجماعة.

---

[١] - Montague, Ashley, Man: his first million yers. The New American Library, New York, 1957, P. 148.

[٢] - Money – Kyrle, Roger. Superstition and society Hogarth Press. London, 1939, P. 18.

[٣] -مجموعة من الباحثين، الأسطورة توثيق حضاري، صـ ٢٠

[٤] -فراس السواح:الأسطورة والمعنى : دراسات في الميثولوجيا والديانات الشرقية(ط٢، دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠١م) ، صـ ١٢ : ١٤.

وبهذه المقدمة يخلص فراس السواح إلى التعريف التالي للأساطير فيقول : "إن الأسطورة هي حكاية مقدسة، ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان".[١]

من خلال التعريفات والآراء السالفة الذكر، وبالتحليل الدقيق للأساطير باعتبارها جزءاً من التراث القديم المعبر عن نتاجات الأولين وأفكارهم وانعكاس تعليم القوى الربانية لهم، يمكن القول: بأن الأسطورة هي القصة المصفوفة زجلا أو شعراً أو نثراً؛ بحيث تحوي موضوعاً يتعلق بالقوى العلوية والخفية، وتعبر عن معارف الإنسان الأول وأخلاقه ومستويات علومه وتأملاته، وهي موضوعة في قالب يتضمن الحدث المراد تأريخه سواء كان من صنع الإنسان أو الطبيعة أو الرب، لأجل أن يتلى ويُتداول ويؤدي دوره في تثقيف العقول وتحريك المشاعر.

ويمكن من خلال دراسة الأساطير اكتشاف المستوى المعرفي والعقائدي والعلمي والأخلاقي والثقافي للشعوب، والتعرف على أطوار التاريخ الإنساني، لأنها تمثل انعكاسا لمعارف الإنسان الأول وعلومه وحكمته، وهي تعبير عن منطقة وأسلوبه في المعرفة والتفكير، وسبيله لتفسير الأشياء وتعليل أسباب حدوثها.[٢]

غير أنه ليس كل ما يكتبه الإنسان فيما يتعلق بحياته ونظامه ومعارفه بل وبتفاصيل سجلاته الحياتية اليومية وتندراته وفكاهاته وسجلات معاملاته التجارية، وأسماء المواليد، وعقود الزواج، وغيرها هي أساطير، بناءً على تعريف الأسطورة فهذه خارجة فليس كل مدون أسطورة، وهي وإن اشتركت مع غيرها من المدونات بل ومع الخرافات في صياغتها على هيئة نثرية أو شعرية عاطفية تكثر فيها المحسنات والزيادات إلا أن هذا التشابه ناتج من طبيعة ذلك الزمان ومستواه الثقافي والاجتماعي.[٣]

وصف البعض الأسطورة؛ أنها "العلم البدائي"، ورغم ذلك؛ فإنه ينبغي القول: إن المعرفة التاريخية قد ولدت من رحم الأسطورة.[٤]، بل أن التاريخ ــ عبر مراحله المختلفة ــ قد رافق الأسطورة طوال حقب زمنية عدة، ولا عجب ــ بعدئذ ــ أن أصبح التاريخ والأسطورة شيئاً

---

[١] -فراس السواح: الأسطورة والمعنى، صـــ ١٤

[٢] -مجموعة من الباحثين، الأسطورة توثيق حضاري، صـــ ٢٧

[٣] - المرجع نفسه، ص ٢٦.

[٤] - قاسم عبده قاسم: تطور مهج البحث في الدراسات التاريخية، صـــ ٩٦

واحداً خلال أحد أطوار حياتهما، قبل أن يحدث ذلك الانفصال غير التام بينهما ــ فيما بعد ــ إذ أن التاريخ بعد دخول أجواء المرحلة الواقعية المقترنة بنضجه المنهجي أيضاً، يرقد إلى أجواء الأساطير والحكايات الشعبية، في رحلة البحث المستميتة والصعبة عن العناصر المنسية والقلقة لمسيرته التي تفصح عنها الإشارات والإيحاءات والرموز والعلامات، التي كان قد اختزنها "اللاشعور الجمعي" لدى الجماعات بعامة، والمؤرخين بخاصة، ملتمسين انعكاساتها على الأحداث التاريخية، وتقيم القناعة بوجود "اللحمة" بين الأسطورة والتاريخ.

من هنا، يبدو منطقياً أن نحاول ــ بدايةً ــ أن نتعرف على المعنى اللغوي لكلمة "تاريخ" خاصة بعد أن شاع لدى الكثيرين، اقتران مصطلح التاريخ بالأحداث الماضية التي قام بها الإنسان؛ غير أن هذا المفهوم وإن شاع لا يعد بالضرورة حجة علينا؛ وعليه فمن الواجب البحث عن حقيقة هذا المصطلح.

في سياق تتبع التعاريف اللغوية لكلمة "تاريخ"، نجد أن تعريف الوقت هو المعنى الغالب لدى معاجمنا اللغوية.[١]، حيث أشارت إلى أن التاريخ : "تعريف الوقت، والتواريخ مثله، أرخ الكتاب ليوم كذا:.[٢]، أما عن أصل الكلمة فقد اختلف فيه؛ فقد قيل أنه عربي، وقيل أنه غير ذلك.[٣]، والراجح أن كلمة (تاريخ) لفظ عربي قديم، وأنها لفظ مشترك في اللغات السامية.[٤]

جدير بالذكر، أن لفظة كلمة "تاريخ" قد استعملت في الاصطلاح على نحوين اثنين، فتارة تستعمل ويراد بها مضمون ومحتوى المادة التاريخية، وتارة أخرى تستعمل، ويراد بها طريقة التعامل مع هذه المادة، وهذه الازدواجية في الاستعمال أدت إلى خلط في فهم معنى اللفظ، إذ يوجد تناقض لفظي في (موضوع التاريخ) كما هو الملاحظ في كل من اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية،

---

[١] –ابن منظور: لسان العرب (دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م) ج١ ، ص ٤٤ ؛ الزبيدي: تــاج العــروس (دار صادر، بيروت، د.ت)، ج٢، صـــ٤؛ الرازي: مختار الصحاح (مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٦م)، صـــ ٥.

[٢] –لسان العرب: مادة (أ ر خ).

[٣] –قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، صـــ ١٧

[٤] –حسين نصار: نشأة التدوين التاريخي عند العرب(مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت)، صـــ ٣؛ نــشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي(النهضة العربية، ط ثانية، القاهرة ١٩٩٦م)، صـــ ١٧٠.

مفهومان مختلفان عن بعضهما يستخدمان للدلالة على كلمة واحدة، أما في التاريخ فالمفهومان (موضوع التاريخ) و (علم التاريخ) اشتركا بلفظة واحدة وهي (التاريخ) لبيان مدلولاتهما.[١]

يشير قاسم عبده قاسم: أن هناك تفريق شائع :" بين كلمة التاريخ كتعبير دال على مسيرة الإنسان الحضارية على مسطح كوكب الأرض منذ الأزل، وعبارة تدوين التاريخ كتعبير دال عن العملية الفكرية الإنشائية التي تحاول إعادة تسجيل وبناء وتفسير مسيرة الإنسان على كوكبه".[٢]

بيد أن عبارة تدوين التاريخ لا تعبر بالضرورة عن الطريقة العلمية للتعامل مع المادة التاريخية، حتى وإن قصد بها واضعوا المصطلح ذلك. فهذه العبارة توحي بالجمع والتقييد دون التحليل والتفسير، وهناك مصطلح آخر فرق بين المفهومين وهو : "تفسير التاريخ" ومصطلح آخر، هو: فلسفة التاريخ، ويرى البعض أنه لا يوجد أي اعتراض على مصطلح "فلسفة التاريخ" لأنها فلسفة في حقل معرفي علمي مفيد، ويمكن اعتباره مصطلحاً مكافئاً لمصطلح "تفسير التاريخ".[٣]

وهكذا، يتضح لنا أنه حينما نتحدث عن مفهوم التاريخ فإننا نريد به معرفة المادة التي يمكن أن يطلق عليها مصطلح تاريخ، والتي نجد أنفسنا في النهاية، قد خرجنا دون تحديد "جامع مانع" للتاريخ، بسبب طبيعة التاريخ نفسه من ناحية، وبسبب عجز اللغة في التفريق الحاسم بين الاستخدامات المختلفة لمصطلح التاريخ من ناحية أخرى، ولكن يمكن القول: "أن ميدان علم التاريخ ومجال اهتمامه هو مسيرة البشر الحضارية في الماضي".[٤]

وفيما يلي بعض الاطلاقات الاصطلاحية للتاريخ، ونعتمد في ذلك على تعريفين لعالمين؛ أحدهما حاول أن يضع تعريفاً جامعاً مانعاً للتاريخ وقواعد عامة، أو قوانين تفسير الحركة التاريخية، ومنهجاً

---

[١] –على شريعتي: الإنسان والتاريخ(ترجمة: خليل علي، ط .أولى، دار الصحف للنشر، طهران، د.ت)، صـ ١٠

[٢] –قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، صـ ٢٧.

[٣] –عبد الحليم عويس: تفسير التاريخ علم إسلامي(دار الصحوة للنشر، د.ط، د ت)، صـ ١٥؛ حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ وماهيته وموضوعاته ومذاهبه ومدارسه(ط أولى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م)، ص ٣٦ ، ص ٣٨.

[٤] –قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، صـ ٢٨.

لكتابة التاريخ ودراسته وتفسيره، على حين حاول الثاني أن يكتب تاريخاً للتاريخ.[١] والأول هو (ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون)، أما الثاني فهو (شمس الدين عبد الرحمن السخاوي) وباعتبارهما من أوائل المتحدثين عن التاريخ والمهتمين به.

يقول السخاوي: "... وفي الاصطلاح التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة ... وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية ... والحاصل: أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم..."[٢]

نلحظ في التعريف أن السخاوي يربط التعريف الاصطلاحي بالتعريف اللغوي ربطا تاماً، ويتبين ذلك في قوله : "فمن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم"، ويبدو أن نظرة السخاوي للتاريخ توحي "بأن وظيفة التاريخ قاصرة على تحديد موقع الحادثة التاريخي زماناً ومكاناً؛ على الرغم من أنه يشي بشمولية علم التاريخ."[٣]

أما ابن خلدون فيقرر أن التاريخ : " ... في ظاهره لا يزيد على أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتُطرَفُ بها الأندية إذا غصها الاحتفال وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال. وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق.".[٤]

---

[١] -نفسه : صـ١٩

[٢] -السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) (ت ٩٠٢ هـ): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ(دراسة وتحقيق . محمد الخشت، الطبعة الأولى. مكتبة ابن سينا، القاهرة ١٩٩٥م)، صـ. صـ ٢٠-٢١.

[٣] -قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ، صـ ٢١.

[٤] -ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد)، مقدمة ابن خلدون (الجزء الأول، تحقيق: علي عبد الواحد، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م)، صـ ٢٨٢.

ويتضح لنا أن ابن خلدون قد فرق بين مفهوم التاريخ كمادة ومضمون، وبين التاريخ كطريقة تعامل مع تلك المادة، وقد استعمل في ذلك لفظي "في ظاهره.. في باطنه". كما يبدو أنه حصر المادة التاريخية في الأحداث الإنسانية الماضية، وعموما سنجد شبه توافق عام بين المهتمين بدراسة التاريخ على أن التاريخ هو معرض الأحداث الماضية وأن الماضي الإنساني وتطور المسيرة البشرية هو موضوع التاريخ الذي يهتم بالإنسان والزمان معاً.[١]، ويلهث وراء الإنسان في محاولة لأن يَفهمه وأن يُفهمه حقيقة ذاته، عندئذ تم اللجوء إلى الأسطورة في بدايات رحلة تفسير نشأة الكون،وبدايات الإنسان وذاته وعلاقته بالكائنات، والظواهر الأخرى في الكون، وحاولت الأسطورة هنا أن تفسر كل غوامض الكون للإنسان في بداية رحلة الوجود الإنساني. بيد أن الأسطورة عجزت عن توضيح البعد الزمني والبعد المكاني في تجربة الإنسان التاريخية.[٢]

وبرغم عجز علماء الميثولوجيا عن فهم أو تكوين الصورة الكاملة التي أراد الأولون تسجيلها والأخذ بالاعتبار عاملي الزمان والمكان، فمع كل ما تحمله الأسطورة من النزعات الخيالية إلا أن ذلك لا يعني أن ليس للأسطورة قيمة تاريخية، فهناك صلة كبيرة بين الأسطورة والتاريخ تحتم علينا ضرورة الاستفادة من المادة الأسطورية والاعتماد عليها كمصدر فريد من مصادر التاريخ الإنساني الواحد المتسلسل في فصوله ومراحله، فالأسطورة هي من أهم وصلات الاتصال بيننا وبين الإنسان الأول لكونها أحد الوسائل التي ابتكرها للتعبير عن فكره وعن أنشطته المختلفة وعلمه وعقيدته وإيمانه وميوله.[٣]

أما ما ذكره البعض من تقسيم العهد الإنساني إلى عهد أسطوري وعهد تاريخي فما هو إلا محاولة لاعتبار الأسطورة فصلاً خارجاً عن التاريخ الإنساني الحقيقي، من خلال اتهامها بأنها نتاج صنف إنساني غير مكتمل العقل. بخلاف التاريخ الذي هو سجل للإنسان العاقل المنتج حيث جعلوا الكتابة الحد الفاصل بين العهدين، مع أن الأسطورة ما هي إلا طريقة لكتابة وتوثيق الأحداث التي

---

[١] –قاسم عبده قاسم: في تطور الفكر التاريخي(ط. أولى، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٤م)، صـ ٢١.

[٢] –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور(طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م)، صـ ١٦، ١٧.

[٣] –محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي، صـ ٢٤؛ مجموعة من الباحثين: الأسطورة توثيق حضاري، صـ ١٠٨.

مر بها الإنسان في مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني، وقد استخدمت الكتابة في شكلها المبدئي كالتصويرية أو المقطعية أو المسمارية[١]، فالتاريخ أكثر شمولية من الأسطورة وهي ليست إلا جزءاً منه.

ورجوعاً إلى تعريف ابن خلدون للتاريخ في قوله : "إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتُطرَفُ بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال. وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق".[٢] نجد أن الأساطير لا تخرج عن إطار هذا التعريف، فالتاريخ المكتوب هو انعكاس للفكر وتسجيل للأحداث تماماً كما الأسطورة التي عبرت عن الفكر والحدث.

فالتشابه بين وظيفة وطبيعة التاريخ والأسطورة أدى إلى خلق علاقة ثنائية بين الطرفين فبدا الأمر وكأنهما وجهان لعملة واحدة، ومرجع التشابه إلى عدة نواح؛ من الناحية الوظيفية: فإن كلاً من الأسطورة والتاريخ يهتمان بتسجيل النشاط الإنساني وتدوين النشاط الإلهي، فالأساطير القديمة ما هي إلا قصص عن الآلهة (حسب تعبير البعض) والإنسان، والتاريخ أيضا ما هو إلا حكاية عن الإنسان تضمنت في بعض فصولها حديثا عن التاريخ الإلهي أو التاريخ المقدس الذي عني بقصص الوحي والأنبياء والقديسين، ومن الناحية الطبيعية: فإن طبيعة كل من التاريخ والأسطورة نستمده من ذلك القطع بربط التاريخ بالواقع والأسطورة بالخيال، والحقيقة أن التاريخ ليس كله وصفا واقعياً للحقيقة أو للحادثة كما أن الأسطورة ليست كلها خيالاً، ولكن هناك علاقة ثنائية بين الأسطورة والتاريخ تسمح ببعض الخيال في الوصف التاريخي، كما تسمح ببعض الواقعية في

---

[١] – الكتابة التصويرية: هي شكل من أشكال الكتابة البدائية التي تصور الفكرة لا الصوت يتم فيهـا نقـش الصور والرسومات للدلالة على المعنى، والكتابة المقطعية: هي الكتابة التي تصنع رموزاً وعلامات لمقـاطع كـثيرة يجري الاتفاق على معانيها فيما بين واضعيها، وتعدان المرحلتان الأوليان من مراحل اختـراع الكتابـة مـا قبـل الأبجدية، أما الكتابة المسمارية فهي طريقة للكتابة عن طريق النقش على ألواح الطين باسـتخدام مـسمار خـاص استخدم في كتابة اللغة الأكدية والبابلية؛ انظر : هاري إلمر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية (ترجمـة : محمـد عبـد الرحمن، الجزء الأول، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م)، ص: ص ٢٥-٢٨.

[٢] –ابن خلدون: المقدمة، صـ ٢٨٢.

الوصف الأسطوري.[١]، وعلى هذا فالتاريخ كما يعتقد البعض هو وليد الفكر الأسطوري، فمطالع التاريخ موصولة بأواخر عصور الأسطورة.[٢]، ومن يبحث في الأساطير عن التاريخ سوف يجد إلى جانبه خيالاً كثيراً، كما أن من يبحث فيها عن الخيال سيجد تاريخاً كثيراً.[٣] يصدق هذا على التراث الأسطوري للمنطقة العربية كما يصدق على الإلياذة والأوديسة وغيرهما من التراث الإغريقي القديم الذي من شأنه أن يجعل من هذا التراث الأسطوري يبدو بديلاً هزيلاً عن التاريخ وعن الوصف الانثروبولوجي للحياة الاجتماعية والثقافية ويقدم بعض المفاتيح الأساسية لفهم المجتمع والثقافة.[٤]

وهكذا، فالأسطورة والتاريخ ينشآن عن التوق إلى معرفة أصل الحاضر، ولكنهما يفترقان في القيمة التي نسبغها على ذلك الأصل؛ فالأسطورة تنظر إلى التاريخ باعتباره تجلياً للمشيئة الإلهية، أما التاريخ فينظر إلى موضوعه باعتباره تجلياً للإرادة الإنسانية في جدليتها مع قوانين فاعلة في حياة الإنسان الاجتماعية[٥]، أضف لذلك؛ أن الأسطورة كانت هي الوعاء الذي ضم خلاصة أفكار الإنسان، ولهذا نجد أن فترات تاريخية طويلة لا نجد مصادر لتاريخها سوى الأساطير، والتاريخ باعتباره علماً،وسيلة حديثة نسبياً للتعبير عن نشاط الإنسان في الكون عبر الزمان وقد حلت (القراءة) الموضوعية للتاريخ ـــ من خلال مناهج البحث التاريخي ـــ محل القراءة الأسطورية، فلقد حفظت الأساطير وقائع وأحداث المدن القديمة كمدينة أور وبابل،وطيبا[٦] وذكرت تفاصيل كثيرة

---

[١] -محمد خليفة حسن، الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي، صـــ ٢٦-٢٧.

[٢] -محمد خليفة حسن، المرجع السابق؛ صـــ ٢٥؛ كارم محمود عزيز: الأسطورة فجـــر الإبـــداع الإنـــساني (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٦٦، القاهرة ٢٠٠٢م)، صـــ ١٥٠.

[٣] -قاسم عبده قاسم: تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية (مجلة عالم الفكر، المجلد العـــشرون، العـــدد الأول، الكويت ١٩٨٩م)، ص ١٩٧.

[٤] -لطفي عبد الوهاب: "عالم هوميروس(مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، الكويت ١٩٨١م)، صـــ ١٣-١٥؛ أحمد أبو زيد:الملاحم كتاريخ وثقافة(مجلة عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الأول، الكويت ١٩٨٥م)، صـــ ١٥.

[٥] -فراس السواح: الأسطورة والمعنى، صـــ ٩١.

[٦] – أور عاصمة السومريين ، وبابل عاصمة البابليين ، وطيبا هي ثيبا بلدة في اليونان بناها قدموس الـــسوري حينما انتقل إلى اليونان . انظر/ الأسطورة توثيق حضاري ، ص١٢٥.

عن حضارات الإنسان الأوّل كالحضارة السومرية والبابلية وحضارة وادي النيل، وروت حكايات عن ملوك أثبتت المكتشفات الأثرية أنهم صنعوا تاريخاً حافلاً كجلجامش(ملك سومري)، وسرجون(ملك أكادي)، وإيزيس وأوزوريس. وعلى ذلك يمكن القول: إنّ مادة الأساطير هو الحدث التاريخي.[١]

وبالرغم من ذلك، فالاختلاف بينهما سرعان ما يبرز، وذلك حينما ننتقل إلى دراسة القوى الفاعلة التي كانت تسهم في تلك الأحداث الماضية التي تستحوذ على اهتمامهما المشترك.

فالتاريخ يتعامل مع البشر لأن مادة التاريخ نفسه هي الإنسان[٢]، بينما مادة الأسطورة هي من الآلهة، وأنصاف الآلهة من البشر[٣]، بيد أننا لا ينبغي أن ننسى أن كثيراً من آلهة العالم القديم جاءت أيضا من أصول بشرية ؛ بمعنى أنهم إما كانوا ملوكا أو أبطالاً أو أشخاصا بارزين وحولتهم شعوبهم إلى آلهة لسبب أو لآخر، كما أن فكرة إضفاء الإلوهية على الملوك، كانت عملية ذات أبعاد سياسية أحياناً يقصد بها تبرير السلطة المطلقة، ومثلها كانت مشكلة قدسية الحاكم ذات تأثير على القراءة الأسطورية للتاريخ، فإنها كانت ذات أثر عميق على فكرة التاريخ لدى شعوب العالم القديم[٤]، وربما كان (أليكسي لوسيف) يشير إلى أمر من هذا القبيل عندما قال إن الأسطورة: "تاريخ شخص معطي في كلمات".[٥]

ثمة تناقض يراه البعض بين الأسطورة والتاريخ؛ وهو أن الأحداث التاريخية تتميز بواقعيتها، أما أحداث الأسطورة فهي عرضة للتضخيم والغلو[٦]، إلا أن هذا الرأي لا يبدو منسجماً مع حقائق

---

[١] – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكور، صــ ٣٢.

[٢] –حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، صــ ٥٣.

[٣] –عبد الباسط سيدا: من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي، صــ ٢١.

[٤] –قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص ٣٣.

[٥] –أليكسي لوسيف: فلسفة الأسطورة(ترجمة : منذر حلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية ٢٠٠٠م)، صــ ٢٢٠

[٦] –عبد الباسط سيدا، المرجع السابق، ص ٢١

الأمور فالقراءة الأسطورية تدور بالفعل حول "واقع تاريخي"، كما أن التاريخ في قراءته للأحداث لا يخلو من الخيال[١]، فالأحداث التي تناولتها الأسطورة تحمل "نواة تاريخية" ولكن نقص المعلومات المدونة، والبعد الزماني، جعل هذه النواة تختفي وراء تراكمات خيالية ورمزية هي في حقيقة أمرها محاولات للشرح والتفسير والفهم، ومن ناحية أخرى، فإن الدراسة التاريخية بمعناها الحديث، لا تخلو من الخيال، كما أن الأساطير قد سربت بعض تفاصيلها إلى الكتابات التاريخية[٢]، وبهذا؛ تتناغم متناقضات الأسطورة والتاريخ مثل امتزاج النور بالظلمة في الغسق، أو امتزاج الخيال بالعقل، بحيث ينصهر التاريخ مع الأسطورة، فيتبادلان الأماكن لنجد في الأسطورة تاريخاً، والتاريخ أسطورة، حيث ينفجر الخيال ساحقا المنطق العقلي، خالقاً لنفسه منطقاً مغايراً، يتجاوز فيه العقل نفسه، لأنه هنا يتجاوز حدوده الثابتة.[٣]

يتبين لنا؛ أن قسمة التاريخ إلى عصر أسطوري وعصر تاريخي قسمة تعسفية خضعت لعوامل خارجية لا علاقة لها بالتاريخ الحقيقي للإنسانية، فالتاريخ الإنساني يمثل وحدة واحدة خاصة فيما يتعلق بالفكر، هذا مع الاحتفاظ بالخصوصية التاريخية لكل شعب من الشعوب، ويقرر البعض: "أن هناك بلا شك خط فكري عام يربط تاريخ الشعب الواحد، على الرغم من اختلاف عصور هذا التاريخ، واختلاف الظروف الفكرية لكل عصر من هذه العصور".[٤] وعن الفصل إلى عصر أسطوري وعصر تاريخي يقول أحد الباحثين: "من الملاحظ أن الفصل هنا في الحقيقة فصل في وسيلة التعبير، وليس فصلاً حقيقياً لعصرين مستقلين استقلالاً كلياً، أو فصلاً لعصرين مختلفين اختلافاً جوهرياً في التفكير كما يبدو من الاستخدام العلمي الحديث لهذه المصطلحات عند المؤرخين وعلماء الحضارات في الوقت الحالي".[٥] لذلك فإن قسمة التاريخ إلى عصرين أسطوري وتاريخي أدت إلى إحداث مشكلة في النظر إلى التاريخ الإنساني كحلقة واحدة متصلة، تبدأ فصولها الأولى بآدم الذي مر بعملية تخليق على يد القوى الربانية ليكون مهيأ للخلافة على هذه الأرض، ثم لتمتد

---

[١] -محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ، صـــ ٢٧

[٢] -قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، صـــ ٣٤

[٣] -مختار أبو غالي: الأسطورة المحورية في الشعر العربي المعاصر(مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م)، صـــ ٣١.

[٤] -محمد خليفة حسن، الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي، صـــ ٢٨.

[٥] - نفسه: صـــ ٢٨

فصولها بعد ذلك فصلا فصلاً لتحقيق الهدف الأسمى الذي ميز الإنسان عن سواه من المخلوقات آلا وهو حمل أمانة خلافة الله في الأرض، فلا بد لهذه الفصول من أن تمر في خط تطور تصاعدي، يكتسب الإنسان فيها العلوم والمعارف عن طريق الملائكة الموكلين بهذا الإنسان وعن طريق الأنبياء والمرسلين المعلمين، إضافة إلى جد الإنسان نفسه وسعيه الدأوب نحو الارتقاء بحياته وتحسين سبل عيشه على مر التاريخ، فمجموع ذلك كله أدى إلى حصول التطور الذي أوصل الإنسانية على ما هي عليه اليوم.[١]

مجمل القول : إن "القراءة الأسطورية للتاريخ" كانت المرحلة الأولى في تاريخ التاريخ؛ أو في تاريخ قراءة مسيرة البشر في الكون عبر الزمان، وهذه القراءة كانت النواة التي نبتت فيها شجرة المعرفة التاريخية بكل تجلياتها عبر العصور، وقد تميزت بكونها "نواة تاريخية" على الرغم من كل الرموز والدلالات والصياغات الخيالية التي أثقلت هذه "القراءة الأسطورية" للتاريخ.[٢] ومن ناحية أخرى فإن "القراءة الشعبية " للتاريخ، أيضاً، ارتكزت على المفاهيم الرمزية التعويضية التي كانت أساساً للقراءة الأسطورية وبيد أن الفارق الأساسي بينهما تمثل ـــ كما سبق القول ـــ في أن الأساطير اهتمت بأنشطة البشر والآلهة على حين ركزت القراءة الشعبية على دور عامة الناس في صنع التاريخ.

من هنا فإن علينا أن ننظر للتاريخ نظرة شمولية وليس هناك أي مبرر لتقسيم التاريخ الإنساني إلى عصرين أسطوري وتاريخي، فالأسطورة كتاب التاريخ الأول ما هي إلا أحد نتاج العصر القديم، وهي وثائق مدونة استمدت مادتها وشخصياتها وأزمنتها وأمكنتها من التاريخ الذي ولدت فيه، كما أنها فوق ذلك كله حكاية مقدسة يؤمن أهل الثقافة التي أنتجتها بصحة وصدق أحداثها، وهي سجل لما حدث في الماضي ولها دور أساسي في البناء المعرفي والعلمي والتطور الحضاري للإنسانية، أي أنها أحد أسباب ما وصلنا إليه اليوم من تطور وعلوم، إنها إذن مصدر من مصادر التاريخ وهي جديرة بالدراسة والاهتمام، ويمكن الاعتماد عليها للحصول على معلومات تاريخية هامة. إلا أن الأسطورة هنا ليست رديفاً للتاريخ بمسلماته المختلفة وجيوبه السرية ، ولكنها بحث مستميت

---

[١] –الأسطورة توثيق حضاري، صـــ ١٢٤

[٢] –قاسم عبده قاسم : بين التاريخ والفولكلور، صـــ ٣٤

وصعب في العناصر المتسية والقلقة؛ عمل حفري منتهاه النهائي الأسطورة ذاتها بأخيوليتها وإيهامياتها وليس مطابقة التاريخ.

فالتاريخ ينسج مع الأسطورة علاقات كبيرة مرئية وغير مرئية، والغالب على الظن أنه ليس هناك تاريخ صافياً وعلمياً بالمعنى الموضوعي وبشكل مطلق، فالتاريخ كثيراً ما يمحو فواصله بين الحقيقة الموضوعية، والحقيقة المتخيلة، وقد يحتاج في بحثه المستميت عن الحقيقة إلى ترميمات لا يقربها منه إلا الأسطورة التي ترتكز على القرابة مع التاريخ.

الفصل الثاني

الأساطير والحكايات المرتبطة بأصل اسم مصر

وأصول المصريين أنفسهم

"..السبب في تسمية مصر بأم الدنيا؛ أنها تحتوي على جميع أجناس الخلق، وأنواع الأمم، التي يبلغ عددها اثنين وسبعين أمة تتكلم بمائة وأربعين لغة. كما تشمل على أقوام من التابعين للمذاهب الأربعة، فبفضل مصر هذه يعيش كل هؤلاء الخلائق، فضلاً من الله ومنة..وما ذلك إلا أن كثرة أهالي مصر، وسكانها من الفلاحين. أعني أنهم من أهل الكد والعمل الشاق، ومعاناة الأهوال في سبيل إسعاد الغير. إذ إن هؤلاء المساكين بعملهم الدائب هذا يجعلون مصر في بحبوحة من الخيرات، والخصب وعلى جانب عظيم من النعم، ورغد العيش الذي يتمتع به الناس والحيوان. فلأجل هذا سميت مصر بحق (أم الدنيا) كالأم الرءوم تعنى بجميع أركان الدنيا ، وتحدب عليها وتبذل لها من متاعها وسلعها ، وهكذا تكون الأقاليم السبعة من الدنيا عالة عليها .."

"أولياچلبي"

"سياحتنامه مصر/٦٠٧"

بُهر العرب الفاتحون بمصر وحضارتها، مثلما بُهِرَ بها الغزاة السابقون من فرس وآشوريين ويونان ورومان، ويعكس ما يكتبه المؤرخون العرب والمصريون والمسلمون منذ كتاب ابن عبد الحكم "فتوح مصر وأخبارها" ــ وهو أول كتاب يصلنا كاملاً عن فتح العرب لمصر ــ، وحتى ما كتبه الجبرتي في كتابه الشهير "عجائب الآثار، في التراجم والأخبار"؛ يعكس هذا الانبهار والإعجاب بمصر أرضاً وعمراناً وآثاراً وبشراً ونيلاً، ولم يجد هؤلاء المؤرخون والكتاب تفسيراً لعظمة الحضارة المصرية المبهرة غير الأساطير القديمة التي نقلوها من الكتاب المقدس أو سمعوها من سكان مصر، وهي الأساطير التي تفسر نشأة الحضارات القديمة بعد طوفان نوح.

وهكذا؛ ضم تراثنا العربي الذي وصلنا من عصور التألق الفكري في رحاب الحضارة الإسلامية؛ الكثير من الموروث الشعبي بين صفحات الكتب التاريخية والأدبية فضلاً عن الموسوعات ودوائر

المعارف.[1] ساعد على ذلك؛ أن المؤرخين ــ حتى كبارهم ــ ظلوا رواة أساطير في نفس الوقت، وأكبر مثال لذلك؛ أبوالحسن المسعودي فلا شك في أنه كان مؤرخاً جليلاً ولكن كتبه حافلة بالأقاصيص والأساطير[2]، والملاحظ أن تلك التفاصيل الأسطورية قد دخلت خاصة في أخبار الأمم الغابرة أو الأمم البعيدة الأوطان[3]، التي لا يتأتى للمؤرخ العربي التحقق من أخبارها، مثل؛ كثير من الأمم في العصور الماضية[4]، وكذلك الأمر مع تاريخ مصر : "فكل ما يتعلق معرفته منذ بدء الخلق وأحوال القرون السالفة فإنه مختلط بتزويرات وأساطير لبعد العهد، وعجز المعتني به عن حفظه"[5]، على حد قول المؤرخ المقريزي، وهو ما دفع "أبو عثمان النابلسي أن يكتب كتاباً عن تاريخ الفيوم قال عنه : "نزهته عن أكاذيب الأقاويل الماضية وتحريف المؤرخين بوصف الأمم الخالية وأخبر عنه خبراً يشهد العقل بصحته وتميل النفس الفاضلة إلى موافقته".[6]

كانت مصر بتاريخها القديم في طليعة هذه الأمم التي لم تكن أسرار تاريخها قد تكشفت بعد، لذلك لعبت الأساطير والخرافات والحكايات الشعبية دوراً لا بأس به في محاولة كشف غوامض آثار مصر وعجائبها وأصولها ومدنها وحياتها وفضائلها، فضلاً عن قيام هؤلاء المؤرخين بسرد

---

[1] –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٤٥

[2] –حسين مؤنس : الحضــارة دراسة في أصول وعوامل قيامها، وتطورها (ط. الثانية، سلسلة عــالم المعرفــة، العدد ٢٣٧، الكويت ١٩٩٨م)، صـــ ٦٩.

[3] – أربعة عوامل أساسية كانت وراء تغلغل الفكر الأسطوري في الوعي العربي– بحسب رأي أحد البــاحثين– وهى ؛ الانفتاح العربي على الفكر الأسطوري القديم بعد الفتوحات الإسلامية والتعرف على فكر معظم الــشعوب القديمة التي تم دخولها الإسلام ،حيث احتوى الفكر القديم لهذه الشعوب قبــل إســلامها علــى معظــم التــراث الأسطوري في العالم القديم ، الاعتماد على الإسرائيليات في التفسير نشأة الفرق والمذاهب وابتداع الأساطير لتثبت به اعتقاداتها أو فيما ادعاه مؤسسوها من قوى خارقة للعادة كالمعجزات والكرامات والشطحات ، أو من ادعــاء للنبوة والإلوهية أضف لذلك تطور الآداب الشعبية وانتشار الأساطير البطولية كتأكيد على صفتها القومية .للمزيد انظر،محمد خليفة حسن :رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحــضارته(ط .أولى، دار غريــب، القــاهرة ١٩٩٨م)، ص ٧٠–٨٠.

[4] – حسين مؤنس:المرجع السابق، صـــ ٧١.

[5] –المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي عبد القادر)،(ت ٨٤٥ هـــ): الخطط المقريزية، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار(الجزء الأول، مطبعة النيل، القاهرة ١٣٢٥هـــ)، صـــ ٢٥٠

[6] –النابلسي (أبو عثمان النابلسي الصفدي الشافعي)،(ت ٦٦٠ هـــ): تاريخ الفيوم وبلاده،(الطبعة الأولى، المطبعة الأهلية، القاهرة ١٨٩٨م)، صـــ ٣

حكايات عديدة عن مصر، مصدرها الخيال الشعبي الذي كان متداولاً بين الناس، فالعديد منهم قد دخلوا إلى صميم التاريخ العربي لمصر من بوابات الأسطورة ووقف رهط كثير منهم أمام تاريخها، مشدوداً مشدوها، خاصة بعد أن فتحها العرب في ظروف ــ بدت في الكتابات التاريخية ــ كالأساطير".[١] عضد من أثر ذلك؛ غموض أرض مصر نفسها ورصيدها الأسطوري في مخيلة الناس، وقد أجمل ابن الوردي هذا المعنى في سياق وصفه لمصر بقوله:"هو إقليم العجائب ومعدن الغرائب وأهله كانوا أهل ملك عظيم وعز قديم".[٢]

كل هذا ربما يساعدنا على استخلاص وإبراز الصورة التي رسمتها لها تلك المادة، والتي تمثل الوجه الآخر المكمل لذلك الوجه الذي أبرزته الأبحاث التي اعتمدت على المادة التاريخية والأدبية التقليدية، الأمر الذي يساعد على تكوين صورة واضحة الأبعاد لمصر: الأرض، الإنسان، والحضارة، كما بدت في طور من أطوار الكتابات التاريخية، وهو أمر على درجة من الأهمية؛ لأنه يمكن من التعرف على النظرة التي سادت في ذلك الطور إلى مصر ما قبل الإسلام، وما خلفته من مظاهر الحضارة، وعلى الآلية التي جرى بها التعامل والتواصل مع ذلك الموروث الشعبي الثري.

ولقد كان لهذه الأرض التي بدأت تسميتها في أحداث أسطورية غائرة في أعماق الزمن أهمية كبيرة في عصور مختلفة مما يفسر هيمنة اسمها منذ القدم على جميع أقاليم ومدن وادي النيل حتى غدا اسمها اسماً للوادي ويعد القرآن الكريم أقدم المصادر الإسلامية التي وردت فيها كلمة "مصر" أسماً علماً لهذه الأرض التي : "لها حد يأخذ من بحر الروم من الإسكندرية ــ وزعم قوم من برقة في البر ــ حتى ينتهي إلى ظهر الواحات، ويمتد إلى بلد النوبة، ثم يعطف على حدود النوبة في حد أسوان ــ على حد أرض السبخة "في قبلي أسوان ــ حتى ينتهي إلى بحر القلزم، ثم يمتد من بحر القلزم، ويجاوز القلزم إلى طور سينا ويعطف على تية بني إسرائيل ماراً إلى بحر الروم في الجفار خلف العريش ورفح، ويرجع إلى الساحل ماراً على بحر الروم إلى الإسكندرية ويتصل بالحد الذي قدم ذكره في نواحي برقة".[٣]

---

[١] -محمد عبد الله عنان: مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري(مكتبة الأسرة، القــاهرة ١٩٩٩م)، ص ١١

[٢] -ابن الوردي(سراج الدين أبي حفص عمر): خريدة العجائب وفريدة الغرائب (الطبعة الأخيرة، مكتبة عبد السلام شقرون، القاهرة، د.ت)، صــ ٣٢.

[٣] -المقريزي: الخطط، ج١، صــ ١٥

وعن ذكر مصر في القرآن الكريم يقول ابن زولاق: "فأول ما ابتدئ من ذلك؛ أن الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ذكر مصر في ثمانية وعشرين موضعاً في القرآن"[١] ويعلق الإسحاقي المنوفي بقوله : "أما مصر حرسها الله تعالى فإن الله ــ عز وجل ــ ذكرها في كتابه العزيز؛ في ثمانية وعشرين موضعا منها ما هو صريح ومنها ما دلت عليه القرائن وكتب التفسير".[٢]

وحفلت المصادر التاريخية بالقصص والأساطير التي دارت حول أصل هذا الاسم، وكان الدافع وراء تلك الأساطير؛ هو أن العديد من المؤرخين كانت تستهويهم منهجية الحبكة الكاملة، كولع بالحكايات التي اشتهر بها العرب قديماً، والتي لاقت قبولاً واسعاً، عند طلاب الأخبار من الناس، ثم أن حسهم التاريخي كان غامراً (حيث كانت الأساطير بالنسبة لهم آنذاك هي التاريخ)؛ خاصة فيما يتعلق بأخبار الأمم الغابرة، كما باتت الحاجة ملحة لمعرفة كل ما يتعلق بمصر في سياق تفسيرهم للقرآن الكريم، فلم يجدوا بين أيديهم تفاصيل يشرحون بها الكثير مما ورد في القرآن الكريم عن مصر وأهلها، فالتمسوا المادة فيما وصل إليهم من تفاصيل ما روي من أخبار مصر في الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى، وفي الحكايات التي كان يتناقلها الفرس، المصريون والإغريق وغيرهم ممن دخل الإسلام أو صار في ذمة دولته، وساعد على ذيوعها بينهم أن نفراً من أهل الكتاب هؤلاء دخلوا الإسلام حاملين معهم ما ورد في كتبهم الدينية من أخبار عن مصر وملوكها والأنبياء والرسل الذين عاشوا على أرض مصر، ومن تبعهم أو لم يتبعهم من الأقوام وما قام بينهم وبين خصومهم من صراع.[٣]

وهناك من فصَّل أكثر، وأتهم المؤرخين باللين والضعف بشكل قد أفسح المجال ومهد الطريق لدخول الأساطير والخرافات والمرويات إلى الحوامل الرئيسية التي يركن إليها أي باحث في التاريخ، أضف لذلك، تلك النزعة التقريرية التفصيلية والرغبة في معرفة كل شئ خصوصاً فيما يتعلق

[١] –ابن زولاق (الحسن بن إبراهيم بن الحسين الليثي) (٣٠٦ – ٣٨٧ هـــ): فضائل مصر وأخبارها وخواصها(تحقيق: علي محمد عمر، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م)، صـــ ٣؛ انظر:القرآن الكريم؛ يونس ٧٨/١٠، يوسف ٢١/١٢، يوسف ٩٩/١٢، الزخرف ٥١/٤٣، البقرة ٦١/٢.

[٢] –الإسحاقي المنوفي (محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح): أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، (سلسلة الذخائر، العدد ٣٥، القاهرة ١٩٩٨م)، صـــ ٣

[٣] – حسين مؤنس: الحضارة، صـــ ٧٠

بالمجهولات التي سكت عنها القرآن لعدم ضرورتها وترك معرفتها أي أثر على مدى فهم القصة واكتساب الدروس والعبر منها، وقد أدت تلك الرغبة العارمة المحفوفة بالمحاذير والمخاطر إلى أن يبيح بعض المؤرخين لأنفسهم أن يستندوا إلى تلك المرويات دون نقد وفحص.

ولقد سبق لابن خلدون أن لمس عن قرب بفضل حسه النقدي، ضرورة هذا التمييز[١] بقوله: "... وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير من بعدهم وابتدعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها...".[٢]

ورجوعا إلى مثل هذا النوع من الأساطير، التي دارت حول أصل "اسم مصر" نجد أن المصادر التاريخية حفلت بالروايات التي حاولت أن تجد تفسيراً منطقياً له؛ فقد أورد بن عبد الحكم نقلا عن سلسلة من الرواة أنهم قالوا: "أول من سكن بمصر، بعد أن أغرق الله قوم نوح، بيصر ابن حام بن نوح، فسكن منف، وهي أول مدينة عمرت بعد الغرق هو وولده، وهم ثلاثون نفسا قد بلغوا وتزوجوا فبذلك سميت ماقة ــ وماقة بلسان القبط ثلاثون ــ قال: وكان بيصر بن حام قد كبر وضعف، وكان مصر أكبر ولده، وهو الذي ساق أباه وجميع أخوته إلى مصر فنزلوا بها، فمبصر بن بيصر سميت مصرُ مصرَ، فحاز له ولولده ما بين الشجرتين خلف العريش إلى أسوان طولا ومن برقة إلى أيلة عرضا ..".[٣]

وبناء على هذه القصة تكون مصر قد سميت بهذا الاسم نسبة إلى واحد من أحفاد نوح كان يعرف بــ "مصر" وإذا كان ابن عبد الحكم "قد اعتمد على الأساطير ــ باعتبار أن تلك الأساطير هى الحقيقة ــ للتخلص من شرح المظاهر التي تتعلق بتاريخ مصر القديم، فيبدو أنه نجح في إثارة

---

[١] – برغم هذا النقد العلمي عند ابن خلدون إلا أنه وقع في ذلك أيضاً في كتابه " العبر وديوان المبتدأ والخـبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"!!.

[٢] – ابن خلدون: المقدمة، جـ١، صـ ٢٨٢

[٣] –ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب(تحقيق: علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينيـة، القـاهرة ٢٠٠٤م)، صـ ٢٨–ص ٢٩.

حوافز المعاصرين له، إلى دراسة التاريخ المصري القديم، والبحث عن أصل مصر[١]، وقد جمع لنا المقريزي تلك الروايات تحت عنوان "ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعدد أسمائها"[٢]، مشيراً في ذلك إلى أنه : "قد اختلف أهل العلم في المعنى الذي من أجله سميت هذه الأرض بمصر.."[٣]، كما أشار إلى أن أسمها كان في الدهر الأول قبل الطوفان "جزلة"[٤]، ثم سميت بمصر، وقد أورد عدة قصص تنسب كل منها اسم مصر إلى جنس من الأجناس التي كانت على صلة بالمصريين طوال تاريخهم الطويل[٥]، ونجد لها نظائر في كتابات المؤرخين بداية من ابن عبد الحكم حتى ابن إياس.

فالرواية الأولى تقول إن اسم "مصر" نسبة إلى : "مصر بن حام وهو مصرايم[٦]، وقيل أن بنصر بن هرمس بن هردوس جدّ الاسكندر. قال: ونلمح لوما بن حام بنت شاويل ابن يافث بن نوح فولدت له بوقير، وقبط أبا القبط .قبط مصر ومن هنا أن مصر بن حام وإنما هو بن هرمس ابن هردش بين بيطون بن روي بن ليطي بن يونان وبه سميت مصر فهي مقدونية".[٧]، ونجد ابن خرداذبة يقول : "وكانت مصر دار الفراعنة واسمها مقدونية..".[٨]

هذه الرواية تحاول نسبة المصريين ومصر إلى اليونانيين عن طريق اختلاق أسطورة يختلط فيها نسب أولاد حام بن نوح بنسب الإغريق عن طريق هرمس الذي جعلوه جد الاسكندر، والواضح هنا اختلاط التيارات الثقافية والحضارية بين كل من مصر القديمة وبلاد الإغريق القديمة وربما

---

[١] -إبراهيم أحمد العدوي، ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب،(مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣م)، صـ ٦٩

[٢] -المقريزي: الخطط، ج١، صـ ١٨ ص ٢٣.

[٣] -نفسه، صـ ١٨

[٤] – نفسه،ص ١٨ ؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور(الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣١١هـ)،صـ ٣؛ المسعودي: أخبار الزمان (الطبعة الأولى، ، الرياض ١٤١٥ هـ)، ص ٤١-٤٢.

[٥] -قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صـ ٥١.

[٦] ـ الملاحظ أنه لم تتفق المصادر على هذه الأسماء بل كل كتاب يخالف الأخر في شكل التسمية والنسب والنطق.

[٧] -المقريزي: الخطط، ج١، صـ ١٨

[٨] -ابن خرداذبة (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله)(ت ٣٠٠هـ):المسالك والممالك(طبعة بريل ١٨٨٩م)، صـ ٨٠؛ المقريزي: المصدر السابق،ج١، صـ ١٨

كانت هذه الرواية صدى لتلك الأسطورة التي نسجها الكهنة بعد فتح الاسكندر المقدوني لمصر، عندما ذهب إلى معبد الإله آمون في واحة سيوة وأذاع الكهنة أنه ابن الإله آمون، ومن المهم أن نشير في هذا المقام على أن هرمس هو المعادل الإغريقي للإله "تحوت" "توت" رب الحكمة عند قدماء المصريين، وقد ربط الكتاب العرب بينه وبين النبي إدريس، وربما يكون ذلك ناتجاً عن صفات العلم والحكمة التي ارتبطت في التراث الشعبي بهذا الإله المصري القديم ونظيره الإغريقي، وعندما جاء الإسلام بالتوحيد حاول الكتاب والرواة أن ينسبوا هذه الصفات إلى النبي إدريس بأن جعلوه أحياناً هو هرمس.[١]

وربما كان اختلاف تلك الأساطير والحكايات المتعلقة بنسبة مصر إلى اليونانيين؛ إفرازاً لرغبة المختلفين من الرواة في إ لقاء هذه الحكايات على مسامع الجاليات الإغريقية والرومانية التي كانت تجوب مصر أو تقيم بها، فقد كان الكثيرون يأتون لمصر طلباً للعلم والمعرفة، فضلا عن وجود إشارات وشواهد عديدة في الأدب الإغريقي إلى زيارات قامت بها بعض الشخصيات الهامة في الحضارة الإغريقية لمصر، وقد أسهبت تلك المصادر في حديثها عن عجائب مصر[٢] مثل هيرودوت الذي كان يتساهل في تصديق كل ما يروي له دون تمحيص يذكر، فاختلط في كتابه عن مصر، التاريخي الحقيقي بالحكايات الشعبية، والخرافات والأساطير الدينية في مزيج ممتع.[٣]

وقد يرجع ذيوع تلك الروايات التي تنسب مصر إلى اليونانيين في كتابات المؤرخين؛ إلى تسربها من الجاليات الإغريقية نفسها، والتي استوطنت مصر منذ عهد مبكر، وتأسيسهم لمستوطنات إغريقية على أرض مصر، مثل "نقراطيس" التي قامت على ضفاف الفرع الغربي من النيل، وبالقرب من سايس (Sais) "صا الحجر" عاصمة الأسرة الصاوية[٤]، فضلا عن تأثر الأدب اليوناني

---

[١] -قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صـ ٥١

[٢] -أبو اليسر فرح: النيل في المصادر الإغريقية (دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٤م)، صـ ٢٧

[٣] -بربان م. فاجان: نهب آثار وادي النيل ودور لصوص المقابر(ترجمة : أحمد زهير، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٣م)، صـ ٢٤

[٤] - Pertie, W., M., Flinders, ١٨٨٨, Naukraties; the Memory of the Egypt exploration fund, part II, P. ٤.؛ ؛ سيد أحمد الناصري: الإغريق تاريخهم وحضارتهم(الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٧م)، صـ١٥٩، صـ ١٦٥

نفسه بالمصريات فلقد ورد اسم "إيجبتوس" (Egyptous) كملك لبلاد وادي النيل في الأسطورة اليونانية "بنات دانوس" أوردها "هومر" في الأوديسيا[١].

تجد أثر ذلك على كتابات المؤرخين المسلمين كقول المقريزي : "وقال ابن خالوية في كتابه ليس أحد فسر لنا لم سميت مصر مقدونية قديما: إلا في اللسان العبراني، قال مقدونية مغيث وإنما سميت مصر؛ لما سكنها بنصر بن حام، وتزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعاً وقف على الكنيسة العظمى التي بالقسطنطينية ويسمون بلاد مقدونية إلا وصفية وهي عندهم الإسكندرية وما يضاف إليها وهي مصر كلها بأسرها إلا الصعيد الأعلى، ويقال لمصر أم خنور وتفسيره "النعمة"[٢]، أما السيوطي فيشير إلى ذلك المعنى بقوله: "ويسمى اليونان بلد مصر مقدونية"[٣]، ويضيف أولياچلبي أن " بعد الطوفان سموها مصرايم ومن هنا صار أسمها الآن مصر ويقال لها باللسان اليوناني (مقدونية).[٤]

أما الرواية الثانية، التي راجت في كتابات المؤرخين: فتقول : "أن بني آدم لما تحاسدوا وبغى عليهم بنو قابيل بن آدم ركب نقراوس الجبار بن مصرايم بن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام في نيف وسبعين راكباً، من بني عرياب جبابرة كلهم ،يطلبون موضعا من الأرض، يقنطون فيه فراراً من بني أبيهم، فلم يزالوا يمشون حتى وصولوا إلى النيل فأطالوا المشي عليه فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه، أعجبهم، وبني نقراوس مصر، وسماهم باسم أبيه مصرايم، وكان نقراوس جباراً له قوة، وكان مع ذلك عالما وله أئتمر الجن".[٥]

وتمضي القصة لتقول إنه بفضل العلوم التي عرفها قهر الجبابرة الذين كانوا قبله وبني مدينة "أمسوس" وزرع أتباعه الأرض وبنوا المدائن ثم حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم " ...... ولم يكن قبل ذلك معتدل الجري إنما كان ينبطح ويتفرق في الأرض حتى يتوجه إلى النوبة فهندسوه

---

[١] – مجموعة باحثين : اختطاف جغرافيا الأنبياء(سلسلة السراة، البحرين ٢٠٠٥م)، ص٢٤

[٢] – المقريزي: الخطط،ج١، ص٢٢

[٣] – السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (الجـــزء الأول، تحقيق، محمد أبو الفضل، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٩٧م)، صــ٢٥

[٤] –أوليا چلبي : سياحتنا مه مصر ، ص ٢٩

[٥] –المقريزي: الخطط، جـ١، صــ ١٨-١٩.

وساقوا منه أنهاراً إلى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنوها وساقوا منه نهراً إلى مدينتهم أمسوس..."[١]

وتمضي الرواية لتقول أن مصر سميت بعد الطوفان بمصرين بنصر بن حام نوحعليه السلام ، وقصة هذه التسمية نجدها شائعة أكثر من غيرها عند المؤرخين والرحالة المسلمين؛ فيذكر ابن محشرة : "يقال أن أول من نزل مصر بعد الطوفان؛ مصر بن بنصر بن حام بن نوح عليه السلام، بدعوة سبقت له من جده نوح عليه السلام، وقيل وكان السبب في نزول مصر أرض مصر وبه سميت، أن قليمون الكاهن صدق نوحاً عم وآمن بالله تعالى، وسأل نوحا أن يحمله بأهله وولده معه في السفينة فحمله، قال فلما أنجلى الطوفان، قال فليمون لنوح ــ عليه السلامــ يا نبي الله اجعل لي رفعة وقدراً أذكر به بعدي، فزوج نوح [مصر بن] ينصر بن حام من بنت فليمون فولدت له ولدا فسماه فليمون على اسم جده لأمه، فلما أراد نوح قسمة الأرض بين بنيه قال له فليمون: يا بني الله إن بلدي خير البلاد، وأولى الناس به ابني مصر، فابعثه معي إليه أظهر على كنوزه وأوقفه على علومه ورموزه، .. واطلع فليمون صهره مصر بن ينصر على كنوز مصر وعلومها، وعلمه خط البرابي، وأخرج له المعادن من الذهب والفضة والزبرجد والفيروز وغير ذلك من الجواهر، وأطلعه على عمل الصنعة في الجبل الشرقي فسمي به المقطم.."[٢]،الرواية ذاتها نجدها عند "المقريزي" مع بعض الاختلافات الطفيفة مثل: "كانت ابنة فليمون قد ولدت لينصر ولدا سماه مصرايم".[٣]

وهذه الرواية تحاول أن تقول أن مصر والمصريين من أصل حامي مختلط بأصول مصرية قديمة، واللافت للنظر في هذه الحكاية أنها تتحدث عن وجود مصري مستقل قبل الطوفان ينحدر من نسل "مصرايم" (الأول) ثم تأكدت التسمية مرة أخرى من خلال زواج ابنة الكاهن لابن حام الذي أنجب "مصرايم" (الثاني). كما نجد في الرواية صدى لبعض الحقائق التاريخية وهي معرفة الكهنة بعلوم وأسرار مصر القديمة. إذ لم يكن كهنة مصر القديمة مجرد "اكليروس" ديني وإنما كانوا هم

---

[١] – المقريزي: الخطط، جـــ١، صـــ ١٩؛ أوليا چلبي: سياحتنامه مصر، صـــ ٣٣.

[٢] –ابن محشرة : (كاتب مراكشي مجهول)،(ت ٥٩٨ هـــ): كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار(تحقيـــق : سعد زغلول عبد الحميد، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٩٥٨م)، صـــ صـــ ٦٥ – ٦٦.

[٣] –المقريزي : الخطط، جـــ ١، ص ١٩

الفئة التي حفظت العلم وتناقلته كما كان دورهم غاية في الأهمية في العديد من جوانب الحياة في مصر القديمة.[١]

ويبدو أن إرجاع اسم مصر إلى أحد أحفاد نوح يدعى (مصرايم) هو الشائع بين الذين يأخذون الألفاظ على ظواهرها وراج بين العديد من المؤرخين مثل؛ ابن إياس الذي أشار إلى ذلك بقوله : "كان في زمن مصرام الذي سميت مصر به ..".[٢]أما ابن الزيات فيشير بقوله : "أن مصر سميت على أسماء أبناء نوح عليه السلام .. وأن سبب تسميتها مصر؛ أن أول من سكن أرضها مصر بن بيصر بن حام بن نوح وهو أبو القبط".[٣]

وينسب المقريزي إلى (مصرايم) أنه "كان أول من صنع السفن في النيل ويقال أنه نكح امرأة من بنات الكهنة فولدت له أربعة أولاد هم : قبطيم وأشمون وأتريب وصا، فكثروا وعمروا الأرض وبنوا مدينة (منف) ثم كشف أصحاب فليمون الكاهن عن كنوز مصر وعلومهم".[٤]

وفي تلك الرواية والتي نجد لها مثيلاً عند (أولياچلبي)[٥] نلاحظ فيها تأثير فكرة الأنساب التي كانت لها أثر بالغ في حياة الناس خاصة ــ العرب ــ حيث كان اهتمام العرب بالنسب بمثابة اهتمامهم بحياقم لأنه يعد بمثابة الاسم من الجسد، وأن أول ما يتعرف عليه الإنسان هو انتسابه إلى أبويه، ومن ثم تكبر دائرة النسب مع العائلة والعشيرة [٦]، كما أن اعتناق العرب للإسلام لم يجعلهم يتخلون عن تراثهم في مجال المعرفة التاريخية إذ أنهم احتفظوا بالأيام والأنساب وقصص عرب

---

[١] -قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صـ ٥٣

[٢] -ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١ صـ ٤

[٣] -ابن الزيات (شمس الدين محمد) :الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، في القرافتين الكبرى والصغرى(المطبعة الأميرية بمصر، القاهرة، ١٩٠٧م)، صـ ٧

[٤] -المقريزي: المصدر السابق،ج١، ص ١٩

[٥] -أوليا چلبي: سياحتنا في مصر، صـ ٣٤ : ص ٣٥

[٦] ــ ليس غريباً أن يهتم العرب ــ وهم مجتمع قبائلي ــ هذا الاهتمام بالأنساب، وليس غريباً أيضاً أن تكثر هذه الأنساب وتختلط في كتبهم اختلاطاً كبيراً ولكن الغريب حقاً أن نقبل هذا الذي قالوه في أصلهم وتفرعهم على أنه حقيقة واقعة. وكذلك الأمر مع انتساب مصر وأهل مصر إلى جد أسطوري أعلى، فنحن لا نستطيع أن نقبل ذلك، بل لعلنا نتوقف في هذه الأنساب على ما رأيت عندهم من اختلاط فيها . ولكن المنهج العلمي ــ مع ذلك ــ يتطلب التقييم والتصنيف، وعلينا إذن أن نقبل تقسيمهم أو نخلق لنا تقسيماً جديداً، ولكننا لا نستطيع أن نقترح الآن هذا التقسيم الجديد لأن التاريخ القديم لهذه المنطقة غامض مختلط. للمزيد انظر: عبده الراجحي : اللهجات العربية في القراءات القرآنية (الطبعة الأولى ، مكتبة المعارف ، الرياض ١٩٩٩م) ،ص٢٦.

الجنوب، ولكنهم طوعوها في خدمة الأغراض الثقافية الجديدة التي تلبي حاجاتهم الثقافية / الاجتماعية التي جدت بعد الإسلام.[١] تأثير فكرة الأنساب العربية طالت مصر وغيرها من الأمصار في نسبة كل شعب إلى جد أعلى أسطوري يفسرون به معنى الاسم إذ تذكر الرواية ـــ السابقة ـــ أن "مصرايم" أنجب أربعة أبناء هم قبطيم وأشمون، وأتريب، صا، والمعروف أن "الأسماء الثلاثة الأخيرة أسماء لمدن مصرية".[٢]

أما الرواية الثالثة : "أن سبأ الأكبر أو حمير وكهلان ملك بعد أبيه يشجب بأرض اليمن وجمع بني قحطان وبني هود، ثم سار بهم إلى أرض بابل ففتحها، حتى بلغ أرض أرمينية وملك أرض بني يافث بن نوحعليه السلام وبني قنطرة على البحر عبر منها إلى بلاد الشام وأرض الجزيرة .. ثم نهض يريد بلاد العرب فنزل على النيل، وجمع أهل مشورته، وقال لهم: أني رأيت أن ابني مصراً إلى حد بين هذين البحرين؛ يعني بحر الروم وبحر القلزم.[٣] فيكون فاصلا بين الشرق والغرب ... فبنى مدينة سماها مصر، وولى عليها ابنه بابليون ومضى إلى بني حام بن نوح وهم نزول في البراي إلى يمونية ... ثم مات عن خمسمائة سنة وقام من بعده ابنه حمير بن سبأ فعتا بنو حام على بابليون، وأرادوا تخريب مصر فاستدعى أخاه حمير لينجده، عليهم فتقوم عليه مصر ومضى إلى بلاد المغرب .. فمات بابليون بن سبأ بمصر، وولى بعده ابنه امرئ القيس بن بابليون، ثم مات حمير بن سبأ ...".[٤]

ففي تلك الرواية، نلاحظ محاولة من جانب الرواة في نسبة مصر إلى أصول عربية يمنية، وهذا الاتجاه الأخير يعتمد أسلوب النسابة في نسبة كل قبيل أو شعب أو مدينة إلى جد أسطوري أعلى. ويلفت النظر هنا استخدام الرواية لاسم (بابليون) وهو(اسم الحصن الذي كانت تقيم به الحامية البيزنطية التي حاصرها جيش عمرو بن العاص في خضم أحداث فتح مصر) باعتباره اسماً لواحد من حكام مصر من نسل سبأ الأكبر، الأسلوب ذاته نجده عند المؤرخين في حديثهم عن مدينة الإسكندرية حيث يقول ابن محشرة : "فأتى موضع الإسكندرية فأصاب به أثر بنيان وعمد رخام منها عمود عظيم مكتوب عليه بالقلم المسند وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد: "أنا

---

[١] -قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، صـــ ٩٠

[٢] – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٥٣

[٣] -البحر المتوسط والبحر الأحمر.

[٤] -المقريزي، الخطط، ج١، ص ٢٠

شداد بن عاد، سددت بساعدي الوادي وقطعت عظيم العماد من شوامخ الجبال والأوتاد، وبنيت إرم ذات العماد..".[١]

ويضيف الدمشقي: "وقبط مصر منهم. من يزعم أنهم من ولد ربيعة ثم من تغلب وذكروا أن قوماً من تغلب انتجعوا بإبلهم أرض مصر لطلب الكلاء ..فتزوجوا القبطيات وتناسلوا هناك".[٢]

روايات أخرى تأخذ وجهة لغوية في كتابات المؤرخين المسلمين، فتجعل الاسم "مصر" مشتقا من مصدر عربي إذ يروي عن الجاحظ أنه قال في كتاب "مدح مصر": "إنما سميت مصر بمصر، لمصير الناس إليها واجتماعهم بها، كما سمي مصير الجوف مصيرا ومصراناً لمعبر الطعام إليه".[٣]

وتضيف الرواية أن أهل "هجر" يقولون: اشتريت الدار بمصورها أي بحدودها"[٤]، "والمصر؛ الفرق بين الشيئين"[٥]، ويعلق المسعودي بقوله "مصر وأسمها كمعناها، وعلى اسمها سميت الأمصار"[٦]، وأوضح المقريزي اشتقاق اللفظ في اللغة فقال: "مصر أخصب بلاد الله، وسماها الله بمصر وهي هذه دون غيرها بإجماع القراء .. وهي عندنا مشتقة من مصرت الشاة إذا أخذت من ضرعها اللبن فسميت مصر؛ لكثرة ما فيها من الخير، مما ليس في غيرها فلا يخلو ساكنها من خير يدر عليه منها، كالشاة التي ينتفع بلبنها وصوفها وولادها .. وقال البكري: "أم خنور" بفتح أوله وتشديد ثانيه وبالراء المهملة ـــ اسم لمصر . وسميت مصر "أم خنور" لكثرة خيرها"[٧]. ويعلق ابن إياس أن : "مصر كان اسمها في قديم الزمان "درسان"؛ أي باب الجفاف.[٨]

---

[١] –ابن محشرة: كتاب الاستبصار، ص ٩٥

[٢] – الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر(طبعة بطربورغ، المحروسة)، ١٨٦٥، ص ٢٦٦

[٣] –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة،(تحقيق: مصطفى الـــسقا، كامـــل المهنـــدس، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩م)، صـــ ٧ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣١٤.

[٤] – ابن ظهيرة ، صـــ ٧؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣١٤.

[٥] –المقريزي :الخطط، ج١ ، صـــ ٢٢؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣١٥.

[٦] –المسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين)(ت ٣٤٦هـــ): مروج الذهب ومعادن الجـــوهر(الجـــزء الأول، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، الرياض الحديثة، الرياض ١٩٧٣م)، صـــ ٣٤٢.

[٧] –الخطط، مصدر سابق، ص : ص ٢٢-٢٣.

[٨] –ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص ٣.

الملاحظ هنا أن الروايات السابقة تفسر اسم (مصر) وترجعه إلى أصل عربي ولكن لم تستخدم الأنساب هنا، غير أنها اتكأت على الاشتقاق في اللغة العربية؛ فتجعله مشتقاً من مصدر يعبر عن بعض أحوال هذا البلد في فترات من تاريخه، فهي مصر من مصير الناس إليها وتجمعهم فيها، كما أن دلالة الاسم هنا توحي أيضا بما عرف عن مصر من كثرة الخيرات ووفرة النعمة بها، وقد نسبها العرب كالناقة الحلوب، يحلبونها حتى آخر قطرة في ضرعها، وهو ما يستدعي في المقام تلك الراية التي أوردها ابن عبد الحكم في فتوح مصر وتناقلها المؤرخون والرواة من بعده وفحواها: "أن عمراً جباها أثنى عشر ألف ألف، قال غير الليث: وجباها المقوقس قبله بسنة عشرين ألف ألف فعند ذلك كتب إليه عمر بما كتب به، قال الليث: وجباها عبد الله بن سعد حين استعمله عليها عثمان، أربعة عشر ألف ألف، فقال عثمان لعمرو: يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول، فقال عمرو: أضررتم بولدها..".[1]

ويبدو أن النزوع نحو نسبة مصر إلى العرب والإسلام هو الغالب في كتابات المؤرخين ربما تحت تأثير الواقع الجديد الناتج عن فتح مصر ودخولها في الإسلام والذي معه حاول الخيال الشعبي النبش في ماضي وتاريخ مصر لإثبات إيمانها بالتوحيد والإسلام منذ عهود موغلة في الزمن من خلال مرجعية أسطورية تتدعي موت "مصرايم بن بنصر ابن حام بن نوح بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان ولم يعبد الأصنام .. ويؤمن بالمبعوث بالفرقان الداعي إلى الإيمان آخر الزمان .."[2]، وحصن مجلسه بأسماء الله تعالى العظام التي لا يصل إليها أحد من الأنام وكان يلين للملك الديان، ويؤمن بالمبعوث بالقرآن ." ولإكمال الحبكة القصصية تضيف الروايات "ثم دهموا ذلك بالصخور وذلك بين جبلين متقابلين وجعلوا فيها علامات "[3]، وبهذا تروّج تلك الرواية الأخيرة إلى أسبقية أهل مصر إلى التوحيد وبالتالي أحقيتهم في الانتساب إلى العرب.

هكذا، إذن، نجد في الروايات الثلاث ثلاثة اتجاهات في نسبة اسم مصر وأهلها:–

---

[1] –فتوح مصر والمغرب، صـ ١٨٨

[2] –الخطط، ج١، صـ ١٩

[3] –ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، صـ ٦٦

أولها: اتجاه ينسبهم إلى نسل حام بن نوحعليه السلام، ثانيها: اتجاه يوناني يعكس العلاقات الحضارية بين مصر القديمة وبلاد الإغريق ويحاول نسبة مصر والمصريين إلى أصول إغريقية.وثالث: هذه الاتجاهات عربي يحاول نسبة مصر إلى أصول عربية يمنية.[١] بيد أن الروايات التي تناولت أصل مصر والمصريين لم تخل بشكل أو بآخر من تأثير الإسرائيليات التي كانت تعكس التفسير التوراتي لأصول شعوب المنطقة والتي كانت بدورها نابعة من التراث الثقافي والأسطوري لهذه المنطقة ذاتها.[٢]

فالمتداول بين المتخصصين في علوم آثار وادي النيل أن أقدم اسم كان أهل مصر يسمون بلادهم به كان بتصويت (كيمي) Keme أو (كيميت) Kemet أو (كمت) Kmt والذي يعني الأرض السوداء، ويعتقد أن هذا المسمى يرجع في معناه للتعبير عن خصوبة الأرض النيلية. وهناك من يصوتها (كام) Kam أو (خام) Kham لأغراض تخدم مصالح الطرح اليهودي.[٣]

وينعكس هذا الطرح في رواية أوردها المؤرخ عبد الرحمن بن عبد الحكم ونقلها عنه العديد من المؤرخين والرحالة؛ وتحكي هذه الرواية التي نقلها لنا ابن عبد الحكم نقلاً عن سلسلة من الرواة أنهم قالوا: "كان لنوح (عليه السلام) أربعة من الولد؛ سام بن نوح، وحام بن نوح، ويافث بن نوح، ويحطون بن نوح .. فنادى نوح ولده وهم نيام عند السحر فنادى ساماً، فأجابه يسعى وصاح سام في ولده فلم يجبه أحد منهم إلا ابنه أرفخشد، فانطلق به معه حتى آتياه، فوضع نوح يمينه على سام وشماله على أرفخشد، وسأل الله عز وجل ـــ أن يبارك في سام أفضل البركة، وأن يجعل الملك والنبوة في ولد أرفخشد، ثم نادى حاما فتلفت يميناً وشمالاً ولم يجبه، ولم يقم إليه هو ولا أحد من ولده، فدعا الله عز وجل أن يجعل ولده أذلاء وأن يجعلهم عبيداً لولد سام .. قال : وكان مصر بن بيصر بن حام نائماً إلى جنب جده حام، فلما سمع دعاء نوح على جده وولده قام يسعى إلى نوح، فقال: يا جدي قد أجبتك إن لم يجبك أبي ولا أحد من ولده فاجعل لي دعوة من دعوتك، ففرح نوح عليه السلام، ووضع يده على رأسه وقال: اللهم إنه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفي

---

[١] -قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صـــ ٥٤

[٢] -فراس السواح: مغامرة العقل الأولي، دراسة في الأســـطورة(ط العاشـــرة، دار عـــلاء الـــدين، دمـــشق ١٩٩٣م)، ص:ص ٢١-٢٣.

[٣] -مجموعة من الباحثين: اختطاف جغرافيا الأنبياء(سلسلة السراة، البحرين، ٢٠٠٥م)، صـــ ٨٨.

ذريته وأسكنه الأرض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد، التي نهرها أفضل أنهار الدنيا، واجعل فيها أفضل البركات، وسخر له ولولده الأرض وذللها لهم وقوهم عليها .. ثم دعا ابنه يافث فلم يجبه هو ولا أحد من ولده، فدعا الله عز وجل عليهم أن يجعلهم شرار الخلق ..".[1]

ويعلق (شمس الدين الدمشقي) على تلك الرواية مضيفا إليها : "ذكر أهل الآثار أن السبب في سواد أولاد حام أنه أصاب امرأة في السفينة فدعا عليه نوح أن يغير الله نطفه، فجاءت بالسودان، وقيل أنه أتاه فوجده نائما وكشفت الريح عورته، وذكر ذلك لأخويه سام و يافت فنهضا وستراه وهما مدبران وجوههما؛ حتى لا يريا سوءته، فلما علم نوح بذلك قال: ملعون حام ومبارك سام ويكثر الله يافث .. أما القبط : فيقال: أنه من ولد فقط بن مصر بن بنصر بن حام ولد له أشمون، وقفط ،وصا ،وأتريب، فلم يعقب منهم غير قفط وولده صيفان، فمن سكن منهما صعيد مصر يسمى المريس ومن سكن أسفلهما يسمى البيما، .. ويقال : أن حاماً ولد له ثلاثة أولاد قفط وكنعان وكوش؛ فقفط أبو القبط".[2]

ما يهمنا في تلك الروايات؛ نزوعها العنصري، والتي تجعل أبناء سام أفضل الخلق بالقدر الذي يعكس فكرة الاختيار اليهودية التي تزعم أن اليهود هم شعب الله المختار، بيد أن الصيغة المصرية لهذه الرواية الخيالية استثنت المصريين من الذل الذي كتبه الله على أبناء حام بسبب إجابة مصر بن بنصر بن حام لدعوة جده نوح، هذا الجزء الخاص بأرض مصر ونيلها وخيراتها يعكس تأثير الرواة المحليين الذين استثنوا مصر والمصريين من الذل الذي كتب على أبناء حام وفقاً للقصة العبرانية.

هذه هي الخطوط العريضة للأساطير والحكايات الشعبية التي جمعها ودونها لنا المؤرخون عن أصل تسمية مصر والمصريين، وبغض النظر عن الجوانب التاريخية لهذا الموضوع فإن ما يهمنا هنا هو الدلالة التي تحملها هذه الحكايات الخيالية عن اعتزاز المصريين ببلادهم، وعن تنازع نسبة أصولهم إلى الحاميين، تأكيدا لتميزهم عن غيرهم من أهل البلاد المجاورة، أو اليونانيين تحت تأثير التراث الثقافي السائد بتأثيراته المختلفة، أو العرب بفعل الواقع الجديد الناتج عن فتح مصر ودخولها في ظل الإسلام والعروبة، ومن الواضح هنا أن كلاً من هذه الاتجاهات الثلاثة في "الموروث الشعبي" كان

---

[1] -فتوح مصر والمغرب، ص ٢٧؛ الخطط، ج١، صـ صـ ٢٠-٢١؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص ٣٤ .

[2] -الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، صـ ٢٦٦.

يرضي حاجة ثقافية / اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك، فقد كانت مصر تضم العرب والمتعربين كما بقي بها الأقباط النصارى الذين يتفاخرون كثيراً بأصولهم المصرية القديمة فضلا عن البعض من ذوي الأصول اليونانية، وعلى الرغم من أن هؤلاء وأولئك ذابوا في شعب واحد له خصائصه الثقافية الواحدة، فإن هذه الروافد الثقافية كانت فعّالة للغاية في القرون الأولى بعد الفتح الإسلامي لمصر، وهو ما تعكسه الروايات التي نقلها المؤرخون اعتماداً على الموروث الشفوي والمكتوب الذي كان سائدا في أوساط المصريين آنذاك.[١]

حدود مصر الجغرافية لقيت العناية من جانب المؤرخين عامة والرحالة بصفة خاصة؛ إذ أن أحد الأغراض الرئيسية من تدوين مذكراتهم هو اطلاع مواطنيهم على طرق ومسالك الممالك والأمصار.. إلا أن تلك الحدود الجغرافية لمصر لم تسلم من الشطط والروايات الأسطورية خاصة تلك الحدود والمناطق المرتبطة بسير الأنبياء والرسل التي ورد ذكرها في الكتب السماوية، فبعد أن يحدد المقريزي ــ على سبيل المثال ــ موقع مصر وفقا للمفاهيم الجغرافية السائدة آنذاك تحت عنوان "ذكر محل مصر من الأرض وموضعها من الأقسام السبعة" ثم "ذكر حدود مصر وجهاتها".[٢] تجعله يذكر بعض الأساطير حول البحر الأحمر والبحر المتوسط وعن البحر الأحمر الذي يسميه "بحر القلزم" يقول مؤرخنا: "وفي جانب هذا البحر الغربي الذي يخرج منه البحر الرومي [المتوسط] الأتي ذكره إن شاء الله، الجزائر الخالدات وهي فيما يقال: ست جزائر يسكنها قوم متوحشون .. وفيما بين مدينة القلزم ومدينة أيله، مكان يعرف بمدينة فاران وعندها جبل لا يكاد ينجو منه مركب لشدة اختلاف الريح، وقوة ممرها من بين شعبتي جبلين .. يقال أن فرعون غرق فيها فإذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة، ويقال أن الغُرُنْدُل : اسم صنم، كان في القديم هناك قد وضع ليحبس من خرج من أرض مصر مغاضباً للملك أو فاراً منه، وأن موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر وسار بهم شرقا، أمره الله سبحانه وتعالى أن يترل تجاه هذا الصنم فلما بلغ ذلك فرعون، ظن أن الصنم قد حبس موسى ومن معه ومنعهم من ا لمسير...".[٣]

---

[١] – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، صــ ٥٥

[٢] – الخطط، ج١، صــ صــ ٢١-٢٤.

[٣] –المقريزي :الخطط، ج١، صــ ٢٥-٢٦؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣١١.

وعلى الرغم من الأصل الديني لقصة خروج موسى عليه السلام وبني إسرائيل من مصر، وما أحاط بتلك الحادثة بعدد من المعجزات الربانية وقوة ظهور الفعل الإلهي في نجاة موسى وقومه، وهلاك فرعون موسى وبروز التدبير الربّاني والذي نجد صداه في الكتب السماوية ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ القصص /٤٠" وهكذا، في اختصار حاسم أخذ شديد ونبذ في اليم ، إنه كما تقذف الحصاة أو كما يرمي بالحجر بفعل الله [1] وتجسد في قول موسي :"لا تخافوا قفوا وانظروا خلاص الرب. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون"."خروج ١٣:١٤، ١٤"

بيد أن الخيال الشعبي كانت له رؤيته في قصة غرق موسي وأسباب هذا الحدث، فربط بين ظاهرة طبيعية، وهي صعوبة الملاحة في هذا الجزء من البحر الأحمر وبين خروج بني إسرائيل من مصر. واللافت للنظر هنا أن سبب هذه الظاهرة الطبيعية واضح ومعروف كما أشار إليه المقريزي وهو"شدة اختلاف الريح وقوة ممرها من بين شعبتي جبلين"ومع ذلك ترك الخيال بصمته على قصة هذه المنطقة التي ارتبطت بقصة دينية إعجازية [2] وألمح الخيال الشعبي إلي أن التفسير المقبول لديه أن فرعون قد :" غرق ببركة تعرف بـ "الغرندل" يقال أن فرعون غرق فيها فإذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة ". [3]

ويبدو أنه قد استمرت شغف الناس حول معرفة وتحديد المكان الذي غرق فيه فرعون موسي وذلك في سياق وصف الرحالة " چوزيف بتس" (سنة١٦٨٠ م) لخط سير رحلته بقوله :" وبعد أن أبحرنا قليلا من الطور أردنا الموضع الذي عبر منه بنو إسرائيل البحر الأحمر ويسمونه بئر فرعون، ويعني المكان الذي غرق فيه فرعون ومن معه بعد عبور بني إسرائيل، ويقولون أنه مكان خطر جداً، حتي إذا لم تهب عواصف هوجاء وذلك لوجود نوع من الدوامات البحرية تبتلع السفن" [4]

---

[1] -جمال عبد الهادي، وفاء رفعت: تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام وإيران وتركيا منذ أقدم العصور،(دار الشروق، جدة، د.ت)، صـ ٢٠٥-٢٠٦.

[2] - قاسم عبده قاسم : بين التاريخ والفولكلور،ص ٥٠.

[3] -الخطط، ج١، صـ ١٧؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣١١.

[4] -چوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة (ترجمة : عبد الرحمن الشيخ، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ١٨٩، القاهرة ١٩٩٥م)، صـ ٤٢.

وقد حاكت المخيلة الشعبية حول بحر القلزم وارتباطه بغرق(فرعون موسي) العديد من الأساطير والحكايات الخرافية والتي نلمس أثر لها عند القزويني في قوله: " وهو البحر الذي أغرق الله تعالي فيه فرعون لعنه الله وجنوده" وقالوا: كان بين البحر وأرض اليمن جبل يحول الماء عنها وامتداده في أرض اليمن، وكان بين البحر واليمن مسافة، فقدّ بعض الملوك ذلك الجبل بالمعاول ليدخل منه خليجا يهلك بعض أعدائه فقطع من الجبل حاولي سهم وأطلق البحر في أرض اليمن فطفا الماء، وأهلك أمماً كثيرة، واستولي علي بلاد كثيرة، وصار بحراً عظيماً وصل إلي بلاد اليمن وجدة وجاوى وينبع ومدينة شعيب عليه السلام وآيلة والقلزم".[١]

أما البحر الرومي (البحر المتوسط) والذي يمثل حدود مصر الشمالية، فقد دارت حوله العديد من الأساطير والخرافات والتي شقت طريقها إلي كتابات المؤرخين والرحالة. وقد ناقش الدمشقي المعروف (بشيخ الربوة) الآراء التي راجت في عصره حول ذلك البحر – الذي يمثل الحد الشمالي لمصر– فيقول " زعم المؤرخون أن الاسكندر حفر الزقاق وأجراه من المحيط غصبا علي أهل البلاد والأقاليم التي أغرقها به"[٢]، وأضاف أنه قد " زعم قوم منهم أنه حفره ليكون فارزاً بين أهل الأندلس والبربر وأهل برّ العدوة الأشبان (الأسبان) يمنعهم من الغارات التي يغاورنها بعضاً علي بعض وذلك بعد شكوى منهم إليه..."[٣] كما أورد رواية تذهب إلي انه قد " زعم آخرون أنه لم يحفره. ولكنه أراد أن يعمر عليه جسرا علي قناطر ففعل. ذلك ثم إن البحر طما وزاد وغطاها واتسع واستمر، وأنه إلي الآن ينظر الراكب فيه إلي القناطر تحت الأرض عمد سكون الريح وهدوء الموج، ونقص مده وجزره"[٤] ويبدو أن شيخ الربوة يرجح صحة الرواية الأخيرة، فوصف ذلك الجسر المزعوم الذي بناه الاسكندر وقدم شرحا تفصيليا لكيفية بناء هذا الجسر،مدعما قوله بخرائط ورسومات من وحي خياله ضمّنها كتابه المعروف بـــ (نخبة الدهر).

وقد رفض المقريزي تلك الرواية التي تقول بحفر الاسكندر للبحر الرومي كي يفصل بين البربر والأسبان وقال " هذا الخبر أظنه غير صحيح، فإن أخبار هذا البحر وكونه بسواحل مصر لم يزل في الدهر الأول قبل الاسكندر بزمان طويل.."[٥]

---

[١] –القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) (ت ٦٨٢ هـــ)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات(الطبعــة الخامسة، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ١٩٨٠م)، صـــ ٨٩ .

[٢] –الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، صـــ ١٣٦.

[٣] –نفسه، صـــ ١٣٦.

[٤] –نفسه، صـــ ١٣٧.

[٥] –المقريزي: الخطط، ج١، صـــ ١٧.

ابن الوردي خالف كلاً من المقريزي والدمشقي حول ماهية هذا البحر فقال: "ذُكر في كتاب أخبار مصر؛ أنه بعد هلاك الفراعنة كانت ملوك بني دلوكة في شق البحر المحيط الغرب، وهو البحر المظلم، فتغلب الماء على بلاد كثيرة وممالك عظيمة وجرى بها، وامتد إلى الشام وبلاد الروم وصار حاجزاً بين بلاد مصر وبلاد الروم على أحد ساحلية المسلمون وعلى الآخر النصارى...".[1]

وهنا، يتضح غياب المعلومات التي تتناول نشأة البحار والتي كانت سبباً في ذيوع مثل تلك الروايات الخرافية لدرجة أن مؤرخنا المقريزي لم يجد ما يعارض هذه الروايات سوى بقوله : "فإما أن يكون ذلك قد كان في أول الدهر مما عمله بعض الأوائل وأما أن يكون خبراً واهياً".[2]

ويحكي المقريزي قصة خرافية أخرى مؤداها؛ أن بعض أصحاب السّير من الفلاسفة ذكروا : "... أن ما بين الإسكندرية وبلادها وبين القسطنطينية كان في قديم الزمان أرضاً تنبتُ فيها الجميز، وكانت مسكونة وعامرة وكان أهلها من اليونانية وأن الاسكندر خرق إليها البر فغلب على تلك الأرض، وكان بها فيما يزعمون الطائر الذي يقال له وقنس وهو طائر حسن الصوت، وإذا حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن أحد يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته مما يميت السامع، وأنه يدركه قبل موته طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح..".[3]، وتستمر الحكاية لتقول إن واحداً من الفلاسفة المهتمين بالموسيقى أراد أن يتوصل لسماع صوته بالحيلة، كما تحكي عن أن ماء البحر كان سببا في هلاك هذا الطائر الأسطوري.

وربما كانت شهرة الاسكندر الكبير وفتوحاته العريضة وراء ذلك العدد الكبير من الأساطير والحكايات الخرافية التي ذاعت حوله في عالم البحر المتوسط ومصر من بلدانه بطبيعة الحال.[4] حتى أن الإسحاقي قد نسبه إلى مصر وأهلها فقال: "مصر دار العلماء والحكماء، فمنهم الاسكندر ذو القرنين صاحب السد الذي ذكره الله تعالى في كتابه ...".[5]

---

[1] –ابن الوردي: فريدة العجائب، صـ ١٢٧

[2] –الخطط، ج١، ص ١٧

[3] –نفسه، ج١، ص ١٨

[4] –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٥٠

[5] – الإسحاقي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، ص ٦.

الفصل الثالث

المادة الفولكلورية التي تدور حول "فضائل مصر"

" تمير الحرمين الشريفين ، ولولا مصر لما أمكن أهل الحرمين وأعمالهما المقام بهما ، ولما توصل إليها من يرد من أقطار الأرض"

النويري

"نهاية الأرب في فنون الأدب/٣٥٤هـ"

".. ومن فضائل مصر أنها تمير أهل الحرمين وتوسع عليهم ، ومصر فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ما سواها .. وأهلها مستغنون بها عن كل بلد حتى إنه لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع البلاد.."

المقريزي

"المواعظ والاعتبار ٢٨/١"

شهد القرن (الثالث الهجري / التاسع الميلادي) . بروز مراكز ثقافية عديدة متنافسة على امتداد العالم الإسلامي، كما ازدهر النشاط العلمي والفكري في مصر وبلاد الشام والمغرب والأندلس، فضلاً عند بلدان المشرق الإسلامي، وكان علم التاريخ واحداً من ميادين المنافسة؛ وتمثلت النتيجة النهائية في ظهور التواريخ المحلية؛ التي تتحدث عن تواريخ البلدان ثم ظهرت تواريخ المدن التي ذاعت وانتشرت على مدى عصور الثقافة العربية والإسلامية، فقد وجدت حاجة ثقافية / اجتماعية جديدة وهي منافسة المراكز الثقافية في شتى أنحاء دار الإسلام، وكان المسلمون قد صاروا منذ القرن الثالث الهجري أغلبية في البلاد المفتوحة وأخذت كل جماعة تحاول إبراز فضائل البلد الذي تنتمي إليه.[1]

وهنا نجد أن الكلام عن فضائل البلدان كان نوعاً من التأليف جمع بين التاريخ والأساطير والموروث الشعبي، فضلا عن الأدب والدين، والذي كان إفرازاً للتفاعل القائم بين ما جاء به

[1] –قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، صـــ ١٣٩

الإسلام واللغة العربية، والموروثات الثقافية المحلية. في كل مصر من أمصار دار الخلافة والذي كان قد نضج بالقدر الذي جعل لكل بلد شخصيتها الثقافية المتمايزة داخل الإطار العام للثقافة العربية الإسلامية كلها.[1]

وجرت العادة بين أغلب أصحاب ذلك النوع من التدوين التاريخي من المصريين في العصور المختلفة، أن يبدأ بعدة فصول تدور كلها حول فضائل مصر؛ كم مرة ذكرت في القرآن الكريم؟، وفي الأحاديث النبوية؟، مَنْ نزلها من الصحابة، والتابعين ؟، ثم ينتقل المؤرخ إلى سرد تاريخها منذ بدء الخليقة. وهنا تلعب الأساطير دوراً بارزاً وتفعل فعلها في الواقع والوقائع. وبرغم أن كثيرا من مؤرخي مصر قد دخلوا إلى صميم (فضائل مصر) من بوابات القرآن والحديث النبوي، فإن باب الأسطورة ظل مفتوحا لم يغلقه أحد إلا القليل وخاصة حول تفسير الآيات القرآنية الكريمة التي ورد فيها ذكر مصر.

فنجد قصصاً شعبية تتسم بالحبكة الكاملة في سياق تفسير الآيات القرآنية كالتي يحكيها ابن زولاق وغيره من المؤرخين عن السحرة الذين آمنوا بموسى في ساعة واحدة فيقول ابن زولاق: "وممن أخرجت مصر من الأفاضل؛ السحرة الذين أحضرهم فرعون لموسى، وكانت عدتهم اثني عشر ألفاً، تحت يد كل ساحرة عشرون عريفاً، تحت يد كل عريف ألف من السحرة، فكان جميع السحرة مائتي ألف واثنين وثلاثين ألف ساحر، آمنوا كلهم في ساعة واحدة، ولا يعلم من آمن في ساعة واحدة أكثر من هذا."[2]، لنجد خلافاً بين المؤرخين[3] ، في تقدير عدد هؤلاء السحرة وقد حسبها هؤلاء المؤرخون من فضائل مصر.

وتتسع الرؤية والتفسير الأسطوري للحادثة عند (الإسحاقي المنوفي) لتلعب الكائنات الأسطورية دورها في المخيلة الشعبية بقوله: "... أن السحرة الذين حشرهم فرعون من سبع مدائن؛ شطى وبوصير وبنها وطنان وأرمنت وأسيوط وأنصنا، ومع ذلك لم يغن عنهم عددهم، ولا كثرة عددهم بل لما ألقى موسى عصاه بإذن الرب الإله خروا له ساجدين. وقالوا: آمنا برب

---

[1] –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٥٦

[2] –ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، صـــ ١٤

[3] –انظر ؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، صـــ ٨٣؛ المقريزي:الخطط، ج١، ص٢٣.

العالمين، قيل: أنه لما ألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين أي حية صفراء فاتحة فاها.. ثمانون ذراعا، وقيل: أنها ارتفعت من الأرض قدر ميل، وقامت على ذنبها، واضعة فكها الأسفل في الأرض والأعلى على سطح القصر الذي فيه فرعون، فوثب فرعون هاربا. أحدث. قيل: أخذته البطنة في ذلك اليوم أربعمائة مرة وحملت على الناس فانهزموا، ومات منهم خلق كثير ... مات منهم خمسة وعشرون ألفاً وذكر أن فرعون صاح وقال: خذها يا موسى وأنا أؤمن بك .. فأخذها فعادت عصا فلم يؤمن فرعون بل كفر وعصى ...".[١]

نموذج آخر ساقه المؤرخون حول (الموروث الشعبي) المرتبط بتفسير الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر مصر تصريحاً أو تلميحاً والذي يقول فيه أحد الرحالة أن: "بمصر موضع يدعى "مرج البحرين" ــ وهو ثابت بالقرآن ــ؛ الذي هو اختلاط النيل المبارك بالبحر ببوغاز دمياط.."[٢]، وتمضي أحداث الرواية عند بعض المؤرخين في محاولة مستميتة منهم لإثبات أن الخضر عليه السلام قد جاء لمصر في هذا الموضع المسمى "مرج البحرين يلتقيان " الرحمن/١٩. وذلك بالقول: " قدم الخضر مع سيدنا موسى[٣] في رحلاته إلى هذا المحل المسمى (مرج البحرين) وحيث بادر إلى خرق سفينة صيد فغرقت... وهذا دليل كاف على أن سيدنا موسى كان ساكنا بمصر، وحيث إن موسى والخضر قد ترافقا في مرج البحرين، فيكون الخضر أيضا ممن دخل مصر.."[٤]، والخضر في (الموروث الشعبي) شخصية تتمتع بأبعاد أسطورية واضحة؛ منها اكتسابه الخلود، مما يضفي على زمن وجوده في القصص الشعبية شيئا من "المطلقية". والمطلقية كما هو معلوم أحدى سمات الزمن الأسطوري[٥]، حتى أن البعض يشير إلى ذلك بقوله أن الخضر عليه السلام "لا يزال حياً يرزق".[٦] ويمضي بنا

[١] -أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص٦

[٢] – أوليا چلبي، مصدر سابق ، ص٥٠

[٣] ــ وردت قصة موسى عليه السلام مع الخضر في القرآن الكريم في سورة الكهف الآيات ٦٤ـــــ ٨٢ ويرى المعتقد الشعبي أن الخضر أحد أولياء الله الصالحين الذين يعيشون في كل زمان ومكان وقد اتخذ الخيال الشعبي من قصة موسى عليه السلام مع الخضر تكئة لإثبات أن بعض الأولياء كرامات تبلغ درجة تفوق المعجزة التي منحها الله للنبي ، ويضربون المثال على ذلك من قصة الخضر وسيدنا موسى ، فقد كان الخضر أكثر علماً من موسى ، وكانت كراماته أكثر تفوقاً من معجزات النبي موسى عليه السلام الحسية . فاروق أحمد مصطفى :الموالد، ص١٧٩.

[٤] – المقريزي، الخطط، ج١، ص ٢٨ ؛ أوليا چلبي :سياحتنا مه ، ص ٥٠.

[٥] –كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص ٣٩٠، ص ٣٩١

[٦] – السيوطي : حسن المحاضرة، ج١، ص ٥٥؛أوليا چلبي، المصدر السابق، ص ٥٠.

الغرناطي في استعراض الخيال الشعبي الذي ورد فيه ذكر مصر ليوضح لنا أن : "في مجمع البحرين التي وصل إليها موسى ويوشع ونسي عندها الحوت، وكان الحوت مشوياً قد أكلا نصفه الأيمن طولا مع نصف رأسه وعينه الواحدة اليمنى، وأخبر الله تعالى: أن موضع الخضر في المكان الذي يصير إليه فيه حياً، فلما وصل إلى الصخرة، عاد نصف السمكة المشوية المأكول، نصفها حياً وأنسل ذلك في صورة نصف السمكة بعين واحدة، الجانب الأيمن كأنه قد أكل، وبقي حشوته عليها شوك أضلاعها وجلد رقيق يحفظها والنصف الأيسر صحيح، وهو من أطيب السموك...".[١]

وإذا كان الاصطفاء والتكريم مألوفاً في الناس وفي الأوقات والأزمنة، فإنه وارد أيضا في الأمكنة والبلاد والأقطار وهذا ما التفت إليه أعلام المؤرخين الذين كتبوا عن "فضائل مصر" فقد تتبعوا احتفاء القرآن بها عندما ورد ذكرها فيه بصريح اللفظ أو بما دلت عليه القرائن والتفاسير، كما احتفى الضمير الشعبي بالمأثورات النبوية التي جمعها المؤرخون وكتّاب الفضائل عن مصر، فجاءت في سيل من النبؤات النبوية تبشر بفتح الإسلام لمصر، وبدورها في دولة الإسلام، وضرورة الرفق بأهلها، وتحت عنوان "باب ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذكر مصر"[٢]،ينسب ابن زولاق وغيره من المؤرخين عدداً لا بأس به من المرويات المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والتي تناقلها المؤرخون المسلمون فيما بينهم، دون تدقيق وتمحيص، كان أبرزها : "ستفتح عليكم بعدي ـــ يُقصد هنا الرسول صلى الله عليه وسلم مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لكم منهم ذمة ورحماً".[٣]، وفي رواية أخرى "فإن لكم منهم صهراً وذمة"[٤]،" حدثنا ابن حميد قال :حدثنا سلمة قال: حدثني ابن إسحاق قال: سألت الزهري ما الرحم الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم؟ قال : كانت هاجر أم إسماعيل ..".[٥]

---

[١] -الغرناطي؛ (أبو حامد محمد الأندلسي) (ت ٥٦٥ هـــ): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب(تحقيق: على عمـــر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٧٣.

[٢] -ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، صـــ: صـــ ٦-٨؛ القلقشندي : صبح الأعشى ،ج٣ ، ص٢٧٩.

[٣] -نفسه ، ص ٦؛ رواه مسلم في صحيحه مع زيادة في اللفظ، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية الـــنبي ﷺ بأهل مصر، صحيح مسلم، ج٤، صـــ ١٩٧٠.

[٤] -فتوح مصر، ص ٣٠؛ والحديث أخرجه صاحب الكنز برقم ٣٤٠٢٢ عن ابن عساكر.

[٥] -ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، ج١، ص ١٧٣؛ البيهقي، السنن الكبرى، ج٩، ص ٢٠٦؛ المتقي الهندي، كنز العمال، ج١١، صـــ ٣٦٨.

هذه هي أبرز المرويات عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهي الروايات التي يتمسك بها المؤرخون وغيرهم للتعويل على (فضائل مصر) برغم أنها تحمل في طياتها ما يسئ للقيم الإسلامية ، وبالتالي تسئ لتعاليم الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، وصحابته ﷺ المنسوب تلك الأحاديث إليهم. وتعليل ذلك؛ أن المسلمين لم يفتحوا فقط مصر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وحسب. بل فتحوا أيضاً الشام والعراق و الأندلس، وفارس والمغرب وخراسان .. إلخ، ولم يرد ذكره الشريف للوصاية بسكان تلك البلدان، كما أوصى بالأقباط خاصة ــ (فاستوصوا بأهلها خيراً..) (إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً..) ــ إذ أن ذلك تخصيص لشعب مصر بالخير يقابله بالضرورة استثناء للشعوب الأخرى، وإحراز الرخصة للقواد العسكريين والسياسيين لإنزال الشعوب الأخرى منزلة دون الخير المخصوص به شعب مصر سلفا، كما نقول أنه جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومع فرضية أن الأقباط كان لهم خصوصية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من دون باقي الشعوب كما جاءت في الأحاديث المذكورة أعلاه. وأن لهم (ذمة ورحماً) ، فإن لهم(ذمة ورحما أو قال ذمة وصهراً)، آلا يعني أخذنا بهذا التبرير لخصوصية الأقباط أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم جعل همه ليس العدل والمبدأ ومصلحة الدين والأمة بمقدار ما يتحكم به في علاقة النسب والعرق والأسرة والعشيرة كأي حاكم عشائري أو قبلي !!! فماذا عن الشعوب التي لا رحم لها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذن؟. فهل هؤلاء لا وساطة لهم مع السماء كما هو الحال مع القبط فوقعوا بذلك خارج دائرة التميز والوصاية والخير؟! أليس هذا التبرير الغريب واقعا في مسار تصادمي مع قيم ومبادئ السماء التي دعا إليها الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وأسس لها من مساواة بين الناس جميعاً.

مجمل القول؛ أن تلك الجمهرة من المرويات في أغلبها هي من ذخائر (الموروث الشعبي) التي كانت ترضي حاجة ثقافية / اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك؛ وهو المعنى نفسه الذي ألمح إليه الرحالة (ابن الوزان الزياتي) في معرض حديثه عن مدينة الإسكندرية بقوله :" وبعد ذلك راحت تخسر أهميتها تدريجياً ، على مدى السنين ، وفقدت شرفها القديم إذ لم يعد أي تاجر من اليونان أو من أوروبا يستطيع أن يمارس فيها التجارة ، حتى لقد كادت أن تصبح خاوية تماماً من السكان . ولكن نسب أحد الخلفاء الدهاة إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قولاً زوراً لا

يخلو من مكرٍ ، وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم منحَ أهل الإسكندرية في إحدى نبؤاته ، العديد من الكرامات ، أي إلى الذين يعودون إليها في يوم ما لتحقيق حمايتها وحماية الذين يؤتون الزكاة . وبعد برهة من الوقت امتلأت بالسكان ، من غرباء عن البلاد ، ومن أخلاط الناس الذين قصدوها لهذه الكرامات ".[١] وربما كانت وسيلة لحث الحكام الجدد ـــ العرب ـــ للترفق بأهل مصر وحسن معاملتهم على غرار المثل الشعبي السائر: "اتوصوا علينا ياللي حكمتوا جديد، إحنا عبيدكم وأنتم علينا سيِّد"[٢]، والتي تجسد تفاعل أهل مصر مع من حولهم من ظواهر ومعطيات.

جانب آخر من فضائل مصر أشار البكري إليها في (الروضة المأنوسة) بقوله: "في التوراة مكتوب : مصر [خزاين] الأرض كلها ومن أرادها بسوء كبه الله على وجهه وقصمه الله .. ما يريدهم أحد بسوء إلا أهلكه الله ولا يريد أحد هلاكهم إلا و رده الله عليه"[٣]، فمصر في أذهان الناس كما وَرَدَ عند ابن الوردي: "كنانة الله ما رماها أحدُ بسوء،إلا أخرج الله من كنانته سهماً فرماه به فأهلكه..".[٤]

ولم يعجز الخيال الشعبي عن تبرير أسباب تلك الحماية الربانية التي اختصها الله لمصر والتي اعتبرها من فضائلها، ليجد ضالته في رواية أخرى يعضد بها ما ذهب إليه من تلك الرعاية الإلهية مؤداها: "أنه لما خلق الله آدم مثَّل له الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها، وبناءها وخرابها، ومن يسكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك فلما رأى مصر أرضاً سهلةً ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة، ورأى جبلاً من جبالها مكسواً نوراً لا يخلو من نظر الرب إليه بالرحمة في سفحه أشجار مثمرة وفروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة فدعا آدم في النيل بالبركة ودعا

---

[١] – ابن الوزان: (الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بجان ليون الإفريقي)(ت٩٥٧هـ): وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، مراجعة: علي عبد الواحد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٥م.، ص٥٧٠.

[٢] – إبراهيم أحمد شعلان: الشعب المصري في أمثاله العامية (الدراسات الشعبية، العدد ٨٧، ٨٨، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص٨١.

[٣] –البكري (محمد بن أبي السرور): الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة(تحقيق عبد الرازق عيسى، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٧م)، ص ٥٣.

[٤] –ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ٣٤

في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى وبارك في نيلها وجبلها سبع مرات ...".[١]،ويعلق الرحالة چوزيف بتس على ذلك بقوله :"يقول أهل القاهرة :إن الله يحب مدينتهم ويرعاها بناظريه سبع مرات في اليوم ليحفظها من كل سوء". [٢] أضف لذلك ما شاع بين الناس عن دعوة نوح عليه السلام لمصر حيث كان :"قد دعا لمصر أن يسكنه الله تعالى الأرض الطيبة المباركة التي هي أَمْنُ البلاد وغوث العباد ، ونهرها أفضل الأنهار ، ويجعل له فيها البركات ، ويُسَخِّر له الأرض ولولده ويذللها لهم ، ويقويهم عليها ".[٣]وربما لم يكن غريباً أن نجد في السيرة الهلالية انطباعات كثيرة من هذه الحماية والمعتقدات المصرية. مثال ذلك قولهم:"مصر المحروسة من عدوها بالأقطاب الموكلين بالأرض"[٤].

تلك المرويات التي اتخذت مسحة إسلامية تعكس بالضرورة أصداء اعتقاد المصريين بأن خيرات بلادهم كانت خيراً إلهياً اختصهم به الله ومنح بلادهم شهادة الخلود التي جعلها غير قابلة للزوال أو الاحتلال أو التجزئة أو الاحتواء حتى وأن تطاول عليها أقزام في غفلة من الزمن، كما تكشف لنا عن جانب من الأفكار العامية السَّيارة والشائعة عن مصر يومئذ، في إطار من المعتقدات والعادات والتقاليد التي سادت الخريطة الثقافية للمشرق العربي في ذلك الوقت. كما أن تلك المرويات كانت ترضي حاجة اجتماعية / ثقافية لشرائح بعينها في المجتمع المصري، خاصة بعد الفتح الإسلامي لمصر،وما أيقظه من شعور في الأمم المختلفة التي غلبت على أمرها مما جعل لها تكئة لانتحال الحديث وإرجاعه للرسول صلى الله عليه وسلم . وإيجاد ما يعزز صلتهم بالإسلام، وتقيم لنفسها أمام ملأ المسلمين حجة ناهضة، تدل على فضل ومكانة أمصارهم ومدنهم على بقية المدن والأمصار الأخرى.

---

[١] –الخطط، ج١، ص ٢٦، ص ٢٧؛الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول،ص٤

[٢] – چوزيف بتس : رحلة الحاج يوسف إلى مصر (ترجمة :عبد الرحمن الشيخ ،سلسلة الألف كتاب الثاني ، العدد١٨٩، القاهرة ١٩٩٥م)،ص٣٩.

[٣] ـ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣١٢ ؛الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول،ص٥.

[٤] – عبد الحميد يونس : الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد٨١، القاهرة ٢٠٠٣م)،ص٢٧٩-٣١٥.

وفي الصفحات الأولى عند ابن زولاق وفي سياق عرضه لفضائل مصر يوقف السرد ليورد سطوراً تكشف عن إحساسه بمكانة مصر في العالم في إطار تصور ساذج لشكل الأرض تناقله المؤرخون والرحالة على غير روّية منهم.

إلا أنه يدلنا على قصور المعلومات الجغرافية في ذلك الحين، كما نستشف منه أن الأساطير والحكايات الخرافية في ذلك الحين، قد غطت المناطق المجهولة التي لم تستطع الجهود العقلية آنذاك أن تكتشفها. فيقول: "خلقت الدنيا على صورة طائر برأسه وصدره وجناحيه وذنبه؛ فالرأس مكة والمدينة واليمن والصدر مصر والشام.."[١]، غير أننا نجد ابن حوقل (القرن الرابع الهجري) يسجل موقفه من خرافات التصور الجغرافي الذي راج في كتابات المؤرخين، وحاول تتريه كتابه (صورة الأرض) عن ذكر مالا يعقل، بل ويحسب له أنه ناقش تلك المعتقدات الجغرافية المستقرة في عصره مناقشة علمية، وانتهى إلى نقدها رافضاً فكرة تصوير الأرض على شكل طائر بقوله : "فقد اتفق العلماء بمسالك الأرض وبعض الحسّاب المشار إليهم بعلم الهيئة، فيما تواضعوه من صفات الأرض أنها مصورة بصورة طائر؛ فالبصرة ومصر الجناحان والشام الرأس والجزيرة الجؤجؤ، واليمن الذنب، وهذه الحكاية ما رأيتها قط مقررة، وإذا كان الأمر كذلك ففارس وسجستان وكرمان وطبرستان وأذربيجان وخراسان ليس من الأرض، ولا معدودة في حسابها .. وهذا قول يحتاج إلى تقرير بفهم جامع وفكر صحيح ليقف على حق ذلك من باطله .."[٢]، غير أن السيوطي قد أشار إلى أن "هذا التشبيه رفعة في القدر وفخرها على البلاد كفخر العلماء على العباد".[٣]

بيد أن ما يهمنا أن تصور موقع مصر في صدر ذلك الطائر أو جناحية دلالة على إحساس أهلها ومن عاصرهم بأهمية بلادهم ومحوريتها، والتي لا شك تبوأت مركز الصدارة بعد أن آل إليها

---

[١] – ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص١٢، المقريزي: الخطط، جـ١، ص٢٥، المنوفي: أخبار الأول، ص٨

[٢] – ابن حوقل (أبي القاسم ابن حوقل النصيبي): صورة الأرض، (القسم الأول، الطبعة الثانية، ليدن ١٩٣٨ م)،ص٨٨

[٣] – السيوطي (جلال الدين) (ت ١٩١١ م):كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة(تحقيق: محمد الشتاوى، الطبعة الأولي ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ١٩٩٧ م) ص٣٣٨.

كرسي الخلافة الإسلامية التي أحياها الظاهر بيبرس في شهر رجب (سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١م)[١].
أو انعكس وضعها الجديد على كتابات المؤرخين والرحالة والذي نلمسه في قول (البلوي):
"مصر هي قاعدة المشرق" وأم المدائن ومقر الملوك ودار الطمأنينة"، قد كمل الله حضرقما وجمل نضرتها بأن قلد بها أمور الملوك وخلد فيها العز والتمكين للسلطان الناصر الدنيا والدين ـــ قسيم أمير المؤمنين من الخلفاء العباسيين".[٢]

اتجاه آخر من المؤرخين والرحالة رأي أن أهم فضائل مصر أنها :"تمير أهل الحرمين وتوسع عليهم.. فمصر فرضة الدنيا يحمل خيرها إلي ما سواها. ومن مدينة القلزم يحمل إلي الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند.."[٣]

ولنجد أن أبعاد الدور المصري ومركزيته والتزاماته تجاه أهل الحجاز استخدمه الضمير الشعبي كجسرٍ يعبر عليه إلي أغوار التاريخ الأسطوري حول حفر (خليج مصر) فيقول المؤرخون:" وهو خليج قديم احتفره بعض قدماء ملوك مصر، بسبب هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام حين اسكنها وابنها إسماعيل خليل الله " إبراهيم عليهما الصلاة والسلام بمكة ثم تمادت الدهور والأعوام فُجدد حفره ثانية.."[٤] وتمضي الرواية لتحكي حكاية احد ملوك مصر ويدعى (طيطوس) مع الخليل إبراهيم عليه السلاموزوجته سارة، وما كان من تقديمه هاجر هدية إلي سارة.. ثم يقول:"وعاش طيطوس إلي أن وجهت هاجر من مكة تعّرفه أنها بمكان جدب وتستغيثه فأمر بحفر نهر في شرقي مصر بسفح الجبل حتى ينتهي إلي مرقي السفن في البحر الملح ، فكان يحمل إليها الحنطة وأصناف الغلات، فتصل إلي جدة، وتحمل من هناك علي المطايا، فأحيى بلد الحجاز

---

[١] – قاسم عبده قاسم:عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، (الطبعة الأولي، دار عين الدراسات والبحوث ، القاهرة ١٩٩٨ م)، ص٨٨

[٢] –البلوى (خالد بن عيسي) (ت ٧٩٥ هـ):تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، (الجزء الأول، تحقيق: الحسن السائح، د.ت) ص٢١٦ : ص ٢١٧

[٣]– الخطط، جـ١ ، ص٢٨؛ الإسحاقي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر،ص٨

[٤]– الخطط، جـ٣، ص١٣٩؛ الحِمْيَري : الروضُ المعطار في خبر الأقطار(تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٩ م)، ص٥٥٢.

مدة. ويقال أنها حليت الكعبة في ذلك العصر مما أهداه ملك مصر.. ويقال أنه سأل إبراهيم عليه السلام أن يبارك له في بلده فدعا بالبركة لمصر.."[1]

ما يهمنا هنا، هو ربط " الموروث الشعبي" بين حفر خليج مصر وبين هاجر (المصرية) وكيف أن المصريين لم يتركوا ابنتهم هاجر تعاني الجوع في مكة،وتجد بعض الحقائق التاريخية الثابتة في سياق تلك الرواية الخيالية وهو ما يعرف من أن المصريين القدماء حفروا قناة تصل النيل بالبحر الأحمر من ناحية، ثم لما كانت تقوم به مصر في العصور الإسلامية من تحمل أعباء إطعام سكان الحرمين الشريفين، كما تشي بمدى احتفاء (الموروث الشعبي) بهاجر المصرية التي عمرت أرض العرب بنسلها وكيف أن مصر كانت تعولها، ومن معها من خيراتها الوفيرة، وأنها أول من كسي الكعبة،وهو أمر مستقر في الذهنية الشعبية له تقاليده من إعداد الكسوة ودوران المحمل ثم سفره والذي تحدث عنه الرحالة بكثرة[2] لما كانت توجد علاقات قديمة بين مصر والعرب في شبة الجزيرة العربية.

الموروث الشعبي المتعلق "بفضائل مصر" في كتاب المؤرخين كشف (عمداً أو بدون وعى)، أن مصر لم تقف عند حدود الانتماء للإسلام كدين ودولة،وإنما تبوأت مكانتها حتى لكأنها هي صاحبة هذا الدين والأمينة عليه. بل ووجدت في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم كما لو اكتمال توحيد إدريس عليه السلام ومن صار علي دربه من أنبيائها وحكمائها وملوكها الأقدمين[3]، مثل " مصر بن ينصر بن حام بن نوح عليه السلام" الذي ظهر في المادة الفولكلورية التي دارت حوله بأنه:" : "يؤمن بالمبعوث بالقرآن الداعي إلي الإيمان الظاهر آخر الزمان" [4] وأوردت الكتابات التاريخية

---

[1] – المقريزي ، الخطط ، ج١ ، ص١٤٠،ص ١٤١ .

[2] ـــ ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد) (ت ١٢١٧م): رحلة ابن جبير (تحقيق: حسين نصار، مكتبة مصر، االقاهرة ١٩٩٢م)، ص٩٣؛ ابن يطوطة (عبد الله بن محمد اللواتي)، (ت ٨٠٨هـ): رحلة ابن بطوطة (طبعة المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت)، ص٤٢ .

[3]– محمد عمارة: أثر الإسلام في مصر وأثر مصر في الحضارة العربية الإسلامية(ضمن كتاب في مواكب النور، إشراف: قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولي، هيئة قصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٩م)، ص٨٦، ص٨٧

[4]– ابن محشرة : الاستبصار في عجائب الأمصار ، ص ٦٦.

كثيرا من الروايات التي تتضمن نبؤات [1] بظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلموفتح العرب المسلمين مصر .التي عرفت التوحيد منذ القدم لا سيما وأن المخيلة الشعبية رأت أن " أخنوخ وهو هرمس أي إدريس عليه السلام.. وكان قد نُبئ إدريس وهو ابن أربعين سنة، وأراده الملك (تبلبل) بسوء فقصمهُ الله. وولد بمصر وخرج منها وطاف الأرض كلها.. وأطاعه ملك مصر.." فـ "هرمس هذا هو إدريس عليه السلام"[2] .

المقريزي وغيره من المؤرخين، تحدثوا عن (مصرايم)الذي سميت مصر باسمه في إحدي الروايات: " ولما حضر مصرايم الوفاة عهد إلي ابنه قبطيم، وكان قد قسم مصر بينه فجعل لقبطيم من قفط إلي أسوان، ولأشمون من أشمون إلي منف.. وأمرهم عند موته أن يحفروا له في الأرض سرباً وأن يفرشوه بالمرمر الأبيض،ويجعلوا فيه جسده، ويدفنوا معه جميع ما في خزائنه من الذهب والجواهر، ويزبروا عليه أسماء الله تعالى المانعة من أخذه،... فحفروا له سرباً وجعلوا في وسطه مجلساً مصفحا بصفائح الذهب، وجعلوا جسده في جد مرمر مرصع بالذهب، وزبروا على مجلسه: مات مصرايم بن بنصر بن حام بن نوح. بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان، ولم يعبد الأصنام، إذ لا هرم ولا سقام ولا حزن ولا اهتمام، وحصنته بأسماء الله العظام،ولا يصل إليه إلا ملك ولدته سبعة ملوك تدين بدين الملك الديَّان ويؤمن بالمبعوث بالفرقان الداعي إلي الإيمان.آخر الزمان، وجعلوا معه في ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجد المخروط وألف تمثال من الجوهر النفيس، وألف برنية مملوءة من الدر الفاخر، والصنعة الإلهية والعقاقير والطلسمات العجيبة وسبائك الذهب وسقفوا ذلك بالصخور، وأهالوا فوقها الرمال بين الجبلين.."[3] .

---

[1]- النبوءة: هي الأخبار بالمستقبل قبل وقوعه، أي قراءة الغيب، وهى من العناصر التي تعد مشتركة بين القصص البطولي في معظم أشكاله، وهي رسالة للبطل نفسه، تريحه وتمنحه اليقين، وتزيل عنه الخوف، وقد تكون يقينا للجماعة بدور بطلهم المقّدر عليهم، ويساعدنا في التعرف علي النبوءة طرق عديدة أهمها؛ النبأ الموجود في الكتب القديمة.أحمد شمس الدين الحجاجي: مولد البطل في السيرة الشعبية (دار الهلال، القاهرة ١٩٩١م)، ص٤٨؛ كارم محمود عزيز: النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم (رسالة دكتوراه – غير منشورة – جامعة الزقازيق ١٩٩٧م)، ص٢٠.

[2]- عبد الله الشرقاوي:تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين (الطبعة الأولي، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة ١٣١١هـ)، ص١٧؛ المقريزي : الخطط ، ج١ ، ص٢٧.

[3]-الخطط : جـ١،ص١٩.

يسترعي الانتباه أن وصف مدفن مصرايم وعملية دفنه، هي امتداد لما عُرف عن المصريين القدماء حيث تجهيز المقبرة، التوابيت المذهبة، التماثيل والنقوش... الخ، والطلاسم والتعاويذ الحافظة والاجتهاد في إخفاء المقبرة عن عيون اللصوص وتأتي بعد ذلك النبوءة واضحة؛ فمصرايم يقول فيما خلفه من نقوش إنه لن يصل إليه إلا ملك من سلالة ملوك يؤمنون بالمبعوث بالفرقان الداعي إلي الإيمان آخر الزمان، وهو محمد صلى الله عليه وسلم وهذا بطبيعة الحال يشير إلي دخول الإسلام والمسلمين أرض مصر.

بيد أن الملاحظ أن تلك الرواية كانت تمثل الاتجاه الذي يتنازع نسبه إلي أصول مصرية حامية ويعبر عن اعتزازه بمصريته والتي لا تتنافر مع عقيدة التوحيد منذ زمن موغل في القدم.

أما الاتجاه الثاني وهو الاتجاه الذي تتنازعه الانتساب إلي اليونانيين تحت تأثير العلاقات الحضارية بين مصر القديمة وبلاد الإغريق فيقول في روايته " بباب القصر بمصر دير عظيم وهو الآن مدرسة، كان قدماء الكهنة صنعوا به صورة من النحاس علي وجهها نقاب مطلي بالذهب وعليه نقوش باللغة اليونانية تدل علي أن نبي أخر الزمان يكون علي هذه الصورة، وأن أمته ستفتح مصر وتنفذ فيها العدل والإنصاف، ويأتي أولئك الفاتحون بعد محمد صلى الله عليه وسلم بثمانية عشر عاماً في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعامله عمرو بن العاص، ورسموهم علي الرخام رجالاً ذوي أثواب صفر راكبين ألف جمل أبيض، وقد نقشت علي الرخام الذي عليه الصورة آية من الإنجيل باللغة اليونانية وهي: هذا الرجل من سلالة أدم نبي اسمه محمد صاحب العالمين. بيد أن النصارى أزالوا صورة سيدنا عمر رضى الله عنه حين حاصر عمرو بن العاص مصر" [١] .

أما الاتجاه الثالث: فهو الاتجاه العربي برواياته المختلفة الناتج عن الواقع الجديد وفتح العرب لمصر والذي شمل العرب، والمتعربين الذين حاولوا أن يثبتوا بقرائن ذهنيتهم عروبة وإيمان مصر بالتوحيد منذ نعومة أظافرها.فنجد ابن عبد الحكم ينفذ إلي صميم التاريخ العربي والفتح الإسلامي لمصر من بوابات الأسطورة وطاقة النبوءات بقوله " قال ابن لهيعة وبلغني أنه وجد حجر بالإسكندرية مكتوب فيه أنا شداد بن عاد وأنا الذي نصب العماد وحيد الأحياد، وسد بذراعيه الواد بنيتهن إذ لا شيب ولا موت، وأن الحجارة في اللين مثل الطين وكنزت في البحر كنزاً علي اثني عشر ذراعاً لن يخرجه أحد حتى تخرجه أمة محمد (صلى الله عليه وسلم)[٢] .

---

[١] – أوليا جلبي: سياحتنامه مصر، ص٦٢٦.

[٢] – ابن عبد الحكم، مصدر سابق ، ص ٦٠.

ابن إياس أورد نقلاً عن ابن عبد الحكم نبوءة جاء فيها" كان بالإسكندرية باب لا يزال مغلقاً وعلية أربعة وعشرون قفلاً ، فعزم المقوقس علي فتحه، فنهوه عن ذلك القساوسة والرهبان وقالوا له: لا تفتح هذا الباب وأجعل عليه قفلاً كما فعل من تقدمك من الملوك القبط، فلم ينته عن فتحه، وفتحه، فلما دخل فيه لم يجد به شيئاً من المال ورأي علي صدر الحائط نقوشاً علي هيئة تصاوير للعرب وهم علي خيولهم بعمائمهم وسيوفهم في أوساطهم وهم علي الخيل والإبل ورأي تحت هذه الصور كتابة بالقلم القديم.. معناه: إذا فتح هذا المكان أخر الزمان فتملك العرب المدينة في السنة التي يفتح فيها، وكان الأمر كذلك"[١].

كان فتح الإسكندرية إذاً مقدراً مكتوباً ـــ عاصمة مصر آنذاك ـــ وصور العرب الفاتحين مرسومة علي الحوائط وما كان في الإمكان أن يحول أحد دون ذلك، كما تمدنا الرواية ببعض الوصف الإنثوجرافي للفاتحين العرب وملابسهم وهيئتهم وطرق حياقم.ويبدو أن سيلاً من النبوءات، قد شاعت في المجتمع المصري، وأصبحت مألوفة في التراث المتعلق بالفتح الإسلامي لمصر ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن نصر المصري للمؤرخ المقريزي بأنه" كان علي باب القصر الكبير الذي يقال له باب الريحان عند الكنيسة المعلقة، صنم من نحاس علي خلقة الجمل، وعليه راكب عليه عمامة قوسا عربية، في رجليه نعلاً، كانت الروم والقبط وغيرهم إذا تظالموا بينهم واعتدي بعضهم علي بعض تجاروا إليه حتى يقفوا بين يدي ذلك الجمل، فيقول المظلوم للظالم أنصفني قبل أن يخرج هذا الراكب الجمل، فيأخذ الحق لي منك شئت أم أبيت. يعنون بالراكب النبي محمد صلى الله عليه وسلم فلما قدم عمرو بن العاص غيرت الروم ذلك الجمل لئلا يكون شاهداً عليهم.."[٢].

السيوطي أيضا يتحدث عن بربي (معبد) إخميم وما كان منقوشاً ومصوراً علي جدرانها من علوم وأسرار : "... وبربي إخميم، كان فيه صور الملوك الذين ملكوا مصر ... ويُقال إنه كان بها جميع ما يحدث في الزمان حتى ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه كان مصوراً فيها راكباً علي ناقة " [٣]

---

[١] – ابن إياس: (أبو البركات محمد بن أحمد) (ت ٩٣٠هـ): كتاب تاريخ مصر المسمى بـدائع الزهـور في وقائع الدهور(الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق، مصر المحمية، القاهرة ١٣١١هـ)، ص١٠٦.

[٢] – المقريزي : الخطط، ج١،ص ٣٢.

[٣] – السيوطي : حسن المحاضرة، ج١، ص٦٥، ص٦٦.

ويعلق ابن الزيات بأنهم: " كانوا يعنون بالراكب النبي صلى الله عليه وسلم ولما قدم عمرو بن العاص إلي مصر غيرت الروم ذلك الجمل وبلغني أن تلك الصورة في ذلك الموضع أتي عليها ألف سنة أو أكثر ولا يعرف من عملها فهذه عجائب مصر.."[1]. أما (ابن خرداذبة) المتوفى (سنة ٣٠٠هـ). يؤكد لنا براوية ساقها علي ما جلبت عليه أفهام الناس آنذاك من تصديق ما تريد أن تصدقه، وتؤمن به وتطوع النصوص من أجله، فيقول في سياق سرده لحادثة عثورهم علي كنز من كنوز المصريين القدماء : ".. ثم فتحت النيمخانجة القبلية فوجدنا فيها جرناً من حجر أصم أسود مطبق ...فإذا فيه شيخ ميت ، فوجدنا في جانب منه صورتين من ذهب إحداهما صورة رجل بيده حية، والأخرى صورة رجل علي حمار بيده عكاز وفي الجانب الأخر صورة رجل علي ناقة بيده قضيب.. وأجمعنا علي أن الصور لموسي وعيسي ومحمد صلى الله عليه وسلم أجمعين.".[2]

أما النبوءة التي وردت عند أحد الرحالة المسلمين فتقول: " وكان الملك طوطيس قد أسال نهر النيل إلي بحر السويس في عهد سيدنا إبراهيم، وبعد ذلك حينما سمع والد الملك المقوقس بطلوع شمس صاحب الرسالة المحمدية، بادر إلي سد الخليج نكاية بالرسول ولبث النيل لا يصل إلي السويس كما كان عهده."[3]

وبغض النظر عن صحة تلك الروايات وأسطوريتها فإننا نجد في ثناياها بعض الحقائق التاريخية وهي ثبوت اتصال بين العرب مؤثلوا العربية والإسلام بهذه الأرض المصرية ولما خبروها حدثوا عنها حديث الإعجاب والفتون قبل الإسلام، وسمعوا وصفها من القرآن وأكرم به وصفاً، وأعزز بأرض الجنات والعيون والزروع، والمقام الكريم وفيها قوله تعالي: " فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم" الشعراء/ ٨٥، ٥٩ . فقد كانت الجنات بحافتي النيل من أوله إلي آخره من الجانبين ما بين أسوان إلي رشيد".[4]

---

[1] – ابن الزيات (شمس الدين محمد): الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى (المطبعة الأميرية بمصر، القاهرة ١٩٠٧م)،ص٦٦ .

[2] – ابن خرداذبة: المسالك والممالك ، ص١٦٠ .

[3] – أوليا چلبي: سياحتنامه مصر،ص٦٦.

[4] – الخطط: ط١، ص٢٣.القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣١٥.

كما تقدم الروايات السابقة صدي لما عُرِفَ عن تلك القناة القديمة التي تصل النيل والبحر الأحمر التي ذكرناها سابقاً، وتقدم تعليلاً شعبياً عن كيفية اندثار تلك القناة. وتشير إلي توق الكثير من أبناء مصر إلي قدوم مخلص يخلصهم من الضيم الواقع علي كاهلهم، من خلال تمثال النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي يركب جملاً، وكانوا يلجأون إليه إذا ظُلموا وينتظرون عدْله، ويوقنون بمجيئه ليخلصهم. ومن المتعارف عليه أن انتظار المخلص (البطل) هو أمر مألوف وشائع في القصص الشعبي والسيَّر العربية.

وربما كان لظهور الناقة [1] بكثرة في الروايات التي تنبأت بظهور النبي صلى الله عليه وسلم تُعَد إشارة ودلالة لها علاقة بتقديس العرب للإبل وتأليهها وترتبط بنظرة العرب إليها من زاوية ارتباطها بمعتقداتهم ونمط تفكيرهم قبل الإسلام.[2] ولم تكن مثل هذه الاعتقادات والتصورات قاصرة علي الجاهلية بل امتدت إلي العصر الإسلامي فاتخذت العقلية الشعبية من الناقة مادة تتجلي مع معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم[3].

القراءة الشعبية للفتح الإسلامي لمصر جاءت زاخرة أيضاً بالحكايات الشعبية والأسطورية والنبؤات والإشارات التلميحية، وهو ما يعكس بوضوح تأثير ذلك النوع من القصص التاريخي الذي كان شائعا في مصر يومئذ على أيدي الإخباريين والرواة الذين كانوا يعقدون مجالسهم في المساجد والمحافل، ولما كانت الرواية شفوية كان لا بد من عنصر الإثارة والتشويق لجذب انتباه السامعين، ومن الواضح أن المؤرخين قد اعتمدوا على جانب كبير من هذه الروايات الشفوية التي

---

[1] – تعد فكرة الناقة من أكثر الأفكار تنوعاً في التراث العربي القديم ، فالناقة منبت كل ما أهم وأقلق وأحـزن الشاعر الجاهليّ ، والناقة هى خالقة الأساطير التي أخرجت الشعر من الغناء الساذج إلى التصدي الملح لفكرة المشكلات ، أو لنقل أن الناقةَ هى التي نقلت الفكر العربي قبل الإسلام مما نسميه طبيعة الملاحم إلى طبيعة الدراما والصراع فالعلاقاتُ الأساسية بين العربي والعالم في شكل مزاج من الرفض والقبول تكمن في هذه الناقة ، كما أن العربي القديم كان يظن الناقة رمزاً لكل هم أو اهتمام أساسيّ ، ولذلك لا ينافسها في خلق الأفكار شئ. انظر /ثناء انس الوجود : تجليات الطبيعة والحيوان في الشعر الأموي ،(طبعة الشركة المصرية العالميـة للنـشر، ، القـاهرة ١٩٩٨م)، ص٤٢.

[2] –أحمد إسماعيل النعيمي:الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، ص١٨١.

[3] – صلاح الراوي :الفولكلور في كتاب حياة الحيوان (سلسلة الدراسات الشعبية،العـدد ٧٣، القـاهرة ٢٠٠٣م)، ص٦٣.

تروي وقائع الفتح وأحداثه ،ومن ثّم كان طبيعياً أن تتأثر كتاباهم ــ لا سيما في القسم الذي يعالج أحداث الفتح ــ بأسلوب القصص التاريخي الذي تغلب عليه سمة الأدب أكثر من خاصية التاريخ.[1]، فامتزج فيها الخيال الشعبي بالحقائق، مسجلاً بطولات عمرو بن العاص ، وكرامات عمر بن الخطاب ومشركاً عروس النيل في تلك الأحداث، وهو في كل هذا لا يخالف النصوص التاريخية المعروفة، وإنما هو يزيد عليها ويضيف، ويجري الخيال في تعميق (الأخبار) تعميقاً درامياً، لتتحول إلى أحداث قصصية، ومن هنا خرجت من عباءة التاريخ لتدخل في إطار العمل الشعبي، أو القراءة الشعبية للفتح الإسلامي لمصر، ليصب في خانة الإضافة إلى (فضائل مصر) لا الخصم منها.

مثال ذلك؛ ما تناوله المؤرخون من أن الفاروق عمر رضى الله عنه أخبر عمراً أنه مرسل إليه كتاباً فإن أدركه قبل دخوله أرض مصر فليعد من حيث أتى، وأن أدركه بعد دخولها فليمض على بركة الله، وأن عمراً قد أدركه هذا الكتاب وهو ما يزال في فلسطين، فلم يقرأ الكتاب إلا بعد أن تأكد من أنه في أرض مصر.[2]

كلام لا سبيل إلى تصديقه وذلك لأسباب: منها أن فتح مصر كان واجباً لا سبيل إلى إرجائه، ولا إلى التمهل في أدائه، كما أن الفاروق رضى الله عنه ــ الذي قال: ما دخلت في أمر إلا وأنا أعرف كيف أخرج منه ــ لو لم يكن على قناعة من فتح مصر لرفض المضي فيه إذا طلب منه من غير حاجة إلى الكتاب المزعوم الذي سبق الحديث عنه. أضف لذلك أن (عمرو بن العاص) ما كان ليخدع الفاروق أو يغرر به، وهو على يقين من أن فتح مصر ليس أمراً سهلاً، وإنما هو في حاجة إلى عدد وعدة ولا سبيل إلى الحصول عليها إلا من الخليفة[3]، على هذا فإن الكتاب من الأساطير التي لا يؤيدها عقل ولا نقل.

أما العقل فللمحاذير التي سبق وأمطنا اللثام عنها، وأما النقل فلأن الطبري لم يذكره ولا أشار إليه وهو أقدم وأقرب المصادر إلى الصدق التي تناولت العصرين؛ الخلافي والأموي، وقد نسج على

---

[1] ــقاسم عبده قاسم، أحمد إبراهيم الهواري: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث(الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م)، ص ٢٥.

[2] ــابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٧٧

[3] – عبد العزيز غنيم: على هامش الفتح الإسلامي لمصر، مصر والإسلام،(سلسلة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد ٦٦، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٤٣ ص ٤٤.

منواله في أنه الكتاب الآنف الذكر ابن الأثير في تاريخه وابن عبد الحكم في فتوحه، والحافظ في البداية والنهاية، وذكره المقريزي في المواعظ والاعتبار وهو آخر هذه المصادر وأحدثها.

وعلى هذا فالرأي الأكثر رجحاناً؛ يذهب إلى أن بعض تفاصيل روايات المؤرخين إن لم تكن كلها، والتي روت وقائع (فتح مصر) شابها الكثير من الخيال والتحريف، حيث أن القراءة الشعبية للفتح لعبت دوراً لا بأس به في هذا الميدان الرحب، وإذا كانت وقائع هذا الفتح المبين ومراحله وتواريخه وفكرته قد اختلف في بعضها، بعض روايات المؤرخين وجنحوا بخيالهم في كثير من مراحله، فإن التحقيق لهذه الروايات والمقارنة بينها يحكي لنا بعضاً من حقائق سَيْر خطوات هذا الحدث الحاسم في تاريخ الإسلام.

جدير بالملاحظة أن هؤلاء المؤرخين لم يقتصروا في كتاباتهم التاريخية فيما يختص (بمصر وفتوحها) على المصادر التاريخية ـــ معاصرة وغير معاصرة فقط ـــ وإنما استمدوا مادتهم التاريخية كذلك من مصادر أدبية ودينية وعلمية بحتة. كما أنهم استمدوا معارفهم،وكثير من عناصر حوادثهم من مصادر مكملة، كالمشاهدة العينية ومعايشة الواقع والمشاركة والمشافهة والإجازات والسماعات، مما جعل ذلك مرتعاً خصباً لخيالات المؤرخين وفتح المجال واسعاً لتخمينهم وأهوائهم.[1]، ولتأييد ذلك نسجوا مرويات دينية حولها لإضفاء المصداقية عليها. مثل ما أورده القزويني ونسبهُ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "يا عمر سيفتح على يديك ثغران؛ الإسكندرية ودمياط، أما الإسكندرية فخرابها من البربر، وأما دمياط فهم صفوة شهداء، من رابطها ليلة كان معي في حظيرة القدس..".[2]

ولم يكتف الخيال الشعبي بالجانب الديني وحسب، بل قدم نصوصاً شعبية تناولت فتح العرب لمصر تناولاً يمزج بين الحقيقة والخيال، لتحرره من قيود التاريخ وانطلاقه في رحاب الإبداع الفولكلوري بشكل واضح وصريح، وهو على كل حال يؤكد أن (فتوح مصر) لم تمر على الخيال الشعبي دون استجابة يقظة، وانتباه واع بدور (القراءة الشعبية) في تسجيل بطولات هذا الحدث الهام.

---

[1] -محمد كمال الدين عز الدين :الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة ، دراسة عن التاريخ والمؤرخين (رسالة دكتوراه ـــ غير منشورة ـــ كلية البنات ، جامعة عين شمس ١٩٨٩م) ، ص ٦٤٤.

[2] – القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٩٣.

نلمح ذلك في رواية أوردها لنا أحد الرحالة المستأخرين تقول: "إن السبب في فتح مصر هو أن اليونانيين كانوا قد ازدادوا شوكة وطغياناً، بعد الاسكندر الأكبر، حتى وضعوا أيديهم على أقاليم الدنيا السبعة ،وفيها مصر التي أذلوا ملكها القبطي (المقوقس) وجعلوه عاملاً لهم، ثم أخذوا يتأهبون لغزو مكة والمدينة عن طريق (بني سويف) أثناء فيضان النيل فبدءوا بمنع تسيير السفن في النيل إلى السويس، الأمر الذي أفضى إلى حدوث القحط، والغلاء في المدينة ومكة، وهنا بادر صاحب الرسالة إلى العمل على إرغام أنوف الكفار لأذلاء فبعث بسيدنا عمر رضى الله عنه على رأس جيش يتألف من (ثمانين ألفا) إلى القدس ....".[1]

ويستمر الخيال الشعبي في عرض حوادث الفتح الإسلامي لمصر وسط بحر متلاطم من الحقيقة والخيال. ويعرض لنا عن وجود علاقات تجارية قديمة بين مصر والعرب قبل الإسلام ،حيث كانوا يحملون إليها تجارتهم وينقلون منها خيراتها وكان عمرو بن العاص فاتح مصر واحداً من التجار العرب الذين ترددوا عليها قبل ظهور الإسلام، فقد نقل المقريزي عن الكندي وغيره أن: "عمرو بن العاص كان تاجراً في الجاهلية، وكان يختلف بتجارته إلى مصر وهي الأدم والعطور.."[2] فالرابطة بين العرب والمصريين حقيقة قائمة منذ أقدم العصور، فجاءت تلك الحقيقة في بعض الروايات مغلفة بالأساطير ومحاطة بالمخلوقات الخرافية حبيسة الفولكلور حيث يقول : "كان عمرو بن العاص في الجاهلية، وقبل أن يتشرف بالإسلام من ذوي المكانة والشأن في قومه قريش ،وكان يتردد على الشام وبصرى، والقدس الشريف كل سنة. ففي ذات يوم بينما كان راقداً تحت شجرة على قارعة الطريق إذ بحيوان كبير الجثة، مثل الثعبان العظيم، قد ظهر وأخذ في مهاجمة شخص نائم تحت شجرة أخرى هنالك، فما كان من عمرو بن العاص إلا أن تناول قوسه ورمى الثعبان الهائل بسهم أصابه في مقتل، فسقط على الأرض يتلوى، وينفخ يميناً وشمالاً، وفي هذه الأثناء استيقظ النائم تحت الشجرة ونظر إلى ما حوله وقد تولاه الذعر والدهشة .. فما كان من هذا الشخص الناجي من أنياب الثعبان القاتلة إلا أن ارتمى على يدي عمرو، وقدميه يشكره على صنيعه.. وكان هذا الشخص فريد عصره ووحيد دهره في علم الأصطرلاب، ليرى طالع عمرو فوجد أنه يملك عرش مصر ويحكمها، فبادر إلى إعطائه حمل سبعين جمل من المال".[3]

---

[1] – أولياچلبي، سياحتنامه مصر ،ص ٥٤.

[2] –المقريزي: الخطط، ج١، ص ٥٦.

[3] – المقريزي : الخطط ، ج١ ،ص٤٥؛ أولياچلبي، المصدر السابق ، ص: ص ٥٤–٥٥.

ما يهمنا من تلك الرواية الممزوجة بالحقيقة والخيال معاً؛ هو اتساع نطاق الخرافات والأساطير في كتابات المؤرخين، في الفترة الزمنية الفاصلة بين ما كتبه ابن عبد الحكم وأقرانه في القرن الثالث الهجري، وبين ما ورد بالكتابات التاريخية المتأخرة في قرون لاحقة مع زيادة في تحريف الأحداث، والروايات الشائعة، والسّيارة التي حملت أصداء الخرافة، وأريج الأسطورة بطريقة تراكمية . انعكست على الكتابات التاريخية وما تداخل معها من روايات شفوية، سجلها لنا المؤرخون والكتّاب، اعتماداً في جزء كبير مما سطروه على الموروث الشفوي والمدون الذي كان سائداً في أوساط المجتمع المصري آنذاك. خاصة مع تزايد وتيرة اهتمام المسلمين بالتأريخ لمدنهم الكبرى والصغرى وحديثهم عن فضائلها مع حشد جمهرةً من الروايات المختلفة والتي من شأنها تعضيد مكانة مدنهم وبلدانهم، والتي عادة ما كانوا يرتبونها على مقدمة وعدة فصول وخاتمة، في ذكر مبدأ مصر وأول أمرها، وذكر حدودها، وذكر ملوكها وحكامها من قبل الطوفان إلى زمن الملوك في عصرهم، وكور مصر (محافظاتها ومراكزها)، وما ورد في فضل مصر من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ودعاء الأنبياء لمصر وأهلها، ووصف العلماء بها، ومن ولد بها من الأنبياء والحكماء والملوك والعلماء، وذكر فتوح مصر، وما بها من ثغور الرباط والمساجد الشريفة، ووصف من كان بها من العلماء والحكماء وعدة خُلُجها، وخراجها في الجاهلية والإسلام، وما اختصت به مصر من مأكول وملبوس ومشروب، ومتحدثين عن عجائب مصر وغرائبها، وذكر مقاييسها، وذكر القاهرة بالخصوص، وذكر محاسن مصر الكلية الجامعة، وذكر ما اختصت به مصر والقاهرة.

الفصل الرابع

الأساطير والحكايات التي تناولت

الحضارة المصرية القديمة وإنجازاتها

"....إقليم مصر هو الإقليم الذي افتخر به فرعون على الورى، وقام على يد يوسف بأهل الدنيا. فيه آثار الأنبياء ،والتيه وطور سيناء،ومشاهد يوسف، وعجائب موسى ، وإليه هاجرت مريم بعيسى ، وقد كرر الله في القرآن ذكره ، واظهر للخلق فضله . أحد جناحي الدنيا، ومفاخره لا تحصى. مصر قبة الإسلام ونهره أجل الأنهار وبخيراته تعمر الحجاز ، وبأهله يبهج موسم الحاج ،، وبره يعم الشرق والغرب . قد وضعه الله بين البحرين ، وأعلى ذكره في الخافقين . حسبك أن الشام على جلالتها رستاقه ،، والحجاز مع أهلها عياله ، وقيل أنه هو الربوة ، ونهره يجري عسلاً في الجنة ، قد عاد فيه حضرة أمير المؤمنين ونسخ بغداد إلى يوم الدين ، وصار مصره أكبر مفاخر المسلمين ...."

المقدسي

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/١٩٣

كان لحادثة الطوفان التي تصور الأقدمون وقوعها في عصور بعيدة دور هام في الفكر التاريخي، باعتبارها حادثة تاريخية عظيمة، تركت بصماتها على ذاكرة الشعوب وتناقلتها جيلا بعد جيل، فأصبحت بحق آية للعالمين (لا سيما مع وجود محاكي لها في بيئاتهم).[١]،وبقيت حيَّة في الأذهان وفي

---

[١] – ينظر للطوفان كحدث عالمي لكثرة التشاره وإن بتفاصيل مختلفة يقترب بعضها من الحادثة الحقيقية الـتي حدثت كما في أساطير السومريين والبابليين، ويبتعد بعضها الآخر عن تلك التفاصيل بحيث يطغى الخيـال علـى الحقيقة كما في أساطير الإغريق والهنود، فمثلا نقرأ قصة الطوفان في الملحمة الشعرية الهندية (مها بهراتـا) بطلـها يسمى (ريشي مانوا) (رئيس وباني) أي النبي، ويعتقد الاستراليون أن جزية سيلان أصبحت أصغر مما كانت عليه في الماضي لأن جزءا كبيرا من الجزيرة ابتلعه الطوفان، وتقول أسطورة بورمية أن الحدأة فتحـت ثغـراً في جمجمـة السرطان فغضب وانتفخت البحار والأنهار حتى السماء فوقع الطوفان، ولم تخل الأساطير الإغريقيـة لأكثـر مـن طوفان ، أساطير الطوفان منتشرة في جميع أنحاء العالم عند الشعوب المتحضرة والبدائية، وقد كشفت الحفريات التي تمت في منطقة بلاد ما بين النهرين، عن ألواح ورقم دوِّنت عليها ملاحم أدبية تتحدث عن الخليقة وفي سياقها تـرد حادثة الطوفان، فهناك الملحمة السومرية والملحمة الأكادية (البابلية) وفي تراث الهند الثقافي ملحمة ورد فيها عـن

ثقافة الشعوب المختلفة باختلاف في التفاصيل يزداد شيئاً فشيئاً كلما ابتعد عن (المركز) موقع حدوث الطوفان، بل وحين قسّم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة في محاولة منه لتطويع الفكر التاريخي في إطار يخدم الفكرة المسيحية القائلة بعودة المسيح لخلاص البشرية ، جعل من حادثة الطوفان محوراً هاماً في تقسيمه للتاريخ العالمي للبشرية.[١]، كما كان للطوفان بصمته على قراءة المؤرخين لتاريخ مصر من خلال ذكر تاريخها وملوكها قبل وبعد الطوفان، وحين تاهت عقول مؤرخي العالم الوسيط في تفسير أسباب بناء أهرام ومعابد وآثار مصر القديمة لم يكن في وسعهم سوى أن يتخذوا من (طوفان نوح) تكئة يستندون إليه في شروحاتهم ويتركوا لنا هذا القدر الهائل من الغموض ،والأساطير الذي يشهد بتفوق مصر ــ لسوء الحظ ــ في القدرة على إخفاء أسرارها العلمية إلى الحد الذي جعل بوسع كل من أراد أن ينكر حضارتها وينسب الفضل إليه، أن يفعل ذلك وهو بمأمن من المناقضة.

وتتلخص الخطوط العريضة للأسطورة في نقاط تتكرر كلها مع بعض التنويعات في بقية الأساطير اللاحقة، قرار إلهي بدمار الأرض بواسطة طوفان شامل، اختيار واحد من البشر لإنقاذ مجموعة صغيرة من البشر، وعدد محدود من الحيوانات، انتهاء الطوفان واستمرار الحياة من جديد

=الطوفان ما يشبه إلى حدّ ما ملاحم بلاد الرافدين والاسطورة اليونانية عن الطوفان مقتبسة من بلاد ما بين النهرين مع تعديل بسيط. وتبدو رواية التوراة والطوفان متشابهة مع رواية الطوفان في الأساطير السومرية والبابلية. أما القرآن الكريم فقد أجمل القصة كما ذكرنا ولم يحدد مكان وزمان الطوفان ولم يحدد من كان مع نوح، ولكن أكد على حقيقة الطوفان: محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص ص ٣٧–٥٠؛ مجموعة من الباحثين: طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، (سلسلة السراة، الطبعة الأولى، البحرين، ٢٠٠٥)، ص ١٢؛ كارم محمود عزيز، النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم، ص ص ٤٥–١٤٥؛ فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ص ص ١٥٧–٢١٠.؛محمد الحامدي: الطوفان بين الحقيقة والأسطورة (مجلة التراث العربي ، العدد ٥٨ ، دمشق ١٩٩٥م)،ص٦٧.

[١] –قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة وجعل مجرى العصور الستة مماثلة لمراحل عمر الإنسان وكانت غايته أن يوضح أن الوجود الإنساني سوف ينتهي بعودة المسيح وقيام القيامة في اليوم السابع وجاء التقسيم على النحو التالي: من آدم إلى الطوفان، من الطوفان إلى أبراهام، من أبراهام إلى داود، من داود إلى الأسر البابلي، من الأسر إلى ميلاد المسيح، العصر الحاضر: ؛قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، ص ٤٥؛ بيريل سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى (ترجمة : قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م)، ص ٣٩؛ آلبان ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبي ،(ترجمة : عبد العزيز جاويد، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ٢٢١، القاهرة ١٩٩٦م)، ص ١٨٣.

بواسطة من نجا من الإنسان والحيوان.[١]، وبهذا الشكل سنجد قصة الطوفان عند الكثير من اليهود والمسيحيين والمسلمين ، فضلا عن عامة الناس قد اعتقدوا بعالمية الطوفان.

وإن لم يكن اليقين كله فإن أقرب الأشياء إلى اليقين، أن يد الخيال طالت حادثة الطوفان في مدونات التوراة أو ترجماتها وتفاسيرها بإضافة تفردت بها "مدونة التوراة" دون غيرها من المصادر، فاستغلت حادثة (طوفان نوح) والإضافة التي تفردت بها مدونات التوراة من قبل اليهود ليسوغوا لأنفسهم ارتكاب المحظورات، واستعباد الآخرين، واتهام الأنبياء بارتكاب المحظورات، واستعباد الآخرين، واتهام الأنبياء بارتكاب الفاحشة أو بادعاء أنها بإيعاز منهم؛ فاتهموا نوحاً بالسكر والتعري، ولعن كنعان ومباركة سام.[٢]، ثم أرجعوا نسبهم إلى سام بن نوح وجعلوه حكراً عليهم بغرض التأسيس للنظرية السامية والتمييز بين الشعوب والأمم على أساس سلالي عرقي عنصري بغيض.

واكتنف حادث الطوفان الغموض والخرافة في آراء من قالوا بعالميته من المؤرخين وغيرهم؛ رغم عدم تصريح النصوص بذلك. فلم يكن الطوفان عالمياً، ولم يكن الناجون هم نوحاً وأبناءه وزوجاتهم فقط؛ ولم تصرح الأساطير بذلك ولا التوراة ولا القرآن الكريم[٣]،إلا أنه يمكن القول: أن طوفان نوح حقيقة لا مراء فيها، أهلك قوم نوح، وكان طوفاناً عارماً، وما جاء في الأساطير والتوراة مبالغ فيه ولا ينسجم مع معطيات الواقع، وقواعد المنطق. ورغم ذلك ظن أكثر الناس على اختلاف عقائدهم بأن الطوفان كان عالمياً، وتأسس على ذلك أكذوبة تسمى "السامية"[٤]، وتاه الناس في وهم ولا زالوا، كانت بدايته هوى ومطمعا فأصبح اليوم حقيقة وواقعاً، لأجل حفنة من

---

[١] -فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ص ١٥٧.

[٢] -أحمد عثمان: تاريخ اليهود (الجزء الأول، مكتبة الشروق، القاهرة ١٩٩٤م)، ص ٥.

[٣] – ذكرت قصة نوح في عدة سور بشيء من التفصيل في الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر وسورة نوح، وتختلف الآيات بالألفاظ بحسب ما تكون الغاية من إيراد الآيات والمراد من معناها.وروت التوراة في سفر التكوين في الإصحاح السادس والسابع والثامن قصة الطوفان، فأسهبت في سرد الأحداث، وبينت الأسباب والنتائج، ورواية التوراة فيها عناصر مشابهة للعناصر الموجودة في أساطير بلاد ما بين النهرين، وتختلف عنها في جوانب أخرى، وقد أثرت هذه الرواية في كافة أتباع الأديان الثلاثة: الموسوية والمسيحية، والإسلام

[٤] – السامية:نسبة إلى سام بن نوحعليه السلام، أما الحامية: فهي نسبة إلى حام بن نوحعليه السلام.

اليهود شاءوا أن يقنعوا العالم بأنهم شعب الله المختار ، فعبثوا بحقائق التاريخ والجغرافيا وعبثوا بسيرة الأنبياء الأطهار، ليثبتوا لأنفسهم حقاً غير مشروع ففعلوا، ولكنهم ما كانوا ليفلحوا لو كانت العقول متيقظة واعية، وما كان للخدعة أن تستمر ردحا من الزمن لو تحرر المؤرخون من التفسير التوراتي الذي هيمن على تناولهم لتفاصيل الحادثة التي دخل منها المؤرخون إلى تاريخ مصر وحضارتها القديمة.

يقول المقريزي : "الفرس وسائر الكلدانيون، أهل بابل والهند وأهل الصين، وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان وأقر به بعض الفرس .. ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس ولم يتجاوز عقبة حلوان ولا بلغ ممالك المشرق".[1]

ويضيف في "ضوء الساري" : "وأهل الهند والصين لا يقرون بذلك ، ويقول بعضهم أن الطوفان لم يحدث سوى في إقليم بابل، وما [وراه] من البلاد الغربية فقط.فإن ولد [كيومرت] الذي هو عندهم آدم كان بالشرق فلم يصلهم الطوفان ولذلك أهل الصين والهند لا يعرفون الطوفان".[2]، ويؤكد ابن خلدون في تاريخه : "واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط".[3] وأشار لذلك المسعودي بقوله : "وقد ذكر أن مواضع سلمت من الطوفان، يذكر ذلك الفرس وتزعم أنها لا تعرف الطوفان وكذلك الهند..".[4]،وقال البيروني: " لم يعم العمران كلها ولم يغرق فيه إلا أمم قليلة وأنه لم يجاوز عقبة حلون ولم يبلغ ممالك المشرق".[5]

---

[1] -الخطط، ج١، ص ٣٢٥.

[2] – المقريزي: (تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد)(ت٨٤٥هـ): ضوء الساري لمعرفة خبر تميم الداري،(مخطوط مطبوع غير محقق)، ، الرياض ١٤٢٣هـ.

[3] -ابن خلدون(عبد الرحمن بن خلدون)،(ت ٨٠٨ هـ): تاريخ ابن خلدون،(الجزء الثاني، سلسلة الذخائر، العدد ١٥٤، القاهرة ٢٠٠٧م)، ص ٥.

[4] -المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين) ت ٣٤٦ هـ: أخبار الزمان ومن إبادة الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية(ط. الأولى، الرياض ١٤١٥ هـ)، ص ٥٨.

[5] -البيروني (أبي الريحان محمد بن أحمد): الآثار الباقية عن القرون الخالية(مكتبة المثنى، بغداد، د.ت) ، ص٢٤.

وباتفاق في المعنى واختلاف في الألفاظ تجمع الروايات السابقة التي تناولت حادثة الطوفان على أنه كان محلياً، وقضى على الهمج والخطاة، ونجا نوح عليه السلام ومن معه من ذريته، وأهله وآخرون من غير الظالمين والكافرين.[١] بينما شذت مدونات التوراة بإضافة جيء بها في نهاية الحادثة، فنسبوا إلى النبي نوح (عليه السلام) السكر والتعري ولعن كنعان ظلماً ليحققوا أغراضاً خاصة ذات علاقة بخلافهم مع الكنعانيين، ثم استغلت تلك الإضافة لوضع بذرة التمييز العنصري والتأسيس للنظرية السامية وسطروا أساطيرهم بهتاناً وكذباً منذ أول يوم زورت فيه التوراة.

ورغم لا معقولية عالمية الطوفان، إلا أن الاعتقاد بعالميته ووصوله إلى مصر ساد في أوساط الناس؛ والذي أوهم السواد الأعظم منهم بهذا،هو ما ذهب إليه مفسروا التوراة حيث لم تخل تلك الروايات بشكل أو بأخر من تأثير الإسرائيليات التي كانت تعكس التفسير التوراتي لأصول شعوب المنطقة والتي كانت بدورها نابعة من التراث الثقافي والأسطوري لهذه المنطقة ذاتها، وانعكس ذلك التأثير في روايات المؤرخين في سياق حديثهم عن آثار الحضارة المصرية القديمة، بل اتخذوا من حادثة الطوفان باباً يعرجون منه إلى فضائل مصر وعجائبها و تاريخها الموغل في القدم.

يحكي البكري في (الروضة المأنوسة) أن " نوحاً عليه السلام لما طاف الأرض بالسفينة فصار كلما مر علي بلدة، خرج إلية الملائكة الذين يتولون حراستها، فيسلمون علي نوح عليه السلام، فلما مر علي مصر لم يخرج إلية أحد، فتعجب من ذلك ، فنزل عليه الوحي من الله تعالي ،بأن لا تعجب فإن كل بلدة قيدت لها ملائكة لحراستها إلا مصر ، فإني توليت حراستها بنفسي.. "[٢]

ما يهمنا في هذه الرواية ، هو استمرار (الموروث الشعبي) في استثناء مصر وتميزها عن غيرها مثلما سبق وتم استثناء مصر وأهلها من الذل الذي كتب علي أبناء حام ، وفقا للقصة العبرانية و كما تعكس إحساس أبناء مصر بمكانه بلدهم وأنها هبة ربانية اختصها الله دون سائر البلاد بالرعاية والحماية والخير .

روايات عديدة جمعها لنا المؤرخون تشير إلي أن المصريين كانوا أول من تنبأوا بالطوفان وأول من وضعوا الأساطير والقصائد الموزونة مثلما يقول المقريزي : " هرمس الأول الساكن بصعيد

---

[١] – محمد فيض الله الحامدي: طوفان نوح بين الحقيقة والأسطورة، ص ٦٧؛ مجموعة من الباحثين: طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، ص ٢١٧.

[٢] – الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة،ص٥٥

مصر الأعلى[١]، أول من نظر في علم الطب وألف لأهل زمانه قصائد موزونة في الأشياء الأرضية والسماوية وقالوا أنه أول من انذر بالطوفان، ورأي أن آفة سماوية تصيب الأرض من الماء والنار"[٢] .

وأضاف المسعودي:" كان عند أهل مصر علم الطوفان، ولم يقدروا كثرته ولا طول مقامه على وجه الأرض، فاتخذوا السراديب تحت الأرض وصفحوها بالزجاج وحبسوا الريح فيها بتدبيرهم، واتخذ الملك فليمون رأس الكهنة مع نفسه عدة له ولأهل بيته.."[٣]

مما تعكسه الرواية السابقة أن الكهنة في مصر كانوا هم الفئة التي حفظت العلم وتناقلته وكان لهم دور هام في العديد من جوانب الحياة في مصر القديمة وهكذا،تأثرت قراءة ورؤية المؤرخين لآثار مصر وحضارتها بحادثة الطوفان الذي شاع خبره بين الناس جيلا بعد جيل. لدرجة أنه انطبع على القراءة الشعبية للتاريخ وترك بصمته واضحة على وجدان الشعب المصري من خلال أمثاله العامية ليدل على حياة التمزق الأسري فيقول المثل السَّيار:" إن جه عليك البحر طوفان، حط ابنك تحت رجليك" وربما لأن الطوفان كان حادثة شاذة في التاريخ، فإن المثل أيضا يعبر عن الأنانية، ولكنه شذوذ يؤكد القاعدة التي تشير إلي شدة ترابط الأسرة المصرية واتحادها في وجه التقلبات وعقبات الزمن، وهذه الرؤية الشعبية نجد ما يعضدها من إشارات عند (ابن الزيات) في (الكواكب السيارة) عندما قال:" مَنْ ملك مصر بعد الطوفان، والمرأة التي أخذت ولدها على كتفها، وأغرقها الله تبارك وتعالى مع قوم نوح.. وكان لها ولداً وأخاً كانا في السفينة لم ينج من قوم نوح غيرهما، وذكر النسابة وذكر أنها من ولد رجل من مصر، لم ينج من الطوفان غيره..".[٤]

---

[١] – تقول إحدى الأساطير المصرية القديمة أن (توت) خرج من رأس الإله (ست) إله الشر عند المصريين القدماء بعد أن ابتلع (ست) مَنِي حورس بطريق الخطأ. ونتيجة لارتباط (توت) بالقمر صار إله الوقت و"حاسب الزمن" وبوصفه الرب الذي اخترع الكتابة فكان حاميا للكتبة أيضا وكان (توت)يوصف بأنه لسان رع أو قلبه وبوصفه حاميا لأوزوريس صار معينا للموتى أيضا. ولهذه الصفات جميعا قال الإغريق أنه(هرمس) إله الحكمة لديهم وهرمس في الأساطير اليونانية هو رسول آلهه الأوليمب .كما كان إله الطرق ومرشد المسافرين، كما أعتبره الإغريق إله الخصوبة مانحا للثروة وموزع الحظوظ، وهو ابن الإله زيوس من مايا ولد في الصباح. أنظر: قاسم عبده قاسم: بين التاريخ الفولكلور ص٥١ ،ص٥٧

[٢] – المقريزى: الخطط، جـ١ ، ص٢٧

[٣] – المسعودى:أخبار الزمان، ص٥٧

[٤] –ابن الزيات: الكواكب السيارة، ص ١٠.

وهكذا أثرَتْ المعطيات الدينية الحكايات الشعبية والمدونات التاريخية بالرؤى والأفكار التي حملت جزءاً من المعاناة الإنسانية ، التي تلونت بالسمة الدينية، ولا سيما فيما يرتبط بمواقف الناس من قصص الأنبياء ،وأخبار عاد وثمود وطوفان نوح، وقد أسدى المقريزي النصح إلي كل من ينظر في تلك الأخبار بتوخي الحذر لأن: "كل ما تتعلق معرفته ببدء الخلق وأحوال القرون السالفة، فإنه مختلط بتزويرات وأساطير؛ لبعد العهد، وعجز المعتني به عن حفظه وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أولم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ فالأولى أن لا يقبل من ذلك إلا ما يشهد به كتاب أنزل من عند الله يعتمد على صحته لم يرد فيه نسخ ولا طرقه تبديل أو خبر ينقله الثقات".[١]

شاعت حول أهرام مصر وآثارها أقاويل، ونظريات كثيرة اعتنقها المؤرخون القدماء. حيث تركوا لنا سيلاً من الافتراضات تتناقض فيما بينها خصوصاً عندما يشيرون إلى أسباب تشييدها، والكيفية التي شيدت بها تلك الأهرامات، فحركت خيال مؤرخيهم وكتّابهم، فراحوا يبحثون عن أسرارها، لماذا شيدت؟ وكيف شيدت؟ ومن شيدها؟ وماذا حدث؟ فحيكت الأساطير، وكثرت الأقاويل والخرافات، وتكاكأ الضباب حولها، ووصفوا تلك الأهرامات، أثبتوا دهشتهم الشديدة وانبهارهم بتلك الأوصاف التي قد تعتبر الشيء الوحيد المعقول من بين أقوالهم الأخرى.

وقد ورد الكثير من الحكايات في هذا الشأن؛ يقول المقريزي : "اعلم أن الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جداً .. وأعظم الأهرام الثلاثة التي هي اليوم قائمة تجاه مصر، وقد اختلف الناس في وقت بنائها واسم بانيها، والسبب في بنائها، وقالوا في ذلك أقوال متباينة أكثرها غير صحيح".[٢] وتشير بعض الروايات إلى هذا بقولها: "وما أكثر الروايات والأساطير التي تتداولها الألسنة في أصل هذه الجبال".[٣] ورغم ذلك لم يجد لها البغدادي ذكرا "في التوراة ولا في غيرها ولا رأيت أرسطو ذكرها"[٤] فكيف إذن بنوها أو شاركوا في بنائها؟!. ويذكر التلمساني: "أن أحوال الأهرام عجيبة

---

[١] – المقريزي: الخطط، ج١، ص ٢٥٠

[٢] –المقريزي، مصدر سابق، ج١، ص ٢٠٧.

[٣] –أولياجلبي، مصدر سابق، ص ٦١٧.

[٤] – البغدادي (موفق الدين أبو محمد): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، (سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ٣١٤، القاهرة ١٩٩٨م)، ص ١١٢.

وحكاياها غريبة وللناس فيها كلام كثير وهي من عجائب البلدان وغرائب البنيان".[١] ويقرر أبو الصلت :"أن الأهرام والبرابي فإنها من الآثار التي حيرت الأذهان الثاقبة واستعجزت الأفكار الراجحة ،وتركت لها شغلا بالتعجب منها والتفكير فيها..".[٢]، ولم يشذ الهروي عن ذلك القول: "الأهرام: من عجائب الدنيا وقد اختلفت الأقاويل بين الناس فيها ،وفيمن بناها. ما أريد بها..".[٣]، وأجمل المقدسي الآراء التي دارت في عصره حولها فقال: "سمعت في الأهرام أشياء مختلفة؛ فمنهم من قال: هما طلسمان ومنهم من قال: كانتا أهراء يوسف، وقيل بل كانت هي قبورهم وقرأت أنهما للرمل المحبوس".، ويستقر رأي المقدسي على أنهما مقابر : "آلا ترى إلى ملوك الديلم بالري كيف اتخذوا على قبورهم قباباً عالية".[٤]، وهكذا، للناس في أمرها اختلاف: فمنهم من يجعلها قبوراً لعاد وبنيه ومنهم من يزعم غير ذلك".[٥]

أما أسباب بناء الأهرام كما جاء في تلك الحكايات: يذكر أبو الصلت رواية تعكس استمرار تنازع الاتجاهات السائدة في ذلك الوقت سواء ؛العربية أو الإغريقية أو القبطية المصرية. ورغبة كل اتجاه في نسبة منجزات الحضارة المصرية القديمة إليه، تلبيه لحاجات ثقافية / اجتماعية آنذاك فيقول: "زعم نفر من الناس أن هرمس الأول المدعو بالمثلث بالنبوة والملك والحكمة، وهو الذي يسميه العبرانيون خنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم ـــ وهو إدريس عليه السلام ـــ استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعم الأرض، فأكثر في بنيان الأهرام، وإيداعها الأموال وصحائف العلوم ،وما يشفق عليه من الذهاب والدروس حفظا لها واحتياطاً عليها. ويقال : إن الذي بناها ملك اسمه سوريد بن سهلوق بن سرياق، وقال آخرون: إن الذي

---

[١] - التلمساني (ابن أبي حجلة أحمد بن يحيى) (ت ٧٧٦ هـ): سكردان السلطان (الطبعة الثانية، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م) ، ص ٤٦٠.

[٢] – أبو الصلت (أمية بن عبد العزيز)(ت ٥٢٨ هـ)، الرسالة المصرية،(ضمن نوادر المخطوطات، تحقيق : عبدالسلام هارون، المجموعة الأولى، الطبعة الثانية، مكتبة البابلي الحلبي، القاهرة ١٩٧٢م)، ص ٢٥.

[٣] –الهروي: (أبي الحسن علي)،(ت ٦١١ هـ): الإشارات إلى معرفة الزيارات (تحقيق علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٢م، ص ٤١.

[٤] –المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢١٠.

[٥] –ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٥٠ ، ٥١ .

بني الهرمين المحاذيين للفسطاط : شداد بن عاد، لرؤيا رآها. والقبط تنكر دخول العمالقة بلد مصر، وتحقق أن بانيها سوريد. لرؤيا رآها وهي آفة تنزل من السماء، وهي الطوفان".[١]

ويضيف ابن خرداذبة: "ويقال والله أعلم أنهما من بناء بطليموس القلوني الملك".[٢]

أما القزويني فيذكر أن : "من الناس من يزعم أن إدريس عليه السلام أمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائف العلوم؛ إشفاقاً عليها من الدروس واحتياطا عليها وحفظا لها..".[٣]، ومنهم من قال إنما عملوها خوفاً من الطوفان.[٤]

وباتفاق في المعنى واختلاف في الألفاظ تحدث كلّ من المقريزي والسيوطي عن أسباب بناء الأهرام فقالا: ".. قال جماعة من أهل التاريخ: الذي بنى الأهرام سوريد بن سلهوق بن شرياق ملك مصر، وكان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة؛ وسبب ذلك أنه رأى في منامه كأن الأرض انقلبت بأهلها، وكأن الناس هاربون على وجوههم، وكأن الكواكب تساقطت، ويصدم بعضها بعضاً؛ بأصوات هائلة، فأغمه ذلك، وكتمه، ثم رأى بعد ذلك كأن الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض في صورة طيور بيض، وكأنها تختطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين وكأن الجبلين انطبقا عليهم، وكأن الكواكب النيرة مظلمة، فانتبه مذعوراً وجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر ـــ وكانوا مائة وثلاثين كاهناً ـــ فأخذوا في ارتفاع الكواكب، فأخبروا بأمر الطوفان، فأمر عند ذلك ببناء الأهرام وملأها طلسمات وعجائب، أموالاً، وخزائن، وغير ذلك ، وزبر فيها جميع ما قالته الحكماء وجميع العلوم الغامضة، وأسماء العقاقير، منافعها ومضارها، وعلم الطلسمات (الألغاز والرموز)، والحساب والهندسة والطب، وكل ذلك مفسر لمن يعرف كتابتهم ولغاتهم، ولما أمر ببنائها ، وقطعوا الأسطوانات العظام والبلاطات الهائلة وأحضروا الصخور من ناحية أسوان فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة، وشدها بالرصاص والحديد والصفر، وجعل أبوابها تحت الأرض بأربعين ذراعاً. وكان ابتداء

---

[١] -أبو الصلت ، الرسالة المصرية، صـــ ٢٧ ، ٢٨.

[٢] -ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ١٥٩.

[٣] -القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٦٩.

[٤] -الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤١.

بنائها؛ في طالع سعيد، فلما فرغ منها، كساها ديباجاً ملوناً من فوق لأسفل، وجعل لها عيداً حضره أهل مملكته كلها.

ثم عمل في الهرم الغربي؛ ثلاثين مخزناً مملوءة بالأموال الجمة، والآلات والتماثيل المصنوعة من الجواهر النفيسة وآلات الحديد الفاخر والسلاح الذي لا يصدأ والزجاج الذي ينطوي ولا تكسر، والطلسمات الغريبة، وأصناف العقاقير المفردة والمؤلفة والسموم القاتلة، وغير ذلك، وعمل في الهرم الشرقي أصناف القباب الفلكية والكواكب وما صنع أجداده من التماثيل، وجعل في الهرم الملون [الأكبر] أخبار الكهنة في توابيت من صنوان أسود، ومع كل كاهن مصحفة، وفيها عجائب صنعته، وحكمته وسيرته، وما عمل في وقته ،وما كان وما يكون من أول الزمان إلى آخره. وجعل لكل هرم خازناً من قرب منه وثبت إليه من ناحية قصده وطوقت على عنقه فقتله .."[1]، ونجد ابن حوقل يناقش قيل عن الأهرام فيقول: "وقد ذكر قوم أنهما قبران وهما ليسا كذلك وإنما حدا صاحبهما أن عملهما أنه قضى بالطوفان وهلاك جميع ما على وجه الأرض إلا ما حصن في مثلهما فخزن ذخائره، وأمواله فيهما وأتى الطوفان، ثم نضب فصار ما كان فيهما إلى بيصر بن نوح."[2]، كما يؤكد الدمشقي أن :" السبب الموجب لبنائها استدلال هرمس بالأحوال الكوكبية على حدوث الطوفان فأمر ببنائها وإيداعها صحائف العلوم والأموال وما تخاف عليه من الذهاب الدثور.."[3]، وأن "هرمس الأول الذي يسمه اليونانيون أخنوخ بن يرد وهو إدريسعليه السلام علم بطوفان نوح إما بالوحي أو بالاستدلال .. فأمر ببناء الأهرام .."[4]

ما يهمنا في تلك الروايات عن أسباب بناء الأهرامات، هو تأثير قصة الطوفان عليها، وقد تبين لنا كيف يصير القصص الديني مادة لأمثال هذا النوع من القصص، كما تفصح عن ما كان للأهرامات من شغل شاغل في فكر المصريين، فلقد اكتنزوا فيها علومهم النافعة وفنونهم وأموالهم

---

[1] –المقريزي: الخطط، ج١، ص ٢٠٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ، ص ٧٠ : ص ٧٢؛ ابن محشرة الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٥٣؛ أولياچلبي: سياحتنا مه مصر، صــ ٦١٧، ص ٦١٧؛ الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول، ص ١٠٩ ، ص ١١٠.

[2] –ابن حوقل: صورة الأرض، ج١، ص ١٥٢.

[3] –الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٣٣.

[4] –القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٦٩.

وذهبهم، وادخروها لمن يأتي بعدهم، وينجح في حل طلاسمها وقراءة رموزها، مما يعني حكمة وحصافة وعلم لم يتسن لغيرهم من الأمم، و لسان حالهم يقول : "كونوا اسعد حظاً منا" فلم يكونوا أبدا من الجبارين والطغاة الذين استعبدوا شعوبهم وسخروهم فيما لا فائدة منه من أجل مجد شخصي، وإنما كان في مخيلتهم من أجل الإنسانية.كما أن أبا الصلت في روايته القائلة :"وهذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربي على ما شاهدناه منهما "[١]. يكشف لنا عن أن الهرم الثالث كان مازال مطموراً لم يكشف عنه بعد حتى حوالي عام ٤٨٧هـ .

كما أن هذه الحكايات تعيد إلى الأذهان قصة حلم فرعون الذي ربط القصص الديني بينه وبين يوسف بن يعقوب، ذلك الحلم الذي كان نبوءة بكارثة الجوع، وما كان من تأويله، والقيام بتخزين، وحفظ القمح المصري في سنوات الوفرة إلى سنوات الجوع، كما أننا نجد في الرواية الأخيرة والتي سجلها كلٌ من السيوطي والمقريزي والتي تنسبها السيوطي إلى مجهول مبهم وغير محدد سماه "جماعة من أهل التاريخ" ؛ الذين هم في الحقيقة رواة التاريخ الشفاهي الفولكلوري، الذين تختلط في رواياتهم بقايا المعرفة التاريخية الحقيقية ببقايا الأساطير ،التي تحولت إلى مأثورات شعبية حيث تشكل هذه المأثورات الفولكلورية في بعض جوانبها: "الحجرة الخاصة" للتاريخ؛ وهي الحجرة التي تضع فيها الطبقات الشعبية عواطفها، وتخزن فيها موروثها التاريخي ــ كما ينبغي أن يكون لا كما كان ــ وتودع فيها تصوراتها ورؤاها وحكمتها العملية، والباحث المدقق في رواية السيوطي عن الأهرام سيجد فيها مزجاً أدبياً بين الحقائق التاريخية والمأثورات الشعبية ــ أو أنه بتعبير آخر سيجد صياغة فولكلورية لبعض الحقائق التاريخية القليلة التي وصلت لعصر السيوطي، وهي صياغة تحاول أن تملأ الفراغات التاريخية بالخيال الأدبي: وهو تقليد عرفه المؤرخون والجغرافيون والعلماء العرب منذ العصور الإسلامية؛ عندما انفتح أمام العرب عالم العجائب والغرائب والحقائق في البر والبحر ، في البلدان الحقيقية والبلدان الأسطورية وكانت مصر بالتالي في طليعة تلك البلدان.

سبب آخر رآه المؤرخون دعى إلى بناء الأهرام يقول عنه البيروني: ".. وقالوا أن أهل المغرب لما أنذر به حكماؤهم ــ يعني الطوفان ــ بنو أبنية كالهرمين المبنيين في أرض مصر، إذا كانت الآفة من السماء دخلناها ، وإذا كانت من الأرض صعدناها، فزعموا أن آثار ماء الطوفان، وتأثيرات

---

[١] أبو الصلت : الرسالة المصرية ، ص٢٧.

الأمواج بينه على أنصاف هذين الهرمين لم يجاوزهما .. وقيل أن يوسف .. جعلهما هرياً وجعل فيهما الطعام والميرة لسني القحط".[1]، ويعتمد المسعودي على جماعة من رواة التاريخ الشفاهي الشعبي في قوله: "فإني سمعت جماعة من أهل الخبرة يخبرون أن يوسف النبي صلى الله عليه وسلم حين بنى الأهرام اتخذ مقياساً لمعرفة زيادة النيل..".[2]، ويشير إلى ذلك صاحب "آكام المرجان" بقوله: "الهرمان ارتفاعهما مائة ذراع وهي من صخرة وبها كان يجمع الطعام في أيام يوسف عليه السلام".[3]

ونجد قول البلوي حين يتحدث عن فضائل مصر فيقول: "إن بها الأهرام القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر البديعة الإنشاء كأنها القباب المضروبة في جو السماء وبها كان يجعل الطعام في أيام يوسفعليه السلام..".[4]، وقال المقدسي:" ومنهم من قال كانتا أهراء يوسف عليه السلام".[5]بينما اقترب المؤرخ (ابن ظهيرة) من بعض الحقائق التاريخية والتي تتصل بجوهر عقيدة البعث والخلود لدى القدماء المصريين فيقول : "لم تزل مشايخ مصر يقولون: الأهرام بناها شداد بن عاد ،وهو الذي بنى الغار وجند الأجناد وهي الدفائن، وكانوا يقولون بالرجعة، فكان إذا مات أحدهم دفن معه ماله كائناً من كان وإن كان صانعاً دفنت معه آلته..".[6]

في الروايات السابقة والتي جعلت من الأهرامات (أهراء) أو مخازن خزن فيها النبي يوسف عليه السلام القمح يتبين لنا كيف يصير القصص الديني ـــ مرة أخرى ـــ مادة لأمثال هذا النوع من القصص، وكيف يستمر لجوء الخيال الشعبي إلى الخرافة، والحكايات الشعبية لسد النقص في سطور القصص الديني أو لتأكيد الإيمان بالقصص الديني نفسه كإضافة إلى رصيده في الوجدان الشعبي لا الخصم منه، كما يتبين لنا أن أصحاب النزعة الإسلامية من المؤرخين حاولوا أن ينسبوا كل شيء في

---

[1] -المسعودي: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ٢٤.

[2] -المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٣٤٤.

[3] -المنجم (اسحق بن حسين): آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان،(بريـسدة ١٤٠٧هـــ)، ص٢٣.

[4] -البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص ٢٢٠.

[5] -المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢١٠.

[6] -ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٥٦.

مصر القديمة إلى يوسف عليه السلام، ولا شك أن تياراً يهودياً ساعد في هذا وأكده؛ فحكاية أن يوسفعليه السلام هو باني الأهرامات وصاحب عمارتها، وأمرها .كل هذا ربما دخله عنصر إسلامي قرآني من ناحية، ودخله عنصر يهودي مغرض وفاهم ومنظم في دنيا الأخبار والتاريخ من ناحية أخرى، وسنجد الكثير من الكتابات التاريخية خضعت لهذه الأخبار موردة لها عن اقتناع ديني مرة، وعن اقتناع عصبي مرات، ولكنها ـــ الكتابات التاريخية ـــ لا تغفل في كل أخبارها دور يوسف عليه السلام في حياة مصر، محملة كل خيراتها له ولجهوده بما في ذلك بناء الأهرام.

وفي أوربا العصور الوسطى، كادت قصص العهد القديم عن يوسف عليه السلام في مصر أن تكون لها وجودها المستقل؛ فقد كانت موضوعات شعبية لتزيين صناديق الجوهرات، وفي كنيسة سان مارك التي بنيت على طراز البازيليكا في البندقية القرن الحادي عشرالميلادي، رُسمت قصة يوسف عليه السلام بالموزايكو. في سقف الرواق الشمالي، حيث تجد يوسف الوزير يشرف على تخزين الغلال، وكانت هذه الغلال تشاهد مخزونة في الأهرام، التي صورها الفنان أبنيه، وعددها خمسة ولها نوافذ، وفكرة أن الأهرام كانت مخازن الغلال للفراعنة (أو شئون يوسف عليه السلام) لها تراث طويل استمر حتى القرن السادس عشر الميلاد.[١]، وقد سببت ارتباكا لبعض أولئك الرحالة اللاحقين الذين سافروا إلى مصر، والذين كانوا قد عرفوا الكُتّاب الكلاسيكيين من أمثال هيرودوت الهاليكارناسي الذي زار مصر حوالي سنة ٤٥٠ ق.م، وقد وصف هيرودوت أهرام الجيزة، وسجل طريقة بنائها مثلما حكاها له الكهنة.[٢]

---

[١] -آن وولف: كم تبعد القاهرة؟ (ترجمة: قاسم عبده قاسم، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد ١٠٥٣، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص ٨٦، ص ٨٧.

[٢] -يبدو أن هيرودوت حيث زار مصر، كان قد وقع في حبائل مجموعة من آفاقي الإدلاء والكهنة الجهلاء، الذين حشوا دماغه بمعلومات هي أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقة ؛ فهو أول من قال : "بأن الهرم قد بني بالسخرة واستغرق بناء الهرم نفسه عشرين عاماً، وأن ملك مصر حين أفلست خزائنه من المال الكافي لاستمرار تمويل عمليات البناء طلب من ابنته أن تمارس الدعارة، والرذيلة في ماخور. وأمرها أن تحصل على مبلغ معين لم يذكروا له مقداره من كل من يأتيها، فضلا عن حصولها على ما أمرها به أبوها، فكرت بدورها في ترك أثر خاص بها؛ لذلك كانت تطلب إلى كل من دخل عليها أن يهديها حجراً، ومن هذه الأحجار ـــ فيما يقال ـــ بني الهرم الذي يقع بين الثلاثة وهم أمام الهرم الأكبر .هيرودوت يتحدث ن مصر(ترجمة : محمد صقر خفاقة، دار القلم، القاهرة ١٩٦٦م)، ص ٢٥١: ص ٢٥٤.

وواصل المؤرخون وسط بحر متلاطم من الخرافة الحديث عن كيفية بناء الأهرام ونسج المؤرخون والرحالة معلومات من وحي خيالهم ، وأكثر بعداً عن منطق الأشياء وظل المؤرخون خلال أمد طويل لاحق يمزجون بين التاريخ التوراتي والبعد الأسطوري فيما يتعلق بأهرام مصر وكيفية بنائها، حتى ساد الاعتقاد بأن المصريين الذين صنعوا تلك الآثار، ناس غير طبيعيين يتمتعون بقدرة فائقة على الإتيان بالخوارق، وأنهم قد استعانوا بالسحر في تنفيذ كل هذه الإنشاءات الهائلة؛ ويرجع هذا الاعتقاد بصفة أساسية إلى عدم معرفة أسرار الكتابة المصرية القديمة التي كانت مدونة على تلك الآثار.

ورغم أن الرحالة العبدري يصف أهرامات مصر بقوله : "على شكل مخروط وليس لها باب ولا مدخل، ولا يعلم كيف بنيت"[1]، إلا أن السؤال ظل ملحاً على أذهان الناس بما فيهم المؤرخين والرحالة سواء من الشرق أو الغرب وشيدت الأهرام في مخيلة الناس باستخدام السحر أحياناً أو بالمعجزات الإلهية أو بواسطة عمالقة من البشر أحياناً كثيرة.

يقول المسعودي: "كان القوم يبنون الهرم مدرجاً ذا مراقي كالدرج فإذا فرغوا منه نحتوه من فوق إلى أسفل..".[2]، ويسوق التجيبي قولاً: "أن سبب حسنها ـ الأهرام ـ أنها نحتت بعدما بنيت فخفي بسبب ذلك ما استعين به على إلصاقها ..".[3]، ويعلق البغدادي على ذلك: "والعجب في وضع الحجر بهندام ليس في الإمكان أصح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل إبره ولا خلل شعرة وبينهما طين كأنه الورقة لا أدري ما صنعته ولا هو ..".[4]، ويقرر ابن زولاق: "لا يعلم في الدنيا حجر على حجر في هذا الوسع... ولا يقدر الخلق على عمل مثلها، ولم يقوهما إلا خالق الأرض".[5]

---

[1] ـالعبدري (أبي عبد الله محمد بن مسعود) (ت ٧٠٠ هت) : رحلة العبدري (تحقيق: علي إبراهيم كردي. الطبعة الأولى، دار سعد الدين، دمشق ١٩٩٩م)، صـ ٣١٦.

[2] ـمروج الذهب، ج١، ص ٣٥٠، العبدري: الرحلة ، صـ ٣١٧.

[3] ـمستفاد الرحلة والاغتراب، ص ١٦٦.

[4] ـالإفادة والاعتبار، ص ٩٢.

[5] ـابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص ٧١.

ويشرح الإسحاقي كيفية بناء الأهرامات بقوله: "...لما شرع في بنائها؛ أمر بقطع الاسطوانات العظام واستخدم الرصاص من أرض المغرب، وإحضار الصخور من ناحية أسوان فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة: الشرقي ، والغربي، والملون ، وكانوا يمدون البلاطة ويثقبونها ويجعلون بوسطها قضيباً من حدي قائما ويربكون عليها بلاطة أخرى مثقوبة ويدخلون القضيب فيها ثم يذاب الرصاص ويصب في القضيب حول البلاطة إلى أن أكملت وجعل ارتفاع كل واحد من الأهرام مائة ذراع بالذراع الملكي .. ولما فرغت كساها ديباجا ملونا من أسفلها إلى أعلاها..".[١]

ويعلق (ابن جبير) على بناء الأهرام فيقول: "قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة، وركبت تركيباً هائلا، بديع الإلصاق، دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها..".[٢]

أما المقريزي فقد حاول مناقشة كيفية بناء الأهرام مناقشة علمية فقال: "فكرت في بناء الأهرام، فأوجب علم الهندسة العملية ورفع الثقيل إلى فوق، أن يكون القوم هندسوا سطحاً مربعا، ونحتوا الحجارة ذكراً وأنثى ورصوها بالجبس البحري إلى أن ارتفع البناء مقدار ما يمكن رفع الثقيل، وكانوا كلما صعدوا ضموا البناء حتى يكون السطح الموازي للرفع الأسفل مربعاً أصغر من المربع السفلاني، ثم عملوا في السطح المربع الفوقاني مربعا أصغر بمقدار ما بقي في الحاشية، ما يمكن رفع الثقيل إليه، وكلما رفعوا حجرا مهندما رصوه إليه ذكرا وأنثى إلى أن ارتفع مقدار مثل المقدار الأول، ولم يزالوا يفعلون ذلك إلى أن بلغوا غاية لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك فقطعوا الارتفاع، ونحتوا الجوانب البارزة التي فرضوها لرفع الثقيل ونزلوا في النحت من فوق إلى أسفل، وصار الجميع هرماً".[٣]

والأهرامات كانت قرينة (أبو الصلت) على ما وصل إليه المصريون القدماء من تقدم في علم الهندسة فيقول: "كان فيهم ــ المصريون ــ طائفة من ذوي المعارف والعلوم خصوصاً بعلم الهندسة والنجوم. ويدل على ذلك ما خلفوه من الأشغال البديعة المعجزة ؛ كالأهرام والبرابي (المعابد)، فإنها من الآثار التي حيرت الأذهان الثاقبة واستعجزت الأفكار الراجحة وتركت لها شغلاً بالتعجب

---

[١] -الإسحاقي: أخبار الأول فيمن ملك مصر، ص ١١٠.

[٢] -ابن جبير: الرحلة، ص ٥٠.

[٣] -المقريزي: الخطط، ج١، ص ١١٤، الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص ٦٣.

منها والتفكير فيها..".[1]، ويصفها الاصطخري بقوله :"مربع الأسفل ثم لا يزال يرتفع ويضيق حتى يصير أعلاه نحو مبرك الجمل وملئت بنيانه بكتابة يونانية، وفي داخله طريق يسير فيه الناس رجالة".[2]

أما الرحالة اليهودي (بنيامين التطيلي) (القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي). فقد كان له رأياً مخالفاً فقال عن الأهرامات [3] أن في الجيزة:" الأهرام التي بناها السحرة مما يندر نظيرة بين مباني العالم ..".[4]، فما أكثر الروايات والأساطير التي تتداولها الألسنة في أصل هذه الجبال الاصطناعية..".[5]، خصوصاً بعد أن بَعُدَ زمانهم عن زمان بناء الأهرام بنحو ٤٠٠٠ سنة أو يزيد، ولذلك شاعت بينهم معلومات مغلوطة، يبدو بعضها وقد اختلق اختلاقا بقصد ادعاء المعرفة بأسرار الغرائب والعجائب، حتى ولو كان ذلك على حساب العقل والمنطق وبديهيات التفكير السليم.

وهكذا، بنيت الأهرامات باستخدام السحر في نقل أحجارها الضخمة من المحاجر إلى مكان البناء، إذ يبدو بوضوح أن تلك الروايات تأثرت بما شاع عن المصريين من فنون السحر، كما قدمت لنا صورة عن أفكار الناس وآرائهم عن الأهرام والتي عدوها من فضائل مصر، كما تعكس مدى انشغال الذهنية الشعبية بأخبار تلك الآثار. فراح الوجدان الشعبي يضيف من تصوراته وموروثاته إلى تلك الروايات، فجاءت متعددة بمقدار انشغال الوجدان الشعبي بها.

أما الأرصاد الحافظة للأهرام والروايات التي شاعت حولها فقد تأثرت كذلك بما عرف عن المصريين من إتقان للسحر حيث: "كان أهل مصر أعلم الناس بالسحر، وأقواهم عليه، وانتشر

---

[1] –الرسالة المصرية: ص ٢٥.

[2] –الاصطخري (أبي إسحاق إبراهيم بن محمد) :المسالك والممالك،(تحقيق: محمد جابر عبد العال، سلسلة الذخائر، العدد ١١٩، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص ٤١.

[3] — ارتبطت بالأهرام العديد من الخرافات ، وقد نقل لنا الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي ما يتداوله الناس عن تلك الأهرام ، وهو على أية حال لم يزعم كغيره أن اليهود هم الذين بنوها أو حتى شاركوا في بنائها .

[4] –بنيامين (ابن يونة التطيلي النباري الأندلسي)،(٥٦١–٥٦٩ هـ): رحلة بنيامين التطيلي(ترجمة:عزرا حداد، دراسة: عبد الرحمن الشيخ، الطبعة الأولى، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢م)، ص ٣٥٣.

[5] – أولياجلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٦١٧.

ذلك فتناذرهم الناس.."[1]، وعلى هذا يصف (ابن الظهيرة) أهرام مصر وعلاقتها بالسحر في قوله: ".. ليس على وجه الأرض بناء أرفع منهما ــ الهرمان ــ منقور فيها بالمسند كل سحر وطب وطلسم.."[2]، ومن هنا يؤكد (أولياجلبي) أنه :"ليس هناك شك في أن هذا البناء العجيب ــ الأهرام ــ مطلسم؛ لأننا حينما وصلنا الحوض المذعور، بهتنا كلنا وتولتنا الحيرة، والدهشة، وأحاط بنا النصب والأذى لمن كان جهة، فعدنا بأعجوبة، ولكن بكل مشقة وبلاء، وقد كادت أرواحنا تفارق أجسامنا؛ من هول الموقف حتى وصلنا إلى الهواء الطلق، وتنفسنا الصعداء ودبت الحياة فينا من جديد.."[3]

وبإسناد مبهم وغير محدد يضيف (التلمساني) : "يُحكى أن الذي بناها ملك يُقال له سلموق بن درمسيد؛ الذي أغرقه نوح عليه السلام بالطوفان .. وأنه لما بناها وكّل بكل هرم منها روحانياً يحفظه؛ فوكّل بالهرم البحري ،وهو المفتوح الآن روحانيا في صورة امرأة عريانة مكشوفة الفرج، ولها ذوائب تصل إلى الأرض، فإذا أرادت أن تستفز الإنسي ضحكت في وجهه وجرّته إلى نفسها، فتطعمه وتسخر به، وحكى من رآها عريانة عند هذا الهرم أنه امتلاء قلبه رعباً، وعدل عنها ولم يكلمها ولم تكلمه. ووكّل بالهرم الذي إلى جانبه روحانياً في صورة غلام أمرد أصغر عرياناً، وذكر جماعة أيضا أنهم رأوه علي جانبه مرة بعد مرة، ثم يغيب عنهم، ووكل بالثالث وهو الصغير روحانياً في صورة شيخ في يده مبخرة، وهو يبخر بها، وعليه ثياب الرهبان، ذكر قوم من أهل الجيزة أنهم رأوه مرات في أطراف النهار، فإذا قربوا منه يغيب عنهم، ولم يظهر فإذا بعدوا عنه عاد إلى حالته التي كان عليها.."[4]

وقدمت لنا كتب التراث؛ صورة عما كان شائعا من روايات شفوية ومكتوبة عن الأهرام، وأدلى المؤرخون والأدباء والرحالة بدلوهم فيما رأوه. عاكسين بذلك بعض الأفكار التي سادت المجتمع المصري حول هذه الأعاجيب، كيف أن تلك الأفكار كانت مزيجاً من الحقيقة والخيال، لدرجة أنها: "حيرت الأذهان الثاقبة، واستعجزت الأفكار الراجحة أو تركت لها شغلا بالتعجب

---

[1] ــابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٤٨.

[2] ــابن ظهيرة، محاسن مصر، ص ١٥٥.

[3] ــسياحتنامه مصر، ص ٦٢١.

[4] ــسكردان السلطان، ص ٤٥٩؛ الخطط: ج١، ص ٢١٠.

منها والتفكير فيها".[١]، على حد قول الرحالة (أبو الصلت الأندلسي) ولدرجة أن الخيال الشعبي أضفى على الأهرام هالة قدسية؛ مثلما للكعبة المشرفة من قداسة ومكانة في نفوس تابعيها؛ ففي تلميح إلى وجود أرصاد حارسة للأهرام استعار (الخيال الشعبي) هيكل أسطورة (إساف ونائلة[٢]) العربية دون المضمون خاصة حينما حاولا أن يفعلا الفاحشة في جوف الكعبة فيقول المسعودي : "... وحكي أن رجلا وامرأة دخلا (الهرم) للفجور فصرعا جميعاً فلم يزال مصحوبين مشهورين إلى أن ماتا... وحكي أن قوما دخلوا الهرم، ومعهم غلام يعبثون به، فخرج عليهم غلام أسود في يده عصا، فأخذ يضربهم ضربا وجيعاً، فخرجوا هاربين وتركوا طعامهم، وشرابهم، وبعض ثيابهم، وقد أصاب قوم في بربا إخميم مثل ذلك...".[٣]

المدقق في تلك الروايات سيجد أن الحديث عن أولئك الخدام والروحانيات والطلاسم، والصيغ السحرية التي وضعت لحماية الأهرام، تتصل بما صار يعرف بلعنة الفراعنة، ويشير هذا إلى أن الاعتقاد في وجود تلك اللعنة والرصد قديم، كما تشير أيضا إلى أن أماكن الآثار المصرية كانت من الأماكن المحببة إلى الناس ارتيادها كما تدل على ما ابتلي به المجتمع المصري من أمراض اجتماعية كالزنا واستيلاء شهوة المردان الملاح على قلوب البعض، أضف لذلك ما تعكسه الروايات من اعتداد المصريون بتاريخهم وآثارهم حيث كانوا ينظرون إلى الأهرام باستمرار نظرات ملؤها الاحترام والتقديس وهو ما نكتشفه في الروايات التي تناثرت في كتابات المؤرخين عن عبادة الأهرامات.

تشير الكتابات التاريخية إلى انتشار ما اصطلحنا عليه في العصر الحديث بظاهرة ـــ الافتتان بالمصريات ـــ[٤]، بين شعوب العالم الوسيط وأن تلك الظاهرة قد اتخذت أطوارا متباينة وأشكالا

---

[١] –الرسالة المصرية، ص ٢٥.

[٢] ـــ أسطورة إساف ونائلة: ملخصها كما جاءت في كثير من كتب الأدب ، أن (إسافاً ونائلة) رجل وامـــرأة تمكن الحب من قلبيهما فأصبحا عاشقين ، وكانا يرغبان في اللقاء والاجتماع بعيداً عن أعين الرقباء ، فلـــم يجـــدا مكاناً يلتقيان فيه خفية غير الكعبة ، فأحدثا في الكعبة فعوقبا على ذلك بأن مسخا حجرين كما أن الآلهة لم تـــرض عن هذا اللقاء في هذا المكان ، وكانت قد حظرت عليهما اللقاء في الكعبة حرم الآلهة .علي عبد الحليم محمـــود : القصة العربية في العصر الجاهلي ،ص١٥٥.

[٣] –المسعودي:أخبار الزمان، ص ٥٣.

[٤] –ظاهر الافتتان بالمصريات: ما يعرف اليوم بـــ "الاجيبوتومانيا" وهي نوع من الولوع أو الافتتان الـــشديد بمعرفة المعلومات التي تتصل بمصر وتاريخها وحضارتها القديمة، وهو أيضا ضرب من ضروب الجنون يتميز بالانفعال الشديد في الانعطاف نحو شئ ما، وهي ظاهرة عامة تفشت بين عشرات الملايين من الناس على مدى آلاف السنين، انتشرت بين معظم الشعوب التي تنتمي إلى حضارات قديمة أخرى غير الحضارة المصرية.

عدة، ونتيجة لشيوع الأساطير والخرافات حول الأهرام بين شعوب العالم الوسيط، نشأ نوع من "الحج" لزيارة الأهرام، فتوافد ـــ خلال العصور الوسطى ـــ مئات الألوف سواء من الشرق أو الغرب، وخلد المؤرخون تلك الزيارات في سياق حديثهم عن عجائب مصر فيقول (أوليا‌چلبي): "..إذا كان جبل الهرمين في تلك العصور مزارا للخاص والعام، لأنه مقبرة يزوروها، ويتطوفون بها مثل الكعبة، وقد دام الحال على هذا المنوال منذ عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام".[١]، ويضيف أنه: "كان يؤم هذين الهرمين في ربيع كل سنة مئات الألوف من الناس من أنحاء العالم ويزورونهما..".[٢]، ويشير الغرناطي إلى أن :"الصابئة تزعم أن هذه القبور ـــ الأهرام ـــ أحدهما قبر غاثمور، وهو عند شيث، والآخر قبر هرمس، وإليه تنسب الصابئة على قول من يزعم ذلك، وهم يحجون إليها ويذبحون عندها الديكة، وما يريدون علمه من الأمور المغيبة...".[٣]، كما يذكر البغدادي: "أنه كان يحج إليهما، ويهوي نحوهما من أقطار الأرض".[٤]، وأن الصابئة تحجهما من حران".[٥].

وطاف الخيال الشعبي حول الأهرام فخلع عليها صفات استعارها من الأفكار الإسلامية والعربية عن الكعبة وكسوتها فيسوق الهمذاني رواية تقول: "ذكر الشريشي في شرح المقامات: أن بين الجيزة والأهرام سبعة أميال.. وروى في بعض أخبارها أن عليها مكتبوب؛ بنينا هذه الأهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد في ستمائة سنة، فإن الهدم أهون من البناء، وكنا نكسوها حريراً فاكسوها بعدنا حصراً..".[٦]، أضف لذلك ما لاحظه المؤرخون من أن الحج وصفات القداسة لم تقتصر على الأهرام فحسب بل حاز تمثال "أبو الهول" على قدر كبير من تلك الصفات القدسية

---

[١] – ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٥٤؛أوليا چلبي : سياحتنا مه مصر، ص ٣٧.

[٢] –نفسه، ص ٦١٨.

[٣] –الغرناطي (أبي حامد محمد)(ت ٥٦٥ هـــ): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب (تحقيق : علي عمـــر، الطبعـــة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٩٤.

[٤] –البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٩٤.

[٥] –الكندي: فضائل مصر، ص ٦٦.

[٦] –الهمذاني (بهاء الدين محمد بن حسين) (ت ١٠٣١ هـــ): المخـــلاة (الطبعة الثانية، مكتب مصطفى البـــابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م)، ص ٢٥٨.

وأعده البعض أحد أركان مناسك الحج إلى الأهرامات حيث كانت الصائبة "تحج إليه" وتقول: يا أبا الهول إليك قد حججنا..".[1]

وإذا كانت الأهرام قد ظلت قابعة في غياهب الخرافة والأساطير. فإنه بسقوط سلطان الرومان في مصر، هوى "أبو الهول"[2] في غياهب الإهمال والنسيان، أما السافي أبداً أن الرمال التي لم تعد يكبحها أوامر الملوك في الأساطير. فقد طفقت تغرقه شيئا فشيئا إلا على الرأس فوق سطح الأرض، الذي أصبح فريسة للعوامل الجوية والتعصب الديني، ومع ذلك الإهمال والإعراض الذي كان فيه، فلقد ظل أبو الهول يمارس تأثيره الخلاب علي عقول الذين ينظرون إليه، وحفظ لنا الكثير من التكهنات عن أصله وطبيعته في كتابات المؤرخين المسلمين، في حين صار اسمه الأصيل تعبيراً شائعاً يرادف اللغز في كل أذهان العالم الوسيط والإسلامي تقريبا حتى أعتبره كثير من الناس أنه يستحق الإعجاب والتقدير أكثر من الأهرام، إذ أنه يروع الإنسان بسكونه وصمته المهيب.

وأفاضت المصادر التاريخية في الحديث عن تمثال أبي الهول، فوصفته وتحدثت عن اسمه وأشارت إلي دورة ووظيفته في حياة مصر والمصريين،ولقد أورد "السبتي" من أخباره: "بمقربة من هذه الأهرام الثلاثة رأس صورة من حجر صلد هائل المنظر، على صورة رأس الإنسان، غير أنه غاية في الكبر،قد قام كالصومعة العظيمة ووجه هذا الرأس مقابل الأهرام وظهره إلي القبلة مهبط النيل

---

[1] –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٥٤؛ الأقفهسي(شهاب الدين بن العماد)،(ت ٨٠٨هـ): كتاب أخبار نيل مصر، (تحقيق: لبيبة مصطفى، نعمات محمد، الطبعة الأولى، دار الكتب، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص ٦٢.

* والصابئة: من الفرس الذين عبدوا قوى الطبيعة، وهم القائلون بالأصنام الأرضية للأرباب السماوية، أي الكواكب متوسطون إلى رب الأرباب، ينكرون الرسالة في الصور البشرية عن الله تعالى ولا ينكرونها عن الكواكب، انظر: المقريزي، الخطط، ج١، ص ٢٦١ : ص ٢٦٢؛ كرد على: خطط الشام، ج٦، ص ٢١٣، (ط. دمشق ١٩٢٨م).

[2]– أبو الهول: اصطلاح مأخوذ من التعبير المصري شسب عنخ shesep ankh ومعناه "الصورة الحية" تمثل قوة وسلطة فرعون، تمثال رأسه بشرية وجسده جسم أسد ضخم رابض، وهو حامي الخير وطارد الشر، وكان الهدف من إقامته حماية المتوفى بإبعاد الأرواح الشريرة عن المقابر، وكان الأسد بالنسبة للمصريين القدماء، حارس بوابات الفجر، ويواجه "أبو الهول" كرمز شمس للإله "رع" اتجاه الشرق، مستقبلا الأشعة الأولي للشمس الساطعة في أول أيام الربيع، بريان م. فاجان: نهب آثار وادي النيل (ترجمة: أحمد زهير، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص٢٤٨،آنا رويز: روح مصر القديمة(ترجمة إكرام يوسف ، سلسلة المشروع القومي للترجمة ، العدد ٩٦٥، القاهرة ٢٠٠٥م)، ص٢٤٥.

ويدعوه أهل مصر بأبي الأهوال.. ويزعمون أنه طلسم للرياح، وأنه لو ذهب لأتلف ريح مصر، والله أعلم بحقيقة ذلك، وبما كان المراد منه، وبما مر عليه من الدهور والعصور"[١]

أما القزويني فقد كانت روايته مختلفة فيما يتعلق بوظيفة "أبو الهول" فقال:" ومن عجائب مصر أبو الهول، وهو صورة آدمي عظيمة مصنعة، وقد غطي الرمل أكثره. يقال: أنه طلسم للرمل لئلا يغلب على كورة الجيزة، فإن الرمال هناك كثيرة شمالية متكاثفة، فإذا انتهت إليها لا تتعداه، والمرتفع من الرمل رأسه وكتفاه. وهو عظيم جداً، وصورته مليحة كأن الصانع فرغ منه.. وهو مصبوغ بالحمرة.."[٢]

وتحت عنوان "ذكر الصنم الذي يقال له أبو الهول" يقول المقريزي في خططه:" هذا الصنم بين الهرمين عرف أولاً ببلهيب، وتقول أهل مصر اليوم – سنة ٧٨٠هـ تقريبا– أبو الهول .. ويقال أن أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن النيل .."[٣]

ويورد المقريزى من أخبار ما كان يعرف بـ" سرية أبي الهول" فيقول: "ويقابله –يعنى أبا الهول– في بر مصر، قريبا من دار الملك، صنم عظيم الخلقة والهيئة متناسب الأعضاء كما وصف، وفي حجره مولود – وعلى رأسه ماجور الجميع صوان مانع، يزعم الناس أنها امرأة، وأنها سرية أبي الهول المذكور،وهي بدرب منسوب إليها،ويقال لو وضع على رأس أبي الهول خيط ومد إلي سريته لكان على رأسها مستقيما ويقال إن أبا الهول طلسم الرمل عن النيل، وإن السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر"[٤]

وسلكت بعض الروايات مسلكا مخالفا للروايات السابقة فتقول:" ويقال أن هذا الرأس – أبو الهول– كان في الزمن الماضي يكلم القادمين والرائحين، من الزوار، وقد جعل له طلسم بحيث ينبئ عن هجوم عدو على مصر، أو ظهور قحط أو غلاء ونزول الأمطار وامتناعها، ومقدار فيضان

---

[١] – السبتي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص١٦٧، ابن جبير: الرحلة، ص٥١.

[٢] – القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٦٩.

[٣] – الخطط: جـ١، ص١٢٣: ص١٢٤.

[٤] – الخطط: جـ١، ص١١٢.

النيل أو عدم فيضانه، أو موت أحد أو حياته، أو بالاختصار كان يخبر عن المغيبات الخمسة"[1] وهي الرواية التي رفضها المقدسي وعدّها من المزاعم الباطلة بقوله "وثم صنم –أبو الهول– يزعمون أن الشيطان كان يدخله فيكلمهم حتى كسر أنفه وشفتاه.."[2]

هكذا، نلحظ أن الروايات حول آثار مصر القديمة كانت تسير في خط صاعد،فيما بين كتابات المؤرخين، مما أدي إلي تراكم رصيد ضخم من الأساطير والخرافات التي راجت حول حضارة مصر القديمة، في محاولة لفك رموزها والوقوف على أسرارها، كما تكشف عن النظرة الإيجابية إلي آثار القدماء المصريين، والتي رآها الوجدان الشعبي أنها تقوم بدور هام في حياة الناس، وأن لكل منها دور ووظيفة في الحفاظ على خيرات مصر وأمن وسلامة أهلها.

كتابات المؤرخين بما حملته من (موروث شعبي) حول آثار مصر تؤكد أنه لم ينظر إلي تلك الآثار على أنها أوثان أو مظاهر للكفر والوثنية يجب تحطيمها أو إزالتها إلا في حالات نادرة وشاذة تؤكد على القاعدة، وهي أن مصر، واسطة العقد بوسطيتها. يدل على ذلك الروايات التي أوردها المؤرخون عما لحق بوجه أبي الهول من تشويه،وما كان من أمر تحطيم أنفه، وسط بحر لجي من الأساطير التي أحاطت بما ترتب على ذلك التشويه من آثار ضارة لحقت بأرض مصر فيقول أحد المؤرخين: "وفي زماننا –٧٨٠هـ– كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية، سعيد السعداء، قام في نحو سنة ثمانين وسبعمائة لتغيير أشياء من المنكرات،وسار إلي الأهرام،وشوه وجه أبي الهول،وشعثه، فهو على ذلك إلى اليوم، ومن حينئذ غلب الرمل على أرضي كثيرة من الجيزة، وأهل تلك النواحي يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضي فساد وجه أبي الهول ولله عاقبة الأمور.."[3]

ومن بوابات الأسطورة دخلت بعض الروايات لتفسير تشويه وجه أبي الهول فتقول: " لما بلغ ذلك موسى عليه السلام ذهب إليه – أبو الهول– وقال له: إنك قادر على التحدث فيجب عليك أن تؤمن بي أنا رسول الله الحق، فقال له أبو الهول إني أومن بإدريس عليه السلام ولا أُؤمن لغيره،

---

[1] – سياحتنا مه مصر، ص٦٢٣.

[2] –أحسن التقاسيم، ص٢١٠.

[3] – المقريزى:الخطط، جـ١، ص١٢٣،ص١٢٤.

فغضب موسي وكان عاتياً، وضرب أبا الهول بعصاه، وثلمه عدة ثلمات، وخدش فمه وأنفه وقال:" اسكت يا ملعون"، وانصرف ومن ذلك اليوم صمت أبو الهول، ولم يعد يتكلم. ولا تزال آثار عمل موسي باقية على رأسه،ولم تزل عيناه مخدوشتين،ومع ذلك فهو صنع إنسان بديع،وأثر عجيب"[١]

ما يهمنا في تلك الروايات هو انشغال الوجدان الشعبي بقصص الأنبياء التي لم تشبع حاجات هذا الوجدان الروحية،فراح يضيف من تصوراته وموروثاته إلي تلك القصص التي حفظتها لنا الكتابات التاريخية، خاصة ما يتعلق بالمعجزات الموسوية العديدة التي ينسبها رواة التراث لموسي عليه السلام والتي نجد إشارات لها في القرآن الكريم أو مدونات التوراة، كما نجد كيف أضاف" الوجدان الشعبي" العديد من التفاصيل فيما يتعلق بكرامات ومعجزات عصا موسي عليه السلام التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي من عادات التراث الشعبي.

حيث أورد لنا أخباراً ترسم ملامح ومعجزات وكرامات لا حصر لها تختلف قليلا فيما بين المؤرخين والتي جاءت في سياق الموروث الشعبي الذي جمعه لنا هؤلاء المؤرخين.وتكشف لنا عن جوانب أخري للقراءة الشعبية لسِّير الأنبياء حيث يتفاعل فيها الواقع بالحلم والأسطورة، وتجسد لنا رد الفعل التخيلي للجماعة الشعبية لطبيعة معجزات الأنبياء وأخبارهم.

وربما حمل هذا النوع من القصص الشعبي المتعلق بآثار الحضارة المصرية، رسالة تحذير لمن يتجرأ ويتطاول على حرمة الآثار وانتهاك قدسيتها، وتؤكد على نبذ الناس في مصر لكل الأفكار الشاذة، نلحظ ذلك في سياق عرض بعض الروايات لأسباب تهشم وجه " أبو الهول" فيقول: " كان في خانقاة الصلاحي صوفي متعصب يدعى محمداً – محمد صائم الدهر– وكان يقول بحرمة صور الحيوانات. وفي سنة ٧٨١هـ،تصدي هذا الصوفي لتهشيم فم أبي الهول وأنفه أكثر مما هشما بيد موسي عليه السلام، وأقدم على هذا العمل دون أن يحصل على إذن بذلك من حاكم ذلك الوقت، وبينما هو يحاول ذلك هبت ريح عاتية بحكمة الله على مدينة الجيزة فحالت دون وصول البرسيم والغلال وسائر الأرزاق إلي القاهرة حيث غرقت في الرمال، فقبض الحاكم على محمد الذكور

---

[١]– سياحتنا مه مصر، ص٦٢٢،ص٦٢٣.

وقطعه إرباً إرباً، وأمر بدفنه بجانب أبي الهول، ولا يزال زوار أبي الهول يرجمون قبر ذلك الصوفي المنحرف..".[١]

أما المعابد المصرية القديمة، فقد كانت معلما بارزا من معالم الحضارة المصرية القديمة، وقد أثارت اهتمام المؤرخين والرحالة المسلمين، فأفاضوا في الحديث عنها، وكانوا يعرفونها بـ" البرابي"[٢] ويقول المقريزي في أصل برابي مصر أنها :" تنسب إلي براب بن الدر مسيل ابن نخويل بن خنوخ بن فار بن آدم عليه السلام.[٣]

وكعادة العرب في اهتمامهم بالأنساب وإرجاعهم كل شيء إلي جد أسطوري أعلى، فأرجعوا الاسم إلي "براب" هذا وكأنها عرفت به ونسبت إليه وهو تعليل وتفسير وجدنا أمثاله_ فيما سبق_ من الحديث عن أصل الاسم "مصر".

وعرفها القزويني بقوله: " البربا عبارة عن بيت عمل فيه شجر أو طلسم.."[٤] ورآها البعض أنها: "من أبنية مصر القديمة.. وهي بيوت حكماء القبط ويقال أنه كان بكل كورة من كور مصر بربا، يجلس بها كاهن على كرسي للتعليم.."[٥] ووصفها البعض الأخر على أنها:" مخزن لذخائر القوم الذين قضوا من أهل مصر بالطوفان قبل وقته بقرنين.."[٦] وأضاف المقريزي أن:" بمصر أبنية يقال لها البرابي من الحجارة العظيمة الكبيرة، وهى على أشكال مختلفة.. عملت لصناعة الكيمياء"[٧]

---

[١] – المقريزي : الخطط ،ج١ ،ص٣٨؛ أوليا جلبي : سياحتنا مه مصر، ص٦٢٣

[٢] – البرابي: بيوت الحكمة (المعابد) وهي الدور التي كان المصريون القدامى يتعلمون فيها العلوم وخاصة اللاهوتية. انظر: مروج الذهب، جـ١ ، ص٣٦٠-٣٦١، فضائل مصر وأخبارها، ص٦٥، حاشية (٩)، معجم البلدان، جـ١ ،ص٥٣٢.

[٣] – الخطط، جـ١ ، ص٣٧.

[٤] –آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٣٩.

[٥]– الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر،ص٣٥.

[٦] – ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٥٩.

[٧] –المقريزي: المصدر السابق، ص٣٧.

بربا إخميم كان من أشهر البرابي التي ذكرها المصادر التاريخية إذ أنه" من الهياكل المتحدث بغرائبها في الدنيا، هيكل عظيم شرقي المدينة المذكورة وتحت سورها – يقصد إخميم–، طوله مئتا ذراع وعشرون ذرعا وسعته مئة وستون ذراعا، يعرف عند أهل هذه الجهة بالبربة وكذلك يعرف كل هيكل عندهم.. قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع، ويأتي في صُمِّ الحجارة من ذلك ما لا يأتي في الرخو من الخشب، فيحسب الناظر له استعظاماً له، أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه، لضاق عنه. فسبحان الموجد للعجائب.. وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم، ومرآه إحدى عجائب الدنيا التي لا يبلغها الوصف، ولا ينتهي إليها الحد.."[1]

هكذا، ظلت البرابي المصرية لها سحرها الخاص، ورهبتها في النفوس على مر العصور، وقد حظيت بعض البرابي شهرة تاريخية واكتسبت قدسية لدي الخيال الشعبي الذي تدخل كثيرا برواياته المشبعة بالخيال ليغير ما يراه من حقائق أو يقدم تفسيرا لما قد غمض عليه فهمه حول أسباب إنشاء البرابي ووظيفتها في المجتمع المصري.

يقول ابن عبد الحكم: " لجأت إحدى ملكات مصر، وهي دلوكة[2] إلي عجوز ساحرة، كانت السحرة تعظمها، ويستشيرها فرعون في كثير من الأمور قبل غرقه..فقالت لها دلوكة: احتجنا إليك في شيء تصنعينه يكون حرزا لبلادنا ممن يرومه من الملوك، إذ بقينا بغير رجال. فأجابتها إلي ما أرادت وصنعت لها بربا، وهو بيت له أربع أبواب إلي أربع جهات..وقالت: قد عملت لك شيئا يغنيك عن الرجال والسلاح والحصن، فإن أتاكم من البر يكون على الخيل والبغال والحمير،وإن من أتاكم من البحر يكون في السفن، فعند ذلك تحركت الصور التي هي مثلهم وتشاكلهم فما فعلتم بالمصور أصابهم مثل ذلك في أنفسهم.."[3]

---

[1] –ابن جبير: الرحلة، ص٦٢، المقريزي: نفسه، ص٢٣٩.

[2] – دلوكة: هي الملكة دلوكة بنت زباء، رآها الوجدان الشعبي، أنها كانت ذات عقل ومعرفة وتجارب، ولهـا شرف عال بين نساء مصر الذين بقوا بمصر بعد غرق فرعون وأصحابه، وقد ملكت مصر ثلاثين سنة، وكانت تبلغ من العمر ١٦٠سنة. لمزيد من التفاصيل عنها راجع: فتوح مصر،ص٤٧،ص٤٩، الخطط، جـ١، ص١٩٩، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٣٣٤، الأقفهسي، كتاب أخبار مصر، ص٦٦.

[3] –ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ص٤٨، القزويني: آثار البلاد، ص١٣٩، المسعودي: مروج الذهب، جـ١، ص٣٥٩، الحميرى: الروض المعطار،.ص١٦–١٧.

تدلنا الرواية على الجانب الاعتقادي الذي ارتبط بآثار مصر وبالبرابي والتي شاعت بين الناس،بأن فيها من الأسرار والطلاسم والكنوز ما يمكن أن يكشف عنه الإنسان ويستفيد منها إذا عرف الوسيلة إلي ذلك، كما يكشف عن النظرة التي إلي وجود أسرار خفية وأن لكل أثر أو حجر دور ووظيفة يؤديها في حياة الشعب المصري لدرجة أن السيوطي يقول عنها:" ويقال أنه كان فيها - بربا إخميم- جميع ما يحدث في الزمان حتى ظهور رسول الله صلي الله عليه وسلم، وأنه كان مصوراً فيها راكبا على ناقة.."[١]

أما المقريزي فقد أورد أن الهدف من بنائها هو رغبة الملك: " يقال أن اسمه دومريا، وأنه جعل هذه البربا مثلاً للأمم الآتية بعده، وكتب فيها تواريخ الأمم والأجيال ومفاخرهم التي يفتخرون بها،وصور فيها الأنبياء والحكماء وكتب فيها من يأتي من الملوك إلي آخر الدهر"[٢]

عجائب بربا إخميم ورد عنها العديد من الحكايات التي نسجتها الذهنية الشعبية، والتي أضفت علي تاريخ وآثار الحضارة المصرية القديمة قدراً من الحيوية، وبالطبع لم تكن أسرار العصر القديم قد تكشفت بعد.لذلك كانت مرتعا خصباً للخرافات والأساطير التي دارت حول عجائب تلك الآثار. منها ما رواه ابن محشرة في قوله:" رأيت في بربي إخميم صورة عقرب، فألصقت عليها شمعا فلم أتركها في موضع إلا أن انحاشت العقارب إليها من كل موضع وإن كانت في تابوت اجتمعت حول التابوت"[٣]

ويورد المقريزى من أخبار عجائب هذا البربا:" ذكر أهل إخميم أن رجلا من الشرق وكان يلزم البربا ويأتي إليه كل يوم ببخور وخلوق فيبخر ويطيب صورة من عضادة الباب فيجد تحتها دينارا..فيأخذه وينصرف"[٤] ويصفه المقريزي بقوله:" بربا إخميم عجب من العجائب بما فيه من الصور وأعاجيب، وصور الملوك الذين يملكون مصر وكان ذو النون الإخميمي يقرأ البرابي فرأي فيها حكماً عظيمة فأفسد أكثرها.[٥]

---

[١] -السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص٦٥.

[٢] - المقريزي: الخطط، جـ١، ص٤٤٨.

[٣] - الاستبصار في عجائب الأمصار، ص٦٠، المقريزي: المصدر السابق، ص٤٤٧.

[٤] - الخطط، جـ١، ص٢٤٨، الحميرى: الروض المعطار، ص١٨.

[٥] - الخطط، جـ١، ص٣١.

ويقول المقريزي أيضا" يقال أنه كان في بربا (معبد) إخميم شيطان قائم على رجل واحدة. وله يد واحدة قد رفعها إلي الهواء وفي جبهته وحواليه كتابه، وله إحليل ظاهر ملتصق بالحائط، وكان يذكر أن من احتال حتى ينقب على ذلك الإحليل حتى يخرجه من غير أن ينكسر، ويعلقه على وسطه فإنه لا يزال منعظاً أن ينزعه، ويجامع ما أحب ولا يفتر ما دام معلقا عليه، وأن بعض من والي إخميم أقتلعه فوجد منه شيئا عجيبا من ذلك" [١]. وأشار المقريزي إلى تمثال مشابه بالإسكندرية على :" صورة صنم قائم وله إحليل إذا أتاه المعقود والمسحور ومَنْ لاينتشر ذكره فمسحه بكلتى يديه انتشر ذكره وقويَّ على الباه". [٢]

العديد من البرابي الأخرى التي حمَّلها الخيال الشعبي بالأساطير انتشرت في أرجاء مصر فنجد في "بلاد أسوان بربا، وبأتفوا بربا، وبشامة وطامة بربا وياسنا بربا، وبقوص بربا وبدندره بربا عجيبة، وبالبهنسة بربا عجيبة، وبشاطئ النيل فيها بين أسوان وجبل الطير برابي منحوتة في الجبال كالمعابد للمتفردين من الناس وبأنصنا بربا". [٣] أما بربي [بربا] سمُنودَ فقد دار حولها روايات تشي بمدى رهبتها في النفوس فيقال عنها :" قد خزن فيها بعض عمالها قرضاً فرأيت الجمل إذا دنا من بابها بحمله وأراد أن

---

١ – الخطط، جـ١، ص٠ ٢٤.

٢ – المقريزي :الخطط ، ج١، ص٣٣. نستشف من رواية المقريزي أنه ربما كان يتحدث عن الإله المصري القديم " مين" "MIN" فهو حامي إخميم وقفط وحامي الطريق إلي بلاد العرب، فكان الأول " مين" يصور بجسمه النحيل ووقفته المتصلبة الخجلة، ويبدو طويلا جدا بالريشتين اللتين يضعهما على رأسه والجزء الظاهر من جسمه، خارج ثوبه المحكم حول جسده ولونه الأسود، أما ذراعه الأخرى فوضعها تحت ثوبه أمسك بيده الذكر الإلهي المنتصب، وقد شبه الإغريق الإله "مين" بإلههم "بان" (PAN) ، وقد وصف "هيرودوت" موكبا للإله "مين" الذي ظل متوارياً في الوجدان الشعبي المصري حتى ظهر في شخصية "علي كاكا" وهو شخصية غريبة تدل على ولوع المصريين بعلاقاتهم الجنسية، إذ هي شخصية رجل يلبس الحذاء ويلبس في وسطه حزاماً تتدلى منه قطعة على شكل (العضو التناسلي الذكوري) في أضخم أنواعها، وقد رأى البعض أن شخصية "علي كاكا" لا تعكس ولع المصريين بعلاقاتهم الجنسية، وإنما هي دفقة من التيار التحتي للموروث الشعبي الذي يسري في اللاوعي الجمعي للمصريين . ديمتري ميكس وآخرون: الحياة اليومية للآلهة الفرعونية(ترجمة فاطمة محمود، سلسلة الألف كتاب الثاني، القاهرة، ٢٠٠٠م)، ص ٣٧٣؛ جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة(ترجمة : أمين سلامة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٦م)، صـ ٣٢٨ .؛أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية (ط. الثانية ، القاهرة، د.ت)،ص٣٣٧

٣ –الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، صـ ٣٥.

يدخلها ، سقط كل دبيب في القرظ فلا يدخل منها شئ إلى البربا ".[١] ، أما عجائب بربا إسْنا فقد تحدث عنها الخيال الشعبي بقوله :"إن الفأر لا يدخلها ، وإن دخلها مات ".[٢]

ولم تكن المسلات المصرية[٣]، بأحسن حالاً من البرابي، فيما يتعلق بالخرافات والأساطير التي دارت حولها، وعنها يقول المقدسي: "وبعين شمس شبه منارتين طويلتين ، قطعة واحدة على رأسها شبه حربة تسميان المسلتين، وتم أيضا على هذا العمل دونهما وسمعت فيهما أشياء لا يقبلها العقل، وقرأت في كتاب الطلسمات أنهما طلسمان للتماسيح ويجوز هذا، ألا ترى أن التماسيح في كورة الفسطاط لا تضر مع عظمها وكثرتها".[٤]وقيل عن عجائبها أيضاً أن :" الشمس تطلع على [المسلة] الجنوبية منهما في أقصر يوم في السنة ، وعلى الشمالية في أطول يوم في السنة".[٥]،" وفيهما صورة إنسان على دابَّة وعلى رأسيهما شبه الصومعتين من نحاس فإذا جاء النيل قَطَرَ من رأسيهما ماء ويظهر حتى يجري إلى أسفلهما".[٦] فلم يستطيع الخيال الشعبي أن يفسر تكثف بخار الماء علي السطح الأملس للمسلات علي شكل قطرات ندى فعدها من العجائب ، ورغم الخرافات والأساطير التي تداولها الناس فقد وصف المؤرخون المعالم الخارجية للآثار المصرية كأبنية جسيمة، وأثبتوا دهشتهم الشديدة وانبهارهم بتلك الأوصاف التي قد تعتبر الشئ الوحيد المعقول في أقوالهم.

أما اللغة المصرية القديمة، فقد جاء حين من الدهر كانت فيه تلك اللغة، تمثل لغزاً محيراً للعقول، هاجساً يؤرق الناظر فيقف أمامها مشدوداً مشدوهاً، إلى أن خرج (جان فرانسوا شامبليون) من

---

١ – القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣، ص٣٢٣.

٢ – نفسه ، ص٣٢٤.

٣ –المسلات : حجر طويل مستدق يشبه القلم رأسه هرمية الشكل، كانت على علاقة بعبادة الشمس، استولى الأثريون الأوائل على كثير منها وتسمى (OBELISK).

٤ –أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، صـ ٢١٠؛ القلقشندي : صبح الأعشي ،ج٣،ص٣٢٤.

٥ – القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ،ص٣٢٥؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص١٢١.

٦ – ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص١٢١.

مصر، وفي أحدى يديه مفتاح الهيروغليفية [1]، بهذا المفتاح أضاف إلى تاريخ البشر، خمسة آلاف عام أو يزيد، فكان إيمانه بمصر كعصا موسى: يبطل معها كل سحر[2]. ولما كانت تلك الرموز مثار اهتمام الرحال والمؤرخين وغيرهم وباتت سراً مستغلقاً على مدى العصور ومثار دهشة، فما كان للخيال الشعبي أن يقف أمامها عاجزاً طويلا إذ حلق في آفاقه وقدم لنا تفسيراته المنطقة لتعويض النقص المعرفي الحاد في تلك المنطقة المبهمة من تاريخ مصر القديم.

صدى تلك التفسيرات وجدت طريقها إلى دفات كتابات المؤرخين المسلمين، التي أظهرت الشغف الذي ساد المجتمع المصري لحل رموز تلك الكلمات والكتابات المنقوشة على جدران آثار مصر، والذي ساعد بدوره على فتح المجال واسعٌ للحضور الأسطوري والخرافي حولها، وإن كنا لا

---

[1] – الهيروغليفية: النقش الهيروغليفي" Hieroglyphs كتابة تصويرية ظهرت كاملة التطور حوالي سنة ٣١٠٠ ق.م وظلت مستخدمة حتى العصر الروماني، وهي مزيج النطق (خواص الصوت أي الفونجرام) والرموز التصويرية (إيدوجرام)، وكانت تستخدم أساساً في كتابة النصوص الأدبية والدينية، كما يوجد ما يسمى بـ "الخط الهيراطيقي"، هو خط متشابك (متصل / متطور عن الهيروغليفية استخدم في كتابة الوثائق القانونية، وفي مجال =الأعمال حتى نهاية الدولة الحديثة، حيث شاركه في ذلك الخط الديموطقي، والخط الديموطيقي أيضا، خط متشابك (متصل) الحروف تطور عن الهيروغليفي في القرن السابع الميلادي، وكان يستخدم في المعاملات الرسمية الجارية لتسهيل الشئون الإدارية، وكان منتشراً مع الهيراطيقية والهيروغليفية : كلير لالويت، الفن والحياة في مصر الفرعونية(ترجمة / فاطمة عبد الله، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد ٣٧٠، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٣٧٩؛ بريان فاجان: نهب آثار وادي النيل، (ترجمة: أحمد زهير ، مكتبة الاسرة ، القاهرة٢٠٠٣م.)،ص٢٤٠،ج.جيمز: الحياة أيام الفراعنة ،ص١٢٧.

[2] – أميط اللثام عن بعض الدراسات تتحدث عن المكتشف الحقيقي للغة المصرية القديمة الهيروغليفية وهو ابن وحشي النبطي أبو بكر احمد بن علي بن وحشية الذي كان عالماً بالعلوم الخفية والفلاحة والكيمياء والسموم والفلك والأقلام القديمة والسحر والحيل وغيرها، والذي خلف أكثر من خمسين كتاباً على وجه التقريب، وعاش في القرن الرابع الهجري في كتابه (شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام) الذي تضمن نحواً من تسعين قلماً من أقلام اللغات القديمة وأقلام التعمية، بينها أقلام الهيروغليفية الثلاثة، وقد نشر الكتاب المستشرق النمساوي جورج همر في لندن سنة ١٨٠٦م بالعربية والإنكليزية مع دراسة مهمة نبّه فيها على أهمية الكتاب في كشف اللغات القديمة، والهيروغليفية خاصة، وقد تأكد أن شامبليون الذي نُسب إليه اكتشاف اللغة المصرية القديمة الهيروغليفية المدونة على حجر رشيد بنصوصها الثلاثة عام ١٨٢٢م أي بعد ١٦ سنة من صدور كتاب ابن وحشية قد اطلع على انتاج ابن وحشية و الكتاب له نسخ خطية كثيرة موزّعة على مكتبات العالم : باريس ولندن والنمسا وإيران وتركيا. أنظر : جمال الغيطاني : ملامح القاهرة فى ألف سنة (مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٧م) ، ص٢٣٥: ص٢٥٤ .

نعدم محاولات جادة لفك رموز تلك الكتابات، والتي لا شك أنها أكثر أشكال الكتابة جمالية وإلهاماً للخيال في تاريخ البشرية وبخاصة وأن الكتابة كانت عند المصريين لغة الآلهة السحرية.[١]

أشار اليعقوبي إلى أسباب وجيهة لعدم معرفة أسرار اللغة المصرية القديمة بقوله: ".. وفي دهرنا ــ القرن الثالث الهجري ــ قد عدم الناس معرفة قراءاته ــ الخط المصري القديم ــ والسبب في ذلك؛ أنه لم يكن يكتب به منهم إلا الخواص، وكانوا يمنعون العوام، والذين يقومون به منهم حكماؤهم، وكهانهم، وكانت فيه أسرار دينهم، وأصول مقالتهم التي لا يطلعون عليها إلا كهانهم، ولا يعلمون بها أحدا إلا أن يأمر الملك بتعليمه، فلما قهرتهم الروم، وملكتهم بسطوة شديدة، وسلطان، أبطلوا ما كانوا يقومون به من سعيهم وأعمالهم، وحملوهم في بدء أمورهم على شرائع اليونانيين حتى فسدت لغتهم، ومازج كلامهم كلام الروم، ثم تنصرت الروم، فحملوهم على التنصر، فدرس جميع ما كانوا فيه من أمر دينهم وسنتهم، وقتل الروم كهانهم، وعلماؤهم فهلك من كان يفهم ذلك الكتاب، ومنع من بقي منهم من تعليمه، والنظر فيه؛ فلذلك ليس يوجد أحد يقرأه منهم ولا غيرهم".[٢]، ويضيف المسعودي أن من أسباب عدم معرفة تلك الكتابة هو: "تداول أرض مصر الأمم ، فغلب على أهلها القلم الرومي، وأشكال الأحرف للروم، والقبط تقرؤه على حسب تعارفها إياه وخلطها لأحرف الروم بأحرفها على حسب ما ولدوا من الكتابة بين الرومي والقبطي الأول، فذهبت عنهم كتابة آبائهم...".[٣]

ونجد المسعودي، حين يسأل عن اللغة المصرية القديمة، ولا يجد إجابة، يناقش ويدقق ويستنتج، وساعتها يكون أكثر دقة، وأقرب إلى الصواب؛ فإن عقله الواعي، كان طيعا في إعطائه الجواب الصحيح أو الأقرب إلى الصحة إن ترك له فرصة المناقشة والاستنتاج، فيقول: "وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد، وغيره من بلاد مصر، من أهل الخبرة (رواة التاريخ الشفاهي) عن تفسير فرعون، فلم يخبروني عن معنى ذلك ولا تحصل لي في لغتهم .. فيمكن والله أعلم أن هذا الاسم كان

---

[١] – سيمسون نايوفتس: مصر أصل الشجرة، السياقات (الجزء الأول ،ترجمة: أحمد محمود، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد ٩٩٣ القاهرة ٢٠٠٦م)، صـ ١١.

[٢] –اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) (ت ٢٨٤ هـ): تاريخ اليعقوبي(المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م)، ص ١٨٧.

[٣] –مروج الذهب ،ج١، ص ٣٥٠ ، ص ٣٥١.

سمة لملوك تلك الأمصار وأن تلك اللغة تغيرت كتلك، كتغير الفهلوية وهي الفارسية الأولى إلى الفارسية الثانية، كاليونانية إلى الرومية، وتغير الحميرية وغير ذلك من اللغات".[١]

فهو هنا قد أصاب مرتين؛ حين ذكر أن لفظ فرعون لقب يطلق على الملوك، ومرة حين ذكر أن اللغة المصرية القديمة قد تغيرت وليست هي لغة أقباط عصره.

إلا أن رجاحة عقل المسعودي لم تمنعه من أن يكون ناقلاً للوهم إلى جوار الحقيقة وأورد الأمرين معاً تاركاً للعقل أن يقبل ما يلائمه، وللخيال أن يأخذ ما يروقه . فيقول: "وأخبرني غير واحد من بلاد إخميم من صعيد مصر عن أبي الفيض ذي النون بن إبراهيم المصري الإخميمي الزاهد وكان حكيماً .. وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابي ودارها وامتحن كثيرا مما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور، قال: رأيت في بعض البرابي كتاباً تدبرته، فإذا هو "أحذروا العبيد المعتقين، الأحداث المغترين، والجند المتعبدين، والنبط المستعربين". قال: ورأيت في بعضها كتاباً تدبرته فإذا فيه "يقدر المقدور والقضاء يضحك"." وزعم أنه أرى في أخره كتابه وتبينها بذلك القلم الأول فوجدها ... تدبر بالنجوم ولست تدري ورب النجم يفعل ما يريد".[٢]

الغياب المعرفي بتلك اللغة المصرية القديمة تحدث عنه المؤرخون في قولهم: "لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرف القلم القديم، وهذه الكتابات كثيرة جدا لو نقل ما على الهرمين فقط إلى صحف لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة".[٣]

ويقول آخر: "ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بسطور متضايقة متوازية من كتابة بانيها، لا تعرف اليوم أحرفها ولا تفهم معانيها، وبالجملة الأمر فيها عجيب، حتى أن غاية الوصف لها والإغراق في العبارة عن حقيقة الموصوف".[٤]ويضيف الهروي أن:"الكتابة التي عليها ـــ يقصد الأهرام ـــ بقلم الطير لا يعلمه أحد في الدنيا وكذلك البرابي ببلاد

---

[١] –المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٣١٦؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٢، ص ٧٤.

[٢] – المسعودي: مروج الذهب، ج١،ص ٣٦٠؛ القلقشندى : صبح الأعشى ،ج٣،ص ٣٢٣ ؛أوليا جلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٦٢٢.

[٣] –البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٩٢.

[٤] –أبو الصلت: الرسالة المصرية، ص ٢٨.

الصعيد لا يحل قلمها أحد..".[١]، واقترب التلمساني من الحقيقة قليلاً حين قال: "وهي كتابة كاهنية".[٢]، ورآها البعض أنها : " كتابة بالمسند".[٣]

وبرغم التكهنات حول ماهية الكتابة المصرية القديمة، فقد ظلت بالنسبة للمؤرخين والرحالة مستغلقة الفهم و : "أشياء لا تُعلم الآن بالخط القديم، وكثيراً باقياً إلى الآن لا تدري ما كان المراد به .. إلا الله عز وجل. ويزعم بعض أهل البطالة، أن لبعض هذه الصور خواص ينتفع بها من يلازم خدمتها، ويرقبها حتى تتحرك بزعمه فإذا تحركت انقضى له ما أمل، وهذا كله باطل وهوس وضعف عقل ودين..".[٤]

ورغم العبث بآثار مصر القديمة، ونبش مقابر المصريين القدماء، وإطلاع الناس على الأحجام الحقيقية للمومياوات المصرية إلا أن الآثار المصرية الخالدة التي كانت تملأ ربوع وادي النيل طولاً وعرضاً، كانت مثار إعجاب جميع الغرباء الذين كانوا يفدون إلى مصر من وراء الحدود، سواء أكانوا من الزائرين العابرين أو من المستعمرين المستوطنين أو من المواطنين.

كانوا جميعا يقفون مبهورين أمام ضخامة وروعة هذه المعابد والتماثيل، ناهيك عن الأهرام وأبي الهول ... حتى ساد الاعتقاد بأن المصريين الذين صنعوا تلك الآثار، أُناس غير طبيعيين يتمتعون بقدرة فائقة على الإتيان بالخوارق، وأنهم قد استعانوا بالسحر في تنفيذ كل هذه الإنشاءات الهائلة، وهو ما نلمسه عند البغدادي في قوله: "إذا رأى اللبيب هذه الآثار، عذر العوام في اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة، وجثثهم عظيمة، أو أنه كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم...".[٥]

وروج أحد الرحالة المتأخرين لهذه الأفكار الممزوجة بالخرافات بقوله عن نفسه: "لقد عثر كاتب هذه السطور ــ بقصد أوليا‌چلبي نفسه ــ في الطريق. على عظمة ساق في جلدها، يبلغ طولها واحداً

---

[١] – الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤١.

[٢] –سكردان السلطان، ص ٤٥٩.

[٣] –الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص ٥٠.

[٤] –السبتي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص ١٦٦ ، ص ١٧٠.

[٥] –البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ١٠٣.

وسبعين شبراً من أشباره وكأن هناك كثير من أمثال هذه العظام، وترقد في مغارة كبيرة، جثث ورفات آدمية مكفنة ... يبلغ طول الجثة الواحدة منها سبعين أو ثمانين خطوة.."[١]

ومن الحكايات الشعبية في ذلك يشاع أن (عبد العزيز بن مروان) أراد إعادة بناء الإسكندرية : "فذهب قوم من الناس إلى ناووس وأخرجوا منه رأس آدمي وحملوه على عجلة ووزنوا سناً من أسنانه، فوجدوها عشرين رطلاً على ما بها من النخر والقدم، فقالوا : جئنا بمثل هؤلاء الرجال حتى نعيدها إلى ما كانت. فسكت".[٢]

إذن؛ لم يكن عجيبا أن تتردد أخبار الخرافات والأساطير في كتابات المؤرخين ولكن أقرب الأشياء إلى العجب؛ هو إيمان الكثير من المؤرخين بحقيقة هذه الخرافات والأساطير، بل والدفاع عنها، فالعجب ليس منصرفاً إلى إثباقم هذه الخرافات عن مصادرهم، وانصرافهم إلى ما جُبلَ عليه المؤرخون من التصديق لأكثرها بل والتدليل على صحتها، وإن كان فيها ما يمجه العقل، ويأباه الذوق، ومن ذلك قول المقريزي مدللاً على صحة ما ورد في خططه من جلب سبعة من العواميد منها عمود السواري من الصعيد إلى الإسكندرية حملاً تحت الآباط، قائلا: ".. ويقال أن عمود السواري الموجود ــ الآن ــ خارج مدينة الإسكندرية، أحد سبعة أعمدة، أتى بأحدها اليتون بن مرة العادي، وهو يحمله تحت إبطه من جبل بريم ــ قبلي أسوان ــ على الإسكندرية، فانكسر ضلعه؛ لأنه كان ضعيف القوى في قومه، فشق ذلك على يعمر بن شداد بن عاد، وقال: "ليتني فديته بنصف ملكي". وجاء بعمود آخر جحدر بن سنان الثمودي وكان قوياً. فحمله من أسوان تحت إبطه، وجاء بقية رجالهم كل رجل بعمود، فأقام العمد السبعة، الجارود بن قطن المؤتفكي، وكان بناءها بعد أن اختاروا طالعاً سعيداً كما هي عادهم في عامة أعمالهم، وقد ذكر غير واحد أن الصخور في القديم من الدهر، كانت تلين فعمل منها أعمدة ناعط، ومأرب، وبينون مآثر اليمن، وأعمدة دمشق ومصر ومدين وتدمر، وأن كل شئ كان يتكلم..".[٣]

ويمضي المقريزي في حديثه معلقاً على ذلك بقوله : "وكأني بمن قل علمه ينكر على إيراد هذا الفصل، ويراه من قبيل المحال، وما وضعه القصاص، ويجزم بكذبه، فلا يوحشنك حكاية له، واسمع قول الله تعالى عن عاد وقوم هود: ﴿واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح فزادكم في الخلق بسطه﴾. الأعراف / ٦٩؛ أي طولاً وعظم جسم .. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان

---

[١] –أوليا جلبي: سياحتنا في مصر، ص ٦٢٠.

[٢] –القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد،ج١، ص ١٤٦، ص ١٤٧؛ ابن محشرة: الاستبصار، ص ١٠٠.

[٣] –المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٦٠.

أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعاً، وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم، وقيل على خلق قوم نوح... كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة، وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم .. كان الرجل ليحمل المصراعين لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يطيقه، وإن كان أحدهم ليغمز بقدميه الأرض فيدخل فيها... واستظل سبعون رجلا من قوم موسى عليه السلام في قحف رجل من العماليق وقال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ [الفجر / ٦-٨]. وقال بعضهم : سموا ذات العماد لطول قاماتهم .. كان طول أحدهم أثني عشر ذراعاً... وذكر غير واحد أنه وجد في خلافة المقتدر بالله أبي الفضل جعفر ابن المعتضد كنزاً بمصر فيه ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبرا في عرض ثلاثة أشبار...".[١]

وهكذا؛ حاول المقريزي ، أن يلح على توكيد هذا الخبر بما فيه من الأساطير والخرافة ــ المدرك نكارتها لدى مطالعتها ــ موهما صحته، استناداً إلى أقوال علماء التفسير واللغة ورواة الأخبار في عاد قوم هود، معتقداً أن العلم والفهم ينفيان الارتياب فيه، بل فيهما الدليل على تصديقه، بيد أننا يجب ألا نغفل حقيقة أن بعض الروايات التي يعدها البعض مجرد حكايات أسطورية قديمة لا يقبلها عقل أو نقل، يعتبرها آخرون من موقع فهمهم الديني وموقعهم الزمني حقيقة تاريخية لا جدال فيها، ، ويتلمس موظفوها كل سبيل تربطهم بما يحبه الناس وينقادون له من حكم وأمثال وأحاديث ومراجع علمية دينية في محاولة من جانب المؤرخين تقديم رؤية متماسكة للأبعاد الزمنية الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل، وتحتل الخرافة والأساطير مكان الصدارة من هذه المفاتيح الثلاثة.

وكان من السهل على مؤرخي العصر تناقل الخرافات والأساطير بحذافيرها وترديدها كأمور مسلم بها، بل قد تتكرر الخرافة بعينها مع اختلاف الزمان والمكان وسردها بالأسانيد المختلفة، التي تحاول شرعنتها وتبريرها وتسويقها بانتقاء مجموعة من الأحاديث والأخبار وإسقاطها على الواقع والوقائع، خاصة أن الكثير من المؤرخين لم يميزوا بين القصص والتأريخ، فكان أن امتزج لديهم القصص بالتاريخ، والخيال بالواقع، فإذا وضعنا في الاعتبار أن مصادرهم في معظمها كانت تعتمد على الروايات الشفاهية المأثورة، استطعنا القول دون حذر كبير: أن هذه المادة التاريخية هي في آخر الأمر، مادة فولكلورية في المقام الأول؛ لما جُبِلَ عليه المؤرخون على معالجة التاريخ القديم معالجة أسطورية، والتي نهج أصحاب المنهج التقليدي الذي يؤثر أصحابه، أن يمهدوا لمؤلفاتهم بالحديث عن تاريخ

---

[١] - المقريزي: الخطط، ج١ ، ص ١٦١

البشرية منذ البدء، منذ هبوط آدم من الجنة حتى عصرهم الأمر الذي جعل هذه الكتابات حافلة بالتاريخ الأسطوري.[١]، ربما كان الاقتراب منها من المحاذير الكبرى آنذاك.

لكن نجد (ابن خلدون) يسلك مسلكاً مغايراً في مناقشة ما تفيضه الرواية على فراعنة وآثار مصر القديمة من الأساطير التي جرت في الرواية الإسلامية مجرى التواريخ بل ليس في الرواية الإسلامية كلها في هذا الموضوع فصل كالذي يقدم لنا فيه ابن خلدون من خلال مقدمته عن تلك الإشكالية البحثية التي واجهت علماء عصره، صورة بلاغية وعلمية نقدية من أقوى الصور وأبدعها نقدا فيقول: "وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار القادمين ومصانعهم العظيمة، مثل؛ إيوان كسرى وأهرام مصر، وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب، أنها كانت بقدرتهم متفرقين أو مجتمعين، فيتخيل لهم أجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها، وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها، ويغفل عن شأن الهندام والحال، وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين من شأن البناء وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامة عاديا، نسبة إلى قوم عاد لتوهمهم أن مباني عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم ،وتضاعف قدرهم، وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا أخبار أهلها، قريباً وبعيداً وتيقناً أنهم لم يكونوا بإفراط في مقادير أجسامهم، وإنما هذا رأي ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة .... وأنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى أنهم ليزعمون أن عوج بن عناق[٢]من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طرياً، فيشويه في الشمس ويزعمون بذلك، أن الشمس حارة فيما قرب منها..".[٣]

---

[١] –محمد رجب النجار، دراسة المأثورات الشعبية في التراث العربي(مجلة عالم الفكر، المجلد الحادي والعشرون، العدد الثاني)، ص ١٨٢، ص ١٨٣.

[٢] – أسطورة عوج بن عناق: ترددت في التراث الشعبي الشفوي ، كما ترددت في كتابات المؤرخين والمفسرين في التراث العربي المدوّن وارتبطت بقصة الطوفان كما ارتبطت بخروج بني إسرائيل من مصر ، ودخولهم إلى أرض كنعان . وعنه يذكر ابن جرير الطبري (٣١٠هـ) في تاريخه عن الأمم والملوك ، عند حديثه عن الطوفان أنه :"لم يبق شئ من الخلائق إلا نوح ومن معه في الفلك ، وإلا عوج بن عنق فيما يزعم أهل الكتاب ".وذكره القزويني في كتاب عجائب المخلوقات تحت باب :"خاتمة في حيوانات غريبة الصور والأشكال ".فيقول:"كان الطوفان يصل إلى وسطه . وكان جباراً في خلقته مفسداً في أفعاله، وإذا غضب على أهل بلد بال عليهم فيغرقون في بوله .. وقد ضربه موسى بعصاه ' فلم يلحق إلا كعبه فانصرع قتيلاً إلى الأرض ، فكانت فخدة ساقه زماناً طويلاً قنطرة على النيل". القزويني :عجائب المخلوقات ،ص١٩٧.وانظر قصته في سفر يشوع (٤/١٢-٥)،سفر العدد(٢١/٢٣-٢٤-٢٥).

[٣] –ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص ٧٨٢، ٧٨٣.

هذه القصص مثل قصص أخرى أوردها المؤرخون في هذا السياق، تكشف عن مدى انبهار الناس بالحضارة المصرية القديمة من ناحية، كما تكشف عن عجزهم عن الوقوف على تاريخها الحقيقي من ناحية أخرى، كما أن بناءها الفني يفوح بأريج حكايات شعبية تشبه حكايات ألف ليلة وليلة وعالمها السحري، وفي رأي بعض الباحثين أن هذه الحكايات كانت تهدف أساسا إلى التسلية على الرغم من أنها تهدف إلى تحقيق غرض ثانوي آخر، وأنها محض خيال أختلقه الرواة .

غير أن الراجح أن هذه الحكايات التي أوردها المؤرخون لم تكن بقصد التسلية وإنما كانت ترغب في تقديم إجابات "تاريخية" عن حضارة تليدة مضت ولكن آثارها ما زالت ماثلة أمام عيون الناس وعندما عجز المتعلمون عن العثور على إجابات تاريخية حقيقية. بدأ ترقيع هذا النقص عن طريق الخيال، بيد أن بعض هذه الحكايات عن أمجاد مصر القديمة كانت تحمل ظلاً، أو نواة، من الحقيقة التاريخية في غالب الأحوال.[١] مثال ذلك ما قدمه لنا المؤرخون عن وصف للكسوة الخارجية للهرم ـــ والتي كانت لم تزل بقاياها موجودة على أيامهم ـــ ووصفهم للنقوش والكتابات التي تغطي أحجارها مقررين ـــ في بعض الأحيان ـــ أن تلك النقوش لو نقلت مصغرة على الورق لشغلت آلاف الصفحات.

فالأساطير والخرافات التي شاعت حول تلك الآثار ترجع بصفة أساسية إلى عدم معرفة أسرار الكتابة (الهيروغليفية) ، التي كانت مدونة على تلك الآثار، وحين قام هيرودوت بزيارته لمصر (في القرن الخامس قبل الميلاد)، كان قد ندر استعمال الهيروغليفية كلغة مصرية، إلا فيما بين بعض الكهنة المحافظين الذين كانوا يعيشون أيامئذ. ولذلك فقد أصبحت هذه اللغة كالطلاسم تماماً أمام كل من يفكر في قراءتها أو استجلاء معانيها، ومن هنا شاعت الأساطير والخرافات القديمة عن المصريين القدماء الذين صنعوا هذه الحضارة.

---

[١] –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٥٩.

الفصل الخامس

الأساطير والحكايات التي تناولت الدفائن والكنوز المصرية القديمة وفراعنـــة مصر

"ويقال إن غالب أرضها ذهب مدفون .حتى قيل إنه ما فيها موضع إلا وهو مشغول بشيء من الدفائن "

ابن الوردي

"خريدة العجائب وفريدة الغرائب/٣٢"

" ..ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر، من الترف والغنى في عوائدهم، ما يقضي منه العجب ، حتى إن كثيراً من الفقراء بالمغرب يترعون إلى النقلة إلى مصر؛ لذلك لما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر، أعظم من غيرها. ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم، أو أموال مختزنة لديهم، وأنهم أكثر صدقة، وإيثاراً من جميع أهل الأرض.. "

ابن خلدون

"مقدمة ابن خلدون ٢/٨٠٥"

القصص والحكايات التي دارت في المجتمع المصري عن كنوز قدماء المصريين التي كانت مخبأة في مقابرهم ومعابدهم ـــ والتي ما تزال تكتشف كل حين إلى الآن ـــ فقد كان بعضها حقيقيا، على حين حمل البعض الآخر رائحة المبالغة، وقد أوردها تقي الدين المقريزي تحت عنوان "ذكر الدفائن والكنوز التي تسميها أهل مصر المطالب".[1]، وهي تسمية تكشف على أية حال عن أن هذا الموضوع كان يشغل الناس فترة طويلة من الزمان.[2]

ويعرج بنا المقريزي إلى أحد العلوم التي تأسست في مصر بفضل كنوزها وهو "علم الكنوز" وأن مفاتيح هذا العلم مخبأة في كنيسة القسطنطينية في إشارة ربما للحث على ضرورة فتح القسطنطينية

[1] -الخطط، ج١، ص ٤٠ – ص ٤٢.

[2] -قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٥٩.

فيذكر: "...ويقال أن الروم لما خرجت من الشام ومصر اكتنزت كثيراً من أموالها في مواضع أعدتها لذلك، وكتبت كتباً بإعلام مواضعها وطرق الوصول إليها، وأودعت هذه الكتب قسطنطينية، ومنها يستفاد معرفة ذلك، وقيل أن الروم لم تكتب، وإنما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من اليونانيين، والكلدانيين ،والقبط، فلما خرجوا من مصر والشام حملوا تلك الكتب معهم وجعلوها في الكنيسة".[١]

وهذا يقدم لنا المقريزي مصطلحاً كما دعاه "علم الكنوز" ووصفه بأنه وثائق كتبت فيها الأماكن التي أودعت الأموال والذخائر، نقلها الروم لما خرجوا من مصر والشام وأودعوها كنيسة القسطنطينية. واختلفت الآراء في أصل تلك الوثائق؛ فرأيُ يقول أنها وثائق الروم ورأيُ يقول أنها آلت إليهم عن ملوك وحكام البلاد التي استعمروها من القبط واليونانيين والكلدانيين، وربما أمكن الربط بين هذا الرأي وبين ما هو معروف عن أمر البرديات التي عثر عليها والتي حملت إلى أديرة أوربا وكنائسها، وأن هذا الأمر يعود إلى زمن بعيد.

وكان انتشار أخبار تلك الكنوز وظهورها كفيلاً بأن يحاول الخيال الشعبي في مصر تفسير أسباب وجودها، فيقول السيوطي : "أن فرعون كان يدخر من خراج مصر ربعاً حيث يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها، فيدفن ذلك فيها لنائبه تنزل أو حائجة بأهل القرية، فكانوا على ذلك، وهذا الربع الذي يدفن هي كنوز فرعون التي يتحدث الناس أنها ستظهر فيطلبها الذين يبتغون الكنوز..".[٢]، .

رآها البعض أنها :"كنوز يوسف عليه السلام وكنوز الملوك قبله والملوك بعده لأنه كان يكثر ما يفضل عن النفقات و المؤن لنوائب الدهر..".[٣]كما ذكر البعض أن: "القوم كانوا على دين التناسخ، فاتخذوا الأهرام علامة لعلهم عرفوا مدة ذهابهم ومجيئهم إلى الدنيا بعلامة ذلك...".[٤]، ورأى الخيال

---

[١] -المقريزي، المصدر السابق، ص ٤٠.

[٢] -السيوطي:كوكب الروضة، ص ١٣٦، المقريزي، الخطط، ج١، ص ٤٠، ص ٧٤.

[٣] -النواجي (شمس الدين محمد)(ت ٨٨٨ هـ): حلبة الكميت في الأدب، والنوادر والفكاهات (سلسلة الذخائر، العدد ٢٧، القاهرة ١٩٩٨م)، ص ٢٩٦؛ المقريزي: الخطط١، ج١، ص ٤٠.

[٤] -القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٦٩.

الشعبي أن سبب وجود تلك الكنوز هو: "أن أهل مصر لا يزالون متمسكين بالمذهب الأرضي، ويدفنون أموالهم في الأرض..".[١] كما أن مصر:"من بين الأمصار فما برح نقدها (المنسوب إلى قيم الأعمال وأثمان المبيعات) الذهب خاصة، كل سائر دولها جاهلية وإسلاماً يشهد لذلك بالصحة أن مبلغ خراج مصر في قديم الدهر حديثه أنما هو الذهب".[٢]

ما يهمنا هو أن محاولة تفسير وجود الكنوز في مقابر المصريين القدماء أضحى مرتعاً لخيال المؤرخين والناس فيما سمعوه وما دونوه معتمدين في ذلك على ما نقلوه من كتب القدماء، وما جمعوه من الموروث الشعبي المتداول بيد أن بعضهم كاد أن يقترب من الحقيقة والتي ترتبط بعقيدة المصريين القدماء في الموت والحياة الأخرى، وفكره الخلود، طقوس الدفن، والتي لم يتم التعرف على تفاصيلها سوى منذ فترة قصيرة نسبيا؛ حيث فلسفة عقيدة الخلود لدى المصري القديم والتي كانت نتاجاً طبيعياً لتأثير عوامل سياسة واجتماعية واقتصادية على العقل المصري بحيث دفعته إلى إبداع تصوراته عن عالم خالد أثر في رؤيته للحياة تأثيراً عميقاً عاش فيه حتى اليوم.

ظلت كنوز مصر التي ورد ذكرها في القرآن الكريم : ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم﴾ الشعراء / ٥٧، ٥٨، ظلت مرتعاً ومراحاً للخيال الشعبي الشغوف بكنوز السالفين وخاصة مع تواتر أخبارها في الكتابات التاريخية وغيرها وحاول أن يتصور حجم تلك الكنوز ومثال ذلك ما قيل عن أن : " في تلك الأهرام فنوناً من الذهب والفضة والكيمياء والزبرجد الرفيعة والجواهر النفيسة ما لا يحصله وصف واصف...".[٣]،وأن بها الكثير:"من التماثيل والعلوم والعجائب، والجواهر والأموال " وأن: "كنوزها لا تحصى"[٤]. لدرجة أن أوليا جلبي يقول: "وتحتوي الأراضي المصرية على كنوز عظيمة ودفائن جسيمة، وخبايا كثيرة، ومطالب عزيزة. وقد روى أنها ليس فيها موضع يخلو من كنز خفي".[٥]، إذ أن فيها من: "المطالب والكنوز ما لا يحصى له عدد.." [٦]، ولهذا :

---

[١] – سياحتنا مه مصر، ص ٢٣٨.

[٢] – المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة (سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة ١٩٩٩م)،ص٩٢.

[٣] –ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٥٥؛ القزويني، المصدر السابق، ص ٢٦٨.

[٤] – السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص ٣٤؛ابن ظهيرة :الفضائل الباهرة ،ص٦٩.

[٥] –سياحتنا مه مصر، ص ٢٣٨.

[٦] – الزهري (عبد الله محمد بن أبي بكر): كتاب الجعرافية (تحقيق: محمد صادق، الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٠م)، ص٣٩.

"استخرج أهل مصر والإسكندرية من كنوزها وأموالها شيئا كثيرا، وقد استغنى بها بشر كثير هلك أكثرهم..." [١]

يكشف ابن خلدون عن الأصل في وجود ما عرف بـــ "المطالب"[٢] فيشير إلى معتقدات المصريين القدماء "القبط" بقوله: "... وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر في ملكه القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين، وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر واللآلئ على مذهب من تقدم من أهل الدور، فلما انقضت دولة القبط، وملك الفرس بلادهم نقروا على ذلك في قبورهم، وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف، كالأهرام من قبورهم مظنة لذلك العهد، ويعثر على الدفين فيها في كثير من الأوقات ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك. فصارت قبور القبط منذ آلاف السنين مظنة لوجود ذلك فيها واستخراجها، حتى أنهم حين ضربت المكوس على الأصناف آخر الدولة، ضربت على أهل المطالب، وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهووسين".[٣]

وتحدث ابن عبد الحكم عن الأمر فيقول: "زعم بعض مشايخ أهل مصر أن الذي كان يعمل به مصر على عهد ملوكها، أنهم كانوا يقرون القرى في أيدي أهلها، كل قرية بكراء معلوم، لا ينقص عليهم إلا في كل أربع سنين من أجل الظمأ، وتنقل اليسار، فإذا مضت أربع سنين نقص ذلك، وعدل تعديلاً جديداً، فيرفق بمن يستحق الرفق، ويزداد على من يحتمل الزيادة، ولا يحمل عليهم من ذلك ما يشق عليهم، فإذا جُبِيَ الخراج وجُمِعَ وكان للملك من ذلك الربع خالصاً لنفسه يصنع به ما يريد، والربع الثاني لجنده ومن يقوى به على حربه، وجباية خراجه، ودفع عدوه، والربع الثالث في مصلحة الأرض، وما يحتاج إليه من يسورها، وحفر خلْجها وبناء قناطرها، والقوة للمزارعين على زرعهم، وعمارة أرضهم، والربع الرابع يخرج من ريع ما يصيب كل قري من خراجها، فيدفن ذلك فيها لنائبه

[١] – الزهري :كتـــــاب الجغرافية ، ص٤٧ .

[٢] – المطالب واحدها مطلب ، كلمة كان المصريون يطلقونها على الكنوز ، وأشار المقريزي إلى أنها مـــستعملة لهذا المعنى إلى عهده . والقوم المطالبية هم الباحثون عن الكنوز .

[٣] – ابن خلدون:الـــمقـــدمة (الجزء الثاني، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص٨٤٢.

تنزل أو جائعة بأهل القرية، فكانوا على ذلك، وهذا الربع الذي يدفن في كل قرية من خراجها هو كنوز فرعون التي تتحدث الناس بها أنها ستظهر، ويتطلبها الذين يتبعون الكنوز ...".[١]

ويسترعي الانتباه ما تورده الروايات السابقة من أخبار التماس الناس وشغفهم بكنوز مصر وحرصهم على استخراجها حتى صار ذلك حرفه يحترفها بعض الناس، وانتهى الأمر بأن فُرضت على العاملين في هذا المجال المكوس والضرائب، كما تعطي لنا الروايات إشارات لما تصوره المؤرخون عن أخبار ذلك التنظيم الدقيق لأمور مصر ومرافقها على أيدي ملوك مصر القديمة، كدليل على إحساس المؤرخين بعظمة تلك الحضارة القائمة آثارها، وتصوروا أن وراء تلك الآثار كان لا بد من وجود إدارة حاكمة تراعي الرفق بالرعية والعناية الشديدة بأمر الأرض والبشر؛ من إصلاح وتسوير، وحفر الترع والخلجان، وما كان يخصص لذلك من أموال، ثم ذلك التحسب والاستعداد لمواجهة الكوارث والنوائب التي قد تقع وتخصيص الأموال الكافية لذلك، وادخارها في كل موقع على حدة، كما يلاحظ أن ابن عبد الحكم في روايته؛ قد جعل الأصل في وجود الكنوز والمطالب تلك الحصة منذ الأموال التي كانت تدفن في كل قرى تحسبا للكوارث والنوائب، بينما اقترب ابن خلدون من بعض الحقائق التاريخية حين أشار إلى أن عقيدة المصريين هي التي دفعتهم لدفن كنوزهم معهم، وأشار لذلك ابن ظهيرة في قوله: "كانوا يقولون بالرجعة، فكان إذا مات أحدهم دفن معه ماله كائنا من كان وإن كان صانعا دفنت معه آلته..".[٢]

روايات المؤرخين عن دفن الأموال تحسباً لنوائب الدهر، تكشف لنا عن التطور التاريخي والاجتماعي في شخصية الشعب المصري، الذي عمد إلى إخفاء ما يراه ذا قيمة لديه بعيداً عن أعين الناس والولاة والحكام لتتجلى لنا بعض القسمات والملامح التي تبرز شخصية الناس في مصر بكل مقوماتها بين الشخصيات الجماعية الأخرى، وتكشف عن مدى الخوف والكبت والذي دفع الناس إلى عمل الحفر العميقة؛ لإخفاء أموالهم، لدرجة أثارت انتباه المؤرخين في قول أحدهم: "أن أرض مصر لا يوجد بها ذراع مكية واحدة خالية من كنز من الكنوز القديمة، ويظهر فيه كل سنة حتى الآن دفائن عدة وكنوز ثمينة".[٣] لأن أهلها لا يزالون متمسكين بالمذهب الأرضي ويدفنون أموالهم في الأرض".[٤]

---

[١] – ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٤٩.

[٢] –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٥٦.

[٣] –أوليا‌چلبي: سياحتنامه مصر، صـ ٦٠٥.

[٤] –نفسه، صـ ٢٣٨.

والذاكرة الشعبية لم تنس بعد الحكايات الكثيرة، عن القدور التي يعثر عليها فجأة، وفيها سكة الذهب والفضة، ضربت في عصر بيننا وبينه قرون وقرون، ولا تزال ألسنتنا تستعمل إلى اليوم عبارات تدل على هذه الصورة، وهي (إخراج ما تحت البلاطة) . وكأن هذه الحيلة نتيجة ظروف تاريخية، ووسيلة حماية مقصودة، وتتصل بالتطور التاريخي للبلاد، وهذا ما يزيد من أهميتها بوصفها جزءاً من تطور الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية لمصر.[1]، .

وقد لفتت نظر المؤرخ الإسحاقي رواية تؤيد ما ذهبنا إليه، حتى أنه أوردها بالكامل، ليدخل بها إلى صميم التاريخ العربي لمصر من بوابات الأسطورة فيقول : " عندما دخل عمرو بن العاص ، قال لقبط مصر : من كتم كنزاً عنده لأقتلنّه ، وحدث أن قبطياً من أهل الصعيد يقال له بطرس علم عمرو أن عنده كنزاً . فأرسل إليه فسأله عنه ، فأنكر وجحد فحبسه ،وصار يسأل عن أحد فقالوا له لا ولكن سمعناه يسأل عن راهب في الطور فأرسل عمرو إلى بطرس فنزع خاتمه ثم كتب إلى ذلك الراهب أن أبعث لي بما عندك ، وختم الكتاب بختم بطرس فجاء المرسل بقلة شامخة مختومة بالرصاص ففتحها عمرو فوجد فيها مكتوباً : مالكم تحت الفسقية الكبيرة فأرسل عمرو إلى دار بطرس وحبس الماء عن الفسقية فوجد فيها اثنين وخمسين إردب ذهب مضروبة ، فضرب عمرو رأس بُطْرس ، وأخذ المال جميعاً فعند ذلك أخْرَجت القبط كنوزهم شفقة على أنفسهم .." .[2].

ولا نسوق هذا النص للتدليل على أن عدداً من أهل الذمة كانوا قد أحرزوا ثروات كبيرة ، وإنما لنشير إلى تداخل عناصر عديدة لإخفاء الأموال لدى العامة ــ خاصة الفقراء والطبقة المتوسطة ــ مع العامل السابق كالخوف من طمع وبطش الحاكم أو الخوف من الحسد وطلب الستر وما إلى ذلك ، حتى أصبحت لازمة شعبية تظل باقية رغم اختفاء السبب أحياناً ، وإذا أضفنا تراث التَقِّيَة الفاطمي أو الشيعي (التقية بتشديد مع فتح التاء والياء) إلى ذلك اتضح عمق هذا الأسلوب ، وتقضي التقية أن

---

[1] ــكلوت بك: لمحة عامة إلى مصر (الجزء الأول، ترجمة / محمد مسعود، مطبعة أبي الهول، القاهرة، د.ت)، صـ ٥٢١؛ عبد الحميد يونس: مجتمعنا(سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م)، صـ ١١٤؛ حسين مؤنس : الحضارة ، صـ ٣٧٤؛ عمرو عبد العزيز منير: العمران في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين دراسة مقارنة في كتابات الرحالة (رسالة ماجستيرــ غير منشورة ــ كلية الآداب، جامعة الزقازيق ٢٠٠٤م) ، ص ٢٨٥، ص ٢٨٦.

[2] ــ الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، ص ١٠٥ ؛الحميري : الروض المعطار ،ص٥٥٤.

يكتم المرء (ذهبه ومذهبه وذهابه).[1] أي لا يبدي أو لا يظهر أياً منها ، وربما أسهمت الحركة الديرية المصرية هرباً من الاضطهاد البيزنطي في تعميق ذلك أيضاً، وحسّبُنا ما أشار إليه موفق الدين بن عثمان في قوله: "قال بعض المؤرخين: كان رجلٌ بمصر يسمى عفان بن سليمان المصري، قد وجد في داره مالاً مدفونا، فصار عفان يتصدق من المال على الفقراء".[2]

وقدمت لنا النصوص التاريخية ـــ دون قصد ـــ وصفاً لهيئة "المطالبية" الذين احترفوا مهنة البحث عن كنوز مصر ودفائنها، يشير إليهم البلوي كاتب سيرة أحمد بن طولون بقوله: "وحدث نسيم الخادم قال: ركب مولاي ـــ أحمد بن طولون ـــ يوما إلى الأهرام، فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف، وفي أيديهم مساح ومعاول، فسألهم عما يعملون، فقالوا: نحن قوم نطلب المطالب، فقال لهم، لا تخرجوا بعد هذا الوقت إلا بمنشور و رجل من قبلي يكون معكم، فقالوا له :سمعاً وطاعة للأمير ، أيده الله . فسألهم عما رُفع إليهم من الصفات ، فذكروا له أن في سمت الأهرام مطلباً قد عجزوا عنه، لأنهم يحتاجون في إثارته إلى جمع كبير ، ونفقات واسعة ، فإن فيه مالاً عظيماً . فنظر مولاي إلى شيخ من أصحابه يعرف بالرافقي من أهل الثغر فضمه إليهم ، وتقدم إلى عامل معونة الجيزة فيدفع جميع ما يحتاجون إليه من الرجال والنفقات."[3]

كان "المطالبية" إذاً جماعة من الناس لهم ثيابهم الخاصة، ومعهم أدواتهم التي يستعينون بها على أداء عملهم "المساحي" و " المعاول" يطلبون المطالب، وكانوا قد تجمعوا وكونوا فريقاً يمارس عمله بعيداً عن أعين الحاكم، إلى أن علم بذلك أحمد ابن طولون، فأمرهم ألا يمارسوا عملهم ذاك إلا بعد أن يأذن لهم، ويعيِّن من رجاله من يراقب عملهم، ويمكن القول: أن هذه أول إشارة إلى ما يمكن اعتباره تنظيما رسميا لعملية التنقيب عن المطالب "الكنوز والآثار".

---

[1] ـــ ميكل ونتر : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني (ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٧م)، ص١٦.

[2] –موفق الدين بن عثمان: مرشد الزوار إلى قبور الأبرار، (تحقيق: محمد فتحي، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٥م)، ص ١٨٢.

[3] –البلوي (أبي محمد عبدالله بن محمد المديني البلوي) :سيرة أحمد بن طولون (تحقيق:محمد كرد علي ، سلسلة الذخائر ، العدد ٥٥ القاهرة ١٩٩٩م) ،ص١٩٥،١٩٤؛المقريزي: الخطط، ج١، ص ٤١؛ابن سعيد الأندلسي : المُغرب في حُلى المغرِب ص٩٨.

وهكذا، أصبح البحث والتنقيب يمارس تحت سمع وبصر الحاكم، إضافة لذلك فقد كشفت لنا الكتابات التاريخية حجم المحنة التي واجهت الآثار المصرية من جراء ما قام به الناس وشاركهم في ذلك الحكام ، وشراهتهم في البحث عن الآثار والتنقيب، والعبث بها، لا حباً في كنوزها فحسب بل سعياً وراء أحجار المعابد والمباني الأثرية القديمة ،لاستعمالها في بناء مساجدهم وعمائرهم، والحق أن هذا العبث لم يكن جهلاً، منهم بقيمة تلك الآثار ودلالتها العظيمة فحسب؛ ولكنهم وجدوا فيها مصدراً للثروة والمال الذي كانوا في أشد الحاجة إليه لتعمير المدن والأمصار، وتشييد العمائر وإعداد الجيوش، بفضل كنوز مصر التي اشتهرت بها. لدرجة أن ابن الوردي يلمح إلى ذلك بقوله : "مصر خلد الله ملك سلطانها، من خصائصها كثرة الذهب والدنانير، وكان يقال في المثل السائر ما معناه: من دخل مصر ولم يستغن فلا أغناه الله..".[١]، "فخراج مصر في قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب".[٢] .

كما كان العبث بدفائن المصريين القدماء إلى جانب الذهب والكنوز هو الاعتقاد الذي شاع في العصور الوسطى بين عدد من الشعوب؛ بأن قليلا من طحين أو مسحوق، مومياء مصرية قديمة كفيل بشفاء جميع الأمراض مهما كانت مستعصية، وقد أشار إلى ذلك (الحميري) في سياق حديثه عن مدينة قوص بقوله: "منحوت في جبال منها قبور الأموات، لا يعلم لها عهد. تستخرج منها المومياء الطبية، وهم يجدونها في رممهم وبين أكفانهم".[٣] .

وكان الطبيب العربي ابن سينا هو الذي ذكر المومياء ودافع عن استخدامها في علاج عدد من الأمراض منها :" الخُرَّاج ، والطفح الجلدي ، والكسور ، وارتجاج المخ، والشلل ، واضطراب نبض القلب ، واضطرابات الطحال والكبد " وكانت وصفته ينبغي أن تُؤخذ (على فرض جعل طعمها سائغاً) في خلطة من النباتات مثل : البردقوش ، والزعتر ، والبلسان ، والشعير ، والعدس ، والزعفران ، والقرفة الصيني ، والبقدونس . ووردت وصفة ابن سينا عن مسحوق المومياء ضمن DE VIRILEUS CORDIS في قائمة مكتبة سان ماركو في فلورنسا ، سنة ١٤٤٤م . ومنذ القرن الحادي عشر ، كان بعض العلماء العرب الكبار ، يعزون قيمة المومياء العلاجية إلى اللحم المحنط فعلاً ، وقد

---

[١] –ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ٢٠٥.

[٢] –المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة (تحقيق : ياسر سيد، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٩م)، ص ٥٥.

[٣] –الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٤٨٥.

شاع هذا المفهوم عن المومياء في أوربا العصور الوسطى ، وقد ذكر استخدام المومياوات كعلاج "جاي دي شافيللاك" GUY DE CHAVILLAC، الذي كان جراح البابا كليمنت السادس سنة ١٣٦٣م. ولاقى هذا العلاج شعبية واسعة، وكان مادة قيمة من مواد التجارة، ويباع عبر أسواق المسكنات، وعلاج الجروح. وصارت الجبانات المصرية القديمة مقصداً جديداً كان يذهب إليه بعض المسافرين إلى القاهرة، بحثاً عن بضائع القبور والمومياوات قبل وبعد القرن السادس عشر فصاعداً.[١]

وحفلت المصادر التاريخية بالقصص التي تصور اهتمام الولاة والحكام الذين تولوا أمر مصر بتلك المطالب والدفائن ، ومشاركتهم في البحث عنها وما اكتنف ذلك من أخطار وأحداث مثيرة امتزجت فيها الوقائع والحقائق بالخيال في تعانق حميم ،وأخذ المطالبية يعبثون في الأرض فساداً وفي الآثار تخريباً بحثاً عن الكنوز والدفائن، واتخذوا من تجارقم حرفة تدر عليهم الرزق من أسهل الطرق وأحقرها. لدرجة أثارت سخط وحنق بعض المؤرخين والرحالة، فقد وصف أحدهم ذلك العدوان الجائر بقوله: " وقد كان هذا البيت ـــ المعبد ـــ مُمكناً على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة، فحفر تحتها الجهلة والحمقى طمعا في المطالب فتغير وضعه وفسد هندامه..".[٢]

هذا الوعي الحضاري النادر بين علماء ذلك الزمان، والذي أملته على البغدادي نزعته العلمية الغيورة على آثار الحضارات القديمة المجسدة لأسرار التاريخ الإنساني. لم يستمر للأسف، إذ عادت الجهالة والخرافة وضيق الأفق إلى صدارة الوعي التاريخي عند الولاة والحكام وعامة الناس.

ويمكن القول أن من أحد أسباب العدوان الجائر على آثار مصر هو الأخبار الرائجة عن "المطالب" والتي وصلت للناس عبر الأساطير والحكايات الشعبية والأخبار عن حضارات العالم القديم، وكنوزها المخبوءة في باطن الأرض، والذي يمكن لعارفي علوم الأقدمين والسحرة الوصول إليها.ويقف بنا البغدادي على أسباب هوس الناس بهذه الآثار في قوله: "رأوا آثارها الهائلة وراعهم منظرها، وظنوا ظن السوء بمخبرها، وكان جل انصراف ظنونهم إلى معشوقهم وأجل الأشياء في قلوبهم؛ وهو الدينار والدرهم ..."[٣] .

---

[١] – آن وولف : كم تبعد القاهرة ؟ ، ص ٢٥٣ – ص٢٥٥.

[٢] –البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ١٠١.

[٣] –البغدادي : المصدر السابق ، ص ١٠٧.

وعرض البغدادي لمظاهر الخرافات والأساطير التي سيطرت على ألباب وقلوب الناس فيما يتعلق "بالمطالب" بقوله: "كل شئ رآه ظنه قدحاً، وأن رأي ظل شخص ظنه الساقي فهم ـ يحسبون كل علم يلوح لهم أنه علم على مطلب، وكل شئ مفطور في جبل أنه يفضي إلى كنز، وكل صنم عظيم أنه حاصل لمال تحت قدميه، وهو مهلك عليه، فصاروا يعملون الحيلة في تخريبه ويبالغون في تهديمه، ويفسدون صور الأصنام إفساد من يرجو عندها المال، ويخاف منها التلف، وينقبون الأحجار نقب من لا يتمار أنها صناديق مقفلة على ذخائر، ويسربون في فطور الجبال سروب متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها، وانتهز فرصة لم يشعر غيره بها".[1]

لهم الناس وأحلامهم في الثراء السريع بفضل هذه المطالب. أدى إلى أزمة اجتماعية واقتصادية صبت في خانة الخصم من رصيد المجتمع المصري الأخلاقي وليس الإضافة إليه إذ يقول البغدادي: "... من كان من هؤلاء له مال أضاعه في ذلك ـ المطالب ـ ومن كان فقيراً قصد بعض المياسر، وقوى طمعه وقرب أمله بأيمان يحلفها له، وعلوم يزعم أنه استأثر بها دونه، وعلامات يدعى أنه شاهدها حتى يخسر عقله، وماله، وما أقبح بعد ذلك مآله ...".[2]

ويكشف لنا (ابن خلدون) إلى أي حد سيطرت الخرافة والأساطير على عقول الناس فيما يتعلق بالبحث عن الذات من خلال المال والثراء للخروج من شرنقة الفقر المدقع والقمع الذي يعاني منه الناس من جراء سطوة الولاة والحكام. فيقول: "اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض، ويبتغون الكسب من ذلك، ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية، لا يفض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه واستحضر ما يحله، من البخور والدعاء والقربان".[3] ويوضح أن الدافع وراء ذلك أنهم :" يترقبون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتخرمة الحواشي أما بخطوط عجمية، أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن، بإعطاء الأمارات عليها في أماكنها يبتغون بذلك الرزق بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويموهون عليهم بأنهم أنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا حتى يكونوا بمأمن من منال الحكام والعقوبات... فيولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتفار،

---

[1] ـنفسه، ص ١٠٧.

[2] ـنفسه، صـ ١٠٨.

[3] ـابن خلدون: المقـدمة، ج٢، ص ٨٣٨.

والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدولة، فإذا لم يعثروا على شئ ردوا ذلك إلى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال ويخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم..".[١] ويضيف ابن خلدون إلى أسباب هذا السعي وراء ذلك الوهم البعيد إلى أن : "الذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل؛ إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية، للكسب عن التجارة والفلح والصناعة، فيطلبونه بالوجوه المنحرفة .. ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الأول، ويعرضون أنفسهم بابتغاء مع ذلك لمنال العقوبات...".[٢]

ما يهمنا هنا هو وقوف ابن خلدون والبغدادي على مدى انبهار الناس بالحضارة المصرية والقديمة من ناحية، كما تكشف عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي دفعت بالناس إلى العبث في ركام الماضي للنجاة من قسوة حاضرهم ومستقبلهم مستعنين في ذلك بالخرافات والأساطير التي يستحضرونها لملء فراغ الجوع، فيقول ابن خلدون موضحا أن: "من سكان الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال، مثل مصر،وما في معناها فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه، كما يحرصون على الكيمياء، هكذا بلغني عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه، لما يرونه أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها في مجاري النيل، وأنه أعظم ما يسترد دفيناً أو مختزنا، في تلك الآفاق، ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة في الاعتذار عن الوصول إليها بحرية النيل تستراً بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه، فيحرص بما مع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه، من هذه كلفاً بشأن السحر متوارثاً، في ذلك القطر عن أوليه، فعلومهم السحرية وآثارها باقي بأرضهم في البراري وغيرها وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك".[٣]

بيد أن الفقر الذي كانت تعيش فيه الطبقات الشعبية هو الذي فجر خيالها فيما يمكن أن يكون مختفياً تحت الأرض من كنوز. وكانت مصر هي المنبع الواضح لهذا الخيال حول الكنوز، وحول ما

---

[١] – المــقـــدمة، ص ٨٣٩.

[٢] –ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٨٣٩.

[٣] – نفســه، ص ٨٤١.

تحت الأرض من أشياء فيها الثراء أو قد يكون فيها مغامرات تنتهي إلى الثراء، فالذي لا شك فيه أن المصريين من قديم كانوا يحفرون في الأرض، ويجدون آثار الفراعنة التي تكون كنوزا حقه. والتي تفتح لهم أبواب الثراء الملموس، بل إننا إلى اليوم نجد هذا الاعتقاد في الكنوز متفشياً في جهات مصر التي دلت الحفريات العلمية والأثرية على وجود كنوز حقيقية مدفونة في أرضها. والظاهر أن أهل مصر شهروا بذلك من قديم بين غيرهم من الأمم الإسلامية.[١] فنسبوا لمصر السحر، وجعلها ابن النديم في كتابه الفهرست بابل السحرة؛ حيث يتكلم عن كتب السحر فيقول: "وهذا الشأن ببلاد مصر وما والاها ظاهر، والكتب فيه مؤلفة كثيرة موجودة، وبابل [منادل] السحرة بأرض مصر، قال لي من رآها : "بها بقايا ساحرين وساحرات، وزعم الجميع من المعزمين والسحرة أن لهم خواتيم وعزائم ورقي وصنادل وجراب ودخن وغير ذلك مما يستعملونه في علومهم.[٢]بل أن ابن النديم ينسب إلى أهل مصر نوعاً خاصا من السحر هو الطلسمات فيقول: "والطلسمات بأرض مصر والشام كثيرة ظاهرة الأشخاص، غير أن أفعالها قد بُطلت لتقادم العهد".[٣]

والثابت أن مصر شهرت في أول الأمر بالسحرة والساحرات خاصة، وكان ذلك فيما يظهر صدى لقصة موسى وفرعون، ولكن هذه الظاهرة التي ما زالت ترى إلى اليوم، وهي استطاعة الفقراء أن يجدوا تحت الأرض كنوزا حقه من قبور الفراعنة، قد صبغت هذا الصيت بلون آخر هو وأن الكنوز والطلاسم وما يتعلق بها مما يدل على ناحية خاصة من القدرة السحرية.[٤] وبذلك أفسح سحرة مصر في كتابات المؤرخين، مكاناً هاماً للكنوز لتلعب دورها في المخيلة الشعبية لينعكس أثر هذا كله على رؤية الناس لتاريخ مصر القديم.غير أن لانتشار الظن برصد الكنوز بواسطة قوى خفية ، سبباً جوهرياً غير هذا الذي ذكره ابن خلدون وغيره من المؤرخين ؛ ففي المجتمع الذي لا تتاح فيه الحياة الكريمة ، يهرب الناس من مواجهة مشاكله ومنها مسألة الحصول على الثروة — إلى تخيلات وأوهام ، فما أيسر أن يعيش الوهم باستطاعة الحصول على كنز متى القيت التعزيمة المناسبة والبخرة المطلوبة ، وما أيسر هذا بالنسبة لإبداء جهد إيجابي في سبيل كفالة الحياة المستقرة الرخية .

---

[١] -سهير القلماوي: ألف ليلة وليلة (مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٧م)، ص ١٥٩.

[٢] -ابن النديم: الفهرست (الجزء الأول تحقيق: محمد عوني، إيمان جلال، سلسلة الذخائر، العدد ١٤٩، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص ٣٠٩.

[٣] - الفهرست، ص ٣٠٩.

[٤] -سهير القلماوي: المرجع السابق، ص ١٦٠.

هذا الهرب نجده سائداً في القصص الشعبية حيث يرسم القاص البطل وقد حصل على المال بغير جهد فهو يلقاه كل صباح "تحت سجادة الصلاة" أو الوسادة ، شأنه شأن البطل الذي يقطع الآماد على بساط سحري حين كان الانتقال من بلد لآخر مشقة عظيمة .

فذلك كله حلم ومنى ليس لهما من الواقع أصل. فكل مجهول لدى العامة من الناس ، وكل عقبة كئود ، في بطن الأرض أو خرابها أو موحشها ، وفي تلك الأوضاع الاجتماعية شديدة الوطأة ؛ يتولد الوهم وتُنسج الأسطورة وتغذيها وتقوم الأوضاع الاجتماعية الضاغطة بحماية هذا المعتقد وتعضد فكرة فتح الكنوز بواسطة السحر[1] . خاصة وأن المصريين القدماء ، كانوا يدفنون مع موتاهم نفائسهم وكنوزهم ، وكانت قبورهم في الظن الشعبي محوطة بسوار من الأسطورة .وأموالهم كانت (مرصودة) ، فيما يظنون . ولكن كثيراً ما اقتحم أصحاب السلطة هذا السوار واستحلوا النفائس ، وفعل مثلهم أصحاب البأس من اللصوص ، ولا ريب في أن امتلاك تلك الكنوز بالغصب قد أثار لدى العامة المجردين من الحول والسلطة ، الأمل في الحصول على ما قد يكون خافياً منها .

التنقيب عن كنوز أهل مصر القدامى، وهدم وتخريب آثارهم كان مجالاً لتفكير ولاة وحكام مصر، حيث غلبت على أكثرهم فكرة وجود كنوز مدفونة فيها، وبحسب رواية عبد اللطيف البغدادي فقد حاول عثمان بن صلاح الدين الأيوبي هدم واحد من الأهرام الصغيرة ليستعمل حجارته في بعض مشاريعه العمرانية، ولكنه اضطر إلى العدول عن هذه المحاولة الصعبة المنال: "لم ينالوا بغية ، ولا بلغوا غاية، بل كانت غايتهم أن شوهوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل".[2]، ورأينا الخليفة المأمون يرسل جيوشاً من الحفارين؛ للبحث والتنقيب حتى استطاع بعضهم دخول الهرم الأكبر في عهده: "فإذا خراج مصر وغيرها من الأرض لا يفي بقلعها وهي من الحجر والرخام.. رغم أن الهدم أيسر من البناء والتفريق أيسر من التأليف."[3]، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أدى إلى هدم مدن بكاملها من جراء ذلك مثل: "عين شمس والتي يحمل منذ أول الإسلام حجارتها إلى غيرها من البلاد وما تفنى".[4]

---

[1] – أحمد رشدي صالح : الأدب الشعبي (سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٢م)،ص١٤٥،١٤٤.

[2] –البغدادي :الإفادة والاعتبار، ص ٩٤، ص ٩٥.

[3] –ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٣٦؛ ابن محشرة: الاستبصار، ص ٥٦، البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص٩٢؛ الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول، ص١٠٩؛ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص٧٨٥؛ الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص٦٣؛ أوليانجلبي: سياحتنا مه مصر،ص ٦١٨.

[4] –القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ٢٢٥.

يورد المؤرخون العديد من القصص والسماعيات حول محنة الآثار المصرية في عهد عبد العزيز بن مروان* عامل مصر في عهد أخيه عبد الملك بن مروان، فيقول المقريزي: "عندما كان عبد العزيز بن مروان والياً على مصر في خلافة أخيه عبد الملك بن مروان جاءه رجل وقال له بالمقبرة الفلانية كنز عظيم ، وقدم الدليل على صدق كلامه، فأمر عبد العزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال، وبدأت تظهر تحت الحفر بلاطات من رخام ومرمر إلى أن ظهر عمود من الذهب، على أعلاه ديك عيناه ياقوتان تساويان ملك الدنيا، وجناحاه مضرجان بالياقوت والزمرد، ورأسه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود، فأمر له عبد العزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال في ذلك ... ثم انتهوا في حفرهم إلى ظهور رأس الديك فبرق عند ظهوره لمعان عظيم ... ولاحت منها تماثيل وصور أشخاص من أنواع الصور الذهب .. فركب عبد العزيز بن مروان حتى أشرف على الموضع فنظر إلى ما ظهر من ذلك فأسرع بعضهم ووضع قدمه على درجة نحاس ينتهي إلى ما هناك. فلما استقرت قدماه على المرقاة ظهر سيفان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها فالتقيا على الرجل فلم يدرك حتى جزآه قطعا، وهوى جسمه سفلاً فلما استقر جسمه على بعض الدرج، اهتز العمود، وصفر الديك صفيراً عجيباً سمع من كان البعد من هناك وحرك جناحيه، وظهرت من تحته أصوات قد عملت بالكواكب والحركات، إذا مال وقع على بعض تلك الدرج شئ أو ماسها شئ انقلبت فتهاوى من هناك من الرجال إلى أسفل تلك الحفرة، وكان فيها من يحفر ويعمل، وينقل التراب، وينظر ويحول ويأمر وينهي نحو ألف رجل فهلكوا جميعا، فخرج عبد العزيز، وقال: هذا ردم عجيب الأمر، ممنوع النيل نعوذ بالله منه، وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس، فكان الموضع قبراً لهم.."[1].

هذه القصة ربما كانت تحمل ظلاً من الحقيقة ، مثل انهيار الحفر أو سقوط بعض العمال داخل أحدى مقابر قدماء المصريين، التي اعتادوا نحتها في أعماق بعيدة تحت سطح الأرض ،مثل مقابر وادي الملوك، على الضفة الغربية للنيل بمدينة الأقصر، والتي حرص المصريون القدامى على عمل أبواب

---

[1] -الخطط، ج١، ص ٤٠ ص ٤١.

* هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، ولى مصر سنة ٦٥هـ ، وكانت ولايته عليها عشرين سنة وعشرم أشهر وثلاثة عشر يومًا ، فقد توفى بها سنة ٨٦هـ . وقد اتخذ من حلوان مقرًا له وسكنًا . أنظر : الكندى : ولاة مصر ، ص٧٠-٧٩، تحقيق حسين نصار ، ط. الذخائر ، العدد (٦٦).

تمويهية لمقابرهم، وافتعال فخاخ للصوص، وربما كانت تلك الفخاخ وراء حدوث بعض الإصابات. ثم حولتها مبالغات الرواة الشفوية إلى هذا النمط من القصة ،التي تتميز بالحبكة الفنية، على الرغم من أن بطلها الأساسي شخص تاريخي حقيقي هو عبد العزيز بن مروان .أحد ولاة مصر في العصر الأموي. وعلى أية حال فإن علماء الآثار المصرية الأجانب روجوا خلال القرن الماضي وهذا القرن عدداً من القصص حول ما أسموه "لعنة الفراعنة"[1] والتي أولع بها الخيال الشعبي في مصر وروَّج لها وأعادت للأذهان الحكايات الشعبية حول الكنوز المرصودة التي تدور في القصص والسيَّر العربية.

ساعد ما كتبه المؤرخون وما شاع بين الناس طوال العصور الإسلامية على رواج الاعتقاد بقدرات وقوى خفية وطلاسم كائنة في آثار الحضارة المصرية القديمة، وكان من الطبيعي أن يستجيب العامة من الناس لهذه القصص الخيالية، وأن ينشغلوا بها وبقائليها انشغالاً عظيما، لا سيما في عصور بحث الناس فيها عن العجيب والغريب، وتلبستهم الخرافة وصدقوها وتحولت أُطر قرارات الناس بنصيحة قارئ الكف أو ضاربة الودع، وتبحث عن السعادة في الطالع، وتؤطر حياتها بالسحر والأساطير، التي برع في حياكتها المصريون منذ القدم.

وساد الاعتقاد بين الناس ـــ وما زال ـــ عن وجود رابط سحري غامض بين المصريين القدماء والسحر والغموض في ظاهرة عجيبة تختلط فيها الأساطير بالمعتقدات الخاطئة أحيانا .ولكن ذلك لا

---

[1] ـمؤخرا، رأى العلماء أن "لعنة الفراعنة" ربما تكون بالفعل هي جراثيم الأتربة التي اكتشفها علماء الأحياء الدقيقة في المومياوات المصرية، وهذه الجراثيم يمكنها البقاء آلاف السنوات في مكان مظلم وجاف، معظمها غير مؤذ، غير أن بعضها يمكن أن يكون ساماً وربما تكون هذه الجراثيم خرجت للهواء عندما فتحت المقابر للمرة الأولى، ودخلت أجساد الذين فتحوا المقابر عبر الأنف أو الفم، أو العينين، وربما يؤدي الضرر الذي تحدثه هذه الجراثيم إلى الفشل العضوي والوفاة، خاصة بالنسبة لهؤلاء الذين يعانون من ضعف أجهزة المناعة لديهم، ويُقال أن (هوارد كارتر) مكتشف مقبرة (توت عنخ أمون) عام ١٩٢٢م، لاحظ وجود فطريات بنية اللون تغطي الجدران الداخلية لمقبرة (توت عنخ أمون) وعقب افتتاح المقبرة بوقت قصير، بدأت قصة تنتشر فحواها أن لعنة أصابت كل من تورط في إقلاق نوم الفرعون، ووفقا لرواية هوارد كارتر، عثر على لوحة طينية نقش عليها "الموت يأتي على أجنحة لمن يقلق نوم الملوك" واللوحة نفسها لم تدرج في قائمة محتويات المقبرة، ولا توجد بأي حال احتمال ـــ إلا في خيال كارتر، ولم يذكر خبراء المصريات والآثار شيئا عن الدليل على وجود اللوحة، ومع ذلك سارعت التقارير الصحفية إلى التأييد، وروجت لفكرة لعنة المومياء المصرية الأسطورية الجذور. انظر؛آنا رويز: روح مصر القديمة (ترجمة / إكرام يوسف، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد ٩٦٥، القاهرة ٢٠٠٥م)، ص ٢٠٩؛ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص: ص ٦٠-٦١.

ينفي حقيقة أن المصريين القدماء هم الذين خططوا لبقاء هذا الارتباط بمعرفتهم المذهلة لعلم الفلك "فمصر بلد العلم والحكم من قديم الدهر ومنها خرج العلماء الذين عمروا الدنيا".[١]

والقصص التي تدور حول هذا الموضوع كثيرة، ولكنها تشترك جميعا في صفة واحدة هي المبالغة التي تعكس الانبهار بالحضارة المصرية القديمة والتي تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلي أعمال السحر والخوارق. ونجد عددا لا بأس به أورده المؤرخين عن كنوز مصر المرصودة، والتي تصيب لعنتها كل من يحاول أن يعبث بها ويؤرق مضاجع أصحابها، ويحكى "ابن محشرة" أن: "قوما قصدوا الأهرام، فنزلوا في تلك الآبار،وطلبوا أن يدخلوا في تلك المضايق، التي تخرج منها الرياح واحتلموا معهم سرجا في أوان رخام، فلما دخلوا في تلك المضايق، خرجت عليهم ريح شديدة، وأخرجتهم منها عنفا، وأطفأت أكبر سرجهم فأخذوا أحدهم، وكان أقواهم جأشا وأشدهم عزما وأصلبهم قلبا، فربطوا وسطه بالحبال. وقالوا:"أدخل .. فلما دخل .. انقطعت حبالهم ..وبقي الرجل في ذلك الشق وهم لا يعلمون عنه خبرا. فصعدوا هاربين حتى خرجوا من البئر، واغتموا ما أصاب صاحبهم..فبينما هم كذلك. إذ انفجرت الأرض فرجة كالكوة، وأثارت لهم ذلك الرجل عرياناً.. مشوه الخلق ميت الدم جامد العينين. وهو يتكلم بكلام عجيب لا يفهم، فلما فرغ من كلامه سقط ميتا.

فاحتملوا صاحبهم، وتصلوا أنباؤهم بوالي مصر وهو (ابن المدبر في أيام المتوكل) فأمر أن يكتب الكلام الذي قال ذلك الرجل الذي مات حسب ما قاله، وأقام ابن المدبر يطلب من يفسره ففسره: "هذا جزاء من طلب ما ليس له، وأراد الكشف على ما يخفى فليعتبر من رآه". قال: فمنع حينئذ ابن المدبر أن يتعرض أحد للأهرام.."[٢]

وحاول "أوليا چلبي" أن يلح على توكيد مثل تلك الأخبار عن القوى الغامضة الحارسة للأهرام فيقول: "وخلاصة القول: أن الخوف والهلع قد ساورنا وأحاط بنا كل الجوانب وقررنا العودة، وبينما نحن نفكر فيما آل إليه أمرنا، إذ بمشاعلنا تنطفئ، إذ برياح شديدة باردة تهب من جانب تلك الطيور –الخفافيش– كادت تقضي علينا وعلى سرجنا الضئيلة أيضا.."

---

[١] –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٨٤.

[٢] – ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص٥٩.

ثم يؤكد بأسلوب لا يقطعه الشك أنه " ليس هناك شك في أن هذا البناء العجيب – الأهرامات– مطلسم،لأننا حينما وصلنا الحوض المذكور بهتنا كلنا، وتولتنا الحيرة والدهشة وأحاط بنا النصب والأذى من كل جهة فعدنا بأعجوبة ولكن بكل مشقة وبلاء وقد كادت أرواحنا تفارق أجسادنا من هول الموقف"[١] .

رواية أخرى تناقلها المؤرخون تحكي أن: "قوماً دخلوا بعض الأسراب التي في الهرم، فانتهوا إلى صنم أخضر على صورة شيخ، وبين يديه أصنام صغار كأنه يعلمهم، ثم صاروا فوجدوا فوارة تحت قبة يقع فيها ماء من أعلى تلك القبة، فيكون له نشيش شديد كأنه يطفئ ناراً، ثم يفيض هناك ولا يتبين ثم داروا فوجدوا بيتا مسدودا، لا يظهر له باب غير حجر صلد، وفيه دوي شديد لا يدري ما هو، ووجدوا عنده شبه المطهرة الكبيرة فيها ماء ودنانير منقوش في الوجه الواحد صورة أسد، وفي الوجه الثاني صورة طير فأخذوا من تلك الدنانير شيئاً فلم يقدروا على حركة ولا كلام حتى تركوها في موضعها..".[٢]

تكشف الروايات السابقة عن اهتمام الولاة والحكام الذين تولوا أمر مصر بتلك المطالب، ومشاركتهم في البحث عنها، وتنظيمهم لها، وما اكتنف ذلك من أخطار، وأحداث مثيرة تمخض عنها أخبار وحكايات غرائبية تساعدنا على رصد بعض السمات التي اتصفت بها ثقافة المجتمع المصري في طور من أطوار حياته؛ حيث تعددت فيه هذا النوع من الأساطير والحكايات في تنوع يتسع للعديد من الأفكار المتناقضة أحياناً، بما يدل على ثراء الفكر والإبداع الشعبي في مصر، كما يشهد على محاولات دائمة لتطوير الفكر الإنساني الباحث عن ماهية الأشياء، ولسد الفراغات النقص الحاد في رصيده المعرفي.

على جانب آخر وجدنا الحكام يحذرون الناس وفي نفس الوقت يقومون هم بعمل منظم للحصول علي كنوز المصريين القدماء والاستعانة بها في تعضيد حكمهم وسلطتهم حتى لقد قيل أن (أحمد بن طولون) قد اكتشف كنزاً عظيما، استطاع به أن يشيد جامعة العظيم بالقاهرة.[٣]و"أنه قد أصاب فيه

---

[١] – سياحتنامه مصر، ص ٦٢٠– ٦٢١.

[٢] –ابن محشرة: المصدر السابق، ص ٦٠.

[٣] –ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٣٨.

من المال [ما] كان مقداره ألف ألف دينار ، وهو المطلب الذي شاع خبره "[١] ومنه " أنفق على الجامع مائة ألف دينار وعشرون ألف دينار ، وعلى البيمارستان ومستغلّه ستون ألف دينار .. وأنفق في بناء الميدان مائة وخمسين ألف دينار"[٢] وضرب دينارا باسمه سمي بـ (الأحمدي) وصار أجود عيار وكان لا يطلي إلا به.[٣] و"كان عيار الدينار منه أجود من عيار السندي بن شاهك ومن عيار المعتصم ، ولم يكن يرى أجود منهما "[٤] كما عرف عن: أحمد بن طولون أنه : "كان مولعاً بمعرفة هذه الآثار القديمة والعجائب".[٥]

ويحكي التاريخ أن (أحمد بن طولون) استطاع بفضل ثروة مصر وكنوزها أن يناطح الخلافة العباسية في بغداد، وينطلق من مصر بأفكاره الاستقلالية، وينشأ دولة دانت لها الشام وبعض أقطار أخرى، ومن الحكايات التي قيلت في شأن (أحمد بن طولون): "أنه دخل جماعة في أيام أحمد بن طولون، الهرم الأكبر، فوجدوا في أحد بيوته جام زجاج غريب اللون والتكوين، فحين خرجوا به فقدوا واحداً، فدخلوا في طلبه، ورجع هارباً إلى داخل، فعلموا أن الجن استهوته، وشاع أمرهم، فأحضروا عند أحمد بن طولون، فحكوا له القصة، فمنع الناس من دخول الهرم، وأخذ منهم ذلك الجام الزجاج لنفسه...".[٦]

في الوقت نفسه نجد رواية تناقلها المؤرخون تؤكد على استباحة أحمد بن طولون كنوز مصر لنفسه؛ فيقول ابن إياس نقلا عن وصيف شاه: "... خرج الأمير أحمد بن طولون يوما على سبيل التنزه إلى نحو الأهرام، فبينما هو يسير إذا غاصت قوائم فرسه في الأرض، فأمر بكشف ذلك المكان، فلما كشفه إذ هو مطلب فيه دنانير يوسفية".[٧] فنقلها إلى خزائنه على ظهور الجمال بالشكاير، واتسع حاله، فأخذ في أسباب بناء الجامع المعروف به...".[٨]

---

[١] – البلوي : سيرة أحمد بن طولون ، ص٧٦.

[٢] – نفسه ، ص٣٥١.

[٣] –المقريزي: الخطط، ج١، ص ٤٢؛ البلوي : سيرة أحمد بن طولون، ص١٩٦.

[٤] – البلوي : مصدر سابق ، ص١٩٦.

[٥] –ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ١٠٢.

[٦] –التلمساني: سكردان السلطان، ص ٤٦٠.

[٧] –دنانير يوسفية: نسبة إلى يوسف عليه السلام، والذي كان يعتقد أنه خزن أموال وكنوز مصر في الأهرام واتخذ منها أهراء لهذا الغرض.

[٨] –بدائع الزهور، ج١، ص ٣٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٣٦؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ١٠٢؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ٧٥.

ولعبت النبؤة والأحلام دورها الفاعل في رواية عثور بن طولون على الكنز وكأنه قدر وحق مكتوب يسوغ للحاكم (أحمد بن طولون) الحق في الاستحواذ على الكنز فيقول كاتب سيرة بن طولون :"وأقر أحمد بن طولون .. عبد الله بن دشومة أميناً عليه .. وكان عبدالله بن دشومة منهم ، واسع الحيلة .. وكان قبل إسقاط المرافق بمصر قدشاور عبد الله بن دشومة في ذلك .. فقال : أيها الأمير إن الدنيا والآخرة ضَرَّتان ، .. ولسوف يجتمع للأمير أيده الله مما قد عزم إسقاطه من المرافق في السنة بمصر دون غيرها مائة ألف دينار .. فشغل قلبه كلامه ، فبات في تلك الليلة بعد أن مضى .. فرأى في منامه رجلاً من إخوانه الزهاد بطوسوس ، وهو يقول له : ليس ما أشار به عليك من استشرته في أمر الارتفاق والفسخ برأي تحمد عاقبته فلا تقبله .. فأمضِ ما كنت عزمت عليه .. وركب في غد ذلك اليوم إلى الصيد ، فلما أمعن في الصحراء ساخت في الأرض يد فرس بعض غلمانه، وهو رمل ، فسقط الغلام .. فنظر فإذا بفتق ففتح ، وأصاب فيه من المال ".[1]

الحكايات الخرافية والأساطير التي تداولها الموروث الشعبي والتي وصلتنا من مدونات الكتابات التاريخية؛ واصلت حديثها عن اللعنة التي تصيب كل من يعبث بآثار مصر فتربط بين موت ابن طولون بتحطيمه لتمثال مصري كان قائما في المطرية، فقد أورد ابن إياس: "قال جامع السيرة الطولونية: كان بمدينة عين شمس، وهي المطرية، صنم من الكدان الأبيض على قدر خلقة الرجل المعتدل القامة، وكان ينظر إلهي، فنهاه بعض الكهان عَن رؤية هذا الصنم، وقال: أيها الأمير لا تنظر إلى هذا الصنم، فما نظر إليه أحد من ولاة مصر إلا عزل في عامه، فلم يعبأ بهذا الكلام، وركب وتوجه إلى عند ذلك الصنم، ورآه، ثم إنه أمر بقطعه قطعا فلم يبق له أثر، فلما رجع حم من يومه ولزم الفراش، فسلم في المرض نحو عشرة أشهر .. فاستمر حتى مات".[2]

دلالة القصة غير خافية فهي تحذر من التطاول على الآثار المصرية، وتدعو إلى احترامها وإلى تقدير أصحابها، والاعتراف بسبقهم وفضلهم في تداخل وعناق حميم بين الأسطورة والحقيقة.

لقد أحاط المؤرخون آثار مصر وكنوزها بخرافات مزعجة مخيفة تبعث الرعب في كل من يقترب منها أو يحاول الدخول إليها والعبث بها، ورأينا كيف قالوا أن الهرم الأكبر يحرسه روح شيطانية عبارة

---

[1] – البلوي : سيرة أحمد بن طولون ، ص٧٦.

[2] –بدائع الزهور: ص ١٦٧.

عن "غلام" عار أمرد أصفر اللون تطل من فمه أنياب حادة، بل وسجل بعضهم ما ذكره لهم بعض الناس من أنهم قد رأوا هذه الروح بأعينهم، وهي تحوم حول الهرم وقت القيلولة ووقت الغروب وعلى نفس المنوال الذي نسج عليه هؤلاء المؤرخون، نسج مؤرخون وجغرافيون عرب آخرون معلومات أكثر تطرفا في الخرافة وأكبر بعداً عن منطق الأشياء تساعدنا في التعرف على وجدان وعواطف وأفكار ومواقف واتجاهات المجتمع المصري في أحد أطوار تاريخه، وهذه كلها أمور يمكن رصدها من خلال دراسة النتاج الأسطوري والعجائبي للمجتمع والتي سجلها لنا المؤرخون بين دفات كتبهم عن كنوز الحضارة المصرية القديمة والتي كان الولاة والحكام وعامة الناس يطمعون في استخراج تلك الكنوز التي يشاع أن الفراعنة قد دفنوها معهم بداخل مقابرهم، وبطبيعة الحال فقد تبددت أحلام البعض منهم في العثور على ما كان يتوقعه من كنوز مدفونة، بينما نجح البعض الآخر في الوصول إلى تحقيق أحلامه ولكن على حساب سلامة آثار مصر.

وينقل لنا المسعودي رواية تقول: ".... وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ومن قد أغرى بحفر الحفائر، وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر، وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة وصف موضع ببلاد مصر، وعلى أذرع يسيرة من بعض الأهرام؛ بأن فيه مطلباً عجيباً، فأخبروا (الإخشيد محمد بن طغج) بذلك فأذن لهم في حفر وأباح لهم استعمال الحيلة في إخراجه، فحفروا حفراً عظيمة إلى أن انتهوا إلى أزج.[1] وأقباء وحجارة مجوفة".[2]

ويبدو من هذا أن أولئك المطالبية، كانوا يدركون أن الأهرام هو مركز يجتذب إليه المدافن والكنوز، وهو أمر كشف عنه الأثريون؛ وأوضحوا أن كبار القوم كانوا يعملون على أن يدفنوا بالقرب من الأهرامات لينعموا بما كان يقدم لأصحابها من الطقوس والقرابين، كما أن الروايات السابقة تكشف لنا بعض أخبار الحفائر التي قام بها العرب للتنقيب عن الآثار المصرية القديمة بداية من محاولات عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان إلى أحمد بن طولون إلى عصر الإخشيد بن طغج.

والصور المشوشة التي نقلها لنا المؤرخون عن وصف المقابر المكتشفة والدفائن التي كانت بها، صورة تكاد تنطبق على الاكتشافات الأثرية، وما تميزت به القبور المكتشفة من سمات تكاد تكون

[1] -الأَزَجُ: بناء مستطيل مقوس السقف، وجمعها: آزاج، المعجم الوجيز؛ القاموس، المحيط، ج١، ص ١٨٤.

[2] -المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٢٧٥.

مشتركة ، ولكن الغالب من المؤرخين لم يحدثونا عن مصير هذه الثروة الأثرية ، وهل كان وراء اكتشافها جهد علمي حقيقي ، أم هو مجرد انسياق مع أحاديث العامة عن الكنوز المرصودة ، والذهب الذي تحرسه الطلسمات ولا يكشف إلا لأصحاب الوقت ، والعقائد الشعبية الأخرى التي ملأت الضمير الشعبي المصري في أولى مراحل حسه الحضاري وإدراكه للثروة التراثية الخطيرة التي يعيش فوقها . وإن كنا نحس أن المعنى التاريخي للمكتشفات الفرعونية لم تغب عن أذهان بعض المؤرخين ــ كالمسعودي مثلا ــ حيث استطاع البعض منهم أن يجمع من هذه المقولات المتداولة ما يشكل هيكلاً ما للتاريخ المصري القديم بعد ما يقرب من أربعة آلاف سنة في أعماق التاريخ ، وواضح أن تلك الفترة من تاريخ مصر امتلأت بمثل هذه الحفائر التي أضاعت الكثير من الآثار المصرية القديمة والتي أضافت في الوقت ذاته بعض المعلومات إلى الذخيرة التاريخية العربية المليئة بالتشويش حول التاريخ المصري القديم.[1]

ورغم أن الزمن قد غدر بالعديد من الآثار التي خلفتها الحضارة المصرية القديمة. إلا أن كتابات المؤرخين ظلت حافلة بأوصاف العديد من المنشآت المعمارية الضخمة التي شيدها المصريون، من قصور ومعابد وأهرام وتماثيل ومسلات... ومن أعظم تلك الآثار قاطبة "منار الاسكندرية"[2] .

حيث كان منار الإسكندرية بحق هدأية للقادمين إليها من البحر فقد كان المؤشر لنهاية رحلة العذاب التي يجتازها المسافرون في البحر، وقد شاهد الرحالة المغربي ابن بطوطة جانباً مهدماً من المنار في أثناء زيارته الأولى للإسكندرية (سنة ٧٢٥ هـ)، ثم شاهده عند زيارته الثانية لها في(سنة ٧٥٠ هـ)، وقد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه"[3]، ولم يبق من المنار ــ

---

[1] ــ فاروق خورشيد : جولة في التراث ،معادن الجوهر (مكتبة الأسرة ° القاهرة ١٩٩٩م)، ص٩٠.

[2] ــكان منار الإسكندرية منذ إنشائه في عهد بطليموس فيلادلفوس (٢٨٠ ق.م ــ ٢٧٩ ق.م) أحد المعالم البارزة في العمران السكندري، بحيث اعتبر لضخامة بنيته، وارتفاع هامته، ولما كان يؤديه من مهام عظام أحد أعاجيب الدنيا السبع، ولهذا شدت إليه الرحال، وأقبل على وصفه عدد كبير من مشاهديه، فتعددت أوصافه في المصادر المختلفة: اليونانية، واللاتينية والعربية، وقلدت صوره في منارات أخرى ومن بينها منار قادس الذي كانت صورة مصغرة منه: الزهري: كتاب الجعرافيا، ص ١٠، وانظر: السيد عبد العزيز سالم، تأثير منار الاسكندرية في عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس (صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، مدريد ١٩٨٦م، عدد ٢٣)، ص ١٨٤؛ سحر السيد عبد العزيز: مدينة قادش ودورها في التاريخ السياسي والحضاري للأندلس في العصر الإسلامي(الاسكندرية، ١٩٩٠م) ص ٩، ص ٤٠.

[3] ــابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (دار صادر، بيروت، ١٩٦٠)، ص ٤٠.

والذي كانت الزلازل سبباً في دماره ـــ زمن النويري السكندري (سنة ٧٧٥ هـــ) سوى أطلال دارسة قائمة على أسسه، التي ظلت قائمة حتى أيام المقريزي.[١]

منار الإسكندرية ترك أثره على الموروث الشعبي الذي وصلنا في كتابات المؤرخين وما كان يدور حول المنار من أفكار تتطلع إلى كنوز الحضارة المصرية وإرثها الأثري الضخم فنجد رواية شعبية تقول: "أرسل صاحب الروم يخدع صاحب مصر، ويقول: أن الاسكندر قد كنز بأعلى المنارة كنزاً عظيما من الجواهر واليواقيت والأحجار التي لا قيمة لها خوفاً عليها.. فانخدع لذلك وظنه حقاً، فهدم القبة فلم يجد شيئا مما ذكره، فسد طلسم المرآة".[٢]

ونسجت الحكايات التي تفسر سر هدم المنار وترجعه إلى احتيال الروم الذين راموا التخلص من مرآتها التي كانت تحول بينهم وبين دخول الإسكندرية والاستيلاء عليها وأورد المؤرخون حكايات مشابهة تمت فيها الحيلة على"عمرو بن العاص" تارة وعلى"الوليد بن عبد الملك" تارة أخرى.[٣] تلك المرآة التي تحدث عنها (الموروث الشعبي) هي التي جعلت من (منار الإسكندرية) أحد عجائب الدنيا على حد قول الهروي: "أنما ذكروا منارة الإسكندرية من العجائب لما كان بها المرآة" وإنما المنارة اليوم ليست من العجائب إنما هي على هيئة مثال برج على ساحل البحر على هيئة المرقب..".[٤]

إن الآثار المصرية وكنوزها، وأسرارها على الرغم من توالي الأزمنة، ودورة العصور لا تزال تتوهج بالأساطير التي تركت أثرها على أصحاب الكتابات التاريخية كلما اقتربوا من تلك الآثار المصرية في إحساس يحمل من الجاذبية والسحر قدر ما يحمل من القلق والخوف فالدخول إلى هذا العالم هو دخول إلى عالم يتمازج فيه الواقع مع الخيال والطبيعة مع ما وراءها والحاضر مع الماضي .

كل هذا عبر مشهد سطوة وسحر الآثار المصرية والتي وقف أمامها الزهري في(أواسط القرن السادس الهجري) قائلا: "وفيها من الأعاجيب والبنيان والمطالب والكنوز، ما لا يحصى له عدد، فاختصرنا ذكرها لشهرتها ، وسنذكر منها لمعاً فمن ذلك أن فيها مغارات تحت الأرض فيها طلاسم تتحرك بيد بعضها سيوف وأقواس ترمي بها من يدخل عليها. وقد ذُكر أن قوماً دخلوا هذه المطالب

---

[١] -المقريزي: الخطط، ج١، ص ٢٧٧.

[٢] -ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ٣١؛ ابن محشرة: الاستبصار، صـــ ٩٥.

[٣] -انظر: ابن إياس بدائع الزهور، ج١، ص ١٠٦؛ المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٢٨١.

[٤] -الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤٨؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٤٦.

فبلغوا إلى باب من حديد قد طلي بالذهب ولم تبدله الأيام وعليه طلسم واقف، وبيده سيف مشهور طوله أربعة أذرع وفي عرضه ذراع، لو صب على جبل لمزقه، فاحتالوا عليه حتى سقط الطلسم فلما قربوا من الباب إذا بنبال ترشقهم من خلفهم فصنعوا لذلك واقي لظهورهم فكادت النبال ترشقهم وتنفذهم لشدة رميها فلما فتحوا الباب إذا هم بقصر تحت الأرض قد دارت بهم مراتب .. فأخرج كل واحد منهم وقره وما قدر عليه من الذخائر، فلما خرجوا من الباب اختلف عليهم الطريق وتلف بعضهم عن بعض، وطفيت مصابيحهم فهلكوا ونجا بعضهم. فمن خرج منهم أخبر بكل ما رآه فما زال الناس يسلكون تلك المغارات ويخرجون منها أنواعا من هذه الصفات والذخائر فمنهم من يخرج ومنهم من يهلك".[1]

وهكذا، بقدر ما بهرت الآثار العظيمة التي خلفتها الحضارة المصرية القديمة، والتي لم تخلف مثلها حضارة أخرى من حضارات العالم القديم، بقدر ما بهرت هذه الآثار العالم في العصور القديمة والوسيطة والحديثة. التي عرفت جميعاً ذلك الهوس الجمالي بتلك الآثار، والذي عبر عن نفسه فيما كتبه المؤرخون والرحالة والأدباء، طوال تلك العصور، ولا يزالون حتى يومنا هذا، يوالون التعبير بالكلمة والصورة عن ذلك الهوس النبيل، بما أبدعه الإنسان المصري القديم؛ من آيات حضارية شامخة بقدر هذا الإعجاب الإنساني بحضارة مصر القديمة الذي لا يماثله إعجاب بأي من الحضارات الإنسانية الأخرى، بقدر ما تعرضت هذه الآثار المصرية العظيمة من أقدم العصور ــ أيضا إلى يومنا هذا للعدوان والمحو والتشويه والسرقة والاستهانة والتهريب والجهل الغليظ، وشارك الكثير من الحكام وغيرهم في تلك الجرائم والخطايا التي ارتكبت في حق الآثار المصرية العظيمة.

وصدقت نبوءة الحكيم السكندري "أسكليبيوس" عن مصير تلك الآثار والتي يقول فيها : "يقترب الوقت الذي لا يعرف فيه أحد ديانة المصريين وسيهجر بلدنا، وستكون القبور والموتى فقط شهوداً عليه. فيا مصر ! لن يبقى من مذهبك سوى أساطير، لا يؤمن بها أحد من الأعقاب ولن يبقى غير الكلام المنقوش على الحجر والذي يحدث عن قدماء الآلهة". ولم تتحقق نبوءة رمسيس الثاني المكتوبة على جدران معبده: "سيظل هذا بيتاً للرب إلى الأبد".[2]

---

[1] – الزهري: كتاب الجعرافية، ص ٣٩ ص ٤٠.

[2] –إميل لودفيغ: النيل حياة نهر (ترجمة : عادل زعيتر، مكتبة الأسـرة، القـاهرة ٢٠٠٠م)، ص ٦٦٣، ص ٦٦٥.

تلك بعض لمحات من تاريخ الآثار المصرية وكنوزها التي لم تكن أسعد حالاً من بناتها الحقيقيين أهل مصر الذين ظلوا خارج المعادلة طوال العصور لكنهم مثل آثارهم العظيمة قاوموا ولا يزالون كل عوامل الفناء!!!

وحين اندثرت الحضارة المصرية القديمة، وحلت محلها حضارات أخرى، فإن الآثار المبهرة التي خلفتها تلك الحضارة الزائلة دفينة في الرمال وبطون الجبال وبين طبقات الطمي المتراكمة، ما زالت تكتشف يوماً بعد يوم، وما زالت حتى الآن ذات قدرة سحرية فائقة على إبهار المؤرخين والذين سجلوا وذكروا قصصاً كثيرة عن الفراعنة الذين كانوا يحكمون مصر، وعن حياة وعادات وتقاليد المصريين التي كانوا يعتبرونها غريبة عن تقاليدهم وما اعتادوا عليه، كما ذكروا أيضا الكثير من الأساطير والخرافات التي لا تصدق عن مصر وحضارتها التي ارتبطت بالفراعنة، وهم ملوكها القدماء، الذين توارت شخصيتهم بين الأسطورة والتاريخ.

وكانت كثيرة هي الجهود التي بذلت من جانب المؤرخين؛ للتعرف على فراعنة مصر القديمة، فكانت جهودهم أقرب إلى الأساطير منها إلى التاريخ في بعض موضوعاتها. التي حفلت بالخيال الواسع الذي زاد من خصوبته أن فرعون لم يعجز في أن يجد حوله من يدافع عنه ويستأنف حكم القصص الديني عليه أمام الوجدان الشعبي الجمعي الشغوف بصورة البطل المنصف، أو المستبد العادل والمبارك ـــ رغم أن المستبد لم يكن عادلاً أو مباركاً في يوم من الأيام ـــ أنه تمجيد لصورة القوة حتى لو خلت من وجه الإنسان.

دفع المؤرخون ببطلان حكم القصص الديني على الفرعون الذي ارتبط اسمه بمصر مدعمين دفاعاتهم بروايات مختلفة جاء فيها: ".. وقال موسى: يا رب، إن فرعون جحدك مائتي سنة، وادعى أنه أنت مائتي سنة، فكيف أمهلته. فأوحى الله إليه: أمهلته لخلال فيه. إني حببت إليه العدل، والسخاء، وحفظت له تربيتك.... إنه عمر بلادي وأحسن إلى عبادي..."[١] والروايات أظهرت فرعون عادلاً منزهاً عن الظلم حين عنف وزيره هامان عندما جمع مائة ألف ألف دينار للخزينة مقابل أن يجري هامان للناس الماء إلى أرضهم . فعنف فرعون هامان بقوله: "بئس ما صنعت من أخذ هذه الأموال، أما علمت أن السيد المالك ينبغي له أن يعطف على عبيده، ولا يأخذ منهم على إيصال منفعة أجراً، ولا ينظر إلى ما بأيديهم. أردد المال إلى أربابه ولا تأتي بمثلها...".[٢]

---

[١] ـــابن زولاق: فضائل مصر، ص ٢١؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٩٠.

[٢] ـــابن الوردي: خريدة العجائب، ص ٣٤، ٣٥.

الموروث الشعبي المتعلق بفرعون مصر ـــ الموسوم بالكفر والطغيان في القرآن ـــ تعاطف كثيراً معه، فأضفى عليه بعض الصفات المحببة إلي نفوس العامة، بحيث يعطي لشخصيته بعداً دينياً محبباً، فالشخصية التاريخية هنا غير الشخصية الأسطورية التي غذّاها ولا يزال يُغذيها الوجدان الشعبي الشغوف بفضائل مصر، والذي ما لبث يخلع على ملوكها الفراعنة صفات وينسب لهم أحداثاً مغايرة ليكتب لهم الخلود شعبياً، إلى الدرجة التي ينبغي التميِّيز عند الدراسة بين الشخصية الشعبية، والشخصية التاريخية لنفس الحدث أو الشخص.

فجاءت الشخصية التاريخية لفرعون مصر غير الشخصية الشعبية له إذ تحكي الروايات؛ أنه خرج من صفوف الفقراء وظهر كمدافع عن حقوقهم، وبرز للناس بريئاً من تجاوزات بطانته الظالمة، ليصبح في الذهنية الشعبية صاحب سلوك مثالي، ولا شك أن إسقاط العيوب عن الشخصية التاريخية لصالح الشخصية الشعبية، يعد تعبيراً صادقاً وتلقائياً عن رأي الناس في الدور المحوري والتاريخي لملوك مصر الفراعنة الذين شيدوا العديد من المباني الضخمة والرائعة في طول البلاد وعرضها، فجاءت تلك الروايات تقديراً من الناس لهذا الدور بغض النظر عما أثبته الإشارات القرآنية، أو ما سطرته أقلام المؤرخين و المفسرين والفقهاء الملتزمين بالحقائق المجردة.

بيد أن ذلك لم يمنع من أن لفظ (فرعون) قبع في الذاكرة الشعبية للناس رمزاً للجبروت، والقوة والتعالي؛ فيصفون من يتخذ هذه الصفات بأنه "مُتفَرْعن" ويفسرون تَفرْعُنه هذا بخنوع الآخرين تجاهه، وعدم رده وصده بقوة أكبر.[١] وهو خلط شاع لدى العامة بين اسم الفراعنة ـــ مفردها فرعون ـــ واسم قدماء المصريين مما حيَّر كلاً من المسعودي وابن خلدون ومن كان في زمانهم في سياق بحثهم عن أصل هذا اللقب، فأوردت المصادر التاريخية الكثير من الروايات ، وها هو صاحب النجوم الزاهرة ينقل عن المسعودي قوله: "قال المسعودي: سألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من أهل الخبرة عن تفسير اسم فرعون فلم يخبروني عن معنى ذلك ولا تحصل لي في لغتهم، فيمكن والله أعلم أن هذا الاسم كان سمة ملوك تلك الأمصار وأن تلك اللغة تغيرت".[٢]

---

[١] –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص ٨٩؛ الزمخشري : أساس البلاغة، مادة فـــرعن؛ سليم عرفات المبيض: ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية(مكتبة الأسرة، القـــاهرة ٢٠٠٦م)، ص٧١ ، ص ٧٢.

[٢] –ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن) "ت ٨٧٤هـــ": النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة(الجـــزء الأول، تحقيق: محمد شلتوت، طبعة دار الكتب، القاهرة)، ص ٦١؛ المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٣٦٦.

كشف المسعودي من المسح التحقيقي الذي أجراه بنفسه في أيام زمانه، ومع من وصفهم "بأهل الخبرة" من الأقباط، كشف لنا أن أهل مصر لا يفقهون ماهية هذا اللقب الشهير[١]، بل لا يوجد في لغتهم. كما اكتشف المسعودي بنفسه، وأرجع ذلك بما حدث من تغير اللغة المصرية القديمة التي صيغ اللقب فيها، كتغير اللغات الأخرى، الأمر الذي نتج عنه جهل أقباط مصر بمعناه القديم، وافترض المسعودي أنه كان سمة لملوك مصر الأقدمين، ويمكن القول أن نظرة المسعودي هذه نظرة علمية تتسم بالدقة وسلامة المنهج.

أما ابن خلدون فقال في باب "الخبر عن القبط وأولية ملكهم ودولهم وتصاريف أحوالهم والإلمام بنسبهم": كانوا يسمون الفراعنة سمة لملوك مصر في اللغة القديمة ثم تغيرت اللغة وبقي هذا الاسم مجهول المعنى كما تغيرت الحميرية إلى المضرية..".[٢] رغم أن لقب "فرعون" قد ورد في القرآن الكريم بصيغة المفرد لا بصيغة الجمع![٣] إلا أنه أصبح عَلماً على أهل مصر في نعتهم بـــ "الفراعنة" (فلقب الفرعون يطلق على ملوك مصر..، فإذا أرادوا الجمع في اللفظ قالوا: الفراعنة".[٤]

---

[١] ــ لقب (فرعون) لم يستعمل هذا اللقب الذي يوحي إلينا بشخصية ذات عظمة، ومجد من غابر الأزمنة، إلا في الألف سنة ق. م ، كلقب للملك ، وعندما أنجزت مصر ما أراده لها القدر ، وصيغته المصرية عبارة تعني "البيت العالي " أو " البيت العظيم " ، وكانت عبارة أشار المصريون بها منذ عصور الدولة القديمة إلى قصور فراعنتـــهم ، ثم صار يطلق على الملوك أنفسهم ، غير أن لقب "فرعون " لم يستعمل في أي وقت من التاريخ كلقب حقيقي رسمـــي للملك: جورج بوزنر وآخرون : معجم الحضارة المصرية القديمة ، ص ٢٥٤، ٢٥٥؛ألن رونر : مـــصر الفراعنـــة (ترجمة :نجيب ميخائيل ، الطبعة الأولى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧م) ،ص٧١.

[٢] -ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٢، ص ٧٤.

[٣] -ورد لفظ "فرعون" في القرآن الكريم بصيغة المفرد في أربعة وسبعين موضعا: انظر. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٦٢٦، ص ٧٢٧.وجاء لفظ فرعون عند المفسرين يشوبه الضبابية وعدم الوضـــوح فنجـــد في كتب التفسير كجامع البيان في تأويل القرآن ٢١٣/١، النيسابوري غرائب القرآن ٢٨١/١، النسفي في مـــدارك التنزيل ٤٧/١وغيرهم أن لفظ فرعون اسم كانت ملوك العمالقة تسمى به ، كما كانت ملوك الروم يسمى بعضهم قيصر ، وبعضهم هرقل . ويقول الفخر الرازي في التفسير الكبير ٧١/٢:" أن لفظ فرعون علم لمن ملك مصر من العمالقة ،أما ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٩١/١:أنه علم على من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهـــم . وأشار رشيد رضا في تفسير المنار إلى : أنه لقب لمن تولى مصر قبل البطالسة .للمزيد انظر :مصطفى عبـــد الحلـــيم متولي :قصة موسى في أعمال المفسرين دراسة مقارنة ،(رسالة ماجستير -غير منشورة -، كلية الآداب ، جامعـــة الزقازيق ١٩٨٤م)، ص١٧.

[٤] -أولياجلبي: سياحتنامه مصر، ص ٤١.

وتناول المؤرخون لقب "فرعون" بالتعريب، حيث أطلقوا أسماء عربية على فراعنة مصر وملوكها فيقول المقريزي: ".. ثم وقع غلاء في زمن فرعان بن مسور، وهو التاسع عشر من ملوك مصر قبل الطوفان، وسببه أن الظلم والهرج كثر حتى لم ينكره أحد، فأجدبت الأرض، وفسدت الزروع، وجاء بعقب ذلك الطوفان، فهلك الملك فرعان وهو سكران وهو أول من سمى باسم فرعان..".[١] وقيل: سمي فرعون لأنه أكثر القتل حتى قتل قرابته وأهل بيته، وخدمه ونساءه وكثيراً من الكهنة والحكماء".[٢] أما التلمساني فقال: "فرعون؛ لقب الوليد بن مصعب ملك مصر وهو عات، وكل عات فرعون والعتاة الفراعنة".[٣]

يلفت النظر هنا تأثير فكرة الأنساب العربية في نسبة كل شئ إلى جد أسطوري أعلى يفسرون به معنى الاسم الذي ارتبط بالتكبر، والتجبر، والظلم، ومما يسترعي الانتباه أن الروايات جعلت ممن تلقب به رجلاً عربيا كان يعرف بـــ "الوليد بن مصعب" كما خلعت أسماء عربية على معظم فراعنة مصر، وهو ما يكشف لنا عن أن الوجدان الشعبي العربي قد شغل بقصص فرعون حيث كان معروفاً لدى العرب قبل الإسلام، حين كان القصص أحد مكونات التاريخ الشفاهي العربي، وكانت قصص فرعون وعاد وثمود تنتقل بينهم بالتواتر، وعندما لم تشبع روايات الإخباريين حاجات وجدانهم، راحوا يضيفون من تصوراتهم وموروثاتهم إلى هذه الأخبار متأثرين بالروح العربية ونزوعها لتعريب الكلمات والأسماء والأحداث.

أشار ابن زولاق إلى الارتباط فيما يتعلق باللقب فقال: "واختلف فيه، فقيل: كان من العماليق، وقيل: كان من القبط ويكني أبا مرة، وهو الوليد بن مصعب، وهو أول من خضب بالسواد لما شاب، دله علية إبليس، ولعظم شأنه وعتوه ذكره الله في خمس وعشرين سورة من القرآن...".[٤] هذا التشويش والارتباك فيما يتعلق بلقب فرعون شمل أيضا الحديث عن أصول هؤلاء الفراعنة وعددهم وكان ذلك مرتعاً لخيالات المؤرخين وتخميناتهم كقول المسعودي: " والذي اتفقت عليه التواريخ ــ مع تباين ما فيها ــ أن عدة ملوك مصر من الفراعنة، وغيرها؛ اثنان وثلاثون

[١] –المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص٦.

[٢] –ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٧١.

[٣] –التلمساني: سكردان السلطان، ص ٤٢٤.

[٤] – ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص ٢٢.

فرعوناً..."[1] أما صاحب الاستبصار فيشير إلى أن : "الفراعنة سبعة وهو كان أولهم ـــ يقصد فرعون إبراهيم عليه السلام ـــ وقيل أنما سمي فرعون لأنه أكثر القتل".[2]واتفق معه الإسحاقي بقوله: "وقد ملك مصر سبعة من الكهنة ولهم الأعمال العجيبة والأمور الغريبة ".[3]

وأورد ابن إياس نقلاً عن وهب بن منبه: "أن الفراعنة الذين ملكوا مصر كانوا ستة؛ فأولهم فرعون إبراهيم الخليل عليه السلام، كان اسمه طوطيس".[4]

أما التلمساني فقد اختص الفراعنة من الملوك بالأنبياء فقط. وجعل الفراعنة وقفاً عليهم بقوله: "الفراعنة ثلاثة؛ أولهم: سنان الأشلي صاحب سارة، كان في زمن الخليل بمصر. الثاني: الريان بن الوليد، وهو فرعون يوسف عليه السلام ، الثالث: الوليد بن مصعب، وهو فرعون موسى عليه السلام...".[5]

حاول المؤرخون والرحالة الإيغال في زمن فراعنة الأنبياء، والاعتماد على حقائق ملموسة بشأن تلك الفترة، ولكن كانت تعوزهم الأدلة والحجج، فاعتمد فكرهم على النقل من الأقدمين، ثم على الأخبار المتواترة في المجتمع، فإذا بالأسطورة تتسرب فتزيد وتبالغ، وتصور ما تعرض له الأنبياء، وتاريخ نضالهم مع قوى الشر والإنكار فجاءت صياغة هذا الموروث؛ صياغة قصصية في زمن لم يكن القصص فيه قد انفصل عن التاريخ، فامتزجت الأسطورة بالتاريخ وتوارى فراعنة مصر بين ركام الخرافة.

من هؤلاء الفراعنة الذين شغلوا فكر المؤرخين في سياق حديثهم عن مصر "فرعون إبراهيم" حيث نسج الخيال الشعبي حوله أساطير جمة تصوره في الطور الأول من حياته بالملك العاتي والظالم، ثم تحوله في الطور الثاني من حياته؛ ملكاً صالحاً عادلاً وواصلاً لرحمه، تقول الروايات: "حكى أن إبراهيم عليه السلام؛ كان قادماً مع (سارة) إلى مصر، حدثت النفس الأمارة بالسوء، الملك الجبار

---

[1] -المسعودي :مروج الذهب، ص ٣٦٥.

[2] -ابن محشرة: المصدر السابق، ص ٧١.

[3] - الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول،ص٦

[4] -ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ١٥.

[5] -التلمساني: مصدر سابق، ص ٤٢٤.

(طوطيس)، بأن يمد يده إلى (سارة)، ويراودها عن نفسها، فشل الله سبحانه وتعالى يده في الحال. ودعا إبراهيم عليه السلام أخيراً أن يعيد الحياة إلى يده، فاستجاب الرب دعاءه، ولكن نفسه الأمارة بالسوء، حملته مرة أخرى على اغتصاب (سارة) ومحاولة التعدي عليها، فشلت يداه مرة أخرى، وقد عفا عنه إبراهيم عليه السلام هذه المرة، ودعا له بالشفاء، فبرئت يداه، وهنا اعترف الملك طوطيس بنبوة إبراهيم الخليل ناطقا بالشهادة (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فصار مسلماً".[1]

وتمضي الرواية التاريخية لتقول أن فرعون إبراهيم قد وهب إبراهيم عليه السلام السيدة هاجر، التي ولد له إسماعيل عليه السلام، وحباً في لقاء إبراهيم وسارة: "عمد إلى فتح الجبال تجاه بني سويف، وتمهيد الطريق إلى مسافة ثلاثة أيام، حتى بحر السويس، حيث أجرى النيل إليه، وتمكن من إرسال مئات من السفن ،والمراكب بالمؤن والذخائر، إلى أهل مكة....".[2]

وذهب ابن كثير في نسب هذا الفرعون إلى أحد العمالقة من نسل سام بن نوح، أو الحميريين من عرب الجنوب ،وتخلع عليه اسماً عربياً في قوله: "وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخا الضحّاك الملك المشهور بالظلم، وكان عاملاً لأخيه على مصر، ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عويج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، وذكر ابن هشام في التيجان: أن الذي أرادها عمرو بن أُمرئ القيس بن بابليون بن سبأ وكان على مصر...".[3]، ويلاحظ أن هذا الاتجاه الأخير يعتمد أسلوب النسابة في نسبة كل قبيلة أو مدينة إلى جد أعلى، ويلفت النظر هنا استخدام الرواية لاسم بابليون (وهو اسم الحصن الذي كانت تقيم به الحامية البيزنطية التي حاصرها جيش عمرو بن العاص في خضم أحداث فتح مصر).[4] باعتباره اسما ــ سبق الحديث عنه في الفصل الثاني

---

[1] – الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص ٢٤٤؛ ابن كثير: قصص الأنبياء (ج١، المكتبة التوفيقية، القاهر ٢٠٠٠م)، ص ٧٧؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٣١؛ أولياچلبي: سياحتنامه مصر، ص ٣٩

[2] – ؛ أوليلچلبي: سياحتنامه مصر، ص ٣٩؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١ ، ص ٢٤٤.

[3] –ابن كثير: قصص الأنبياء، ج١، ص ٧٧.

[4] –دارت أساطير عدة حول (بابليون) فهو اسم استخدمه حجاج العصور الوسطى إلى الأرض المقدسة، وفكرة وجود (بابليون) في مصر حيث قذف "نبوخذ نصر" شدرخ وميشخ وعبد نغو في الأتون الملتهب (دانيال: ٣-٢٠) كانت فكرة تتردد غالبا في كتابات الرحالة الأوائل من أوروبا، وهناك أسباب مختلفة لتفسير هذا الاعتقاد الطريف، وكان يبدو أنه منذ أيام نفي اليهود من بابل (٥٩٧-٥٣٨ ق.م) أنهم عاشوا على ضفاف النيل في موقع ما يسمى

ـــ لواحد من حكام مصر من نسل سبأ الأكبر ومن الواضح أن الروايات حاولت أرضاء حاجات ثقافية / اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك.

الأمر ذاته تكرر مع (فرعون موسى) حيث : "تنازع الناس في أمر فرعون موسى؛ فمنهم من رأى أنه من العماليق، ومنهم من قال :هو من لخم من الشام، ومنهم من رآه أنه من الفرس من مدينة اصطخر، ومنهم من رأى أنه من القبط من ولد مصرام، والقبط تثبت ذلك، وزعم قوم أنه من الأعاجم من الأندلس من قرمونة، وذكروا: أن اسمه الوليد بن مصعب...".[١] وأشار ابن عبد الحكم إلى أن : "فرعون موسى ـــ اسمه طلما ـــ قبطي من قبط مصر، أو من فران بن بلي واسمه الوليد بن مصعب، وكان قصيراً أبرش يطأ في لحيته .. حدثنا عن هانئ بن المنذر : أنه ـــ فرعون موسى ـــ كان من العماليق وكان يكني بأبي مرة .. كان فرعون أثرم، ويقال: بل هو رجل من لخم والله أعلم...".[٢]، وأمدنا الموروث الشعبي برواية منسوبة إلى عائشة‌رضي الله عنها: "قالت عائشة رضي الله عنها: أقام فرعون بمصر أربعمائة سنة.. ولم يكن من أولاد الملوك وإنما أخذ ملك مصر بحيلة".[٣] وعلى لسان عمرو بن العاص أورد المؤرخون رواية تقول: "اختلف أولاد الملوك بمصر فيمن يكون الملك، فرضوا بمن يحكم بينهم، وأن يكون من يطلع من الفج، فطلع فرعون راكباً .. وسألوه الحكم بينهم .. فقال لهم: "قد اخترت نفسي أن أجلس وأوطئ لكم الأمر...".[٤] وقيل أن ": فرعون كان عطاراً بإصبهان، فركبه الدَّينْ وأفلسَ،

الآن مصر القديمة، وفضلا عن ذلك، فإن استرابون تحدث عن (بابليون) باعتبارها قلعة عسكرية، تأسست قبل الرومان على أيدي اللاجئين من بابل "بابليون" القديمة وهكذا استمر الربط بين المكانين، على أية حال، فقد كانت مصر في عقلية العصور الوسطى دائماً أرض العجائب ؛ إذ كانت تروي عنها حكايات غاية في الغرابة يصدقها السُذج ،يضخمها ما بقي من السحر والتخمين: آن وولف، كم تبعد القاهرة؟ ، صـــ ٣٥.

[١] –الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٥٥١؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨؛ ابن محشرة: الاستبصار، ص ٧٧؛ المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص ٣٩٧.

[٢] –ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٤٤.

[٣] –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٨٩؛ابن زولاق: فضائل مصر، ص ٢١؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥١.

[٤] – ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة: ص ٨٩، الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥٢.

فخرج منها هاربا ..فأتى مصر .. ثم سار في الناس سيرة سنة، وكان عادلاً سخياً، يقضي بالحق ولو على نفسه، فأحبه الناس فتوفي الملك فولوه عليهم"[1].

ما يهمنا في الروايات السابقة؛ هو أن صعوبة الوصول والإحاطة بحقيقة فرعون مصر وأصله، جعلت المؤرخين والرواة في حيرة دفعتهم إلى الهروب من المأزق، بمقولة "والله أعلم" واختلق الموروث الشعبي بعض الروايات ونسبوها إلى كبار الصحاب لإضفاء المصداقية على ما يقولونه، كما أوضحت لنا رؤية الناس لفراعنة مصر، وما يجول بخاطرهم فجاء فرعون في المخيلة الشعبية بصورة مغايرة عما جاء به في النصوص الدينية. حيث وجدناه ملكاً عادلا جاء بإرادة الناس ولم يكن جباراً شقيا.،

استعارت بعض الروايات ملامحها من نسيج السيرة النبوية في تلميح إلى قصة احتكام سادة العرب في أمر وضع الحجر الأسود عند بناء الكعبة فاحتكموا إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، كذلك الأمر مع فرعون واحتكام الناس إليه، وكيف أن الخيال الشعبي قد استعار هيكل السيرة النبوية دون المضمون فيما يتعلق بتلك الحادثة. مما يدلنا إلى أي مدى تأثر الوجدان الجمعي بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم التي ظلت سيرته صلى الله عليه وسلم أبرز شخصية أساسية في الآداب الشعبية العربية لكونه البؤرة النورانية المباركة ، التي يلتقي عندها العديد من فنون الأدب الشعبي،والواضح أن الكثير من الروايات التي صاغها الوجدان الشعبي حول فرعون مصر، في بعضها صدي لسيرة وكرامات الأنبياء أو محملة بإشارات من قصصهم التي لم تزدهر وتنمو وتنضج إلا في ظلال القرآن الكريم.

وحلق الخيال الشعبي بعيداً فيما يتعلق بحادثة غرق فرعون موسي والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم فيقول ابن عبد الحكم نقلاً عن عدة رواه:" أقبل فرعون حتى انتهي إلي الموضع الذي عبر منه موسيعليه السلام وطرقه علي حالها.. وكان فرعون يومئذ علي حصان وأقبل جبريل عليه السلامعلي فرس أنثي في ثلاثة وثلاثين من الملائكة، فتفرقوا في الناس، وتقدم جبريل عليه السلام فسار بين يدي فرعون وتبعه فرعون وصاحت الملائكة في الناس الحقوا الملك، حتى إذا دخل آخرهم ولم يخرج أولهم التقي البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو إسرائيل وجبة حين التقي . فقالوا: ما هذا ؟ قال موسي : غرق فرعون وأصحابه فرجعوا ينظرون فألقاهم البحر علي الساحل."[2] فحين أشار القرآن الكريم إلي

---

[1] – ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ، ص ٩٠.

[2] – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٤٤،ص٤٥.

فرعون موسي وقومه وما حاق بهم من عذاب بسبب عصّيانهم وإنكارهم للحق أشار إلي ذلك بصفة إجمالية، دون اللجوء إلي تفاصيل حقيقة، كان الهدف من ذلك استخلاص الحكمة والموعظة لتقوية الإيمان وتعميقه في قلوب الناس.

ولكن الرواة تزيّدوا وأضافوا ولجأوا إلي تفاصيل لم يشر إليها القرآن ومثال ذلك حين :" ألجم فرعون الغرق، قال : أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فجعل جبريل عليه السلام يدس في فيه من طين البحر، ويقول: الآن وقد عصيت ، وقبل وكتب من المفسدين "[١].

وظلت الذهنية الشعبية تبحث عن السطور المفقودة في حياة فرعون موسي وتنقب عن الشخصيات الثانوية كي تكتمل الحبكة الفنية لديها مثال ذلك قولهم أن: " من حكمة الله وحسن تقديره، أن كان والد سيدنا موسي عليه السلام هذا بواب قصر فرعون كما أن والدته كانت من جملة نساء الحرم الخاص".[٢]

وهكذا؛ فإن القراءة الشعبية لتاريخ فراعنة مصر، كانت تحتوي في عناصرها علي مسائل أخرى شغلت الضمير الجمعي ووجدتها فرصة لأن تطرحها في إطار رؤيتها الشعبية للأحداث في سياق بحثها المستميت عن العناصر المنسية والناقصة في الحدث التاريخي.

على جانب آخر لعب الحلم دوراً بارزاً في التأريخ لحياة الفراعنة، وما يتعلق بأحداث حاسمة في تاريخ مصر، فالحلم كان ولم يزل منبعاً فياضاً للأسطورة طوال تاريخه، ومصدراً ثرياً لإلهاماته المتواترة على مستوى الشرق والغرب، رغم اختلاف منطق استخدامه من قبل كلٍّ منهما. فضلا عما كان للأحلام من دور ــ كقوالب فنية ــ في تشكيل القصص الشعبي المرتبط بفراعنة مصر القدامى مع تفاعل المؤثرات الدينية على الأخبار التاريخية التي وجدت طريقها إلى كتابات المؤرخين بعد تحويرها وإعادة صياغتها.

يقول ابن إياس وغيره من المؤرخين: "أن فرعون رأى ثلاثة أحلام في الليلة الأولى؛ سمع في الحلم هاتفاً يقول له: "ويلك يا فرعون، قد قرب زوال ملكك، ويكون على يد فتى من بني إسرائيل". وفي الليلة الثانية؛ رأي في منامه وكأن شابا دخل عليه وهو يركب أسداً عظيماً، وبيده عصا يضرب بها رأس فرعون، وفي الليلة الثالثة؛ رأى نفس حلم الليلة الثانية، ولما جمع الكهنة، أخبروه بولادة مولود لبني إسرائيل، يسلب ملكه، وأشار عليه وزراؤه بأن يحضر إلى قصره كل امرأة أوشكت على الولادة

[١] – التلمساني: سكردان السلطان، ص٤٢٨.

[٢] – أوليا چلبي : سياحتنامه مصر، ص٤٨.

تلد هناك، فإن كان المولود أنثى استحياها، وإن كان ذكراً قتله..".[١] وقد ذكر الإخباريون المسلمون هذا الحديث على خلاف طفيف فيما بينهم والتي لم تكن تلك الأخبار سوى تنويعات على قصة التوراة إذ يعد العهد القديم المصدر المبكر الوحيد الذي ورد فيه ذكر

موسى وفرعون، أما المأثورات المتأخرة حول شخصية فرعون موسى والتي وردت في أعمال المؤرخين، فيبدو أنها لم تكن سوى مجموعة كبيرة من الأساطير التي أعادت كتابة التاريخ الذي قدمه العهد القديم والإشارات الواردة بالقصص الديني، فقد ورد في الأساطير اليهودية ــ خارج العهد القديم ــ وتسربت إلى كتب التاريخ: "رأى فرعون في منامه؛ أنه بينما كان جالساً على عرشه دخل عليه كهل، في يده ميزان، فعلقه أمام فرعون، وأتى بكل شيوخ مصر، وأمرائها وكبرائها ووضعهم في كفة الميزان الأولى، ثم أخذ كبشاً أبيض اللون، ووضعه في الكفة الأخرى، فرجحهم الكبش، واندهش فرعون لهذا المشهد. وتساءل عن السبب وعندما استيقظ، دعا جميع عبيده، وقص عليهم حلمه فخافوا، لكن أحد خصيانه أخبره بأن شراً عظيما يتربص بمصر، حيث يولد في إسرائيل ولد يخرب جميع أرض مصر، وأشار على فرعون بأن يصدر أمراً بقتل كل مولود ذكر يولد في بني إسرائيل".[٢]

وبالمقارنة بين ما كتبه المؤرخون فيما يخص فرعون موسى نجد أنه قد ورد عنصر النبؤة ــ كأحد سمات الأسطورة ــ في العديد من قصص الإخباريين المسلمين وفي بعض الأساطير الإسرائيلية، وقد اتخذت النبؤة في هذه القصص والأساطير شكلين: إما إخبار الكهنة والسحرة والعرافين فرعون بولادة مولود في بني إسرائيل، وإما الأحلام[٣] فيذكر المسعودي: "أن أهل الكهانة والنجوم والسحر أخبروا فرعون أن مولودا سيولد في بني إسرائيل ويُزيل ملكه ويحدث ببلاد مصر أموراً عظيمة..".[٤]

ويذكر المقريزي : "أيضا، أنه عندما أخبر العرّافون فرعون بميلاد ذلك الطفل، منع بني إسرائيل من المناكحة لمدة ثلاث سنين...".[٥] ويذكر ابن كثير : "أن فرعون رأى في منامه وكأن ناراً أقبلت من ناحية بيت المقدس فأحرقت دور مصر وأهلها ولم تضر بني إسرائيل .. فأمر فرعون بقتل الغلمان..".[١]

---

[١] –ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص ١١٨، ص ١١٩؛ التلمساني: سكردان السلطان، ص ٤٢٤.

[٢] –ي. ب. ليبنر: كل أساطير إسرائيل(معدة وفقا للمصادر الأولى، ومكتوبة بلغة المقرا وفق ترتيب زمني)،(القسم الأول، نشر دار أحياساف" و "عيفر" أورشليم ١٩٥٠م)، عمود ٢٧٩.

[٣] –كارم محمود عزيز: النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم، دراسة مقارنة،(رسالة دكتوراة (غير منشورة)، جامعة الزقازيق ١٩٩٧م)، ص ١٨٧.

[٤] –المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٤٨: ٤٩ ؛ التلمساني: سكردان السلطان، ص ٤٢٤.

[٥] –المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٤٦٦.

جدير بالذكر. أن الخيال الشعبي قد استعار هيكل تلك الروايات ووظفها في سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث كان مولد إبراهيم عليه السلام في عصر الملك النمرود، الذي عُرف بكفره وعصيانه، وحذره المنجمون من أنه سيولد في بلده هذا العام؛ غلام يغير دين أهل الأرض وأن النمرود: "رأى في منامه كوكباً طلع فذهب منه نور الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء، فقال الكهنة: هو مولود يولد في هذه السنة يكون هلاك أهل بيتك على يديه..".[٢] لتستعين الرواية في سرد سيرة إبراهيم عليه السلام بالأحداث التاريخية، التي يدعمها النص الديني، تملأ ما تجده من فراغ تاريخي بروايات خيالية أو قصص تعليلية تكشف عن رؤية الجماعة الإنسانية لتاريخها وذاتها، خاصة مع ميل الشعوب عامة إلى قصص حكايات المعجزات والاستماع إليها. فلا غرابة أن تنتزع من سيَّر الأقدمين تلك الأخبار التي تشير إلى المعجزات والنبوءات فينميها القصاص الشعبي ويفرد لها قصصاً مستقلة.

المزج التاريخي المشوق، والتداخل بين التصور الديني والتصور الأسطوري لشخصية فرعون مصر. استمر في كتابات المؤرخين المسلمين في إفلات مثير من قيود الزمان والمكان، حيث يبدو هذا واضحا فيما رواه المؤرخون عن فرعون مصر المدعو "كلكن الجبار" الذي كان يعقد التاج على رأسه، وكانت دار مملكته منف.. وكان نمرود جباراً شديد البأس، وكان ملكه بالعراق، وكان قد أوتي قوة وبطشاً، فغلب على أكثر الأرض فأراد أن يستوزر كلكن الملك، وبعث إليه في ذلك، فخافه كلكن وأجابه إلى ذلك، ووجه إليه أنه يريد أن يلقاه منفرداً من أهله وحشمه؛ ليريه من حكمته وسحره، فسار النمرود إلى موضع يلقاه فيه كلكن فأقبل كلكن، تحمله أربع أفراس ذوات أجنحة، وقد أحاط به نور كنار، وهو في صورة مهيبة، فدخل بها وهو متوشح تنيناً عظيماً والتنين فاغر فاه، ومعه قضيب آس، فكلما رفع التنين رأسه ضربه بالقضيب الذي بيده، فلما رأى النمرود هالة ما رآه، واعترف له بجليل حكمته، وسأله أن يكون له ظهيراً ففعل..".[٣]

هذه القصة الخيالية تحملُ ظلا من الفرضية القائلة: أن الحاكم الذي كان يجمع ما بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية في المجتمع يمارس السحر، يتراءى لعامة الناس كمتبحر في أسراره وطقوسه، ليخلق حول شخصه أسطورية سحرية تضفي عليها صفات بطولة أو – على الأقل – تجعله شخصية

---

[١] –ابن كثير (أبو الفداء الحافظ):البداية والنهاية (المجلد الأول، تحقيق: احمد أبوملحم وآخـرين،دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م)، ص ٢٢٢ ص ٢٢٣.

[٢] –انظر: نبيلة إبراهيم سالم: السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي(مجلة ع الم الفكر، المجلد الثاني عـشر، العدد الرابع، الكويت ١٩٨٢م)، ص ٣٤٥ ص ٣٤٩.

[٣] –المقريزي: الخطط ، ج١ ، ص٣٥؛ ابن مخشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٧٠.

مبرزة مرغوبة ويخشى بأسها.[١] ونجد أن شخصية فرعون مصر ظلت تشغل حيزاً لا بأس به في الكتابات التاريخية التي تناولت فضائل وتاريخ مصر القديم. كما أن الرواية السابقة قدمت لنا الصورة التي شاعت في المجتمع المصري عن فكرة "المخلوقات العجيبة من طير السماء أو وحش الأرض أو الماء " والتي تكشف لنا كيف ربط الخيال الشعبي بين هذه المخلوقات وبين الحاكم الديني والسحر ، فالحاكم الديني أو الساحر يستطيعان بحكم قواهما السحرية والدينية أن يستدعيا "التنين الوحش" لتدمير من يريدان ، أو لإخافته شخصاً كان أو ربما مدينة ..

وهذا يبدو طبيعياً طالما ربط الخيال الشعبي بين هذه المخلوقات وبين الحاكم الديني الذي يمتلك قوى سحرية ومعجزات أو كرامات يسخّر بها قوى ما فوق الطبيعة أو يسخّر بها المخلوقات الضارة المدمرة والتي ترعب الإنسان وتذهب بلبه وتنال منه ومن شجاعته ومن وجوده كله والتي تصبح خدماً لمن يملك الطلسم الذي يتحكم فيهم أو من يعرف الاسم الذي مكن لسيدنا سليمان عليه السلام أن يتحكم في قوى الطبيعة من رياح وأمطار ، وعلى قوة المعرفة التي جعلته يعرف كل اللغات بما فيها لغات الطير والحيوان والهوام أيضاً .

وحين سُرِقَ كتاب السحر من تحت إيوانه تعلم منه السحرة والكهنة الكثير من الأسرار وامتلكوا الكثير من القوى التي أعارتهم في كثير من الحكايات – القدرة على التحكم في الطبيعة والجان و الحيوان كـــ (التنين) . هذا الحيوان الأسطوري بما مثّلهُ من شخصية هامة في الحكايات الفولكلورية، والأساطير التي صاغت فيها الأجيال؛ معتقداتها وصنوف رعبها وتشوفها وتصوراتها عن الكائنات القوية والقوى الخفية الكامنة وراء ظواهر العالم المرئي وغير المرئي، ومن النسيج المتراكب والمتشابك المتداخل من الحكي الفولكلوري، والإبداع الأسطوري الذي ظل يتناقل شفاهاً من جيل إلى جيل.

---

[١] –شفيق مقار: السحر في التوراة والعهد القديم(ط.الأولى، دار رياض الريس، بيروت ١٩٩٠م)، ص ٣١٢، ١٦١.

الفصل السادس

أساطير أصول المدن المصرية

اختلفت آراء العلماء بشأن ظاهرة التعليل باعتبارها سمة للأسطورة، حيث ذهب فريق إلى أن التعليل ليس هو الخاصية المميزة للأسطورة، بينما ذهب فريق آخر ــ يتزعمه "كاسيرر" ــ إلى أن التفكير الأسطوري يتميز عن العالم النظري بفكرته عن السببية. وأياً ما كان الأمر، فإنه مما لا شك فيه أن هناك نوعاً من الأساطير يرتكز في أساسه على فكرة التعليل، وهو ما يتمثل في نوع أساطير الأصل، وإن كانت تنتمي إلى نوع آخر من القصص الشعبي يسمى بالحكايات التعليلية أكثر من انتمائها إلى نوع الأسطورة.[1]

وتبرز فكرة التعليل في العديد من الحكايات التعليلية أو أساطير الأصل والتي تؤصل لمدن مصر القديمة التي شُيد بعضها زمن الفراعنة وشُيد بعضها الآخر على امتداد تاريخ مصر الطويل، وحول هذه المدن القديمة دارت موضوعات الموروث الشعبي في إطار خيالي يعكس مدى الانبهار والإعجاب بهذه المدن ــ وإن احتوت على أخطاء معرفية واضحة ــ وقد جمع المؤرخون المسلمون عدداً من الأساطير والروايات الخيالية حول هذه المدن في إطار يجمع بين الأسطورة والتاريخ ، والاقتراب من الخيال الشعبي في وصفهم التفصيلي لمدن مصر؛ التي قد يكون لها وجود فعلي ملموس أو مدن لا وجود لها في عالم الواقع مثل مدينة أمسوس المصرية ــ التي اعتقد الناس والمؤرخون بوجودها قبل الطوفان ــ وكان ذلك وحده كافياً لإطلاق خيال الرواة والقصاصين فنسجوا من وحي خيالهم أسطورة مدينة أمسوس المفقودة [2] بفعل الطوفان، مما يفصح لنا عن أفكار كثيرة تبادلت التأثير والتأثر مع حكايات ألف ليلة وليلة.

---

[1] –ارنست كاسيرر: الدولة والأسطورة (ترجمة:أحمد محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م)، صفحات متنوعة ؛ كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع، ص ٤٢٢.

[2] – فكرة المدينة المفقودة تعد من الأفكار الشائعة في ثقافات العديد من الشعوب.

يقول ابن إياس: "مدينة أمسوس وهي مصر القديمة، وكانت من أعظم المدائن، وبها من العجائب ما لم يسمع بغيرها، ولكن محا الطوفان رسمها ونسى اسمها..".[١] فهي عند المقريزي : "أول مدينة عُرِفَ اسمها في أرض مصر (مدينة أمسوس). وقد محا الطوفان رسمها ولها أخبار معروفة، وبها كان ملك مصر قبل الطوفان، ثم صارت مدينة مصر بعد الطوفان مدينة منف، وكان بها ملك القبط والفراعنة إلى أن خربها بخت نصر، فلما قدم الاسكندر بن(فيليبش) المقدوني من مملكة الروم، عمَّر مدينة الإسكندرية عمارة جديدة، وصارت دار المملكة بمصر. إلى أن قَدِمَ عمرو بن العاص بجيوش المسلمين، وفتح أرض مصر فاختط الفسطاط، وصارت مدينة مصر إلى أن قدم جوهر القائد بعساكر المعز لدين الله أبي تميم معه وملك مصر واختط القاهرة .. وصارت القاهرة مدينة مصر إلى يومنا هذا.".[٢]

وبعد أن يُورد المقريزي أسماء عدد من المدن المصرية يُورد حكاية خيالية عن أن "مصر بن بيصر" قسم الأرض بين أولاده، فأعطى ولده أشمون من حد بلده إلى رأس البحر إلى دمياط، وأعطى ولده أنصنا من حد أنصنا إلى الجنادل، وأعطى لولده صا من صا، أسفل الأرض إلى الإسكندرية، وأعطى لولده منوف وسط الأرض السفلى منف و ما حولها، وأعطى لولده قفط غربي الصعيد إلى الجنادل، وأعطى بناته الثلاث شرقي الأرض إلى البرية (يقصد صحراء الشرق)، وأعطى بناته الثلاث وهن الفرما وسريام وبدورة. بقاعاً من أرض مصر محددة فيما بين أخوهن ..".[٣] وتكمل الروايات التاريخية المتأخرة شجرة النسب لباقي المدن المصرية فتقول: "قد خلفه ابنه مصرايم المولود بالعريش فصار ملكاً مستقلا عظيما ينفذ حكمه في إسنا "أسن"، وأسوان (إشوان) والسودان (سودان)، حتى بلاد الفونج (فوبحستار)، وعمد إلى أقاليم مصر، فوزعها على الأخوة الثلاثين (وهو منهم) ثم بنى كل واحد منهم في البلاد التي يحكمها مدينة عظيمة ،لا تزال تسمى بأسماء أولاد بيطر بفضل دعاء سيدنا نوح عليه السلام مثال ذلك أن أحد أبناء بيطر كان يدعي (رشيد) فبنى المدينة التي هي الآن بهذا الاسم والآخر كان يدعى (دمياط) وثالث كان (اسكندر) وآخر تينبر (تينه)، وكذا (سيفه) الذي بنى مدينة بني سويف وآخر يدعي (مينه) وكذا أشمون وأسيوط وجرجه وتنا (قنا) وقوس (قوص) واسنه وأسوان

---

[١] –ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص ٩.

[٢] –المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٢٨؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ،ص٣١٥.

[٣] – المقريزي: الخطط، ج١ ، ص ١٢٩؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٢٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ١٤، ص ١٥.

(أثوان) وابريم وصيابي وحلفا (حلفه) وسنارة وسودان وغيره من أمثال هذه الأسماء التي كان يتسمى بها الأمراء الذين بنى كل واحد منهم مدينة لا تزال باقية على الدهر عامرة آهلة بالسكان في شواطئ النيل حتى الآن..".[١] ،وعن نسب مدينة أتريب يقول القلقشندي : " بناها أتريب بن قبطيم بن مصـــر ابن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام".[٢]

يتضح من هذه الروايات الخيالية مدى تأثر الرواة بالأنساب العربية؛ ذلك أن عدم القدرة على معرفة أسباب تسميات المدن المصرية القديمة جعل الخيال يجنح إلى حد تصور أن هذه المدن قد اكتسبت أسماءها من أبناء "مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ــ الذي ينسب إليه اسم مصر ــ الذين قسمت بينهم أرض مصر، بل أنه ينسب بعض الأسماء إلى بنات تلك الشخصية مثل "الفرما" والتي تنازع في نسبها ــ الفرما ــ الاتجاه المصري القبطي مع الاتجاه الإغريقي في المجتمع المصري إذ تقول أحدى الروايات: "كان للإسكندر أخ يسمى الفرما، فلما بنى الاسكندر الإسكندرية ، بنى الفرما ، الفرما على نعت الإسكندرية ولم تزل الفرما مُذ بنيت رثة..."[٣]وفي هذا السياق يشير ابن إياس لنسب مدينة تنيس المندثرة بقوله :"قال المسعودي :إن الذي بنى مدينة تنيس كانت أمرأة تسمى تنيس وهي بنت صا بن تدارس أحد ملوك القبط فسميت تلك المدينة بها".[٤]

وتكشف الأساطير التي تدور حول المدن المصرية القديمة، بما تحويه من أخبار العجائب والغرائب، عن مدى إعجاب الرواة وانبهارهم بإنجازات الحضارة المصرية القديمة وهو الأمر الذي يبدو واضحاً من خلال تلك القصص الخيالية من الأعمال الإعجازية لملوك مصر القديمة، يقول المقريزي تحت عنوان "ذكر مدينة أمسوس وعجائبها وملوكها".

"... وأول من ملك مصر نقراوش الجبار بن مصرايم. ومعنى نقراوش ملك قومه ونقراوش هو الذي بنى مدينة أمسوس وعمل بها عجائب كثيرة؛ منها طائر يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرتين، وعند غروبها مرتين، فيستدلون بصفيره على ما يكون من الحوادث حتى يتهيأون لها، ومنها

---

[١] -أوليا جلبي: سياحتنامه مصر، ص ٣٦.

[٢] - القلقشندي : صبــح الأعشى ، ج٣ ، ص٣٨١.

[٣] -السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٤١.

[٤] - ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج١ ،ص٥٠.

صنم من حجر أسود في وسط المدينة تجاهه صنم مثله إذا دخل سارق المدينة لا يقدر أن يزول حتى يسلك بينهما؛ فإذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ .. وعمل صورة من نحاس على منار عال لا يزال عليها سحاب يطلع فكل من استمطرها أمطرت عليه ما شاء. وعمل على حد البلاد أصناماً من نحاس مجوفة وملأها كبريتاً، ووكل بها روحانية النار. فكانت إذا قصدهم قاصد أرسلت تلك الأصنام من أفواهها ناراً أحرقته، وعمل فوق جبل بطرس مناراً يفور بالماء ويسقى ما حوله من المزارع، ولم تزل هذه الآثار حتى أزالها الطوفان ...".[1]

رواية ابن إياس عن مدينة أمسوس "جاءت على نحو مشابه لرواية المقريزي مع بسط في التفاصيل عن دور ملوك مصر القديمة في تطوير "أمسوس" بقوله : "... مصرايم وهو الذي بنى مدينة مصر، وإليه تنسب وكان عالماً بعلم الكهانة والطلسمات .. كتب على أبواب مصر، أنا مصرام بن تبليل قد بنيت هذه المدينة، وأودعت بها الطلسمات الصادقة والصور الناطقة، أما ابنه عرياق كان عالماً بعلم الطلسمات وله أعمال عجيبة، وكان قد عمل قبة عظيمة في وسط مدينة أمسوس وعمل فوقها كالسحابة تمطر مطراً خفيفاً شتاء وصيفاً، وعمل تحت تلك القبة مطهرة فيها ماء أخضر يتحصل من ذلك المطر، فإذا استعمله من به عاهة برئ من وقته ولما هلك تولى من بعده ابنه لوجيم، وكان عالما بعلوم الطلسمات والسحر وله أعمال عجيبة؛ منها كانت الغربان قد كثرت في أيامه، وصارت تفسد الزروع والغلال، فعمل أربع منارات في جوانب مدينة أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب، وعليه صورة حيَّة قد التوت، فلما عاين الغربان ذلك نفروا عن المدينة ولم يدخلوها بعد ذلك في مدة أيامه، ومنها أنه عمل طلسماً للريح، فكانت المراكب المقلعة إذا وصلت إليه تقف ولا تسير حتى يجعلوا له على كل مركب ضريبة معلومة، حتى يطلق لهم الريح من الجو، واستمر في الملك حتى هلك...".[2]

وعن ملوك أمسوس المزعومين يتحدث أولياجلبي عن أحدهم بقوله: "خلفه أخوه مصرايم بن نقراوش في الملك وكان هذا حاكماً ماهراً وكاهناً ساحراً، ؛ إذ سخر بقوة علمه جميع السباع والحيوانات المفترسة والمرعبة لأمره، بل أنه جعل الشياطين والعفاريت تخضع له وتحمل له عرشه".[3] ويقول ابن إياس عن إنجازات ملوك أمسوس المزعومة: "بنى أحدهم قلعة وكانت الجن والشياطين

---

[1] -الخطط، ج١، ص ١٢٩.

[2] - ابن إياس :بدائع الزهور في وقائع الزهور،ج١، ص ١٠-١١.

[3] - المرجع السابق ، ص١١؛ سياحتنا مه مصر، ص ٣٠.

تحمل سريره على أعناقهم ويطوفون به في سائر أقاليم الدنيا، ثم يرجعون إلى قلعته التي بناها وسط البحر، فاستمر على ذلك حتى هلك".[1]

المتتبع لتاريخ وسيرة "مدينة أمسوس" سيجد أنها كانت مرتعاً لخيالات الرواة وأخبارهم. إذ حملت تلك الأخبار ثمة رائحة من التاريخ في الوقت الذي يصطبغ فيه بصبغة أسطورية، فقد حرصت أخبار أمسوس على تضمين نصوصها بشراً من نوع الملوك المحيطين بعلوم الطلسمات والسحر والأعمال العجيبة والخارقة، التي ساعدت على عمران مدينة أمسوس بعجائب وغرائب تحيّر في وصفها الإنسان إذا رآها بالعيان على حد قول المؤرخين رغم عدم رؤيتهم لها.

كما أن الزعم القائل بمحو الطوفان للمدينة شكّلَ خلفية تتحرك عليها (موتيفات) وأفكار أسطورية مثل؛ الطلسمات الصادقة، الصور الناطقة، والكنوز المرصودة، وانفتاح العوالم المرئية واللامرئية على بعضها، ومن ثم فلا بد من اصطباغ تاريخ وأخبار المدينة بنفس الصبغة الأسطورية بالتبعية، أضف لذلك؛ أن تلك الروايات والأخبار الخاصة بمدينة أمسوس وغيرها من مدن مصر، في جانب هام منها تؤصل لنشأة مصر أرضاً وشعباً وعمراناً، وذلك الحدث في ذاته إن شئنا التأريخ له فإنه ــ بلا أدنى شك ــ سيصبح خارج إطار العصور التاريخية وينتمي بشدة إلى عصور الأسطورة، مما يجعله يتخطى حدود الزمن الذي انتمت إليه بدايات نشأة وعمران مدن مصر، هذا علاوة على أن فكرة النشأة والتكوين تعد أحدى الموتيفات الأسطورية البارزة والتي يلزمها إطار زمني أسطوري خالص أوجده الرواة في زمن ما قبل الطوفان.

جدير بالذكر أن أخبار مدينة أمسوس وبعض المدن المصرية أضفت على جزء من تاريخها سمات خاصة بها ،عند ارتباطها بكائنات لعبت دوراً في حياتها ونشأتها مثل: الجن والعفاريت والشياطين الذين كانوا القاسم المشترك مع ملوك أمسوس في بناء وتشييد المدينة.

ويسلك المؤرخون المسلك نفسه فى سياق حديثهم عن مدينة "منف" وملوكها فيذكر أوليا جلبى أحداث ما جرى فى مصر بعد الطوفان فيقول :" لم يكن هناك شئ ظاهر سوى جبل الهرة الذى كان قد أقيم بإشارة من النبى ادريس تجاه النيل ليأووا إليه . ومع ذلك فإن الذين لجأوا عند الطوفان قد غرقوا بأموالهم وكنوزهم فى مياه الطوفان ، هذا وقد قام قليمون وصهرة بيطر بن حامد بجولة فى أرض مصر للبحث عن موطن يقيمان به ، فلما وصلا أرض (منف) وجداها طيبة الهواء ... فبنوا بلدة مختصرة أطلقوا عليها اسم (منف) ومعناه باللسان العبرى محل الصفاء والانتعاش ... وقد أنشأ بها بيطر كثيرًا من المدن والآثار وعمرها وحولها إلى قصبة عظيمة ... واتخذها عاصمة لملكه ".[2]

---

[1] – ابن إياس :المصدر السابق ، ص ١٠.

[2] – أولياجلبى : سياحتنامه مصر ، ص٣٥– ص٣٦ .

يضيف المقريزي أن هذه المدينة ــ منف ــ كانت في غربي النيل على مسافة اثنى عشر ميلا من مدينة الفسطاط ثم يقول : ".. وهي أول مدينة عمرت بمصر بعد الطوفان، وصارت دار المملكة بعد مدينة أمسوس التي تقدم ذكرها إلى أن أخربها بخت نصر".[١] ويضيف (ابن محشرة) أنه كان بمنف: "فرعون موسى عليه السلام وكان اتخذ لها سبعين باباً من حديد وفصل حيطان المدينة بالحديد والصفر، وفيها كانت الأنهار تجري من تحت سريره وكانت أربعة أنهار ... رأيت بمنف دار فرعون، وكنت أمشي في شوارعها ومجالسها وغرفها وجميع سقائفها وحجورها فإذا ذلك كله حجر واحد منقور، فإن كان بناء قد أحكم حتى صار في الاستواء كحجر واحد لا يستبان فيه جمع حجرين ولا ملتقى صخرتين فلذلك عجب، وإن كان جبلا واحدا فنقر الرجال فيه بالمناقير حتى خرقت فيه تلك المخارق فهو أعجب وأعجب".[٢]

يصفها ابن زولاق بقوله: "أبنيتها ــ منف ــ وعجائبها وأصنامها، ودفائنها وكنوزها التي لا تحصى .. وفيها بيت فرعون قطعة واحدة، سقفة وفرشه وحيطانه حجراً أخضر .. وبها آثار الأنبياء والحكماء، وهي منزل يوسف عليه السلام، ومن كان قبله، ومنزل فرعون موسى .. وكان بمنف قبة فيها صور ملوك الأرض متى تحرك منهم ملك يريد مصر بعج الموكل بالقبة بطنه بحربة فيتلف ذلك الملك في موضعه...".[٣]

ويسرد (ابن زولاق) رواية تكشف عن ظلال حقيقية تاريخية عن وجود علاقات بين مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين[٤] في سياق حديثة عن عجائب مدينة منف بقوله: " لما أراد بخت نصر، مصر أرسل رجلا يثق به، أعطاه مائة ألف درهم صلة فاحتال حتى صاهر امرأة من الموكلات بحفظ القبة .. داخل

---

[١] –الخطط، ج١، ص ١٣٤؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣١٥.

[٢] –ابن محشرة: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٨٣؛ قارن. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص ٩٧؛ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ١١٦، الاصطخري: المسالك والممالك، ص ٥٤؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٣٤.

[٣] –ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص ٦٧؛ القزويني: آثار البلاد، ص ٢٧٤؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٦٩؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص ٢١٤.

[٤] – الثابت تاريخياً أن مصر تعرضت للعديد من محاولات غزوها من الشرق فقد دخل الآشوريون عن طريق حدودها الشمالية الشرقية ووقعت مصر فريسة، في يد "آشور آخي الدين" ٦٧٠ق.م ومن بعدهم الفرس سنة ٥٢٥ ق.م،وقد قدم الآشوريين من شمال العراق إلى مصر غازين : وقد أوضح احتكاك هذا الجنس بالمصريين طبيعة الشخصية المصرية فقد قاومت هذا الغزو حتى طردته ، وباسم الدين راح كهان وادي النيل يبشرون ، ويشجعون الأمراء المصريين حتى تحقق لهم النصر . انظر :عبد العزيز صالح ، تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول ، مصر والعراق (القاهرة ١٩٧٣م)، ص ٢٧٢.

القبة وسأل عن الصور ورأى صورة بخت نصر، فقال للمرأة التي تزوجها: ما هذه الصورة؟ فعرّفته، فقال لها في خلوة: فمتى ينجو صاحب هذه الصورة؟ قالت: يُدهن صدره بدم خنزير، فأخذ دم خنزير وطلا صورة بخت نصر، وهرب وعاد إلى بخت نصر، فأخبره. فسار إلى مصر وكان من أمره ما كان...".[١]

وعند المقريزي تستمر الحكايات لتستعرض ملوك منف حتى تصل إلى من تسميه الرواية "شدات بن عديم" فيقول: "وهو الذي تسميه العامة شداد بن عاد، وكان عالماً كاهناً ساحرا، يقال أنه هو الذي بنى الأهرام الدهشورية، وعمل أعمالاً عظيمة و طلسمات عجيبة، وبنى في الجانب الشرقي مدائن وفي أيامه بنيت قوص .. وغزا الحبشة وسباهم [٢]، وأقام ملكاً تسعين سنة، وهو أول من اتخذ الجوارح، وصاد بها، وولد الكلاب السلوقية، وعمل في بركة أسيوط تماسيح منصوبة تنصب إليها التماسيح من النيل انصبابا فيقتلها، ويعلق جلودها في السفن...".[٣]

بيد أن أهم ما يسترعي الانتباه في الروايات الخاصة بـ (منف) أنها أقل إغرابا وخيالاً من الحكايات الخاصة بـ "أمسوس" ، كما أنها من ناحية أخرى تتحدث عن أولئك الملوك الذين استحدثوا ممارسات حضارية جديدة، فالملك شداد بن عديم "أول من اتخذ الجوارح في الصيد وصاد بها، وولّد الكلاب السلوقية" والملك أشمون بن قبطيم أول من لعب بالكرة والصولجان، وأول من عمل النيروز في مصر "عيد شم النسيم ـ أو عيد الربيع.[٤]، والملك "مرقورة أول من ذلل السباع وركبها".[١]

---

[١] – ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص ٦١.

[٢] – الثابت تاريخياً أن مصر تعرضت للعديد من محاولات غزوها من الجنوب فقد دخل الأثيوبيون مصر من الجنوب وتولوا حكمها خلال الأسرة الخامسة والعشرين ما بين ٧٣٠ـ٦٦٥ق.م بعد أن طردوا الليبيين ، ولم يعتبر الأثيوبيون أنفسهم دخلاء على مصر، بل رددوا في متوهم أنهم أحلاف طيبة ،وأتباع الدين الصحيح لآلهة آمون . انظر: عبد العزيز صالح ، تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول ، مصر والعراق (القاهرة ١٩٧٣م)، ص ٢٧٢.

[٣] –الخطط، ج١، ص ١٣١،

[٤] –عيد النيروز: هو عيد رأس السنة القبطية في أول شهر توت ويغلب على الظن أن عادة الاحتفال بهذا العيد متوارثة من قدماء المصريين على الرغم من اسمه الفارسي (ومعناه اليوم الجديد) فقد كان المصريون في عصر الفراعنة يحتفلون بهذا اليوم أكراما لنهر النيل، وفي عصر سلاطين المماليك كان الاحتفال بعيد النيروز يأخذ شكل (احتفالات العامة)، إذ اعتبر ذلك اليوم بمثابة عطلة عامة، فكانت الأسواق تغلق في ذلك اليوم كما كانت المدارس تعطل، ويذكر السيوطي وابن تغري بردي: أن هذا العيد أُبطل نهائياً منذ سنة ٧٠٢ هـ، انظر: المقريزي: السلوك، ج٢،

كذلك نجد أن بعض الحكايات عن ملوك منف تحمل نواة من الحقيقة التاريخية؛ ففي أخبار من تسمية الروايات "الملك تدارس" وجدنا أنه حارب بعض عماليق الشام ودخل فلسطين، وغزا السودان من الزنج والحبش، ومن المعلوم تاريخياً أن حروباً قد نشأت بين مصر القديمة والحيثيين في بلاد الشام، كما كان يوجد حروب بين مصر ضد القادمين من الجنوب[٢]، كما أشار المقريزي إلى أن الملك قاليقي بن تدراس: "كان موحداً خالف أهل مصر في عبادة الكواكب والبقر".[٣] وهو ما قد يشير إلى أخناتون محاولات التوحيد في عبادة آتون، أو ربما كانت امتدادا لتوحيد إدريس عليه السلام، وعلى أية حال فإن حجم الخيال في روايات منف التي بنيت بعد الطوفان على حد زعمهم، كان أقل كثيراً من حجم الخيال في الأساطير المتعلقة بمدينة أمسوس التي كانت قائمة حتى دمرها الطوفان، والتي تبدو أن وجودها نفسه كان ضرباً من الخيال.

والحكايات الخيالية حول مدينة منف كثيرة ومتنوعة ولكنها تدور حول سلسلة أخبار الملوك الذين تصورت هذه الحكايات أنهم حكموا مصر حتى الاسكندر.[٤] ويعلق المقريزي على ذلك بعبارة تكشف عن مدى الارتباك الناجم عن وصول إشارات من تاريخ البطالمة في ثنايا الروايات كالتي ذكرها المقريزي في ذكره اسم "نافاطانيوش" وهو اسم يبدو محرفا عن اسم بطليموس في لفظه اليوناني "يتوليمايوس" وقد عبّر المقريزي عن هذه الحيرة بعبارة نصها: "..وهذه أسماء رومية "أي يونانية" ولعل بعضها متداخل فيما تقدم ...".[٥]

وقد يحسن بنا الوقوف مع الكم الهائل من الأساطير التي ساقها المؤرخون عن منف وأمسوس وغيرهما .. فنلاحظ أنها لم تتكون دفعة واحدة؛ إنما استمر كل جيل يضيف إليها من خياله ما يوائم تصورات عهده، وما يزيد من تأثيرها في أذهان محبيها، لذلك فإن الروايات والأفكار التي راجت

ص ٩٢٦؛ السيوطي: حسن الحاضرة، ج٢، ٢ ٢٦٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٢٠٢؛ قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي(ط. الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م)، ص ١١٠.

[١] –الخطط، ج١، ص١٣٩.

[٢] –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٧٥.

[٣] –الخطط، ج١، ص ١٣٩

[٤] –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٧٠.

[٥] –الخطط، ج١، ص ١٤٤.

وتكونت عن منف والمدن المصرية، قد تباينت فيما بين الكتابات التاريخية، ووفقا للزمان ووفقا للمكان أحياناً، في تناول للأساطير جملة واحدة دون تفاصيل محددة متتابعة، فكأنهم بدأوا بالنهاية فاختلط الأول بالأخر دون اعتبار للمراحل التطورية ،التي يمكن أن تكون المدن المصرية قد مرت بها ودون حساب للعوامل والظروف الموضوعية التي كان محتملاً وجودها وراء كل خطوة انتقالية.

أما الفيوم، فجاذبيتها بالنسبة للكثير من المؤرخين والرحالة كانت تنبع من ارتباطها بأشياء أخرى؛ فالخيال الشعبي يربط الفيوم بيوسف عليه السلام، وبشخصيات من التوراة والإنجيل والقرآن، ونبض الحديث عنها بالحياة في كتابات المؤرخين المسلمين والتي كانت تلبي حاجة عند جمهرة القراء، الذين ظلوا على شغفهم بكشف مناطق الظل فيما يتعلق بتاريخ مصر القديم الذي ظل محل جدال فيما بينهم.

يقدم (أوليا جلبي) صورة واضحة عما أورده الموروث الشعبي المتخم بالأساطير حول الفيوم فيقول: "لما كانت مصر أرض الجبارين، فقد غادرها إلى وادي الفيوم حيث الهواء المنعش والجو اللطيف ،فسر بها واعتزم الإقامة فيها ـــ يقصد يوسف عليه السلام لذلك بنى مدينة الفيوم في ألف يوم "فسميت المدينة "الفيوم" تصحيفا من عبارة "ألف يوم" .. وبينما كان يوسف عليه السلام ينقل التراب المتخلف من حفر الخليج بذيل ثوبه الشريف، أمر سبحانه وتعالى جبريل الأمينعليه السلام أن يترل ويقدم المساعدة والمدد لحبيبه يوسف، فترل جبريل كالبرق الخاطف، وضرب بجناحيه بحيرة الفيوم ضربة قوية، فأطار ترابها، وأنقاضها إلى السماء وأنزلها إلى أسفل الغبراء، وضرب جناحاً آخر جهة الصعيد الأعلى، حيث فتح ترعة من النيل جرى فيها الماء حتى بحيرة الفيوم التي لا تزال بحيرة واسعة عميقة تعيش فيها مئات الألوف من الكائنات والخلائق العجيبة والحشرات البحرية .. في حين أن الترعة اليوسفية هذه نظراً لكونها من آثار جبريل الأمين لا يحدث بها جرف أو شق قط. إلى انقراض الدوران بل يجري فيها النيل دائماً .. والنيل إذا دخل البحيرة ينقلب ماؤها مراً أجاجاً وفي جوانب هذه البحيرة؛ تقوم ثلاثمائة وست وستون قرية كل واحدة منها تشبه إرم ذات العماد.".[١] ويذكر ابن إياس أن يوسف عليه السلام قد بنى : "مدينة الفيوم وقيل أنها بنيت بالوحي إلى يوسف عليه السلام على لسان جبريل عليه السلام.. ثم عمَّرها في مدة يسيرة فلما فرغت وتم بناؤها، ركب ونظر إليها

---

[١] -أولياجلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٤٢-٤٣؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٤٤.

الملك الريان وصار يتعجب.. فقال ليوسف هذا كان يعمل في ألف يوم، فسميت من ذلك اليوم : الفيوم".[١]

أما (الصفدي) فيحسب له أنه ناقش المعتقدات الخرافية التي كانت مستقرة في عصره حول مدينة الفيوم، وانتهى إلى نقدها بقوله: "إن كثيراً من الناس سطروا في كتبهم أن فرعون الذي كان يوسف عليه السلام وزيره لما كبر يوسف ... قال له أمض إلى هذه الجوبة (يعني الفيوم) فصل ماؤها وعمرها وكانت إذ ذاك بركة مملوءة ماء، وأن يوسف عليه السلام وصل إليها وسأل الله عز وجل أن يعينه على تنصيل مائها وعمارتها، وأن الحق تعالى أعانه على ذلك بملائكته، وهداه على إجراء مائة وعمارته، والمسافة من عهد يوسف عليه السلام إلى الآن بعيدة، وشروط الموثوق بروايته عزيزة شديدة، ولعمري لو كان هذا الأمر جرى لضرب قصصه الواردة في القرآن بحصة بل بحصص، فإن الله عز وجل قص في كتابه العزيز جملاً من أحواله، سماها أحسن القصص، ومع هذا فتصديق الكذب، وتكذيب الصدق كلُ غيب والله سبحانه وتعالى أعلم بالغيب...".[٢]

تكشف لنا الروايات السابقة إلى أي مدى شغل الوجدان الشعبي العربي بقصص الأنبياء، حيث لم تشبع روايات المؤرخين والإخباريين حاجات هذا الوجدان الروحية، فراح يضيف من تصوراته وموروثاته إلى هذه الروايات، يستهدف منها الاستمتاع بسماعها أو قراءتها، وربما لتأكيد المعجزات النبوية، والاستجابة لدوافع أخلاقية واجتماعية من ناحية والترويج لفضائل المدن والبلدان والتعزيز من مكانتها ورفعتها على باقي المدن والأمصار من ناحية أخرى.

وقد كان حظ مدينة الإسكندرية من الموروث الشعبي كبيراً في كتابات المؤرخين،حيث كانت عاصمة لمصر حين فتحها العرب المسلمون، وكانت من الروعة والبهاء والفخامة بحيث أثارت دهشتهم وعجبهم، وأغرت الكتاب والمؤرخين بالبحث عن أصولها، وبالطبع عن نسبها وعن سحرها الخلاب، وغرائب وعجائب البنيان، وتزامن هذا مع حكايات إرم ذات العماد الخرافية والروايات الخيالية الرائجة على نطاق واسع عن الاسكندر، والتي تركت أصداءها في الكتابات التاريخية.

ابن الوردي يشير إليها بقوله: "بها من الآبار العجيبة، والرسوم الهائلة التي تشهد لبانيها بالملك والقدرة والحكمة، وهي حصينة الأسوار عامرة الديار..".[٣] ورآها ابن بطوطة أنها : "الثغر المحروس

---

[١] -ابن إياس: بدائع الزهور، ص ١٦؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٩٠ : ص ٩١.

[٢] -الصفدي: تاريخ الفيوم وبلاده، ص ٤.

[٣] -ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ٣٠.

والقطر المأنوس العجيبة الشأن الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين.. فكل بديعة بها اختلاؤها، وكل طرفه فإليها انتهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا في عجـائبها فأغربـوا.."[١]

بدأ المقريزي حديثه عنها فقال: "... هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا، وأقدمها وضعا وقد بنيت غير مرة، فأول ما بُنيت بعد كون الطوفان في زمان مصرايم بن بيصر بن نوح عليه السلام، وكان يُقال لها إذ ذاك مدينة راقودة، ثم بُنيت بعد ذلك مرتين، فلما كان في أيام اليونانيين جددها الاسكندر بن فيلبش المقدوني الذي قهر داراً وملك ممالك الفرس بعد تخريب بخت نصر مدينة منف بمائة وعشرين سنة شمسية فعرفت به، ومنذ جددها الاسكندر المذكور انتقل تخت المملكة من مدينة منف إلى الإسكندرية فصارت دار المملكة بديار مصر ولم تزل حتى ظهر دين الإسلام".[٢]

هنا نجد اختلاطا بين العناصر الأسطورية والعناصر التاريخية في مزيج حيوي، فقد بنى الاسكندر* مدينة الإسكندرية فوق بقايا راقودة حقا.[٣]، كما أنه قهر الفرس.[٤] ، ولكن بقية القصة تحمل بصمات

---

[١] -ابن بطوطة: الرحلة، ص ١٧.

[٢] -الخطط، ج٢، ص ١٤٤؛ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ٤٩٢.

[٣] -صمم الاسكندر على بناء مدينة مقدونية في الأراضي المصرية لتنتزع طرق التجارة من الفينيقـيين حلفـاء الفرس إلى أيدي المصريين الأصدقاء: ومن ثم جاء اختياره لقرية راقودة المجهولة لكي تتحول إلى أعظم مدينة عرفهـا التاريخ ووجد في راقودة مكاناً جيرياً صلباً يرتفع عن سطح الدلتا وقريب من المياه العذبـة. انظـر: سـيد أحمـد الناصري: الإغريق تاريخهم وحضارتهم، ص ٥٣٤.

[٤] - قهر الإسـكندر الفرس في معركة حاسمة كانت بداية النهايـة للإمبراطوريـة الفارسـية، وهـي معركـة (جاوجاميلا) في أول أكتوبر عام ٣٣١ ق.م. وقد وفدت العناصر الفارسية إلى مصر مرتين ، كانت الأولى على يد قمبيز ، واستمر بقاؤهم أكثر من قرن خلال الأسرة السابعة والعشرين . والثانية على يد كسرى الثاني عام ٦١٦ق . م ، وقد صبغت مصر بعض الأسرات الفارسية بعاداتها فسموا أبناءهم بأسماء مـصرية ، واتجهـوا بـدعوتهم إلى الأرباب المصرية وساهم بعض ملوكهم في إنجاز معابد مصرية في الدلتا والواحات. انظر: سـيد أحمـد الناصـري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، ص ٥٣٦.

* يعد الاسكندر هو الملأ اليوناني الوحيد الذى خصص له المؤرخون العرب فصولاً كاملة فى مؤلفاتهم . وهـو أقدم من سجل اسمه من اليونان فى سجل العلاقات العربية اليونانية كما يعد الاسكندر أول ملوك اليونانيين الـذين تحدث عنهم المؤرخ المسعودى بشكل مفصل ، على الرغم من أنه يلحظ أنه ليس أول ملوكهم . للمزيـد أنظـر : السيد جاد : ذكر ملوك اليونانيين فى كتابات المسعودى ، مقالة لسيمنار التاريخ الاسـلامى والوسـيط بالجمعيـة المصرية للدراسات التاريخية فى موسم ٢٠٠٧م .

الخيال[١]، وأورد ابن محشرة عدداً من الروايات الخيالية حول بناء راقودة منها أنه :"قيل أنه كان سكان البحر يؤذون الناس ويختطفونهم بالليل فاتخذ الاسكندر الطلسمات مصورة على أعمدة رخام على هيئة شجرة السرو، طول العمود منها ٨٠ ذراعاً وهي باقية إلى هذه الغاية، يقال أنها كانت على أعمدة نحاس قد خرقت الأرض فصورت فيها أشكال وصور تمنع وتدفع".[٢] ويضيف العمري أن : "الاسكندر زاد في بنائها، وأطال في منارتها، وجعل فيها مرآة كان يرى منها مراكب العدو عن بعد، فإذا صارت بإزائها، وصدمت شعاعها أحرقها كما تحرق المهاة في الشمس ما قابلها من الحرق، وإن لم تتصل بها، فسميت الإسكندرية من حينئذ، وكان اسمها قبل ذلك (وقودة) وبذلك يعرفها القبط في كتبهم القديمة".[٣]

ويعلق السيوطي على المنارة بقوله: "في أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال قد أشار بسبابة يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك يدور منها حينما دارت ، ومنها تمثال وجهه إلى البحر إذا صار العدو منهم على نحو من ليلة سمع له صوت هائل يعلم به أهل المدينة طروق العدو، ومنها تمثال كلما مضت من الليل ساعة صوت صوتا مطرباً، وكان بأعلاها مرآة ترى منها قسطنطينية، وبينهما عرض البحر، فكلما جهز الروم جيشاً رؤى في المرآة..".[٤]، "وفي كتاب الطلسمات أنها بنيت طلسماً لئلا يغلب ماء البحر على أرض مصر".[٥]، فهي "أول عجائب الدنيا الأربع" على حد قول الرازي.[٦]

تلك الحكايات الخيالية مثال على القصص الدائر في التراث الشعبي حول مدينة الإسكندرية والقصص التي تدور حول هذه المدينة كثيرة ومتنوعة الاتجاهات والنزعات، سواء إغريقية أو مصرية أو عربية يحاول كل اتجاه منهم انتزاع تاريخ المدينة وربطه به.

---

[١] -قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٧٠ ، ص ٧١.

[٢] -ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٩٣؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٤٤.

[٣] -العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ٤٩٤؛الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤٧، ٤٨.

[٤] -السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٣٩؛ الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص ٥٧، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٤٥.

[٥] -المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢١١.

[٦] -الرازي (عمر بن محمد بن عبد الله) (ت ٧٢٨ هـ): مسامرة الندمان ومؤانسة الإخوان (تحقيق: وليد مشوح، الطبعة الأولى، مركز زايد للتراث، الأمارات ٢٠٠٣م)، ص ١٧٧.

على جانب آخر؛ نجد أن الإحساس الأسطوري بالزمن ـــ في تلك الروايات التي قيلت في شأن الإسكندرية ـــ يأتي في تناسق كامل مع بقية العناصر الأسطورية، كالشخصيات والأماكن الأسطورية، والمخلوقات حبيسة الفولكلور، إلى غير ذلك من عناصر أدت إلى طمس المعالم التاريخية للأحداث والشخصيات والأماكن. وكان من الضروري بعد أن تمت عملية تجريد الشخصيات والأماكن من شكلها التاريخي الواقعي أن يوضع هذا كله داخل إحساس أو إدراك خاص بالزمن يبتعد عن الإحساس التاريخي بالزمن وينقلنا إلى عالم لا مكان فيه للزمن المحدود، ولا اعتراف فيه بالتطور الزمني ولا بالتقسيمات الزمنية الإنسانية، ويعطينا وحدات زمنية مختلفة عما عهدناه من فهم وإدراك للزمن عند الإنسان.[1]، من تلك الأماكن والمدن التي ألهبت خيالات الناس وأقلام المؤرخين "إرم ذات العماد[2]" وهي المدينة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.[3]، وقد كان ذلك كافياً لاطلاق عنان الخيال الذي ربط بين مدينة الإسكندرية وبين مدينة (إرم ذات العماد) إذ يقول المؤرخون: "ان إرم ذات العماد هي الإسكندرية، وقال الناظرون في الأعمار في جميع الأقاليم والأمصار: لم تطل أعمار الناس في بلد من البلدان كطولها بمريوط ووادي فرغانة، ومريوط قرية من قرى الإسكندرية بالقرب منها وهي كبيرة ولها بساتين كثيرة".[4] ويقول البلوي: "ذكر المفسرون عن ابن كعب قوله: إرم ذات العماد: أنها الإسكندرية، فهي أعجب البلدان وفيها بنيان عجيب ذكر صاحب الجغرافيا أنها بنيت في ثلاثمائة سنة، وأن أهلها مكثوا سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار إلا معصبين".[5]

ثمة رواية أخرى تقول: "ذكر جماعة من أهل العلم أن الاسكندر المقدوني .. انتهى إلى موضع الإسكندرية، فأصاب في موضعها آثار بنيان عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند

---

[1] –محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص ١٢٤؛ كارم عزيز. الأسطورة فجر الإبداع، ص ١٠٦.

[2] – جاء في أساطير العرب أنّ (إرم ذات العماد) مدينة عجيبة بناها شدّاد بن عاد من حجارة الذهب واللؤلؤ والجواهر فكانت فتنة باهرة للعيون لا يقدر القادم إليها من بعيد أن ينظر إليها إذا واجهها في ضوء النهار. ثم أقفرت هذه المدينة العجيبة واختفت في الصحراء، فهي في مكان محجوب عامرة بقصورها السحريّة وكنوزها المباحة، ولكن لا وصول إليها، وقد طلبها كثيرون فهلكوا أو ضلّوا وعادوا قانعين من الغنيمة بالإياب وتعد من المدن المسحورة تلك المدن التي عرفت في زمن ما واختفت بصورة غامضة، وارتبطت بشكل ما بالغرابة والعجائبية نحو إرم ذات العماد،محمد الصالح :الرحلات الخيالية في الشعر العربي الحديث (منشورات اتحاد الكتاب العرب . دمشق ٢٠٠٠م)،ص١٧٧.

[3] –"ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد" [الفجر / ٧]

[4] –ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ١٠٠

[5] – البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ج١، ص ١٩٨؛ الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات ص ٤٤؛ اسحق بن المنجم: آكام المرجان، ص ٢٢

ـــ وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد ـــ: "أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد، شيدت بساعدي البلاد، وقطعت عظيم العماد من الجبال والأطواد، وأنا بنيت إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وأردت أن أبني هنا كإرم، وأنقل إليها كل ذي إقدام، وكرم مع جميع العشائر والأمم".[1]

وهكذا، لم تخل الروايات التي تناولت أصل الإسكندرية من تأثير الاتجاهات الثقافية السائدة ومحاولات نسبة أصلها إلى الإغريق أو العرب والمتعربين أو المصريين تماما مثلما حاولت تلك الاتجاهات نسبة مصر إلى أصولهم . كما تكشف لنا الروايات كيف أنها كانت تستمد نواتها من القصص الديني، ثم تأخذ في البناء عليها من الأحداث والشخصيات والأخبار والأزمان التي تلائمها، وتلائم رؤيتها للتاريخ، والأحداث وتحقق الغرض التي ترمي إليه. كما نلحظ في بعض الروايات تبادل التأثر والتأثير بين كتب التراث القديم وألف ليلة.

كما لم تخل سيرة مدينة الإسكندرية وأخبارها وبعض المدن الأخرى من فكرة الشخصيات الحارسة والطلسمات التي كانت تلازم بناء المدن المصرية القديمة سواء قبل الطوفان أو بعده . فنجد الروحانيات والجن والشياطين وحكاياتهم المستمدة من الأساطير لها دور في الروايات الخاصة ببناء المدن المصرية القديمة تخلق نوعاً من الغموض على المستوى الزمني والمكاني للمدن المصرية، تحاول فيه مثل تلك الأخبار خلق صيغة زمنية ومكانية قد يكون لأحداث الرواية فيها نوع من المعقولية بالمعنى العادي، مثال ذلك ما أورده الغرناطي بقوله: "الجن قد عملت لسليمان عليه السلام في الإسكندرية مجلساً من أعمدة الرخام الأحمر الملون، بأنواع الألوان الصافي، كالجزع اليماني المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان فيها يرى من يمشي خلفه لصفائها. وعدد الأعمدة ثلاثمائة أو نحوها، كل عمود ثلاثون ذراعاً على قاعدة من رخام، وعلى رأسه قاعدة أخرى من رخام في غاية الأحكام .... وكان قد قطعت الجن سقف ذلك البيت الذي هو مجلس سليمان عليه السلام من حجر واحد أخضر مربعاً".[2]

الإسكندرية إذن، أضفت على تاريخها خصوصية شديدة عند ارتباط نشأتها بكائنات غيبية وظروف غامضة، فالجن يبني ويعمر، والسحر والطلسم يحمي ويقهر وبنيان الأعمدة يبهر: "ومن عجائبها أن بالإسكندرية أسطوانة متحركة والناس يقولون أنها تتحرك بحركة الشمس، وإنما قالوا ذلك؛ لأنها إذا مالت يوضع تحتها شيء، فإذا استوت لا يمكن أخذها، وإن كان خزفاً أو زجاجاً

---

[1] -المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٣٧٠.

[2] -الغرناطي: تحفة الألباب، ص ٥٧؛ الأبشيهي: المستظرف في كل فن مستطرف، ج١، ص ٥٤٦.

يسمع تقريعه".[1]، فهذه "الاسطوانة من أحدى أعاجيب الدنيا ويقال أن الجن صنعتها لسليمان بن داود".[2]

والراجح أن حكايات السحر والطلسمات والكائنات الغيبية هذه شأنها شأن أخبار الخوارق والمعجزات تعكس قدراً كبيراً من الانبهار والإعجاب الممزوجين بالنقص الحاد في المعلومات التاريخية. ولا غرابة في أن تحظى مدينة الإسكندرية بهذا القدر الكبير من اهتمام المورث الشعبي فقد كانت عاصمة مصر منذ أسسها الاسكندر الأكبر وطوال عصر البطالمة، وظلت هي العاصمة حتى بعد ولاية رومانية في النصف الأخير من القرن الأول ق.م. وبقيت الإسكندرية عاصمة لمصر طوال ما يقرب من سبعة قرون عندما فتح عمرو بن العاص مصر تحت راية الإسلام في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، ولذلك انعكست أهمية العاصمة المصرية في الحكايات الدائرة حول مدينة الإسكندرية. وهي لا تختلف كثيراً سواء من حيث بنائها الفني، أو من حيث هدفها، من الحكايات الخيالية حول المدن المصرية الأخرى.[3]

أما القاهرة فقد كانت في زمن سلاطين المماليك بمثابة ستارة المسرح الخلفية التي جرت عليها حكايات ألف ليلة وليلة الخيالية[4]، هذه الخيالات الرومانسية التي كانت تمسك بأيدي السامعين.

---

[1] –القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ١٤٥

[2] –ابن محشرة: الاستبصار، ص ٩٩.

[3] – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور ص ٧٢.

[4] – اكتسبت القاهرة ومدن المشرق العربي في مخيلة الناس أبعادا ودلالات اقتربت من الأسطورة والخرافة. وأخذ هذا الشرق يتمتع في تلك المخيلة بصفة تكاد تكون «نمطية» تنطوي على الصدق حينا، وعلى الكثير من التصورات والأوهام الغامضة في أحيان أخرى، ولعل هذه التصورات، التي راحت تتضخم عبر العصور جاءت من القصص والروايات التي تروى عن الشرق، ولا شك أن أهم عمل ساهم في صياغة هذه التصورات، وأطلس العالم للمخيلة، هو كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي يقدم وبشكل مدهش قصصا خرافية تتحدث عن الأسفار في الصحراء والبحار، وعن الجن، والأقزام، واللصوص، وعن الليالي الملاح، وعن جمال النساء المشرقيات، وعن البدائع والحوادث الخارقة...وذلك في سرد يومي متلاحق ترويه شهرزاد لزوجها شهريار تجنبا لعقوبة الموت التي ستطالها إن هي أخفقت في خلق التشويق لدى شهريار، فالخدعة قائمة على أن ينتظر بشغف الليلة التالية ليسمع تتمة القصة. وبهذا المعنى فإن شهرزاد حافظت على حياتها عبر فضيلة القص المباركة على عكس سابقاتها اللواتي قتلن [illegible] هذا العمل وفي غيره من الأعمال هو متحف للأعراق، والاثنيات، والثقافات المختلفة، وهو فضاء تتعدد فيه الأقنعة والقديسون، الأشرار والأتقياء، وهو موطن حافل بالخرافة والأساطير القادمة من تاريخ غابر قديم قدم مدن هذا الجزء من العالم.

وتجوب بهم الأسواق والمنازل، ليشاهدوا الحياة المتواضعة والراقية في الشوارع والميادين وساحات الإنشاد الديني، وكل ما يمس نسيج الحياة بين الناس.[١] كما كان للقاهرة ظلالها الواضحة في سيرة بني هلال . وهي ظلال لا تقل عن مثيلاتها في قصص ألف ليلة وليلة . فالقاهرة تبدو في السيرة الهلالية واضحة كل الوضوح بخططها وأسواقها وحماماتها ودكاكينها ومساكنها ونحو ذلك. وكان خط السماء اللامتناهي في تنوعه ما بين المآذن والقباب التي نراها في العاصمة يستلفت نظر جميع الزوار الذين كانوا يسارعون إلى المقارنة بين القاهرة وبقية المدن المصرية القديمة، برغم حداثة وجودها نسبيا إلا أنها سرعان ما سادت الحياة المصرية بصورة طاغية غير عادية، وحازت شهرة واسعة جعلت منها: "مدينة عظيمة، آهلة يجبى إليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال، ما لا يحيط بجملته وتفصيله إلا خالق الكل جل وعلا".[٢] فأضحت "حضرة الدنيا ، وبستان العالم، محشر الأمم، مدرج الكثير من البشر".[٣]

وكان من الضرورة بمكان؛ أن تحظى القاهرة بقدر أوفر من الأساطير والحكايات الشعبية خاصة فيما يتعلق بنشأتها وتأسيسها، الأمر الذي جعل من أساطير تأسيس القاهرة تطغى على أسطورة تأسيس الإسكندرية ذات القدم في الزمان والمكان، وتتشابه معها في المضمون، الأمر الذي يفسر أن هذه القصص بأبعادها الأسطورية لم تبد ناتئة أو شاذة عن نسيج وروح القصص الوارد عن تأسيس المدن وفكرة الطالع السعيد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قد يرجع تقارب روايات تأسيس القاهرة مع روايات تأسيس الإسكندرية إلى تشابه ولزوجة تركيب الوجدان الشعبي نفسه، أو ربما كان تلك الاستعارة من باب خلع صفات على القاهرة شبيهة بصفات عراقة تاريخ الإسكندرية، ورغبة الوجدان الشعبي في أن يجعل القاهرة مؤثرة لا متأثرة، معيرة لا مستعيرة، ناحلة لا منتحلة.

يقول ابن ظهيرة(في محاسنه) : "لما قصد (جوهر الصقلي) في بناء السور، جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس، وطالعا لرمي حجارته، فجعلوا خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس،

---

[١] -آن وولف: كم تبعد القاهرة؟ ص ١٧١، ص ١٧٢.

[٢] -ابن سعيد الأندلسي: النجوم الزاهرة في حضرة القاهرة(القسم الخاص بالقاهرة، تحقيق : حسين نصار مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠م)، ص ٢٩.

[٣] -عبد الرحمن بن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً (تحقيق: محمد الطنجي، سلسلة الذخائر، العدد ١٠٠، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ٢٤٦.

وأعلموا البنائين أن ساعة تحريك هذه الأجراس ترمون ما بأيديكم من الطين والحجارة في الأساس فوقف المنجمون لتحرير هذه الساعة، فاتفق من مشيئة الله سبحانه وتعالى أن وقع غراب على خشبة من تلك الأخشاب، فتحركت الأجراس، فظن الموكلون بالبناء أن المنجمين قد حركوها، فألقوا ما بأيديهم من الطين و الحجارة في الأساس".[١] ، "لذلك السبب لا تنقطع الدماء والقتال والنزاع والفتن والفساد عن القاهرة المعزية التي سميت بهذا الاسم لوضع أساسها في طالع المريخ...".[٢]

ومع اتفاق في المعنى واختلاف في الألفاظ يحكي المؤرخون عن بناء وتأسيس الإسكندرية :" حكى المسعودي أن الاسكندر وقع له مثل ذلك في بناء الإسكندرية، أنه أحب أن يرمي أساسها دفعة واحدة في سائر أقطارها، في وقت محمود يختاره، وطالع سعيد، فخفق رأس الاسكندر، وكان قد احترز في نفسه في حال ارتقابه الوقت المحمود، فنام فجلس على حبل الجرس الكبير غراب، فحركه فصوت وتحركت الحبال، وخفقا ما عليها من الأجراس الصغار .. فلما سمع الصناع تلك الأصوات وضعوا الأساس دفعة واحدة، وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس، فاستيقظ الاسكندر من رقدته، وسأل عن الخبر، فأخبر، فتعجب وقال: "أردت أمراً واراد الله غيره، ويأبى الله إلا ما يريد، أردت طول بقائها، وأراد الله سرعة فنائها وخرابها..".[٣]، وبهذا تلعب خرافة "الطالع"[٤]، دورها في بقاء أو بناء

---

[١] –ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٨١؛ الإسحاقي: أخبار الأول، ص١١٦؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص ٢٤.

[٢] –أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٣٩٣.

[٣] –ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص ١٨٢؛ المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص ٤٢٤؛ ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٩٢، ص ٩٣؛ أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٣٩٤.

[٤] –يعتقد العامة في مصر أن هناك ساعات في النهار بل أياماً مخصوصة لا يحسن بالمرء أن يأتي فيها عملا لأنها منحوسة، وهذا الاعتقاد في الأيام سعدها ونحسها قديم إذ كان المصريون يعتقدون أن الأيام تكون سعيدة أو منحوسة طبقا لما وقع فيها من حوادث سعيدة أو كريهة في أساطيرهم الدينية، فاليوم الأول من أمشير الذي رفعت فيه السماء وكذا اليوم السابع والعشرون من هاتور الذي عقد فيه صلح بين الإلهين حورس وسيت وتراضيا فيه على اقتسام العالم كانا يومين كلهما سعد وبركة، كما كانوا يعتبرون شهر توت أقدس شهور السنة لأنه يرمز إلى "تحوت" إله الحكمة أما اليوم الرابع عشر من طوبة الذي بكت فيه إيزيس ونفتيس على أوزوريس، فقد كان يوماً منحوسا، وكان هذا الاعتقاد من القوة في العصر الفرعوني حيث أن كثيراً من الأعمال كالبدء في سفر بعيد أو عقد صفقة تجارية أو ما إليها كان يؤجل لهذه الأسباب، وما زال المصريون يعتقدون في ذلك ويؤجلون أعمالا لهذا السبب عينه. محرم كمال: آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية،(مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٧م)، ص ٢٥؛ وليم نظير: العادات المصرية بين الأمس واليوم (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٧م)، ص ٢٢.

المدن ولعل للسبب نفسه أرجع السيوطي سبب بقاء الأهرام إلى "الطالع السعيد" حيث: "كان ابتداء بنائها في طالع سعيد".[1]

ولعل الربط بين خراب كلٍ من القاهرة والإسكندرية وبين ظهور الغراب يرجع لبقايا الاعتقاد الشعبي في أسطورية الغراب بما يحمله من دلالات وارتباطه بأحداث تاريخية ذات طابع (مأساوي)، فهو طائر تشاءمت به العرب كلها، بل "أن كثيرا من الشعوب منذ العصور القديمة كانت تحس إزاء هذا الطائر إحساسا يشوبه التقديس أو الأسطورة".[2]، دون أن يفكر الناس بصيده، ولعل وروده في قصة نوح عليه السلام وأسطورة الطوفان البابلية أثر في ذلك، كما أنه هو الذي دل قابيل كيف يدفن أخاه هابيل، وهو دليل عبد المطلب على موضع "زمزم"، وهذا يعني أنه أشبه بالكاهن والدليل فهو يحمل رسالة من وراء حجب الغيب، وقد غذى هذا الشعور الموروث الشعبي بقوله : "أشأم من غراب البين" وقولهم:" ما هو إلا غراب نوح."عليه السلام[3] ، ويبدو أن أحاديث الناس عن الغراب أخذت تترى لتزيد التطيّر منه رسوخا لا سيما تلك الأحاديث (المنمقة المزخرفة) التي ابتدعها الخيال الشعبي لتدخل في مجال الأساطير من أوسع الأبواب فيما يتعلق بالتأصيل لنشأة وعمران القاهرة والإسكندرية على حد سواء، ولعل الخيال الشعبي قد استصفى من الأساطير القديمة رمزيتها التي تعززها الخبرة الاجتماعية من أن الغراب قد جلب الخراب والشؤم على الإسكندرية والقاهرة بعدما كانتا في أوج ازدهارهما وانحسار ما كانتا عليه من مظاهر الحضارة والفخامة، مثلما كان الحال مع مدينة "أمسوس" المندثرة حيث كانت "الغربان قد كثرت في أيام الملك لوجيم، وصارت تفسد الزروع والغلال، فعمل أربع منارات في جوانب مدينة أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب، وعليه صورة الحية قد التوت، فلما عاين الغربان ذلك، نفروا عن المدينة".[4]

---

[1] -السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٧١.

[2] -جيمس فريزر: الفولكلور في العهد القديم(الجزء الثاني: ترجمة نبيلة إبراهيم،ط الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢م)، ص ١٣٣.

[3] -انظر البغدادي (عبد القادر بن عمر): خــزانــة الأدب (الجزء الرابع، تحقيق: عبد الســلام هــارون، الطبعة الأولى، مكتبة الخانكي، القــاهرة ١٩٨٦م)، ص ٧٦٢؛ الحــافظ (أبــو عثمــان عمــرو بــن بحــر): الحـــيــــوان، ج٢، (تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة البابلي، القاهرة ١٩٤٠م)، ص ٣٢١.

[4] -ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ١٠.

كما كانت الآثار المصرية محل اهتمام الكثيرين من مؤرخي العرب والمسلمين، ولكنهم للأسف كانوا قد فقدوا المفتاح الذي يمكن أن يفتح أمامهم أسرار تلك الحضارة العظيمة المغلقة، ولذلك فقد جاءت تفسيراتهم وشروحهم التاريخية مجردة تماما من النظرة العلمية؛ لذلك ادعوا أن آثار مصر العظيمة من عمل المردة والشياطين في الماضي السحيق وشطح الخيال بالبعض فظنها تحوي كنوز الفراعين القدامى، ثم استخدموا المعابد كمحاجر باعتبارها مورداً سهلاً للحجارة المطلوبة البناء، وحطموا بعض المعابد والمدن الأثرية للبحث عن كنوز مزعومة، من تلك المدن التي كانت حقلاً خصباً لهذا المجال مدينة "عين شمس" إذ كان من عجائبها: "أن يحمل منذ أول الإسلام حجارتها إلى غيرها من البلاد وما تفنى".[١] واحتفى الخيال الشعبي بتلك المدينة فجاءت رؤيتها لها مثقلة بالعناصر الأسطورية والخيالية التي لا نجدها أحيانا إلا في قصص وحكايات ألف ليلة وليلة حيث يصفها المؤرخون بقولهم:"مدينة قديمة أزلية، هي كانت مدينة فرعون وفيها آثار كثيرة .. وفيها بركة عظيمة، وقد نقرت في حجر صلد، وحواليها كراسي من رخام، فكان يجلس فرعون عليها، وتملأ بالخمر، وحواليها أنهار العسل، وأنواع المشروبات، وبالقرب منها صورة من رخام، يخيَّل للناظر أنها تتكلم، ذكر أنها كانت ماشطة فرعون، وبالقرب منها صنمان من حجارة .. أحدهما يبكي والآخر يضحك...".[٢]

حاول المقريزي التأريخ للمدينة فقال: "كان يقال لها في القديم "رعمساس" كانت عين شمس هيكلاً يحج الناس إليه، ويقصدونه من أقطار الأرض في جملة ما كان يحج إليه من الهياكل...".[٣]، و "بها أحدى نزه الدنيا، يسار فيه يومين بين بساتين مشتبكة وأشجار ملتفة، وفواكه فاخرة، ورياض ناضرة،وهي حفير هامان وزير فرعون..".[٤]

مدينة كهذه كان لا بد للعناصر الأسطورية أن تجد محلاً بها في أخبار تلك المدينة وأن تمتلئ سيرتها بالعديد من سمات الأسطورة الموزَّعة في شتى كتب المؤرخين الذين كتبوا عنها متأثرين، بروح الموروث

---

[١] –ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص ٧٠.

[٢] –ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٣٤؛ اسحق المنجم: آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة، ص ٢٥، ص ٢٦؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٤٢٢؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٧؛ الخطط، ج١، ص ٢٢٨؛ ابن الوردي: فريدة العجائب ، ص ٢٢، الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ١٤٥.

[٣] –الخطط، ج١، ص ٢٢٨.

[٤] –ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ٣٤.

الشعبي المثقل بحكايات الجن والعفاريت المساعدة في عمران مدن مصر، فقال القزويني: "... قال أبو حامد الأندلسي: بعين شمس تماثيل عملتها الجن لسليمان عليه السلام.."[١]، ويضيف الغرناطي: "كان بها هيكل الشمس فخرب.. وكان قد بقي منها عمودان على رأس كل واحد منهما صورة إنسان على دابة وعلى رأسيهما شبه الصومعتين من نحاس، فإذا جرى النيل، قطر من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز نصف العمود الذي هو مركب عليه والموضوع الذي يصل إليه الماء لا يزال أخضر رطبا".[٢]

ويمكن القول أنه لو كان المؤرخون قادرين على قراءة الكتابة المصرية القديمة، ليغيروا تماما جميع أقوالهم التي ذكرها عن تاريخ مصر، والتي كادت أن تكون بأجمعها تأكيداً للخرافات والمعلومات الموغلة في الغرابة، والتي تثير خيال كل من يسمعها، وهو ما كان يستهوي الناس ومحبي الاستطلاع والمعرفة عن العالم القديم، ويحسب للمقدسي أنه رفض الكثير من الخرافات التي شاعت في عصره حول آثار مدينة عين شمس فقال: "وبعين شمس شبه منارتين طويلتين قطعة واحدة، على رأسهما شبه حربة تسميان المسلتين، وثمّ أيضا على هذا العمل دونهما ، وسمعت فيهما أشياء لا يقبلها العقل وقرأت في كتاب الطلسمات أنهما طلسمان للتماسيح ويجوز هذا ...".[٣]

أضفى الموروث الشعبي على مدينة عين شمس أبعاداً أسطورية حين تخطي حدود العالم المحسوس ليصل إلى تماثيلها العجائبية التي تتداخل مع العالم اللامرئي والتي يحتمل اقتباس بنيتها من تراث أقدم. من أمثلة ذلك ما تناقله المؤرخون حول حادثة موت أحمد بن طولون: "قال جامع السيرة الطولونية: كان بعين شمس صنم بمقدار الرجل المعتدل الخلق من كدان أبيض محكم الصنعة يتخيل من استعراضه أنه ناطق، فوصف لأحمد بن طولون، فاشتاق إلى تأمله فنهاه ندوسه عنه، وقال ما رآه وال قط إلا عزل، فركب إليه هذا في سنة ثمان وخمسين ومائتين وتأمله، ثم دعا بالقطاعين، وأمرهم باجتثاثه من الأرض، ولم يترك منه شيئا".[٤] "فلما رجع حُمَّ من يومه ولزم الفراش فسلسل في المرض لحو عشرة أشهر.. فاستمر الأمير أحمد بعد ذلك في المرض حتى مات به".[٥]

---

[١] -القزويني: آثار البلاد، ص ٢٢٥.

[٢] -الغرناطي: تحفة الألباب، ص ٥٢.

[٣] -المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢١١.

[٤] -المقريزي: الخطط، ج١، ص ٢٣٠؛ابن عبد الظاهر:الروضة البهية الزاهرة ،ص١٢١.

[٥] -ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص ٣٩؛ابن عبد الظاهر:الروضة البهية الزاهرة ،ص١٢١.

برغم الحقيقة التاريخية التي حملتها الرواية وهي ثبوت اهتمام أحمد بن طولون بالبحث عن كنوز ودفائن المصريين القدماء، فإن الرواية نفسها تحمل ظلاً يتصل بعقيدة قديمة كانت تعد عنصراً بارزاً في الحكايات الخرافية؛ آلا وهي العقيدة "الفيتشية" التي يعرفها "تايلور" بأنها: "الاعتقاد في كائنات روحية متجسدة في الأشياء المادية أو متصلة بها أو تعمل من خلالها...".[١] وقد ألمح اليعقوبي إلى شئ كهذا في سياق حديثه عن آثار الحضارة المصرية القديمة بقوله :"وكان من قولهم :أن الأرواح قديمة كانت في الفردوس الأعلى .. وكانت عندهم من هذه الأرواح آلهة تنزل ،فتصير في الأصنام ، فتتكلّم الأصنام لذلك "[٢] كما تعكس الرواية دلالات غير خفية على مدى اهتمام الولاة والحكام بتلك الآثار وما يحفها من أخطار وأحداث مثيرة وحكايات غرائبية.

وفي مدينة "أنصنا"[٣] يتحالف السحر مع الأسطورة فيحيها، ولا تعود نتاجاً ميتاً لعصور فائتة، أو سروداً لا طائل فيه إلا الإغراب أو الإمتاع، بل تظل طاقة حية لا تكف عن توليد الاعتقاد بما تحيط سحر من شيد تلك المدن، فتعد شهادة متجددة للمصريين القدماء، يقول اليعقوبي عنها: "وأنصنا وهي مدينة قديمة، يقال أن سحرة فرعون كانوا منها، وأن بها بقية من السحر وهي في الجانب الشرقي من النيل...".[٤]، آثار هذا السحر يشير إليه (ابن رستة) في قوله: "أنصنا لا يقربها تمساح بته، والناس منه آمنون، فإن وقع منها إلى ذلك الموضع أيام المد تمساح، بقي منقلباً على ظهره حتى أن الصبيان يجتمعون عليه، يغطونه في الماء، ويلعبون به، فإذا جاوز هذه القرية عاد ضارياً على ما لم يزل عليه..".[٥]

أما العريش فقد تأثر اسمها ببعض الأقوال التي تأخذ الألفاظ على ظواهرها، كقول ابن حوقل: "إن الجفار بأجمعه كان أيام مصعب بن الوليد فرعون موسى، في غاية العمارة بالمياه والقرى والسكان، وأن قول الله تعالى: ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون موسى وقومه وما كانوا يعرشون﴾ عن هذه المواضع، وأن العمارة كانت متصلة منه إلى اليمن، قال: ولذلك سميت العريش عريشاً..".[٦]

---

[١] –كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص ٣٦٦.

[٢] – اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، المجلد الأول ، ص١٨٨.

[٣] – أنصنا: تسمى الآن قرية الشيخ عبادة، وتقع في مركز ملوي محافظة المنيا.

[٤] –اليعقوبي: كتاب البلدان، ص ٣٣١، ؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٤٠؛ الدمشقي: نخبة الدهر، ص ٣٤.

[٥] –ابن رستة (أبي علي أحمد بن عمر): الأعلاق النفيسة (المجلد السابع، مطبعة بريل، ليدن ١٨٩١)، ص ٨١؛ قارن المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص ٤٠٤؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٤٤؛ ابن مخشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٨٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٤٠.

[٦] –ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٤٤؛ النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز(تقديم : أحمد هريدي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م)، ص ١٧١.

وقد جُبل الوجدان الشعبي على استعارة بعض التراكيب الفنية من القصص الديني الخاص بالأنبياء وتحميلها على بعض الأخبار الشعبية والتاريخية الخاصة بالمدن ؛ لما لسيَّر الأنبياء من دور فاعل في التاريخ الإنساني، كتجسيد للضمير الجمعي للبشرية، وكسجل لمسيرة الأفعال الروحية الإيمانية فنجد الخيال الشعبي الذي نقله لنا (أوليا جلبي) يستعير هيكل قصة وضع مريم العذراء تحت الشجرة دون المضمون ويسقطها على ميلاد مصرايم في مدينة العريش فيقول: "بعد الطوفان .. أذن سيدنا نوح عليه السلام إلى الكاهن قليمون وصهره المدعو بيطر بالعودة إلى أمسوس التي بناها جده مصرايم، ووصلوا المدينة المسماه "العريش" ... وفي أثناء استراحتهم تحت شجرة سلمت من الطوفان، جاء المخاض لبنت الكاهن قليمون فولدت من زوجها بيصر بن حام ولداً ذكراً اسموه أيضا مصرايم، فكان أول ولد جاء إلى الدنيا بعد الطوفان، وهو "مصرايم بن بيطار، وقد أقاموا الاحتفالات والمهرجانات بالعريش مدة، وتبركوا بتلك الشجرة، التي كانوا يتفيأون ظلالها حيث أخذوا يعلقون بها خرقاً بالية وثياباً قديمة للذكرى .. وقد أقدم الملك مصرايم على زيارة المحل المسمى "بالعريش" ، حيث ولدت أمه تحت الشجرة، التي كانت تستظل بها أثناء الوضع، فجاء إلى هذه الشجرة وأخذ يزيِّنها بأقمشة مزركشة وأحجار قيمة ثم عكف تحتها يعبد الله حق العبادة...".[1]**وعن تلك الشجرة يعلق القلقشندي : " وما أخال الآن بقاء الشجرتين التي تعلق فيها العوام الخِرَقَ ، ويقولون هذه مفاتيح الرمل عند الكُثُب الجنبة عن البحر الرومي قريباً من الزَّعْقَة"[2].

أما الواحات سواء أكانت هي التي تحدث عنها الجغرافيون والمؤرخون المسلمون تحتل موقعا على خريطة العالم الحقيقية، أو كان موقعها على خريطة من صنع الخيال الإنساني، فإنها ــ في الحالتين ــ تحتفظ بقدرتها العالية على الاستجابة للمستويات المختلفة للحلم والواقع، فهي في أحد وجوها تعبر

---

[1] – أولياچلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٣٤، ص ٣٧؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣١٢.

** الرواية قد تعكس بعض ملامح تضمنتها أفكار أقدم ترتبط بالعبادات الطوطمية والطقوس الخاصة بها، فلم يكن تقديس الأشجار بين العرب ــ قبل الإسلام ــ بأقل من تقديس الأصنام والجبال والآبار، ذلك لاعتقادهم أن هذه الأشجار فيها أيضا "قوى روحية" كامنة فيها وأن لهذه القوى أثراً خطيراً في حياتهم، ويبدو أن الاعتقاد بوجود الأرواح أو الحياة في الأشجار كان مقصوراً على أنواع بعينها مردها إلى ضخامة هذه الأشجار وقوتها وثمرها الكثير أو نفعها. نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي. (الطبعة الأولى، دار الإرشاد، بيروت ١٩٧٠م)، ص ٦٩.

[2] – القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣١٢.

عن حلم بمجتمع خيالي يطمح الإنسان لفك ألغازه التي تحول عوامل طبيعية دون معرفتها معرفة يقينية، فالواحات تمثل هامش عالم حضاري معروف لذلك تأخذ ملامحها الجغرافية والسيكولوجية من هذين العالمين. هذا هو بعينه ما نلمسه في رواية المؤرخين أثناء حديثهم عن رحلات الذين قصدوا[1] الواحات المصرية بقولهم: "بلاد الواحات كثيرة التمر والنخل وفيها مدن كثيرة مسورة وغير مسورة؛ وكل مدينة منها لها اسم يعود إلى ألواح، أريس ألواح، وتنيس ألواح، وألواح الخارج، وألواح صبروا، ... وزعموا أن في أقصى بلاد الواحات بلد يقال له (واح صبروا)، لا يقع عليه إلا من ضل في الصحراء، وفي النادر من الزمان، وأنه بلد عظيم الخيرات من النخل والزرع،وجميع الفواكه ومعادن الذهب، وأنه أخصب بلاد الدنيا .. وقد وقع في هذا البلد رجل من عرب بني قرة.. وأخبر بما رأى فيه من الخيرات، وبما في أيدي أربابه من الأموال.. فأهاج ذلك أمير بن قرة وكان اسمه مقرب بن ماض، عزم على النهوض إليهم .. فنزل في رجوعه ذات ليلة ربوة من الأرض في بهاء تلك الصحراء ، فوجد بعض أصحابه في نواحي تلك الربوة بيتاً للأول فبحثوا عليه فإذا هو لبن من نحاس أحمر، فزادوا في البحث فوجدوا أساس سور من نحاس أحمر للأول، فأوقروا جميع ما عندهم من الظهر من تلك العين، وساروا حتى أتوا مدينة ألواح الخارج فباعوا ذلك النحاس بأموال كثرة، ثم أرادوا أن يرجعوا إلى الربوة التي وجدوا فيها النحاس، فلم يقدروا عليها وضلوا طريقها ...".[2] وتستمر الرواية في سرد أحداثها فتحكي عن مخلوق يرتاد (الواحات الخارجة) فتم القبض عليه:" فإذا بامرأة سوداء عظيمة الخلقة مفرطة الطول والعرض ،لا يفقه منها كلمة، فرآها مقرب بن ماض فهاله أمرها، فكلموها بكل لغة

---

[1] – لقد تميّزت تلك الرحلات الخياليّة عموماً باختيارها الأماكن الغريبة والمسحورة التي تأوي إليها الشياطين والجنّ مراحاً ربما لتعرض من خلاله نظرتها إلى المجتمع الإنساني المعاصر فتعرّض بمفاسده وتفضح نقائصه، وتدعو من طرف خفي إلى الحياة الإنسانية الكريمة القائمة على الروحانيّة سمة رابطة بين بني البشر.

[2] – لعل مدينة النحاس هذه صدى من أصداء الاعتقاد العام حول خواص النحاس السحرية، وعلاقة النحاس بعالم السحر قوية حتى أن مدينة بأسرها قد حشيت خوارق سميت مدينة النحاس في ليالي ألف ليلة وليلة وقد عرفت هذه المدينة العجيبة من قديم، بل عرفت بهذه الصورة نفسها التي نراها عليها في الليالي محاطة بالسور العجيب يذكر المسعودي في مروج الذهب فيقول: "وخبر مدينة الصفر وقبة الرصاص التي بمفاوز الأندلس، ما كان من أنفسهم أنهم وصلوا إلى نعيم الدنيا والآخرة"، ج٤، ص ٩٥؛والملاحظ أن التأريخ ليس غاية ألف ليلة وليلة، ولا تقديم أنماط المجتمع وطبقاته ولا قص أخبار علومه وتطورها، ولا الحديث عن العمران والفتوحات، ولا عن الإصلاح وشؤونه، ولا بيان الظلم وألوانه، ولا التطلع إلى العدل والعلوم الجديدة، وإنما هي غاية محصورة في العبرة والاعتبار وأخذ العظة والإفادة من سلوكٍ أو تصرفٍ لشخصيةِ انظر: سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، ص ١٦٠.

علموها من لغات السودان فلم تجاوب بواحدة منها وتكلمت بكلام لا يفهم، وبقيت عندهم أياما يأتمرون في أمرها، فقال لهم مقرب: نرى أن ترسل وتركب الخيل العتاق السوابق والنجب العشار في إثرها إلى أن يوقف على موضعها، ويعلم حقيقة أمرها، فلما أرسلت، فأتت الخيل والنجب وبارت الرياح فلم يقفوا على حقيقة خبرها ويذكر أن بين بلاد ألواح وبلاد الجريد .. جزائر وهي كثيرة النخل والعيون ، لا عمران فيها، ولا أنيس بها، ويقال أنه يسمع فيها أبداً عزف الجن".[١]

جدير بالذكر أن الأساطير والخرافات التي صاغها الوجدان الشعبي حول أصول المدن المصرية القديمة لم تتسرب إلى كتابات المؤرخين فحسب، بل نجد صداها في السيَّر العربية والشعبية التي إن دلت فإنما تدل على أن وجدان الشعب قادر على طي الزمان والمكان، وفتح المغاليق الموصدة، وحل الطلسمات المجهولة في إطار من الخرافة والخوارق، التي لا تخضع لأبعاد الزمان ومقاييس المكان وطاقة البشر، ومعنى ذلك أن السيَّر العربية والشعبية أصبحت مادة خصبة لدراسة العديد من العناصر الثقافية ذات الجذور الضاربة في القدم سواء على المستوى المعتقدي أو على مستوى الممارسة الفعلية، أو حتى على مستوى تطور "الحكاية" من ناحية الشكل الأدبي بدءا بالأسطورة ومروراً بالملحمة والحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ووصولاً إلى الصياغات النهائية التي اتخذتها السيَّر الشعبية، والي تعد الأسطورة من أبرز الأصول الثقافية القديمة التي تمثل مرجعية هامة للسيَّر الشعبية.

ومن السيَّر الشعبية التي مثلت الأساطير المرتبطة بالمدن المصرية أحدى المرجعيات الثقافية لها: سيرة "سيف بن ذي يزن"؛ والتي تمتلئ بالعديد من عناصر وسمات الأسطورة موزعة في شتى مواضع السيرة، من تلك السمات البارزة في السيرة ؛ هي سمة أسطورية المكان.

والمكان في سيرة (سيف بن ذي يزن) يتسم ببعد أسطوري واضح يقدمه لنا الخيال الشعبي مزجاً بين القياس على الأماكن المحسوسة المألوفة وبين التصوير الذي اصطنعه ذلك الخيال الأسطوري، ومن هنا تأتي "عجائبيتها وغرابتها ومطلقيتها" وذلك حتى لو تضمن تقديم هذه العوالم ذكر بعض المعارف الجغرافية اليسيرة؛ كأسماء البلدان والأنهار والجبال وغيرها، وعلى الرغم من أن السيرة ذكرت أسماء: الحبشة، اليمن، المغرب، مصر والشام، والقدس، واليونان، النيل، الفرات. إلا أن هذه الأسماء لم تدل

---

[١] -ابن محشرة: الاستبصار، ص ١٤٦، ص ١٤٧، ص ١٤٨؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٦٠٠؛ والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٩٠؛ البكري: المسالك والممالك، ص ١٥؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٤.

على مواقع جغرافية واقعية، وإنما كانت دلالات الأسماء مجرد خلفية لعالم أسطوري بالفعل، ومن ذلك مصر التي وردت في السيرة في طور النشأة والتكوين في زمن يستحيل أن يكون هو زمن النشأة الفعلية لمصر أرضا وشعبا، كما أن أسماء البلدان والمدن المصرية (الجيزة ــ الروضة، الحسينية، بولاق الدكرور، دمنهور، إسنا، إخميم، ملوي، أسوان، غيرها .. وردت كأسماء أشخاص مصاحبين للبطل وكنوع من التأصيل لأسماء هذه البلدان.[١] لهذا رأى البعض أن سيرة سيف بن ذي يزن سيرة مصرية، خلقاً وإبداعاً على الرغم من نواها التاريخية اليمنية المتمثلة في شخصية بطلها سيف، وهو أساساً بطل من أبطال التحرير في العصر الجاهلي، وتتجلى مصريتها في محاورها وقضاياها الأساسية: نهر النيل، إنشاء المدن المصرية على ضفتي النهر، تعمير مصر، تعريب مصر ... الخ.[٢]

ولعل عودة عُجلي إلى كتابات المؤرخين المسلمين ورواياتهم السابقة عن أصول ونشأة المدن المصرية القديمة تؤكد حقيقة مؤداها أن المخيلة الشعبية ــ في العصور الإسلامية ــ لم تكن تختلف كثيراً عن مخيلة المؤرخين والمتعلمين أو المخيلة العلمية آنذاك .. حيث تتداخل الأساطير التعليلية والشعبية والدينية وتلتقي عند الخطوط العريضة لنشأة مصر، ومدنها. مما يعني أن القاص الشعبي كان على معرفة وثيقة بهذا الموروث الفولكلوري التاريخي، الجغرافي المتعلق بمصر، ومدنها ،ونيلها، على نحو يسمح له بإعادة إنتاج هذا الموروث (العلمي بمفهوم ذلك الزمان). وصياغته صياغة أدبية تحكي لنا قصة الصراع الملحمي بين النيل والمصريين أو بين المصريين ومدنهم.

هكذا إذن؛ كان احتفاء الموروث الشعبي الذي حفظته لنا الكتابات التاريخية عظيما بالمدن المصرية التي كان تاريخ بعضها يرجع إلى عصور تاريخية سحيقة، كما أن معظمها يحمل من الآثار المادية ما يدل على أن ثمة حضارة تليدة هي التي أفرزت مثل هذه الآثار العظيمة، بيد أن انقطاع أخبار هذه الحضارة القديمة؛ نتيجة للفشل في حل رموز اللغة المصرية القديمة أفسح المجال أمام الخيال لسد الثغرة الناجمة عن نقص المعلومات من ناحية، والتعبير عن الرؤية الشعبية للتاريخ الذي أنتج هذه الحضارة من ناحية أخرى.[٣]

---

[١] –كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص ٣٦٩ ، ص ٣٩٥.

[٢] –محمد رجب النجار: الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي (سلسلة الدراسات الشعبية، العــدد ١١٠، القاهرة، ٢٠٠٧م)، ص ١٠٧.

[٣] – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٧٢.

الفصل السابع

التراث المتعلق بالعمران والعجائب القائمة على أرض مصر

"أرض مصر .. إقليم العجائب ومعـــدن الغرائب، وأهله كانوا أهل ملك عظـــيم، وعز قديم، وكان به القدماء عدة كثيرة، وهم متفننون في سائر العـــــلوم، مع ذكاء مفرط، جبلتهم.. وفيه كنوز وهياكل، وعجائب غريبة "

ابن الوردي

خريدة العجائب وفريدة الغرائب /٣٢

أعمال المؤرخين وكتاباقم تُعد أحد المصادر المهمة لإلقاء الضوء على الحضارة العربية في عصورها المختلفة، وهذه الأعمال وما قدمت من مادة ثرية، دليلٌ بارزٌ على قيمة كتاباقم، والتي أمدتنا بمعلومات وأخبار مستقاة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية أو النقل عن التراث العربي بشطريه ــ المدون والشفاهي ــ المتداول عن العمران والذي يعد من أحد أهم دلائل الحضارة، ولكون العمران دليلاً بارزاً على وجود الحضارة فارتبطت به وارتبط بها، صنوان متلازمان يسيران جنباً إلى جنب تؤثر الحضارة في العمران فتطبعه بطابعها، ويعكس العمران ملامح الحضارة فتنطبع عليه ملامحها فيرى الناظر إليه كيف كانت تلك الحضارة، وإلام انتهت، ومن ثمَّ فقد أضحى العمران وما يماثله من آثار قائمة في مقدمة ما يحرص علماء تاريخ الحضارات على استنطاقه والاستماع إلى ما يبوح به، وعلى الوقوف على ما يخفي وما يعلن عند تدوينهم تاريخ الأقدمين.

ومصر بحكم تاريخها وموقعها، كانت خبرقا طويلة؛ لأها خبرة تاريخ وحضارة تنوع بيئي وسكاني وديني، وبالتالي كان لهذا كله دور كبير، وفعال في تشكيل، وتلوين الموروث الشعبي المصري في تعامله مع غير الإنسان من آثار عمرانية أو طير أو حيوان أو نبات أو جماد، نرى رؤيته الخاصة التي تجعل منها عوالم أسطورية تتعانق بحميمية مع حقائق التاريخ، فما من بناء في مصر القديمة إلا وتُروَى حوله الحكايات، في بعضها عناصر حقيقية من التاريخ، ومعظمها نسجته المخيلة الشعبية الثرية، وهذا شأن

المكان الذي تتراكم فيه طبقات التاريخ، فالأسطورة بقيت في الضمير الجمعي، وعبرت عن نفسها في مفردات التراث العمراني المصري الثري، الذي لا يستطيع تفسير الكثير من ظاهراته الحاضرة إلا من خلال دراسة عملية التطور التي مر بها ورؤية الناس له إذ هو المسرح الكبير الذي تجلت فوقه خصائصهم وخصالهم بشكل غير عادي فهو يكشف عن الناس ــ في العصور الإسلامية ــ في أفضل أحوالهم وأسوئها في آن واحد.

كان أول مفردة في منظومة التراث العمراني المصري هو السور إذ كان معلماً قديماً قدَم مدن هذا الجزء من العالم، وما برح المؤرخون في الإشارة إلى وجود سور يحيط بمصر من العريش إلى أسوان. ولتتبلور لدينا الدلالة الحضارية للسور بما يعنيه من أمن وأمان من ناحية كما أنه في الوقت نفسه يعكس دلائل ضعف وخوف من الجماعات الخارجية التي تنظر بعين الحسد ، وتتحين أي فرصة لضعف الدولة للانقضاض عليها ، إضافة لشعور أهلها بأنهم لم يعودوا قادرين علي إيقاف الهجوم الذي يهدد بلادهم ، وهذا ما نلمسة في طيات الأسطورة التي روج لها المؤرخون في كتاباتهم في سياق حديثهم عن ما يسمي "بحائط العجوز" في قولهم :" من المباني العجيبة بمصر أيضا ، حائط العجوز ، وأسمها دلوكا ، ملكت مصر ، وهذا الحائط من العريش إلي أسوان ، شامل بكور مصر من الجانب الشرقي ، تزعم الضبط أن سبب بنائها له ؛ خوفها علي مصر وأهلها بعد غرق فرعون وقومه ، وأن تطمع فيها الملوك فبنته لذلك".[1] وجعلت فيه محارس ومسالح علي كل ثلاثة أميال محرس[2] ومسلحة ، وفيما بين ذلك محارس صغار علي كل ميل ، وجعلت في كل محرس رجالاً ، وأجرت عليهم الأرزاق ، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس ، فإذا أتاهم أحد يخافونة ضرب بعضهم إلي بعض بأجراس ، فأتاهم الخبر من كل وجه وكان في ساعة واحدة ، فنظروا في ذلك ، فمنعت مصر مَنْ أرادها ، وفرغت من بنائة في ستة أشهر ، وهو الجدار الذي يقال له جدار العجوز ، وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة".[3]

---

[1] –الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٣٤.

[2] – المحارس : ذكرها الرحالة ابن جبير في رحلته في (القرن السادس الهجري) وهى جمع محرس ، وتعني عنده ؛ مأوى مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء . أو هي النقطة الحصينة في المدينة. انظر : رحلة ابن جـــبير ، ص ٣٢.

[3] –السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٤٧؛ ابن عبد الحكم: فتــوح مـــصر، ص ٢٧، ص ٢٨؛ يــاقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٢٠٤؛ ابن زولاق: فضائل مصر، ص ٧٠؛ ابن ظهيرة: الفضائل البـــاهرة، ص ١٥١؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٩٩.

الموروث الشعبي الدائر حول سور الملكة دلوكة يكشف عن حقيقة تاريخية في غاية الأهمية ، وهي أن الحدود الشرقية كانت وما زالت مصدر الخطر الدائم عبر التاريخ، ومن هنا كان اهتمام مصر الاستراتيجي الأول متعلقا بحدودها الشرقية علي مر العصور وقد تعين علي حكام مصر الفرعونية ابتداء من عصر بداية الأسرات (منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد) أن يتيقظوا للحدود الصحراوية الشرقية ، وبدأت سياسة السلام المسلح في عهد امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة (١٩٦١-١٧٧٨ ق. م) بإقامة المشاريع الدفاعية التي امتدت علي الحدود الشرقية والشمالية الشرقية وسميت في مجملها " أسوار الوالي".[١] فهذه الروايات أيضا تحمل ظلا تاريخيا يشير إلي ما أثبتته أحداث التاريخ أن حدود مصر الشرقية الطبيعية تبدأ من خارجها عند فلسطين[٢] .

ولعلنا نتساءل من هي الملكة دلوكة التي تردد اسمها في مدونات المؤرخين أكثر من مرة؟. فليست هي حتشبسوت وليست هى أيضا كليوباترا ، وليس لنا إلا أن نفترض أن الضمير الشعبي المصري قد أخرج اسم هذه الملكة، ليلحق بها من الأعمال ما يعجز عنه الرجال ،استمراراً للحس المصري بتفوق المرأة في أعمال السحر ومكانتها في مجتمع الحكم والسلطة . كما أن المرأة العجوز قد اشتهرت في الأدب الشعبي بأنها رمز للدهاء والمكيدة، فقد عزا الراوي الشعبي حماية مصر – ولو جزئياً – إلي مكائد ودهاء المرأة العجوز، وصور هذه العجوز كثيرة متعددة في الأدب الشعبي كما هي كذلك في ألف ليلة وليلة.[٣]

---

١ -عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول، الهيئة العامة، القاهرة، ١٩٦٧م)، ص ٣.

٢ - ورد في بردية (لينجراد) التي يرجع عهدها إلي عصر تحتمس الثالث (١٤٧٨-١٤٤٧ ق.م) في التعاليم الموجهة للملك"مرى كارع" إشارة إلي أهمية الحدود الشرقية لمصر بقوله: " الحد الشرقي للمملكة قد أصبح أمنـا الآن ضد البدو" الآسيويين" انظر: محرم كمال: الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء(مكتبة الأسـرة، القاهرة، ١٩٩٨م)، ص٧٨.

٣ -صورة العجوز (دلوكة) نجد لها رديفاً في حكايات ألف ليلة وليلة حيث تحتل شخـصية العجـوز المكانـة الممتازة في الليالي والتي دارت بسببها، وبسبب حيَلها خاصة، حوادث احتلت نحو خمس الليالي، فهي شواهي بطلـة قصة عمر النعمان وولديه، هذه العجوز استعملت دهاءها ومكرها في الكيد السياسي، فقادت جيوشاً هزت ممالك عصف بالملوك في سبيل الانتقام السياسي، وفي الحروب تكون العجوز حركة دائمة بين الجيوش؛ فهي عند المسلمين الناسك الذي يدبر لهم خطة السير، وهي عند النصارى العجوز التي توصلهم إلى عدوهم بما عندها من معلومـات وبما دبرت من حيَل، وهي ربما كانت العجوز (دلوكة) في الكتابات التاريخية قد استمدها الراوي من خياله ولكنـه صبغها بواقعة كثيرا. ارجع إليها فكرة بناء سور حول مصر للخلاص من الأعـداء والمنافـسين، انظـر: سـهير القلماوي: ألف ليلة وليلة، ص ٣١٤، ص ٣١٥؛ قاسم عبده قاسم: بين التـاريخ والفولكلـور، ص ١٦٧، ص ١٩١.

أما الجامع فقد كان أحد أعمدة مكونات المدن المصرية بوجه عام ، ولكنه لم يعد جامعاً وحيداً تميزت به المدينة ، وإنما زاد عدد الجوامع مع اتساع العمران في مصر الإسلامية ، وزيادة عدد المسلمين ، ومعهم زادت الأساطير والحكايات الخرافية عن المباني العظمي والجوامع العريقة التي شيَّدها حكامُ مصر، وفي مقدمتها جامع عمرو بن العاص ، الذي اكتسب شهرة واسعة ، وكان سلاطين مصر وملوكها يفضلون صلاة الجمعة اليتيمة به في رمضان ، وكان المشايخ والقساوسة والأحبار يصلون فيه صلاة الاستسقاء ليفيض النيل ، حاملين القرآن والإنجيل والتوراة ، وكان القاضي بجامع عمرو يسمح للقبط واليهود بدخول الجامع لعرض قضاياهم ، لأن محاكمهم الخاصة بهم لم تنصفهم ، ويعد حُكمة نهائيا وملزماً لجميع الأطراف .

جامعٌ له تلك المكانة والتبجيل لدي جميع فئات المجتمع المصري، كان بالضرورة أن يضفي عليه الوجدان الشعبي أخباراً، وحكايات تكرس تلك المكانة الدينية، وهنا تنبعث الأسطورة القائلة:".. في جامع عمرو بن العاص موضع جد عجيب ، جدير بالمشاهدة ، وذلك أنه يوجد أمام المدخل القبلي عمودان من الرخام ، منصوبان جنبا إلي جنب ، ويزعم الناس أن من كان نجسا، أو عاصيا لا يستطيع المرور بينهما ، وإن كان طاهراً أو بريئاً مر . فمن الناس من هو بدين ضخم ، ويمر كالبرق ، ومنهم من هو ضعيف نحيل ، ولا يقدر علي المرور فيخل ، ويحكي أن شاطراً (لص) ممتازاً من شطار أحد الأمراء دخل بينهما بقصد المرور فعجز عنه ، فأجتمع الحاضرون ، وأمسكوه من يديه بصخب ، وحلبه وأرجعوه القهقري وما أن خرج من المسجد حتى أسلم روحه لسبب مجهول ، أهو الخجل أم أمر آخر ، وغُسِّل الرجل في غمضة عين ، وحضر علي جنازته ألوف من الناس. إنها لحكمه عجيبة فقد دفن فيه سبعة ألاف من الصحابة الكرام"[١] ،

ويبدو أن اعتقاد العوام في أعمدة مسجد (عمرو بن العاص) استمر ردحا من الزمن فيذكر بعض الباحثين المحدثين أنه قد اعتقد عوام المصريين في عمودين في جامع عمرو بن العاص الفسطاط، وان من كان صالحا وصادقا أن يمر بينهما حتى ولو كان سميناً أما من كان فاسقا وكاذبا فلا يستطيع ذلك حتي لو كان نحيفا وقد اضطرت الحكومة إلي تسويرهما بعد أن حدثت منهما مضار عديدة فلا بد أن كثيراً قد انحصروا بين العمودين في محاولتهم لإثبات صلاحهم وصدقهم.[٢]

---

[١] – أوليا جلبي : سياحتنا مه مصر ،ص٢٧٠،٢٦٩.

[٢] – إبراهيم كامل أحمد: النبش في ركام الخرافة (مجلة الفنون الشعبية، عدد٦٣/٦٢، القاهرة ٢٠٠٢م.)، ص ١٥٣.

أما الجامع الأزهر[١] . فقد حيكت حوله الخرافات والأخبار . فيقول المؤرخون :" يُقال أن بهذا الجامع طلسما ، فلا يسكنه عصفور ولا يفرخ به ، وكذا سائر الطيور من الحمام واليمام وغيره ، وهو صورة ثلاثة طيور منقوشة كل صورة علي رأس عمود ، فمنهما صورتان في مقدم الجامع بالرواق الخامس ، منها صورة في الجهة الغربية في العمود ، وصورة في أحد العمودين اللذين علي يسار من استقبل سدة المؤذنين ،والصورة الأخرى في الصحن في الأعمدة القبلية مما يلي الشرقية" [٢] ويعلق أحد المؤرخين بقوله :" الطريف وجود من يصدق هذا وينقله علي الرغم من رؤيته للعصافير تنتقل في أنحائه ، وهذا القول وإن كان من قبيل الخرافة ، إلا أنه أمكنني حل هذا الطلسم الذي زعموه ، إذا هو نسر وعصفور ناشر جناحيه علي بعض التيجان في الرواق الكبير ، وفي الصحن وقد أمكن إحصاء الثلاثة التي ذكرت ، وثلاثة أخرى غيرها ، وعدا هذا تم العثور علي تيجان بها صلبان كسرت بعض أضلاعها ، ولما كان الكثير من عمد المساجد وتيجانها منقولة من البِّيع والكنائس المتخربة ، وهما العنصر الوحيد الدخيل فيها فيكون العصفور والنسر من الرموز الدينية عند المسحيين ومنها الكثير في جامع عمرو وغيره من المساجد"[٣].

وألهبت مدرسة وجامع السلطان حسن[٤] المخيلة الشعبية بشموخ وروعة البناء الذي يدل على العظمة والجبروت وعلى القدرة الفنية، كما يوضح كثرة النفقات فشاع بين الناس أن : "السلطان لما حفر أساس هذه المدرسة، وجد في الأرض مالاً مدفونا فصرفه على عمارة هذه المدرسة

---

[١] – بناه القائد جوهر بعد دخول مولاه المعز إلى القاهرة ، وإقامته بها و فرغ منه سنة إحدى وستين وثلثمائة .

[٢] – الخطط المقريزية : جـ٤ ، ص٢٧٣؛ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٨٢ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ،ج٣، ص٣٦٠؛ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، ص٨٥.

٣ – المفضل بن أبي الفضائل : تاريخ سلاطين المماليك ، ص٥٠ ، نقلاً عن حسن إبراهيم حسن وآخرون : الأزهر تاريخه وتطوره (وزارة الأوقاف ، القاهرة ١٩٦٤م) ، ص١٥٩.

٤ – السلطان حسن : هو الملك الناصر حسن بن سلطان الناصر محمد بن السلطان المنصور قلاوون ، ولد(سنة ٧٣٥ هـ – ١٣٣٤م) ، وسمي أولا قمارى ، ولما وليّ مصر اختار اسم "حسن " فعرف به، مدرسة / مسجد السلطان حسن من مفاخر العمارة الإسلامية ،وكان محلها قبل إنشائها قصرين للأمير الطنبغا المارداني ، والأمير يلبغا اليحياوي ، فأمر بهدمهما وإنشاء هذه المدرسة / الجامع ، وشرع في بنائها (سنة ٧٥٧ هـ – ١٣٥٦ م). حسن عبد الوهاب: جامع السلطان حسن وما حوله(المكتبة الثقافية، العدد ٥٦، القاهرة ١٩٦٢)، ص ٨، ٩

فعمرت.. وقيل لما حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا هناك مرساة مركب [١] قيل كان البحر هناك.."[٢] ، ولكن قيل مثل هذا عن ابن طولون أيضا. كقول القلقشندي:"وعلى نظير العشارى الذي على رأسها عُمِل العشارى الذي على رأس قبة الإمام الشافعي رضى الله عنه"[٣].

ومسجد ابن طولون[٤] يمتد في قلب حي الخليفة (نسبة إلى الخليفة العباسي الذي انتقل مقره إلى القاهرة زمن الظاهر بيبرس وكانت إقامته قرب القلعة مقر الحكم)،وكان قد "شكا أهل مصر إلى أحمد ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه . فأمر بابتناء المسجد الجامع بجبل يشكر "[٥] وهذا المسجد هو كل ما تبقى من القطائع عاصمة الدولة الطولونية، وقد اشتهر بتصميمه الفريد المحاط بالبيوت العتيقة، القديمة التي تلاصق جدرانه، وهنا تنبعث في الذهنية الشعبية الأسطورة، إذ يُروى أن أحمد بن طولون رأى حلماً أفاق منه مترعجا، إذ رأى صاعقة من السماء تترل فتبيد كل ما يحيط بمسجده، أما المسجد فلم يتأثر بشيء، وقدم له المفسرون تحليلاً مطمئناً لحلمه، فكل ما

١ – فكرة وجود المركب نجدها أيضاً موجودة عند الحديث عن قبة تربة الإمام الشافعي بمصر حيث دفن الإمام الشافعي في القرافة الصغرى في تربة بني زهرة ، وهم أولاد عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، وعرفت بتربة أولاد بن عبد الحكم ، وفيها دفن الإمام الشافعي رضى الله عنه ، وعرفت بعد دفنه بتربة الشافعي إلى وقتنا هذا ، وفي سنة ٦٠٨هـ ماتت أم الملك الكامل ابن الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي ، فأمر بدفنها بجوار تربة الشافعي ، وبنى القبة التي على الشافعي ، وكلفها خمسين ألف دينار ، وكان يصعد إليها بسلسلة من الحديد لوضع الحبوب فيها طعاماً للطيور ورفقاً بها ، وعنها أنشد ابن ملهم قائلاً :

مررت على قبة الشافعي ** فعاين طرفي عليها العشارى

فقلت لصاحبي لا تعجبوا ** فإن المراكب فوق البحارِ.

٢ –ابن إياس : بدائع الزهور ،ج١، ص ٢٠٤؛ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، ص٨٠.

٣ – ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، ص٨١؛ القلقشندى : صبح الأعشى، ج٣ ،ص٣٤٠.

٤ – الجامع الطولوني : ابتدأ بناءه الأمير (أحمد بن طولون) سنة ثلاث وستين ومائتين ، وفرغ منه سنة خمس وستين ومائتين ، وقد بلغت النفقة فيه مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وجددت فيه أماكن في الدولة المملوكية. راجع : المقريزي .الخطط ج٢ ،ص٢٦٥–٢٦٩؛السيوطي.حسن المحاضرة ج٢،ص٢٤٦–٢٥٠.

٥ – الكندي (أبوعمرمحمد بن يوسف التجيبي)(ت٣٥٠هـ):ولاة مصر (تحقيق:حسين نصار ، سلسلة الذخائر ، العدد ٦٦، القاهرة ٢٠٠١م) ، ص٢٤٥.

يحيطه سوف يبيد عدا المسجد الذي سيبقى، ويؤكد المقريزي على صحة الرؤيا بقوله: "وقد صح تعبير هذه الرؤيا، فإن جميع ما حول الجامع خرب دهراً طويلا كما تقدم في موضعه من هذا الكتاب وبقي الجامع عامراً".[١]

ولأن المسجد بقى عرضه للنقد وإعراض الناس عنه فأوجدت الأسطورة تعويضاً عن مواطن الضعف التي رآها العامة في عمارة المسجد وتعرج بهم إلى الأبواب الروحانية، فتقدم الروَّاية الشعبية تبريراً لشكل وعمارة المسجد ومحرابه فتحكي أن: " أحمد بن طولون لما سمع بما يقوله الناس في المسجد من عيوب: "جمع الناس وقال: أما المحراب فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خطه لي، فأصبحت فرأيت النمل قد طافت بالمكان الذي خطه لي، وأما العمد فإني بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكنز".[٢]ويضيف ابن إياس أنه : " وضع أساس هذا الجامع على مكان يسمى جبل يشكر ، وكان هذا الجبل يشرف على بحر النيل .. وقيل أن جبل يشكر هذا مشهور بإجابة الدعاء؛ وسبب ذلك أن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بعض الأوقات. وهو مكان مبارك قيل أن النمل دار على محراب هذا الجامع لما وضعوا أساسه فبنوا على ذلك الخط الذي وضعه النمل المحراب، ويسمى محراب النمل إلى الآن ورؤى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام مراراً يصلي في ذلك المحراب ".[٣]

ونسجت المخيَّلة الشعبية حول مئذنة جامع أحمد بن طولون حكايات في بعضها عناصر حقيقية من التاريخ فالمئذنة الملويَّة المصممة على طراز ملوية سامراء ، يُقال: أن ابن طولون كان رجلاً صارماً جاداً، لا يعرف المزاح، وكان لا يعبس بشئ قط: "فاتفق أنه يوماً أخذ درجاً أبيض بيده وأخرجه ومده كالحلزون واستيقظ لنفسه فوجد غلمانه قد فطنوا به وأخذ عليه لأنه لم تكن تلك عادته، فطلب المعمار على الجامع وقال: تبني المنارة هكذا، فبنيت على تلك الصورة".[٤]

---

١ -المقريزي : الخطط، ج٤، ص ٢٦٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٣٨.

٢ -المقريزي: الخطط، ج٤، ص ٢٦٧؛ابن سعيد الأندلسي: المُغرب في حُلى المغرب،(القسم الخاص بمصر)،ص٩٨.

٣ - ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ،ص٣٨؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣٤٠؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص٨١.

٤ -ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، ص ٨٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٤٠.

إنها الرواية الشعبية التي تبرر شكل المئذنة الفريدة بين مآذن القاهرة، ولكن التبرير الأقرب إلى العقل، هو نشأة أحمد بن طولون في مدينة سامراء، وانطباع شكل المئذنة الملوية الشهيرة في عقله حتى أخرج تصوره إلى الواقع، فضلاً عن استقدامه عدداً كبيراً من الصناع والبنائين من سامراء للعمل في بناء مدينة القطائع ومسجدها الجامع ، فكان من الطبيعي نقلهم العديد من التأثير والعناصر المعمارية لمصر .

إذن، كانت الأحلام وما فيها من رؤى مصدر غامض تلعب دورا هاما في الموروث الشعبي المرتبط بعمران مصر، إذ كان يتقدم لينبه إلى الأحداث، ويؤثر إلى مكان الخطر أو مكان الانتصار، أو هو كذلك سبب لبناء وتشييد المساجد والقباب وإضفاء صبغة الكرامات عليها حيث تعتمد في ذلك على الرؤيا أو الأمر القدري الذي يرد أثناء النوم وهو ما أكدته الروايات الشعبية التي دارت حول محراب وجامع أحمد بن طولون، كما كان لظهور الخضر عليه السلام في القصص الشعبي المتعلق بآثار مصر. يحمل من الدلالات والرموز التي تكرس لفكرة خلود تلك الآثار والتي تكشف عن الرؤية الأولية للإنسان العربي نحو الخلود ،وربما كان في تخليد الجامع وسيلة كشف روحي يعينه على تحقيق أدوات وجوده الإنساني ولا سيما وأن الجامع قد بُني بمال الفراعنة أصحاب الآثار الخالدة.

وأورد (الإسحاقي المنوفي) في تاريخه حكايات عديدة مصدرها الخيال الشعبي الذي كان متداولا بين الناس عن آثار مصر الإسلامية والتي ما تزال قائمة حتى الآن في القاهرة القديمة يقول عن مسجد الفاكهاني[١] :-

"... وفي أيامه ــ أيام الخليفة الفاطمي الظافر بأعداء الله ــ عُمِّر الجامع المعروف بالفكهاني داخل باب زويلة، الموجود الآن، وهو عامر مقام الشعائر الإسلامية، قيل أن السبب في بنائه؛ أن محله كان مجزرة يذبح فيها الأغنام وبوسط المجزرة حفرة يجتمع فيها ماء من غسالة الذبايح، وكان لأمير من أمراء الظافر، بيت مجاور للمجزرة المذكورة، وبه محل مشرف على تلك المجزرة، فجاء جزار بخروفين، فذبح الأول وشرع يذبح الثاني، فطرق باب المجزرة، فوضع الجزار سكينه عند

---

١ ــ هذا الجامع يسمى بالجامع الظافري تم بنائه سنة (ثلاث وأربعين وخمسمائة). انظر المقريزي: الخطــط ، ج٢،ص٢٩٠ .ويسمى عند المقريزي "جامع الفاكهيين" وعند القلقشندي "الفَاكّاهين". انظر :القلقشندي : صــبح الأعشى ، ج٣،ص٣٦١. ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، ص٧٤.

الخروف الذي لم يذبح، وتوجه للباب ينظر طارقه، فأخذ الخروف السكين بفمه وألقاها في بركة الماء، فاتفق أن رب البيت المذكور كان جالساً بالمكان المشرف على الجزرة، وهو ينظر أخذ الخروف السكين وألقاها في الماء، فلما جاء الجزار لم يجد سكينه فأراد أن يذبح الخروف بسكين كان معه، فقال له الأمير: أمسك يدك ولا تذبح الخروف، فتوجه الأمير إلى الظافر وأخبره بذلك، فتعجب ثم استأذنه في عمارة الجزرة جامعاً فأذن له فعمره".[1]

ولما كان المنبر من أهم ما يميز المسجد الجامع في المدينة الإسلامية فقد دار حول بعض المنابر العديد من الحكايات والخرافات مثل تلك التي يرويها لنا الرحالة ابن بطوطة بقوله : "وقد أخبرني أهل هذه المدينة (منفلوط)[2] أن الملك الناصر (رحمه الله) ، أمر بعمل منبر عظيم ، محكم الصنعة بديع الإنشاء ، برسم المسجد الحرام ، زاده الله شرفاً وتعظيماً . فلما تم عمله ، أمر أن يصعد به في النيل ليجاز إلى بحر جدة ، ثم إلى مكة شرفها الله ، فلما وصل المركب الذي احتمله إلى منفلوط ، وحاذى مسجدها الجامع وقف ، وامتنع من الجري مع مساعدة الريح . فعجب الناس من شأنه أشد العجب ، وأقاموا أياماً لا ينهض بهم المركب . فكتبوا بخبره إلى الملك الناصر (رحمه الله) ، فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ، ففعل ذلك ."[3] ولكن التفسير الأقرب للعقل هو أن أهل منفلوط قد رغبوا في المنبر فأشاعوا تلك الرواية ليستقر المنبر في مسجد مدينتهم بفضل سلطان الأسطورة وسحرها .

أما المدارس فقد ارتبط بعضها بالجوامع والمساجد وقام البعض الآخر منفرداً وقد توافر للمدارس في مصر الإسلامية عدة عوامل داخلية وخارجية ساعدت مجتمعة على ازدهار المدارس كنمط عمراني فريد له دلالته المتعددة، جعلت من مصر: "منبع العلم" و "عز الإسلام".[4]، وقد كان

---

[1] -الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر، ص ١٢٣؛المقريزي : الخطط ، ج٢،ص٢٩٠؛ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ، ص٧٤؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣٦١.

٢ – منفلوط : يقول عنها الرحالة ابن جبير في القرن السادس الهجري :"بمقربة من الشط الغربي ميامنا للصاعد في النيل ، فيه الأسواق وسائر ما يحتاج إليه من المرافق ، ومَدَرته[المدينة والحاضرة] في نهاية من الطيب ، وليس في الصعيد مثلها ، وقمحه يجلب إلى مصر ، لطيبه ورزانة حبته ، قد اشتهر عندهم بذلك.انظر رحلة ابن جبير ، ص٦١.

[3] ـ ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ص ٤٦.

[4] -ابن خلدون:رحلته شرقا وغرباً، ص ٢٤٦ ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٦٤.

لبعض المدارس المصرية نصيباً كبيراً في المخيلة الشعبية إذ تقول إحدى الروايات أن: " بالمحلة التي بها مدرسة الشافعي في عتبته حجر كبير إذا احتبس بول الدابة تمشي على ذلك الحجر مرارا، فينفتح بولها".[١]، وربما كان مرجع تلك الخرافة؛ أن هناك العديد من الخرافات الغريبة قد نشأت حول موضوع عتبات الأبواب في كل العصور القديمة والحديثة، والتي نلمح لها أثرا في مدونات التوراة على لسان (يهوه) : "وفي ذلك اليوم أعاقب كل الذين يقفزون فوق العتبة، الذين يملأون بيت سيدهم ظلماً وغشاء"[سفر صفينا، الإصحاح الأول، آية ٩]، ويبدو من هذا التصريح، أن من يتخطى العتبة واثباً يرتكب إثما يستحق عليه غضب الربّ، شأنه شأن إثم الخداع والغش.[٢] ومن المحتمل أن تلك المعارضة الشديدة للمس الأعتاب ـــ فيما يبدو ـــ أنها ترتكز على اعتقاد ديني أو خرافي في أن هناك خطراً يستكن في الأعتاب، وربما كان هذا الاعتقاد في حد ذاته كافياً لتفسير الإحجام عن وطء العتبة بالأقدام أو الجلوس فوقها[٣]، وربما نلمح أثر ذلك في الأغاني الشعبية المصرية التي تؤديها الأمهات للطفل عند محاولته الأولى ممارسة الأنشطة الإنسانية الهامة لأول مرة في حياته كالمشي والكلام فتقول : "تاتا خَطِّي العتبة**تاتا حابه حابه". وتمسك الأم بيدي طفلها تحاول أن تجعله واقفاً ليخطو خطواته الأولى ممسكاً بها ومعتمداً عليها كي يتخطى العتبة دون أن يطأ أو [يدوس] عليها.[٤]

وتعد الحمامات مفردة هامة في منظومة التراث العمراني المصري الثري ولبنة في صرحه الشامخ، كما أنها كانت دلالة هامة على حياة التحضر والرقي والعمران المصري التي نعمت بها مصر، والتي عدها الكثيرون من أكثر بلدان العالم الإسلامي اهتماماً بإنشاء الحمامات، وقد ألمح (ابن دقماق) إلى

---

[١] -القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد،ج١، ص ٢٤٠.

[٢] -جيمس ڤريزر: الفولكلور في العهد القديم، ج٢، ص ٦١٧.

٣- تعتقد بعض الشعوب أن الأعتاب تسكنها الأرواح ، وربما كان هذا الاعتقاد في حد ذاته كافيـاً لتفـسير الإحجام عن وطء العتبة وأن الأرواح التي تستقر عند الأعتاب هي أرواح الموتى وبناء على ذلـك فـإن الجـو السحري الذي أحاط بالأعتاب في الخيال الشعبي جعله يخلق عادة حمل العروس فوق العتبة يوم الزفاف أو ان تخطى العروس العتبة دون أن تمسها قدماها وهو حذر ينتشر بين كثير من الشعوب . جيمس فريزر: الفولكلور في العهد القديم (التوراة) ، ص٦٢٥.

[٤] -فتحي الصنفاوي: مدخل إلى دراسة المأثورات الشعبية (الطبعة ١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠١م)، ص٧٩، ٨٠.

أن أول من أنشأ الحمامات في مصر بعد الفتح الإسلامي هو (عمرو بن العاص) وقد أنشأ بالفسطاط حماماً أطلق عليه الناس بعفويتهم وبروح المداعبة اسم "حمام الفار" وذلك لصغر مساحته، قياساً بما كانت عليه الحمامات في مصر في العصر الروماني.١وفي سياق تلمسنا للجذور الأسطورية لبناء الآثار والعمائر الإسلامية نجد شغف الناس بتتبع أصول الأشياء وأسباب مسمياتها، والتأصيل لها. فنجد رواية شعبية دارت حول (حمام الكلب بالقاهرة) تقول: "لما شرعوا في حفر أساسه للبناء في الزمن القديم، ظهر تمثال نحاسي لكلبين متعاركين، تبين بعد ذلك أنه طلسم الكلب، فغير صاحب الخيرات أساس الحمام حفظاً للتمثال سليما، ولوجوده سليما ليس بالقاهرة مرض الكلب، ولا يصيب أحد ضرر منه، وهذا هو سبب تسمية الحمام بهذا الاسم".٢ هذه القصة الخيالية ربما كانت تحمل ظلا من الحقيقة مثل العثور على دفائن وكنوز المصريين القدماء بالمصادفة أثناء الحفر، والذاكرة الشعبية لم تنس بعد الحكايات الكثيرة عن القدور التي يعثر عليها فجاءة وفيها العديد من الذهب والفضة.

واعتبرت زيادة النيل في كل العصور بمثابة "مؤشر" الثروة القومية، ومن ثم كان طبيعيا أن يهتم المصريون منذ فجر تاريخهم بمقاييس النيل* التي بنيت على النهر من أسوان حتى القاهرة وبالنسبة للمقاييس التي وجدت قبل الإسلام فلا نجد في المصادر العربية سوى صورة مضطربة عنها يغلب عليها الجو الأسطوري وتشوبها الخرافات.٣

---

١ –ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر) (ت ٨٠٩ هـ): الانتصار لواسطة عقد الأمصار(منشورات المكتب التجاري، بيروت، د.ت)، ص ١٠٥، السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ١٣٥.

٢ –أولياجلبي: سياحتنامه مصر، ص ٣٤١.

٣ –قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (الطبعة ١، دار المعارف،القاهرة ١٩٧٨م)،ص ٤٠.

* المقاييس : الغرض منها قياس مستوى النهر فى كل مكان هام ، بغية العلم بمقدار ما يجرى فى النهر من ماء فى كل جزء من أجزائه ، وهو ما اصطلح على تسميته تصرف أو تصريف النهر . لذلك كان وجود مقياس ثابت يسجل مستوى النهر فى كل وقت أمرًا لازمًا لقياس تصرف النهر بانتظام . ولابد أن يكون المقياس مثبتًا إلى جانب النهر تثبيتًا متينًا بحيث لايتزحزح لأى ظروف طارئة . أيضًا على كل مقياس بيان بالارتفاعات المختلفة ، وهذه الارتفاعات تقاس بالنسبة إلى نقطة الصفر المصطلح عليها . ونقطة الصفر فى المقياس الواقعة فى مصر من أسوان إلى الدلتا هى مستوى سطح البحر المتوسط . لمزيد من التفاصيل أنظر : محمد عوض محمد : نهر النيل ، ص ٢٥٣– ص٢٥٦ .

تقول الروايات العربية أن أول من قاس النيل بمصر هو خصليم السابع (من أبطال الأساطير العربية التي حيكت حول تاريخ مصر قبل الإسلام). ويقال أنه :"صنع بركة لطبقة وركب عليها صورتي عقاب من نحاس: ذكر وأنثى، يجتمع عندها كهنتهم وعلماؤهم في يوم مخصوص من السنة، ويتكلمون بكلام فيصفر أحد العقابين، فإن صفر الذكر استبشروا بزيارة النيل وأن صفرت الأنثى استشعروا عدم زيادته فهيئوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة".[١] وينسب المؤرخون مقياس منف إلى يوسف عليه السلام، كذلك ينسبون إلى دلوكة العجوز بناء مقياسين بأنصنا و إخميم من بلاد الصعيد.[٢]

ولكننا نقفز إلى سماعيات المسعودي والتي تشابهت مع الكثير من المؤرخين فيقول : "وأما المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل ونقصانه، فإني سمعت جماعة من أهل الخبرة، يخبرون أن يوسف النبي (عليه السلام) حين بنى الأهرام، اتخذ مقياساً لمعرفة زيادة النيل ونقصانه، وأن ذلك كان بمنف... وأن دلوكة الملكة العجوز ووضعت مقياساً آخر ببلاد أخميم[من محافظة سوهاج بالصعيد]".[٣]،"كما وضعت العجوز دلوكة صاحبة حائط العجوز مقياساً بأنصنا وهو صغير الذرع"[٤] ولكن الأسعد بن مماتي ينسب هذين المقياسين إلى ملوك العجم دون تحديد الأسماء، ويضيف إليهما مقياساً بناه القبط بقصر الشمع.[٥]

ما يهمنا في الرواية السابقة: أن الفكرة القائلة بأن يوسف الصديق عليه السلام هو باني الأهرام تمر كأنها حقيقة لا تحتاج إلى نقاش، كما أن حديثة عن الملكة الفرعونية دلوكة (من ملوك مصر بعد الطوفان وفقاً لروايات الأساطير العربية) يمر أيضا بلا نقاش، وإن كنا لا ندري من أين جاء بهذا الاسم الذي يكثر في الكتابات التاريخية، إلا أنه لا شك تأثر بما سمعه ممن عايشهم في مصر عن ما

---

[١] -السيوطي: كوكب الروضة من تاريخ النيل وجزيرة الروضة،(تحقيق: محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠٢م)، ص ١٤٦ ، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٣؛ التلمساني: سكردان السلطان، ص ٤٣٣؛الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول،ص٧.

[٢] -القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٤؛ابن سعيد الأندلسي:النجوم الزاهرة في حُلى حَضْرة القاهرة ، القسم الخاص بالقاهرة(تحقيق:حسين نصار ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٠م)،ص٣٨١.

[٣] -المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٣٤٤؛القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣، ص٢٩٤.

[٤]- ابن سعيد الأندلسي : النجوم الزاهرة في حُلى حضرة القاهرة ، ص٣٨١.

[٥] -الأسعد بن مماتي: قوانين الدواوين(تحقيق: عزيز سوريال، القاهرة ١٩٤٣م)، ص ٧٥، ص ٧٦.

توصلت إليه معلوماهم عن تاريخها القديم، وهو يأخذ كلامهم أخذ المسلّم غير المدقق وغير المتشكك؛ إذ يبدو أنه كان يكفيه أنه كلام صادر عن قوم يزعمون المعرفة (جماعة من أهل الخبرة)، وهم بعد من أهل البلاد، ومن هنا دخلت الكتابات التاريخية الكثير من الأساطير ومتبقياها من الحكايات الشعبية المتعلقة بعادات مصر، وموروثها القديم مما بقي في ذاكرة العامة. والتي نجد وقع حوافرها علي العقول ماثلة في إشارات عند الرحالة جون أنتيس في القرن الثامن عشر الميلادي بقوله :"والتماسيح شائعة جداً في مصر .. لكنها قلما تصل شمالاً أبعد من القاهرة ولا تتعداها ، ويدعى الأهالي أنه بفضل مقياس النيل لا يمكن لها أن تتوغل شمالاً لأنه مزود بتعويذة تمنع تسللها أبعد من هذا الحد !!"[1] .

وفي سماعيات (أولياچلبي) ، عن مقياس الروضة نجده يسلك مسلكا مختلفا فيقول: ".. في أفواه الناس أقوال كثيرة عن سبب تسمية (أم القياس)[يقصد مقياس الروضة]، ومنها أن ملكاً كانت له ابنة حسناء تدعى "مقياس" فبلغ الملك أن تمساحا خطفها، وهي تستحم في النيل فجعل يصيح، ويولول، ومن حكمة الله أنه كان معه في ذلك الوقت الشيخ أبو بكر البطريني من كبار أولياء الله، فدعا للفتاة، فما لبثت أن أعادها التمساح بأمر الله إلى ذلك المكان سالمة معافاة[2]، فابتهج الملك، وبنى ذلك القصر في ذلك الموضع وسماه " أم القياس" ذكرى لنجاة ابنته، ثم أمر الشيخ البطريني بصنع تمثال تمساح من الرخام، وعقد عليه وقفا أعظم، ودفنه تحت حوض أم القياس من النيل، وإن تجاوزه التمساح، فلا يلبث أن ينقلب على ظهره، ويرتمي إلى الساحل فيقتل، فلذا ليس في القاهرة تمساح قط..." [3].

---

[1] -جون أنتيس:مذكرات رحالة عن المصريين وعاداقم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر(١٧٧٠-١٧٨٢)،(ترجمة سيد الناصري ،سلسلة المشروع القومي للترجمة ، العدد٢٢، القاهرة ١٩٩٧م)،ص١١٠.

[2] -من الأساطير التي تتردد إلى يومنا هذا عن أحد الأولياء وهو (الشيخ إبراهيم الدسوقي) ملخصها: "أن تمساحاً ضخما ابتلع طفلاً صغيرا، وقد لجأت أم الطفل إلى ولي الله إبراهيم الدسوقي، وطلبت منه أن يحضر لها طفلا، فما كان من الوليّ إلا أن خرج إلى البحر (فرع رشيد) الذي تحول فيما بعد عن المسجد، وطلب من التماسيح أن تخرج له التمساح الذي ابتلع الطفل فحضر هذا التمساح، وطلب منه الولي إخراج الطفل، فخرج الطفل من بطن التمساح حياً وقد عاقب الولي التمساح، فقتله، حتى يريح الناس من شروره للمزيد حول هذا الموضوع انظر: فاروق أحمد مصطفى، الموالد دارسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر(سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٩٦، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص ١٨٠-١٨١.

[3] -أوليا‌چلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٣٤١

أما القلاع المطلسمة والقصور المرصودة، فقد كانت من العناصر التي امتلأت بها الأساطير والحكايات العربية التي رواها الناس، وحفظها لنا المؤرخون، والرحالة فيما كتبوا عن مصر، وعجائبها الخلابة. فقلعة الجبل كان الغرض من إنشائها هو تحصين القاهرة من احتمال تعرضها للهجوم، ولحماية الحاكم في حالة قيام ثورات ضده أو العصيان عليه. وقد استخدم في بناء القلعة أحجار من منطقة أهرام الجيزة، وسخر في نقلها وفي عملية البناء مئات الأسرى من الصليبيين، وهدم ما حولها من المساجد والقبور.[١] فلبست أبهى حلة تليق : "بدار الملك الشريف،التي بها تخت المملكة المعروفة الآن بقلعة الجبل، ليس لها نظير في الاتساع، والزخرفة، والأبهة العلو، تشتمل على سور وخندق وأبراج وعدة أبواب من حديد وهي حصينة جداً".[٢]

وإن كانت أحجار الأهرام أحد أسباب حصانة القلعة، فلقد تحصنت أيضاً بقوى أخرى مصدرها الخيال الشعبي الخصب الذي رأى أن القلعة محفوظة بطلسمات سحرية غامضة إذ أن: " بالقلعة عقارب ولكنها لا تلسع الإنسان، وإن لسعته فليس للسعتها تأثير، ويزول الوجع بعد بضع ساعات؛ لأن هناك طلسما، وذلك لأن الديوان العتيق للسلطان قلاوون مبني على أربعة وأربعين عمودا، لا نظير لها في الربع المسكون إلا في أسوان، وطلسم العقرب؛ صورة عقرب من النحاس الأصفر، معلق من ذنبها على حلقه من الحديد فوق العمود الأيمن في العقد العظيم الذي يجانب منزل التتر، وهي لا تزال واضحة".[٣] لم يكتف الخيال الشعبي في تحصينه للقلعة بطلسم العقرب فحسب، ولكنه حصنها بطلسمات أخرى؛:" كطلسم للثعابين، ولأم أربع وأربعين، وآخر للحمى والقولنج، وثالث للطاعون والكلاب المسعورة .. فالحمد لله ليست في هذه القلعة من حمى الربع، والحمى المحرقة، وإذا قدم مريض بالحمى من سائر البلاد، فأقام بهذه القلعة ثلاثة أيام، شفي منها بأمر الله؛ وذلك لأن العمود الذي بجانب باب وفيق محمد أغا الحلواني مكتوب عليه ثلاثة أسطر من الوقف هو طلسم الحمى!!..".[٤]

---

[١] –ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٤٧.

[٢] –الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. (تحقيق : بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس ١٨٩٥م)، ص ٢٧.

[٣] –أوليا چلبي:المصدر السابق ،ص٢٤٥.

[٤] –نفسه، ص ٢٤٦.

أما القصور فقد حفلت بها المدن المصرية حيث كانت من أبرز مكونات العاصمة المصرية منذ نعومة أظافرها، ولم تقتصر القصور والمساكن البديعة على القاهرة وحدها، بل شملت مدناً أخرى، كالإسكندرية التي عرفت بجمال واتساع مبانيها، وكما استأثر حكام مصر بتاريخ هذا البلد الأمين فإن قصورهم أيضاً، جذبت عيون وانتباه الرحالة والمؤرخين والأدباء، وفتحت لنا كتاباقم وأقلامهم أبواب ودهاليز وقاعات تلك القصور الشاهقة. لنرى فيها حدائق وعمد وزخارف وتماثيل وفرش وبسط، تعكس لنا ثراءها المعماري والزخرفي لدرجة أوحت للخيال الشعبي أن تلك القصور قد تحصنت بعدد لا بأس به من الطلاسم، والتي منحتها هذا القدر الكبير من الأبهة، والنظافة والرقي، جعلت من القصور وعاء الحياة الاجتماعية للطبقات الارستقراطية في مصر بما يتبع فيها من تقاليد.

ومن تلك القصور التي جذبت انتباه الأقلام التاريخية: قصر العزيز بالله الفاطمي، والذي بناه سنة (٣٨٤ هـ / ٩٩٤م) وقيل أن القرآن مكتوب على جدرانه، من خواصه أن لا يدخل النمل إليه لطلسم به، ولما ذكر هذا لصلاح الدين الأيوبي قال هذا يصلح أن يكون بيمارستان[١] لعلاج المرض في هذا المكان النظيف.[٢] وقد وصف ابن جبير هذا القصر بعد أن صار بيمارستاناً بقوله: "وما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان ـــ صلاح الدين ـــ المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً...".[٣]

وفي تلمسنا للجذور الأسطورية فيما يتعلق بالطلاسم الحافظة لعمران مصر فسنرى شواهد ودلائل تشير إلى استمرار وقع حوافرها على العقول كمارد جبار نتلمس خطاها في بعض أسوارنا وأبوابنا وقصورنا التاريخية حتى في العهد الإسلامي، حين نجد منقوشا عليه ذلك الرصد السحري لإرهاب العدو، ومنع دخوله، وما نزال إلى اليوم نجد بعض الناس يتحصنون ضد قوى الشر أو المرض بالحجابات والخرزة الزرقاء المثقوبة.

[١] ـــ البيمارستان أو المارستان وهى المستشفى ، وهى كلمة فارسية الأصل .

[٢] -المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٤٠٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٦٥.

[٣] -ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٥٢.

أما"عجائب مصر" فقد كان الاهتمام بـسـها قاسماً مشتركاً بين كتب الجغرافيين والمؤرخين والأدباء في العصور الإسلامية، حيث حرص المؤرخون العرب والمسلمون على إلزام أنفسهم بما توحي إليه مشاعرهم وأحلامهم بالتنقيب عن "العجائب" في أرض الفراعنة والرؤى والماضي العريق، حتى إذا ما رووا ظمأ نفوسهم وخلوا إلى أقلامهم جرت انطباعاتهم خببا على أفراس الرواية والوصف والملاحظة فتزيد الحكايات الشعبية ثراء.

وفي مقدمة عجائب مصر؛ الجبال: التي طالما كان لها سحرها، ورهبتها في النفوس على مر العصور، بما حظيت به من شهرة تاريخية ودينية أضفى عليها سحرا من الجلال، جعلها تتسم ببعد أسطوري ولتظهر لنا في كتابات المؤرخين المسلمين، مزجاً بين القياس على الأماكن المحسوسة المألوفة، وبين التصوير الذي اصطنعه الخيال الأسطوري، ومن هنا تأتي "عجائبيتها وغرابتها". مثل: جبل الطاهرة، وهو: "بأرض مصر وبهذا الجبل كنيسة، فيها حوض يجري فيه من الجبل ماء عذب، يجتمع في ذلك الحوض، فإذا امتلأ من جميع جوانبه ترده الناس، فإذا ورد الحوض جُنبٌ أو امرأة حائض، وقف الماء وانقطع جريانه، ولا يجري حتى يترح جميع ما فيه من الماء، ويغسل الحوض غسلاً بالغاً فيجري".[1]وجبل آخر نسجت حوله الأساطير وهو: "جبل طور سيناء"وهذا الجبل إذا كسرت حجارته يخرج من وسطها صورة شجرة العوسج على الدوام، وتعظم اليهود شجرة العوسج".[2]

أما جبل الطير فهو يسمى: "جبل بوقير وفيه طلسم الطير".[3]، وقد سُمي بذلك لأن صنفاً من الطير الأبيض يقال له البوقير يأتي : "فيعكف على هذا الجبل، وفيه كوة يأتي كل واحد من هذه الطيور ويدخل رأسه، ثم يخرجه ويلقي نفسه في النيل فيعوم".[4] "أو يقبض الثقب على طير منها فيبقى معلقا".[5] ويتحدث السيوطي في "كوكبه" بإسناد مبهم عن "جبال بفسطاط مصر" فيقول عنها: "معمول بها طلسم وكان التمساح لا يستطيع المرور حوله بل كان إذا بلغ حدوده انقلب

---

[1] – ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ١٦٠.

[2] –المصدر السابق، ص ١٦٠.

[3] –السيوطي: كتاب التحدث بنعمة الله (سلسلة الذخائر، العدد ١٠٦، القاهرة، ٢٠٠٣م)، صــ ١٢.

[4] –القزويني: عجائب المخلوقات، ص ١١٨؛ آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٧١.

[5] –الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤٣.

واستلقى على ظهره، فتعبث به الصبيان إلى أن يجاوز المدينة، ثم يعود فيستوي، ويرد إلى طباعه ثم أن هذا الطلسم كسر وبطل عمله".[١]

وأسهب المؤرخون وكتاب الفضائل الجغرافيون في وصف عجائب جبال مصر وما شاع عنها من حكايات خرافية ظلت تقوم بدورها في المعتقد الشعبي مثل جبل بمصر يشرف على النيل وهو: "جبل هامد يراه أهل تلك الجهة، من انتضى سيفه ثم أولجه فيه وقبض على مقبضه بيده جميعا، اضطرب السيف في يده، فارتعد ولا يقدر على إمساكه، ولو كان أشد الناس، وإذا أحد بحجارة هذا الجبل سكين أو سيف لا يؤثر فيه حديداً أبداً، وجذب الإبر والمسال أشد جذبا من المغناطيس، ولا يبطل الثوم عمله، كما يبطل المغناطيس، وحجر الجبل نفسه لايجذب الحديد، فإن حد عليه الحديد جذب ذلك الحديد وهذا من العجائب...".[٢]

جبالٌ أخرى تحدث عنها المؤرخون وعن خصائصها مثل أن: "بمصر جبل يُكتب بحجارته كما يكتب بالمداد، وجبل يؤخذ منه الحجر فيترك في الزيت، فيقد كما يقد السراج..".[٣]، ومن عجائب مصر أيضا: الجبال التي هي بصعيدها على نيلها وهي ثلاثة أجبل: منها جبل الكهف، ويقال (الكف)، ومنها الطيلمون، ومنها جبل زماجير الساحرة، يقال أنه فيه حلقة من الجبل ظاهرة، مشرقة على النيل، لا يصل إليها أحد، يلوح فيها خط مخلوق باسمك اللهم".[٤] كما أوجد الخيال الشعبي جبل يسمى "جبل الهرة" قبل الطوفان في مدينة أمسوس الأسطورية: "حيث لم يكن هناك شئ ظاهر سوى جبل الهرة الذي كان قد أقيم بإشارة من النبي إدريس عليه السلام تجاه النيل ليأووا إليه".[٥]

ولقد استثمر الوجدان الشعبي ملكة الابتكار، وأطلق لخياله العنان كي يبرز مدى التبجيل والتقديس الذي أحاط بجبل المقطم، وقد كان الدافع الروحي هو المحرك لخيال الضمير الشعبي الابتكاري فيما يخص المقطم إذ إن في سفحه عدداً لا بأس به من قبور الأولياء والصالحين والصحابة

---

[١] – السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٤٠، المقريزي: الخطط، ج١، ص ٦٧.

[٢] – ابن محشرة: الاستبصار، ص ٤٦، ص ٤٧، القزويني: عجائب المخلوقات، ص ١٧٢، المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص ٤٠٧

[٣] –السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٧٧.

[٤] – الخطط المقريزية، ج١، ص ٣١

[٥] –أولياجلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٣٥.

والتابعين، أضف لذلك شيوع العديد من الأخبار عن معجزات وكرامات تنسب إلى عدد من المدفونين بسفحه[١]، مما سمح للخيال أن يشكل تاريخ هذا الجبل كما يشاء له فيغير الحقائق، ويقيم بناءه الفني كما يحلو له، مبالغاً في محاولته الوصول إلى قلب المتلقي والتأثير فيه. خاصة وأن المقطم لم يكن مجرد جبل يلفه الصمت والمهابة، وإنما كان مسرحا للنشاط اليومي للناس بفضل قرافته التي كانت مكاناً للهو والترويح اعتاد الناس الخروج إليه لا سيما في الليالي المقمرة.[٢]

وفي أصله يقول (موفق الدين بن عثمان) : "هذا الجبل معروف بالمقطم، مأخوذ من القطم وهو القطع، وهو أنه لما كان منقطع الشجر والنبات سمي بذلك مقطماً، وقيل: إن المقطم بن بيصر بن مصر بن حام بن نوحعليه السلام كان عبداً صالحا، فتعبد في هذا الجبل، فسمي باسمه، وقيل: لم يكن في ولد نوح عليه السلام من اسمه "مقطم" والله أعلم".[٣]

وقد احتاج البحث عن أصل تسمية جبل المقطم بهذا الاسم، لدى المقريزي إلى جهد شيق وشاق معاً، لجأ في بحثه إلى أسلوب النسابة الذي اعتاد عليه المؤرخون في نسبة كل شئ في مصر إلى جد أعلى متكأ على الفكر الأسطوري كمرجعية فكرية.

وتحت باب "ذكر جبل المقطم".[٤]يعرض المقريزي أخبار الجبل الممتلئة بالعديد من السمات الأسطورية الموغلة في القدم والتي ربما كانت متداولة بين الناس ثم خلق الرواة منها، ومن التاريخ ما جمع شتاتها، وشكل بناءها، فاختلط الواقع بالخيال، وما غمض أو نقص في تاريخ الجبل أكملوه بخيالهم، ومن هنا وصل الواقع إلينا يحمل مبالغات تصل إلى حد الإغراب والدهشة، مما يحق لنا أن نطلق عليه الأخبار الأسطورية، فيعرض المقريزي للحدود المكانية للمقطم بقوله: "أوله من الشرق

---

[١] – قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي(الطبعة الأولى، دار عين، القاهرة ١٩٩٨م)، ص ٢١٤.

[٢] –المقريزي: الخطط، ج١، ص ٤٥٢، ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلي المغرب(تحقيق: زكي حسن ، سلسلة الذخائر، العدد ٨٩، القاهرة ٢٠٠٣م)، ص ١٠.

[٣] –ابن عفان (موفق الدين أبو محمد) (ت ٦١٥ هـ): مرشد الزوار إلى قبور الأبرار المسمى الدر المنظم في زيارة الجبل المقطم(تحقيق : محمد فتحي أبو بكر، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٥م)، ص ٥؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ص ١٠٩،١٠٨.

[٤] –المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٢٣: ص ١٢٤.

من الصين،... ويمر على بلاد "الططر".. ويتصل بجبل الجودي موقف سفينة نوح عليه السلام، في الطوفان، ولا يزال هذا الجبل مستمراً من أعمال آمد .. حتى يمر بثغور حلب، فيسمى هناك جبل للكام .. حتى ينتهي إلى بحر القلزم من جهة، ويتصل من الجهة الأخرى ويسمى المقطم، ثم يتشعب ويتصل أواخر شعبه بنهاية الغرب، ويمضي مغرباً إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر...".[1]

فحدود جبل المقطم في الرواية تتسم ببعد أسطوري واضح جعل من هذه الأبعاد الجغرافية تتسم بـ "اللامعقولية" وهي أحدى سمات الأسطورة، والتي امتدت آثارها على التأصيل للجبل عند المقريزي وغيره من المؤرخين فيقول بإسناد مبهم: "يقال: أنه عُرِفَ بمقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام". وقال إبراهيم بن وصيف شاه : وذكر مجئ مصرايم بن بيصر بن حام بن نوحعليه السلام إلى أرض مصر، وكشف أصحاب أقليمون الكاهن عن كنوز مصر .. فجعل مصرايم أمرها إلى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام الحكيم، فكان يعمل الكيمياء في الجبل الشرقي، فسمي به المقطم من أجل أن مقيطام الحكيم كان يعمل فيه الكيمياء، واختصر من اسمه، وبقي ما يدل عليه، فقيل له جبل المقطم، وقال القضاعي: ذكر أبو عبد الله اليمني أن هذا الجبل نسب إلى المقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، وكان عبداً صالحا، فانفرد بعبادة الله عز وجل فيه، فسمي الجبل باسمه، وليس هذا بصحيح، لأنه لا يعرف لمصر ولد اسمه المقطم "والذي ذكره العلماء: أن المقطم: مأخوذ من القطم؛ وهو القطع، فكأنه لما كان منقطع الشجر والنبات سمي مقطماً...".[2]ويعلق ابن الوردي أن جبل المقطم :"فيه كنوز عظيمة لمقطم الكاهن الذي نسب إليه هذا الجبل ولملوك مصر القديمة أيضاً فيه من الجواهر والذهب والفضة والأواني والآلات النفيسة والتماثيل الهائلة والتبر والأكسير وتراب الصنعة ما لايعلمه إلا الله تعالى ".[3]

ويبدو أن أسطورية جبل المقطم تأثرت بتلك المفاهيم التي سادت العالم حول أسطورية الجبال، وكذلك ربما تأثرت من معطيات عبادة العرب للأصنام التي كانوا يزعمون بشأنها:" أن الشياطين

---

[1] – المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٢٤؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٠؛ الحميري: الروض المعطـار في خبر الأقطار، ص ٥٥٧.

[2] –المصدر السابق، ص ١٢٤؛ ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ٣٢.

[3] – ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ،ص٣٣،٣٢.

تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات".[1] وإيمانهم بحلول هذه القوى الخفية في كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة، ولعل بعض الجبال كان لها النصيب الأوفر من ذلك، حتى غدت ذات أثر في حياة الإنسان، وحسبنا معرفة أن الجبال عدت من الأمكنة الأسطورية في ملحمة "جلجامش" كجبل "الأرز" بوصفه موطن الآلهة، وكان جلجامش وأنكيدو يقدمان له قربانا، طالبين أن يواتيهما الجبل بحلم مطمئن كما جاء في نص الملحمة :وأمام الإله شماس (أي الشمس) حفر بئراً..وصعد جلجامش إلى الجبل[2] ..وقدم وجهته إلى البئر ..وقال أيها الجبل أرسل حلماً.[3]

وحرص رواة أخبار جبل المقطم، على إثارة ملكه التخيل لدى المتلقي، واستمرارية عنصر التشويق لديهم في السرد، والوصف والحوار وتطور الأحداث، بأسماء رواة في نسق متسلسل لغرس الإيحاء بمصداقية ما يروى، إلباسه ثوب الحقيقة ــ على الرغم من اختلاقه، واتجاهه الأسطوري الواضح ــ فألصقوا بالأنبياء والصحابة أحاديث تحتاج إلى التيقن من صحتها، لتغير المخيلة الشعبية ما تراه من حقائق، وتقرأ تاريخ جبل المقطم كيفما تريد لا كما أراد الواقع ــ فتقول: "مثّل الله لآدم الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبلها أنهارها .. ورأى جبلاً من جبالها مكسوا نوراً لا يخلو من نظر الرب إليه بالرحمة، في سفحه أشجار مثمرة فروعها في الجنة، تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم.. وقال : يأيُّها الجبلُ المرحوم سفحك جنة، وتربتك مسك، يدفن فيها غراس الجنة، أرض حافظة، مطيعة رحيمة، لا خلتك يا مصر بركة.".[4] ونسب الرواة إلى عيسى عليه

---

[1] –أحمد النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي، ص ١٦٥؛ لطفي حسين سليم: الأسطورة والإسرائيليات (سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٥٢، القاهرة ٢٠٠٠م)، ص ١٣٤.

[2] – وتتضمن هذه الملحمة رحلتين، الأولى رحلة جلجامش مع أنكيدو إلى جبال الأرز وقتلهما إله الشرّ، ثمّ رحلة جلجامش وحده بعد موت صديقه أنكيدو إلى عالم الموتى وركوبه البحار والمحيطات وعودته بزهرة الخلود ثمّ نزوله إلى البئر والتهام الأفعى تلك الزهرة.وتمثّل الرحلة الأولى صراع الإنسان مع قوى الشرّ كما تمثّل الرحلة الثانية بحث الإنسان عن سرّ الحياة وصراعه مع الموت ذلك المجهول.لقد كانت رحلة جلجامش تعبيراً عن توق الإنسان إلى المعرفة وكشف المجهول ومحاولته معرفة سرّ الحياة والخلود. والقضاء على قوة الموت والفناء .

[3] –محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص ٩٠، ص ٩١.

[4] –السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٨؛المقريزي: الخطط، ج١، ص١٢٤؛بن الزيات: الكواكب السيارة، ص ١٢.

السلام قوله في إشارة لجبل المقطم ، "هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم"[١]، وبالجبل "قبور الأنبياء كيوسف ويعقوب والأسباط".[٢]

وتحت باب "في فضل المقطم ومساجده" ينقل لنا ابن الزيات في "كواكبه" رواية استخدم الضمير الشعبي فيها الأسلوب القصصي، القائم على تطور الحدث، وتفاصيله، معتمداً على الحوار بين الشخصيات، مستوحياً بنيتها من القصص الديني والإشارات القرآنية التي تناولت حادثة تكليم الله لموسى عليه السلام بصفة إجمالية بهدف العبرة، لا المتعة الفنية فقط، إضافة إلى الغاية لاستخلاص الحكمة والموعظة لتقوية الإيمان وتعميقه في قلوب المسلمين، ولكن الرواة تزيَّدوا، وأضافوا، ولجأوا إلى تفاصيل لم تشر إليها الآيات الكريمة فقال: "لما كانت الليلة التي كلم الله فيها موسى عليه السلام، أوحي إلى الجبال: أني مكلم نبياً من أنبيائي على جبل منكم، ... فأوحى الله تعالى إلى الجبال؛ أن يجود للطور كل جبل بشئ مما عليه، فحاد له كل جبل بشئ مما عليه، إلا المقطم، فإنه جاد له بجميع ما كان عليه من الشجر والنبات والمياه، فصار كما ترونه أقرع، قال: فلما علم الله تعالى ذلك منه أوحى إليه: لأعوضَّنك عما كان على ظهرك، لأجعلنَّ في سفحك غراس الجنة".[٣]

وتحدث المؤرخون عن استسرارية جبل المقطم ،وعرضوا لنا المعتقدات الشعبية التي دارت حوله واتسمت بالمبالغة، لدرجة تثير العجب والدهشة حول الجبل، وما نمقه الناس من روايات وخرافات، دون إبداء رأيهم الخاص إلا فيما ندر، وإنما كان الكثيرون يؤيدون ما ورد بشأن الجبل من أخبار وحكايات، انطلاقاً من خلفيتهم الثقافية والفكرية وموقعهم الزمني، مثل قول (ابن ظهيرة): "وفيه من الخاصية العجيبة التي لا توجد في غيره؛ وهي حفظ أجساد الموتى بحيث لا تكاد تُبْلى إلا بعد دهر طويل..".[٤]، فالميت هناك لا يُبلى، وبه موتى كثيرون بحالهم، ما بلي منهم شئ، وبه قبر روبيل بن يعقوب وقبر اليسع عليه السلام، وقبر عمران بن الحصين صاحب رسول الله

---

[١] -ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلي المغرب، ص ١٢؛ ابن زولاق: الفضائل الباهرة، ص ١٣؛ المقريزي: الخطط، ج١ ،ص ٢٧؛القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ،ص٣٧٥؛الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥٧.

[٢] -الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥٨؛القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ،ص٣٧٥ .

[٣] -ابن الزيات:الكواكب السيارة، ص ١٢؛ الكندي: فضائل مصر، ص ٦٤؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٢٥؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص ٣٥؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٠٨.

[٤] -ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٩١.

صلى الله عليه وسلم ...".[١]. وجنح الخيال الشعبي في قوله : "أن الذين يدفنون تحت جبل المقطم يدخلون الجنة بلا عذاب ولا حساب يوم البعث والنشر، وتدل على ذلك أحاديث الأنبياء؛ إدريس ودانيال وعزيز".،ثمة رواية أخرى تقول: "إلى اليوم إذا مرض أحد بمصر مرضاً شديداً، ونام سبعة أيام في ظل جبل المقطم شفي بإذن الله..." [٢].

ويحسب لابن حوقل، أنه نقد المعتقدات الخرافية التي استقرت في عصره، وشاعت حول جبل المقطم بقوله "وعلى رأس جبل المقطم في قُلّته مكان يعرف بتنور فرعون يسع خمس مائة كُرّ حنطة وهذا من نوع الخرافة، ويقال أن فرعون كان إذا خرج من أحد المتزهين أصعد في المكان الآخر من يعادله ليعاين شخصه بالوهم ولا تفقد هيئته".[٣]

ولأحجار الجبال أساطيرها الخاصة، وهي متعددة في كتابات المؤرخين، أشهرها حجر مطلسم بجامع مدينة سخا: "عليه طلسم بقلم الطير، إذا أخرج ذلك الحجر من الجامع، دخله العصافير، إذا دخل إليه خرجت العصافير..".[٤]، ومن الأحجار ذات الخصائص العجيبة، حجر على باب مدينة (أبسوج) به صورة فأرة: "الناس يأخذون طين النيل ويطبعونه على صورة الفأرة التي في الحجر ويحملونه إلى بيوتهم، فتهرب الفأر عن بيوتهم".[٥] وحكى المؤرخون عن أسطوانة حجرية توجد في مسجد ملحق بكنيسة على ساحل البحر الأحمر بمدينة القلزم: "يأخذ الرقاصون منها زنة الحبة ونحوها، ويحرز في جلد فلا يؤذيه دابة من دواب البحر، والرقاصون يراعون ذلك مراعاة شديدة ولا يشكون فيه ولا يخلون منه، ويزعمون أن القرش إذا قابل في البحر تلك الاسطوانة انقلب على ظهره وربما هلك فرماه في البحر ميتاً...".[٦] كما يوجد في مصر: "حجر يوضع على حرف التنور، فيساقط خبزه، وكان يوجد بصعيدها حجارة رخوة فتتقد كالمصابيح".[٧]

ثمة روايات عديدة دارت حول القوة السحرية لأحجار مصر منها حجر القئ "وهو حجر بأرض مصر، إذا أمسكه الإنسان غلب عليه الغثيان، حتى يلقى ما ببطنه، فإن لم يرمه هلك من

[١] –القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ٢٧٠.

[٢] –أولياجلبي: سياحتنامه مصر، ص ٦٦؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٠٩.

[٣] –ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٠؛ الإدريسي:نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص ٣٢٦.

[٤] –ابن الوردي، خريدة العجائب، ص ٣٦؛ القزويني: آثار البلاد، ج١، ص٢٠٢.

[٥] –القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ١٣٨.

[٦] –الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٤٦٦.

[٧] –المقريزي: الخطط، ج١، ص ٣٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٧٧.

القيء.."[1]، والأعجب ما تواتر في الكتابات التاريخية عن أسطورية أحجار في مصر تشبه: "الحصوات مثل الخرز الأبلق، في صحراء سبيل علام الفسيحة الأرجاء، هذه إذا حملت امرأة الواحدة منها أثناء الوقاع، لا تحمل قط،.."،"تجعلها المرأة على حقوها فلا تحبل"[2]، وتحدث المقريزي عن :"الحجر المعروف بحجر الخل، يطفو على الخل ويسبح فيه كأنه سمكة".[3] ويشير (الزهري) إلى أنه يوجد: "في الجبال التي على أسوان أحجار من الزمرد الغالي، وهو أغلى الزمرد، وأطيبه، وقد أجمعت الفلاسفة على أن من لبس منها حجراً أمن من اللسع والصرع واختبال العقل...".[4]

إذن؛ حضور العجائبي في الكتابات التاريخية ليس حضوراً استثنائياً، وإنما هو عنصر عضوي في نسيج السرد التاريخي، على جانب آخر نجد أن أحدى دعامات العجائبي ــ فيما يتعلق بمصر ــ وجود فكرة المسخ[5] التي تطال الإنسان أو الطبيعة بقصد تبيان التغير الذي يدهش ويحيّر من حاله لأخرى، وذلك من أجل هدف معين هو استدعاء مسوخ وقعت في الماضي، وما زالت رؤيتها واستحضارها يؤديان نفس الهدف ــ العبرة الذي وجدت له أول مرة ــ فالمقريزي يكتب تحت باب: "ذكر هلاك أموال أهل مصر" أنه رأى مجموعة من الحجارة على صورة الآدميين في أحدى مدن مصر، أكثر أهلها من الفراعنة الفساد فمسخوا حجارة فيقول: "صارت أموال أهل مصر ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأثلاثا وأنصافا، فلم يبق مدن إلا طمس الله عليه.. ولقد رأيت أناساً كثيراً قياما وقعوداً في أعمالهم لو رأيتهم ما شككت فيهم قبل أن تدنو منهم أنهم أناس وأنهم حجارة.. وقال محمد بن كعب وكان الرجل منهم يكون مع أهله وفراشه وقد صارا

---

[1] -القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات(تحقيق: محمد القاضي، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٦م)، ص ١٤٧ ، ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ١٦٤.

[2] – المقريزي : الخطط ج١، ص٣٢ ؛ أولياجلبي: سياحتنامه مصر، ص٦١٢.

[3] – نفسه، ص ٣٦.

[4] -الزهري: كتاب الجعرافية، ص ٤٤.

[5] ــ تُعرف فكرة المسخ :بأنها التغيرات التي تطرأ على طبيعة المخلوقات ، مما ينتج عنه تحول في هيئة المخلوق من إنسان إلى حيوان ، أو إلى مخلوق يجمع بين الهيئتين الإنسانية والحيوانية ، أو التحول إلى طير ، أو إلى غير ذلك من الهيئات وفقاً للظروف المحيطة بالعمل أو النص الأسطوري وبحسب طبيعة العوامل التي أدت إلى وقوع المسخ ، كالانتقام أو غيره من الأسباب . محمد خليفة حسن:الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم ، ص ١٣٦.

حجرين ...".[١]، والهروي يأتي بخبر ذلك فيقول: "في جبال مصر والصعيد حجارة كأنها الدنانير المصرية المضروبة والرباعيات وعليها شبه السكة، وحجارة كأنها العدس ما لا حد عليه يزعمون أنها أموال فرعون وقومه مسخت."[٢]، وأرجع الخيال الشعبي هذا المسخ الذي حدث لأموال وكنوز مصر إلى دعوه النبي موسى عليه السلام على أهل مصر: " قال موسى:﴿ ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينه وأموالا في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم﴾ [يونس / ٨٧]، ولهذا صارت أموال أهل مصر ودراهمهم حجارة .. وقيل أن بالوجه القبلي.. مقاتات كثيرة ما بين بطيخ وقثاء وتفاح وكلها حجارة، وكان قد أخبرني قديما بعض الأعيان أنه شاهد في سفره إلى البلاد من أرض مصر بطيخاً كثيراً كله حجارة وكذلك البطيخ من الصنف الذي يقال له العبدلي".[٣]

ولعل تلك الفكرة التي تسربت إلى الكتابات التاريخية عن مصر تعتبر من أبرز الأفكار الأسطورية الشائعة في مثيولوجيات الشرق الأدنى القديم، وتلك الفكرة تقوم أساساً على انسلاخ كائن أو شئ ما من طبيعته والتحول إلى طبيعة أخرى مغايرة، هذا التحول قد يكون تحولا كاملا لكائن إلى كائن آخر، أو تحولاً جزئياً يمزج بين طبيعتين مختلفتين تبرزان في ذلك الشيء، أو الكائن الجديد المخلق من عملية المسخ، أما أسباب ذلك المسخ فكان في الغالب ـــ يرجع إلى غضبة الرب على الشئ الممسوخ.[٤]، ومن هنا فتنوع المسوخ كما وردت في الكتابات التاريخية غذت العجائبي في مصر بدم جديد، وملأت شجرة الغيبي وفوق الطبيعي بعناصر غريبة تُحيّر وتُقلق أحياناً.

تخطى البُعد العجائبي لمصر في مخيلة المؤرخين ليصل إلى عالم النباتات العجيبة والأشجار الغريبة الأطوار. ذات القوى السحرية والتي تعتبر من أبرز الأفكار التي انتشرت في العديد من الحكايات الشعبية وغيرها من أنواع القصص الشعبي، التي جمعها لنا المؤرخون عن أشجار مصر التي تحتوي على قدرات غرائبية كالشجرة "التي تعرف بأهليجة في جامع محمود بسطح الجبل المقطم، تقبل

---

[١] -المقريزي: المصدر السابق، ج١، ص ٤٢.

[٢] -الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٤٣؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٤٠٨.

[٣] -المقريزي: المصدر السابق، ص ٤٢.

[٤] -مجدي محمد: القص بن الحقيقة والخيال (الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص ١٨٢؛ كارم محمود: الأسطورة، ص ٤١٤.

النذور من النساء، من يأخذ منها سبع ورقات، وينذر لها يفعل ذلك من الناس من تريد الزواج".[١] ويطال استحضار العجائبي في الأشجار ما يعرف منها بشجرة العباس وهي "شجرة إذا وضع أحد يديه عليها أو قال ياشجرةَ العباسِ جاءك الناس، تجمع أوراقها وتشرع في الذبول، إذا قال لها : عفونا عنك ترجع إلى ما كانت عليه من الحسن والنضارة ، وهذه الشجرة تشبه شجرة السنط".[٢]وأشار المنوفي إلي:"شجرة بمصر لها أغصان من حديد بخطاطيف إذا قرب منها الظالم خطفته وتعلقت به فلا تفارقه حتى يقر بظلمه ".[٣] .

فالانتقال المتخيّل الذي قام به الضمير الشعبي إلى عالم الأشجار العجائبي بعيداً عن عالمه الواقعي، ربما ليطرح في هذا العالم رؤاه وآلامه وأحلامه التي لم تتحقّق في دنيا الواقع. خرج الضمير الشعبي بتطلعاته الخياليّة بعيداً عن أرضه بحثاً عن الحياة المثالية التي يئس من وجودها عليها، فبرزت لديه الدعوة إلى القيم المثالية التي يمكنه تحقيق الخلاص للبشر مما ألّم بهم من مفاسد وظلم. و لا يزال الوجدان الشعبي واحداً من أهم الأصوات الداعية للقيم الإنسانية الفاضلة فهو سبيل الرقي وسلم المعالي.

العالم العجائبي المرتبط بعنصر الأشجار. ارتبط كذلك (بالاختفاء) بصفته عنصراً يؤجج العجائبي ويعمق مساربه خالقاً نفقاً أخر في جسم الكتابات التاريخية المتعلقة بمصر فيتحدث القزويني عن: "..شجرة تسمى باليونانية موقيقوس، تراها بالليل ذات شعاع متوهج يغتر برؤيتها كثير من الناس، يحسبها نار الرعاة فإذا قصدها، كلما زاد قربا زادت خفاء، حتى إذا وصل إليها انقطع ضوؤها..".[٤] ويوظف الخيال الشعبي الشخصيات التاريخية الحقيقية ليضفي المصداقية على عجائب الأشجار في مصر إذ يذكر المقريزي :" حك عن رجل أنه أتى عبد العزيزبن مروان وهو أمير مصر فعرّفه أنه تاه في صحراء الشرق فوقع على مدينة خراب فيها شجرة تحمل كل صنف من الفاكهة وأنه أكل منها وتزود ، فقال له رجل من القبط :هذه إحدى مدينتي هرمس ،وفيها كنوز كثيرة

[١] –التلمساني: سكردان السلطان، ص ٤٥٦.

[٢] –ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٣٢؛ ابن الزيات: الكواكب السيارة، ص ١٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ١٧٩؛ المقريزي ، الخطط،ج١،ص٣٢.

[٣] – الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ،ص ٧.

[٤] –القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٦٦.

فوجه عبد العزيز معه جماعة معهم ماء وزاد فأقاموا يطوفون تلك الصحارى شهراً فلم يقفوا لها على أثر ".[1] ويتمثل العجيب عند ابن إياس بين النبات العادي المتصل بالطبيعة والمألوف، وبين الخارق المتجاوز للحدود والمواصفات المعلومة، وذلك من أجل بناء عجائبيته وإضفاء طابع المبالغة عليها، من زاوية الضخامة والقدرة على الإدهاش؛ فهو يورد حكاية تقول: "كان في زمن مصرام الذي سميت مصر به، إذا زرعت أرضها وشملها ماء النيل، تصير حبة القمح قدر كليّة البقر، وكان طول القثاء أربعة عشر شبراً كل واحدة، وكان طول البلحة شبراً ووزنها نحو عشرين درهما، وكان طول الظرف ثلاثين شبراً وكان العرجون الموز يطرح ثلاثمائة موزة، وكل موزة منها رطلاً، وكان العنقود العنب إذا قطف من البستان يحمل على بعير من كبره، وكانت الأترجة تشق نصفين من عظم خلقتها، ويحمل كل نصف منها على بعير، وكانت الكمثرى زنة واحدة سبعمائة درهم، وكانت الرمانة الواحدة إذا قشرت يقعد في قشرها ثلاثة نفر من كبرها، وكانت البطيخة الواحدة ثمانين رطلاً، وعلى هذا فقس بقية الأصناف من الفواكه والحبوب وغير ذلك، وكان ذلك بدعوة نوح عليه السلام حين دعا لمصر بالبركة والخصب...".[2]

الرواية هنا تعتمد في عجائبيتها على السند التاريخي والديني كأساس لبناء مسارها وترسيم خطابها، والتضخيم هنا عنصر يولد عناصر أخرى يحركها، كما في قصة البطيخ التي رآها القزويني وتحدث عنها فيقول : "وبمصر نوع من البطيخ الهندي تحمل اثنتان منه على جمل قوي وهي حلوة طيبة...".[3] وكذلك كان العجائبي عند (أولياچلبي) فيما يتعلق بنباتات مصر في سياق حديثه عن (الشمام) الـ "عبد اللاوي" فيقول:"هو على شكل ثعبان، فإذا المرء يفر منه، فقد ورد في كتب الطب أنه خلق بمعجزة محمد صلى الله عليه وسلم.. وقد أتى جماعة من كفار قريش وقدموا هدية للرسول صلى الله عليه وسلم بها عقارب، أتوا بها من مصر.على أمل أن تقضي على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم حين يفتحها.. فسألهم الرسول صلى الله عليه وسلم عنها فقالوا أنها شمامة من صنف جديد مجهول الاسم فقال الرسول صلى الله عليه وسلم فليكن اسم هذا المخلوق "عبد اللاوي" وكان الرسولصلى الله عليه وسلم يحب الشمام، ثم قال: بسم الله ورفع الغطاء في حضور

---

[1] – المقريزي: الخطط ،ج١ ،ص٣٤.

[2] –ابن إياس: بدائع الزهور،ج١، ص ٤.

[3] –القزويني: آثار البلاد، ج١، ص ٢٦٦.

جماعة كبيرة من القريشيين فإذا بالعقارب قد استحالت شماماً من نوع العبد اللاوي الذي يزرع بمصر اليوم .. هذا هو السر في أن هذه الفاكهة تشبه الثعابين والعقارب وهي خاصة بمصر ولا توجد في غيرها".[١]

وحرصت الحكايات الشعبية المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين على تضمين نصوصها حيوانات من نوع الكائنات ناقصي الخلقة؛ لتخرجهم من دائرة المألوف ويأتي ذلك في إطار حرص الخيال الشعبي على تأكيد قيمة معينة أو رمزية خاصة. فيلجأ إلى تصوير ذلك الشخص أو الكائن في إطار المبالغة والتضخيم، ويتمظهر ذلك عند "أولياچلبي" في إطار حديثه عن حيوانات مصر، والذي كان بدوره يعكس بدقة وإخلاص العصر والوسط اللذين عاش فيهما، وذلك على ضوء الظروف الحضارية والفكرية السائدة آنذاك، فيتحدث عن فئران مصر بقوله:"فهذه حيوانات تنشأ من الأرض بأمر الله وحكمته؛ حيث يتكوم التراب على وجه الأرض فيستدل به الصيادون على وجودها، ويعمدون إلى حفر تلك الأكوام ونبشها، ويخرجونها منها، وقد ترى بعضها تامة الخلقة كاملة، والبعض الآخر ناقصة أعنى أن الواحدة منها؛ نصفها فأر حتى وسطها ونصفها الثاني لا يزال تراباً، وهذه حكمة .الغة من حكم الله القدير. إذ ترى الدم لا يزال ممزوجاً بالتراب الذي تشكل بهيئته الفأر ولم يتحول بعد إلى اللحم. حتى ينفخ فيه الروح، ومثل هذه الفئران الناقصة التكوين والخلقة إذا خرجت من الأرض تموت حالاً من أثر الهواء والجو لعدم اكتمال خلقها...".[٢]

وحاول الرحالة أولياچلبي أن يلح على تأكيد هذا الخبر متوهماً أن العلم والفهم ينفيان الارتياب فيه بل فيهما الدليل على تصديقه مدعما كلامه بالسند الديني بقوله: "ولكن المعتزلي الذي يقصر عقله عن إدراك صنع الله البديع، ينكر هذا الذي ذكرناه ويستبعد وقوعه، بيد أن كاتب هذه السطور قد شاهد هذا بعينه، إذا أعطى العربان الذين أخرجوها بضع بارات(عملة) ليحضروا له شيئا منها، كي يشاهدها بنفسه عن قرب فكانت الواحدة منها؛ نصفها ذا روح ودم، ونصفها الآخر لا يزال طيناً وتراباً، وليس به روح ولا دم أليس الدليل الكافي والبرهان الظاهر على هذه

---

[١] -أولياجلبي: سياحتنا مه مصر، ص ٦٣٤؛ البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٧٧.

[٢] -أولياجلبي: سياحتنامه مصر، ص ٦١٢.

العجيبة خلق بني آدم من الطين والعدم كما في الآية الكريمة: ﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما...﴾.[١]

ويبدو أن الكاتب هنا قد وقع ضحية روايات شعبية، أعتاد المصريون على اختلاقها للسائحين في بلادهم، بهدف التربح منها. وما قصه دفع الكاتب لبضع بارات لهم ليحضروا له شيئا من تلك الفئران غير مكتملة النمو سوى أنه تعامل مع بعض أهل القاهرة:"البارعون في الاحتيال، والغش خاصة مع الغرباء الذين لا يعرفون عملتهم ولا يعرفون أساليبُهم في البيع والشراء .. فهم ــ أي المصريون ــ مولعون بغش الغرباء وخداعهم..".[٢] وبالتالي كان من الطبيعي أن يكون مصير الفأر الذي أحضروه (للخواجة أوليانچلبي) هو الموت. وإلا كان مصيرهم أن تنكشف خدعتهم له، وتبور بضاعتهم من الحكايات والخرافات التي روجوها للتكسب من بيع الوهم والخرافة لمن أراد.

وإن كنا نلمح أثراً لذلك عند "القزويني" في إطار حديثه عن فئران مصر بـقوله: " ومن عجائب مصر عين ينبع الماء منها ويتقاطر على الطين فيصير ذلك الطين فأراً ؛ قال صاحب تحفة الغرائب : حكى لي رجل أنّه رأى من ذلك الطين قطعة انقلبت بعضها فأراً والبعض الآخر طين بعد"."رأيت من ذلك الطين قطعة نصها فأر، والباقي طين"[٣] .

ويبدو أن التفكير في خواص الحيوان قد شغل أذهان المؤرخين في العصور الإسلامية وأن النظرة العجائبية لم ترتبط بجمادات الأرض وحسب وإنما تجاوزها إلى الحيوان نتلمس ذلك عند (الزهري) في سياق حديثه عن أبقار مصر بقوله: "وهي دواب لهم وعليها يتصرفون ،ومن عجائب هذا البقر من دخل منه شئ في بيت من البيوت فر منه الذباب، ومن عجائبها أنها من حيوان البر وتدخل في الماء وتلبث فيه اليومين والستة أيام وتخرج ...".[٤]ويشير المقريزي إلي بقرة عجيبة في مصر القديمة يقول عنها : " بها بقرة لها ضرعان كبيران إذا انعقد لبن امرأة أتتها ومسحتها بيديها فإنه يدر لبنها "[٥]

---

[١] –نفسه، ص ٦١٣؛انظر/القزويني: آثار البلاد، ج١، ص ٢٧١.

[٢] –چوزيف بتس: رحلة الحاج يوسف إلى مصر، ص ٣٨.

[٣] – القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ،ص١٧٤؛آثار البلاد وأخبـار العبـاد، ص٢٧٠–٢٧١.

[٤] –الزهري: كتاب الجُغْرافية ، ص ٤٦.

[٥] – المقريزي : الخطط ، ج١،ص٣٣.

بيد أن هذه الحكايات، وغيرها من الحكايات التي دارت عن عجائب أرض مصر تشي بمدى سلطان مصر على قلوب الرواة، خاصة مع تعدد صيغ تقديم هذه العجائب بشكل يوازي غناها، وإن كان (الراوي / المؤرخ) هو المحور والرؤية التي ترى أو تنقل، ذلك أن العجائبي يرد من طرف (الراوي / المؤرخ) بصفته مشاركا فاعلاً أو وسيطاً، وفاعلاً أو بصفته شاهدا مستمعا أحياناً، ويجئ هذا الغنى من انفتاح العجائبي على السجلات الشعبية، والمتخيل بكافة مراجعه التاريخية والدينية والثقافية، حيث ارتباطات العجائبي كثيرة، خاصة في مصر، ويمكن الجزم بخصوص الكتابات التاريخية المتعلقة بمصر وفضائلها أنها تجميع لعجائب وغرائب مصر، اتساعاً وعمراناً وتاريخا، لاعتبارات يلتقطها (الراوي / المؤرخ) أو ينسجها؛ فهي شئ — ربما — غير مألوف يوضع دائما في المقارنة مع المألوف، فلا غرو إذن أن يبدأ العديد من المؤرخين حديثهم من عجائب مصر بقولهم: عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة: عشرة منها بسائر البلاد والعشرون الباقية بمصر...".[1]

وكان للعيون المائية والآبار في مصر سحرها وعجائبيتها بل ورهبتها في النفوس على مر العصور، وقد حظيت بعض الآبار شهرة تاريخية ودينية (كبئر المطرية) الذي اعتقد الناس في قدسيته والتي اكتسبها : "لأن المسيح عليه السلام اغتسل فيها".[2]، وهي: "عذبة وفيها أنواع دهنية لطيفة وليس في جميع الدنيا موضع ينبت شجر البيلسان، وينجع دهنه إلا هناك".[3]، وإذا حاولنا الوصول إلى الجذور الأسطورية لبئر المطرية وما به من مياه، فسنرى شواهده ودلائل تشير إلى أي حد يقدسه شريحة كبيرة من الناس أشاعوا حوله أنه: "يدخله المرضى ويرتادونه، للاستشفاء فينالون ما يبتغون وقد ورد في جميع التواريخ، ولا سيما تواريخ اليونان، أن سيدنا عيسىعليه السلام هاجر مع أمه مريم من مدينة نابلس إلى هذه البقعة، وسكن بها، وتزعم النصارى أن بئر المطرية هذه قد حضرها سيدنا عيسى وأمه اغتسلا بمائها، كما أن الحوض الراهن من آثارهما".. ومن خاصية هذا الماء أن المرء إذا تجرع السم ثم تناول منه قيراطاً، واحدا فإنه ينجو من فعل ذلك السم وأثره الفتاك، كما أن العقرب أو الثعبان أو أية دابة سامة إذا لسعت الإنسان ولدغته فإن وضع شئ من البيلسان في مكان اللدغ أو أكل الملدوغ شيئا منه فلا شك أنه ينجو من فعل السم وأثره وخواص

[1] –السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٦٥؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ٣٠.

[2] –القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص ٢٧١؛ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٦٦.

[3] –نفسه، ص ٢٧٢؛ القزويني: عجائب المخلوقات، ص ١٨٠؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ١٥٠.

هذا البئر معتبرة ومشهورة بين الناس ولا سيما بين قرى النصارى، إذ يعتقد النصراني أنه إذا لم يأكل البيلسان ولم يدهن به ولو مرة في العمر لا يكون نصرانياً صحيحا".[١] ولا يمكن أن نخطئ الروابط بين هذا الحطام الرمزي في المعتقدات الشعبية وبين ما شاع بين الناس عن وجود نبات سحري مجدد للشباب وتجديد للحياة، والذي يساعد على تأجيل وقوع الموت للإنسان ، أو للبطل في الملاحم والحكايات والقصص الشعبي ، وقد أتت فكرة نبات الشفاء تحولاً عن فكرة أسطورية أقدم ، وهي فكرة نبات الحياة أو الخلود أو تجديد الشباب ، وهو ما نلمحه في بعض نصوص التوراة وبعض الملاحم الشعبية التي تضمنت أفكاراً أقدم ترتبط بالعبادات الطوطمية [٢]

ويعرج بنا الزهري إلى الحديث عن أحد الآبار العجائبية الموجودة بمصر والتي تسمى (البئر المعطلة) :"ومن عجائب هذه البئر إذا وصل إليها أحد من البعد رأى ماءها قد خرج ،وفاض على فم البئر نحو عشرين زراعاً من كل ناحية ، فإذا قرب من البئر بنحو عشرين ذراعاً انقبض الماء حتى يصير إلى فم البئر فإذا بلغ الماشي إليها هبط الماء فإن أدلى فيها دلواً هبط الماء إلى قعر البئر ، ولو كان الحبل ألفي ذراع لم يبلغ إلى الماء ، وكلما طلع الدلو طلع الماء حتى يصل الدلو إلى فم البئر ، وكلما تباعد خرج الماء على أثره حتى يصير إلى حده الأول ، فإن كان الرجل راكباً على حصان من عتاق الخيل وهم ليسرع إلى الماء انقبض الماء في أسرع من لمح البصر لأن الله تعالى ذكرها بالعطلة في كتابه العزيز فقال جل وتعالى :﴿ وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ وإذا زال الرجل عن فم البئر طلع الماء بقدر العشرين ذراعاً، وهذه البئر إحدى عجائب الأرض "[٣].

ويتحدث ابن الوردي عن بئر تسمى "بئر المعظمة" وهي تسمى بئر العظائم، وهي بالقاهرة، عند الركن المخلق، يقال أنها من آبار موسى عليه السلام، وحكى أنه طاسه لفقير وقعت في بئر زمزم وعليها منقوش اسم ذلك الفقير، فرجع الفقير مع الركب المصري إلى القاهرة، فجاء إلى البئر المعظمة ليتوضأ منها للتبرك، فطلعت الطاسة بعينها في المستقى، وشهد له جماعة من الحجاج أنهم

---

[١] – المقريزي : الخطط ج١، ص٣٢ ؛ أوليا جلبي: سياحتنامه مصر، ص ٦٠١-٦٠٢.

[٢] ـــ راجع سفر التكوين ـ الإصحاح الثاني والثالث؛ محمد خليفة حسن: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، ص١٣٨ ؛ كارم محمود عزيز: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص٤٢١

[٣] – الزهري :كتاب الجعرافية ، ص٤٠.

شاهدوا وقوعها في بئر زمزم".[١] وهكذا حاول الخيال الشعبي أن يجعل له نصيبا في معجزات (بئر زمزم) وقدسيته في محاولة لإثبات أن مياه بئر زمزم المباركة متصلة بآبار مصر، ولم يكن ينقصه سوى الشهود على ذلك فلم يجد سوى الفقراء ليكونوا أداته في تلك الخرافة، لأنهم هم الشريحة المعنية الأولى بها.

ويشير القزويني إلى:"حوض لعين ماء منقور في حجر عظيم يسيل الماء إلى الحوض من تلك العين بجنب كنيسة، فإذا مس ذلك الماء جنب أو حائض انقطع الماء السائل من ساعته، وينتن الماء الذي في الحوض، فيعرف الناس سببه، فيترفون الماء الذي في الحوض وينظفونه، فيعود إليه الماء على حالته الأولى وهذا الحوض يسمى الطاهر".[٢] ويقول (الزهري) عن أحد آبار مدينة (قوص) : "بها بئر تسمى بئر الجيش، وماء هذه البئر من أعجب المياه وذلك أنه إذا شرب منه الشارب سال على فخذيه في الحين".[٣]

وتحدث المقريزي عن حوض ماء بمصر : " من صوّان أسود مملوء ماء لا ينقص طول الدهر ، ولا يتغير ماؤه ، وعمل ذلك لبعدهم عن النيل ، وذكر بعض كهنة القبط أن ذلك الماء ثم لقربه من البحر الملح فإن الشمس ترفع بحرّها بخار البحر فينحصر من ذلك البخار جزأ بالهندسة أو بالسحر، وتجعله ينحط ذلك الموضع بالجوهر مثل الظل وتمده بالهواء فلا ينقص بذلك ماؤه على الدهر ولو شرب منه العالم".[٤]

وتحت باب "في وصف الأعين والمنابع وذكر بقاعها العجيبة وخواصها وما فيها من العجائب"، يسرد لنا "الدمشقي" ما شاع حول عجائب مياه وادي النطرون حيث يقول: "أن بركة نطرون بمصر ما ألقى فيها شئ إلا صار نطروناً حتى العظام والحجارة تصير نطروناً".[٥]

إن موارد المياه عند الإنسان الديني مكان مقدس، فالمكان في مفهومه غير متجانس دنيوي وديني. وإن شعائر دينية معينة تستمر في الحياة ، وتقع موارد المياه من ضمنها ، تحافظ على قدسية هذه الموارد ، كنبع زمزم ، وأفضل هدية مباركة يحملها الحاج شيء من ماء هذا النبع ، والسبلان

---

[١] – ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ١٥٠.

[٢] –القزويني: آثار البلاد، ج٢، ص ٢٧١.

[٣] –الزهري: كتاب الجعرافية، ص ٤٤؛ الحميري : الروض المعطار، ص ٥٥٧.

[٤] – المقريزي : الخطط ج١، ص٣٢.

[٥] –الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ١١٦.

في المساجد ، وحتى القساطل والأواني تنسج حولها الخرافات إذ يتحدث المقريزي عن آنية بمصر : " إذا جُعِلَ فيها الماء صار خمراً في لونه ورائحته وفعله ، وقد وجد من هذه الآنية بأطفيح في إمارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، شربة جزع بعروة زرقاء ببياض ، وكان الذي وجدها أبو الحسن الصائغ الخراساني ، هو ونفر معه ، فأكلوا على شاطئ النيل وشربوا بها الماء فوجدوه خمراً سكروا منه وقاموا ليرقصوا فوقعت الشربة فانكسرت عدة قطع ، فاغتم الرجل وجاء بها إلى هارون ، فأسف عليها وقال لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكي ".[1] ويعلق المقريزي على ذلك بعبارة تكشف مدى الارتباك الناجم عن وصول إشارات من تاريخ البطالمة في ثنايا الرواية الأخيرة فهو يذكر :"وأما الآنية النحاسية التي تجعل الماء خمراً فإنها منسوبة إلى قلوبطرة [كليوباترا] بنت بطلميوس ملكة الإسكندرية "[2] لنجد اختلاطاً بين العناصر الأسطورية والعناصر التاريخية بشكل مثير .وإن كانت تتحدث دائماً عن أعمال السحر والعجائب التي كانت تلازم ملوك مصر القديمة ، والتي من شأنها أيضاً أن تعكس قدراً كبيراً من الانبهار والإعجاب الممزوجين بالنقص الفادح في المعلومات التاريخية .

وكان سحر مصر يكمن في أمور أخرى عند بعض المؤرخين والكتاب، وأن لم تكن مصر جذابة في حد ذاتها، فجاذبيتها بالنسبة لهم كانت تنبع من ارتباطها بأشياء أخرى؛ فمثلا اهتم التلمساني (المتوفي سنة ٧٧٦ هـ) بعجائب مصر من منظور آخر في كتابه "سكردان السلطان".[3]، وهو كتاب أدبي تاريخي، يشتمل على أنواع الجد والهزل، ألفه للسلطان الملك الناصر بن أبي المحاسن في سنة ٧٥٧ هـ. في خواص السبعة التي هي أشرف الأعداد طبع وحاول أن يشعرنا فيه بأن هناك رابطاً سحريا غامضاً بين عجائب أرض مصر وبين العدد سبعة حتى أنه خصص باباً كاملاً في هذا الشأن تحت عنوان: "في ذكر نبذة مما وقع في إقليم مصر من هذا العدد على طريق الإجمال".[4]ومن أطرف الحكايات التي تنسب إلى قدماء المصريين قدرات خارقة مرتبطة بأسرار العدد سبعة؛ أن أحد ملوك مصر القدامى: "عمل مرآة من المعادن السبعة[5]، فينظر فيها إلى الأقاليم السبعة، فيعرف ما

---

[1] ـ المقريزي : الخطط ، ج١ ، ص٣٤.

[2] – نفسه ،ج١،ص٣٥.

[3] –السكردان في الأصل: خوان يوضع فيه الشراب.

[4] –التلمساني: سكردان السلطان، ص ٣٥١.

٥ – كان المصريون أول الكيميائيين، وفي عملياتهم التحويلية اشتغلوا بالمعادن السبعة: الذهب، الفضة، الزئبق، النحاس، والحديد، الزنك، الرصاص، ويتحكم في كل منها الكواكب السبعة على التوالي التي كانت تُعبَد : الشمس والقمر، عطارد، الزهرة، المريخ والمشتري، وزحل. للمزيد انظر : آنا رويز: روح مصر القديمة، ص ١٨٤.

أخصب منها وما أجدب، وما حدث فيها من الحوادث، عمل في وسط المدينة صورة امرأة جالسة في حجرها صبي كأنها ترضعه، فأي امرأة أصابها وجع في جسمها مسحت ذلك الموضع من جسد تلك المرأة فتبرأ من ساعتها، وهذا من العجائب".[1]

فأسطورية الرقم (سبعة) وظهوراته ــ في الكتابات التاريخية المتعلقة بمصر يكاد لا ينتهي، إذ أنها رمزية تندرج في نطاق الرمزية (الكوزمولوجية) ظلت محافظة على قدسيتها واستسراريتها عبر العصور، ولدى أغلب الشعوب، رغم تغير المعتقدات والأديان، شأنها كشأن المكان المقدس الذي يكون معبداً وثنيا ثم يصير كنيسة فجامعاً فمدرسة دينية، فقد مثل الرقم (سبعة) دائماً رقما ملغزاً، سحرياً، يجسد المعرفة المكثفة، والتنوير، والروحانية، وفي مصر يبرز الرقم (سبعة) دائما فيما يتعلق بالعجائب والأساطير، والمعبودات، والفراعنة، والكيانات الروحية، والفلك.[2] كما كان لأرقام معينة في مثيولوجيات الشرق الأدنى القديم "قيَمُ سحرية" اعتبرت بالغة الفعالية إلا أن الأعداد عند اليهود ــ الذين لم يعرفوا الأرقام ــ أصبحت حواذاً غلاباً افترش صفحات (العهد القديم) كله وسرى في أوصال الديانة اليهودية وربما انتقل هذا التأثير إلى كتابات المؤرخين الذين لم يجدوا بين أيديهم تفاصيل يشرحون بها الكثير مما ورد في القرآن الكريم من أخبار مصر القديمة، فالتمسوا المادة فيما وصل إليهم من تفاصيل ما روي من هذه الأحداث في الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى.[3] والقصص التي تدور حول هذا الموضوع كثيرة ومتناثرة في بطون الكتب التاريخية، ولكنها تشترك جميعاً في صفة واحدة هي المبالغة التي تعكس الانبهار بمصر؛ الإنسان، والأرض، والحضارة. والتي تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلى أعمال السحر والخوارق في خروج من دائرة ما هو مألوف إلى انفتاح على اللامألوف وتجلياته، مما يعطي القناعة بأن العجيب متجذر في الكتابة التاريخية المتعلقة بمصر تجذراً، يجعل منه سمة بارزة وشكلاً يحضر مرة بهذه الصفة، ومرة أخرى يحضر باعتباره عنصراً تحفيزياً تاريخياً حقيقياً وفاعلاً في الواقع والوقائع.

---

[1] –التلمساني: المصدر السابق، ص ٤٣٣؛ المقريزي ، الخطط ، ج١ ،ص٣٣.

[2] –آنا رويز: روح مصر القديمة، ص ١٨٤.

[3] –شفيق مقار: السحر في التوراة والعهد القديم (الطبعة الأولى، مكتبة رياض الريس، بـــيروت ١٩٩٠م)، ص ٤٦٣، ص ٥٠٤؛ حسين مؤنس: الحضارة، ص ٧٠.

الفصل الثامن

الأساطير والحكايات التي تناولت نهر النيل

"..النيل مخالف لكل نهر على وجه الأرض ..وفي أصل النيل أقوال ؛فذهب بعضهم إلى أن مجراه من جبال الثلج وهي بجبل قاف وأن يخترق البحر الأخضر المالح بقدرة الله تعالى ، ويمر على معادن الذهب والياقوت والزمرد ".

النواجي

"حلبة الكميت /٢٩٦"

ذات ليلة منذ أكثر من نيف ونصف قرن من الزمان، تساءل "شوقي" مخاطباً النيل في مجراه: منْ أيِّ عهدٍ في القُرى تَتدفَّقُ... وبأي كَفٍّ في المدائن تُغْدقُ... ومنْ السماءِ نزلْتَ أم فُجِّرت من علْيا الجِنان جداوِلاً تترقرق ...؟! وبأيِّ عَيْنٍ، أم بأَيَّة مُزْنةٍ ... أم أيِّ طوفان تفيض وتَفْهَق؟!.

هذه التساؤلات التي أطلقها "شوقي" تمجيداً للنيل.. كانت صدى للتساؤلات المماثلة التي طالما ترددت في شمال الوادي عبر آلاف السنين، فقد عنى المفكرون في جميع العصور منذ بدء التاريخ بنهر النيل، ووصفه، وتتبع منابعه، وحوضه، ومصبه، وكثرت المحاولات لتفسير أحواله وظواهره المختلفة، وهذه الأمور جميعها هي ما يطلق عليها "جغرافية النيل".

وكان الاهتمام بالنيل راجعاً إلي أن جميع من سَكَنَ مصر أو خالط أهلها أو زارها أو جاورها، يعلم تمام العلم أن النيل هو السبب في ثراء مصر ورخائها، وأنه الركيزة الأولي التي قامت عليها حضارتها المبكرة، تلك الحضارة النبيلة الراقية منذ آلاف السنين، والتي كان لها الفضل علي العالم كله، حيث نهل أبناؤه من وادي النيل مبادئ هذه الحضارة والعمران،يوم لم يكن حضارة ولا عمران إلا ما نشأ ونما في أحضان هذا الوادي الخصيب.[1]

---

[1]- محمد عوض محمد: نهر النيل (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠١م)، ص٧

لذلك كان من الطبيعي أن يصبح نهر النيل محط اهتمام المصريين وغيرهم منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا. فلا يوجد نهر في العالم كله له من الفضل علي إقليم وساكينه، مالنهر النيل من الفضل على مصر وساكنى مصر. ولذا بدأت محاولات استكشاف النهر منذ بدء المصري القديم يتحول إلي الزراعة، وعلي الرغم من قلة المعلومات المتاحة للمصريين القدماء عن أعالي النيل، إلا أنهم سرعان ما اتصلوا بغيرهم من الشعوب والبلاد التي تسكن وادي النيل في جنوب مصر، وهم بذلك كانوا مجدين في الاستكشاف والاتصال بالبلاد الأخرى[1].

واستمرت محاولات المصريين القدماء لكشف النهر، ثم جاء اليونان واستمروا في البحث والاستقصاء عن النهر ومنابعه، وكان أشهرهم بطليموس الجغرافي[2]. واستمرت محاولات العرب في القرون الأولي للهجرة، ثم محاولاتهم في العصور الوسطي، والحقيقة أن العرب نقلوا كتاب بطليموس عن النيل إلي لغتهم، وكان مرجعهم الأكبر في كتاباتهم الجغرافية، ولكنهم زادوا على بطليموس أشياء كثيرة إلا فيما يختص بأعالي النيل، فكانت كتاباتهم، في ذلك قليلة.

ومن الملاحظ أيضا أن الزيادات التي أضافها العرب على ما ذكره بطليموس عن النيل لم تكن صحيحة، بل كانت تشوبها الخرافات والأساطير في أحيان كثيرة، وقد اتضحت هذه الصورة في كتابات الجغرافيين والمؤرخين في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)، الذين نقلوا ما أورده القدماء من العرب وغيرهم عن نهر النيل، ولم تزد معلوماتهم كثيرا عما أخذوه من القدماء.[3]

وخير مثال لذلك اتفاقهم جميعاً على أن نهر النيل ينبع من جبال القمر خلف خط الاستواء من عشرة عيون في الأرض – والبعض ذكر أنها اثنتى عشرة عيناً –[4] تجتمع في عشرة روافد،تجتمع كل خمسة منها لتصب في بحيرة، ثم تجتمع هذه المياه مرة أخري في بحيرة واحدة حيث يخرج نهر

---

[1] – نفسه ، ص١٣.

[2] – محمد عوض محمد: نهر النيل، ص١٦-١٧؛ أبو اليسر فرح: النيل في المصادر الإغريقية (الطبعة الأولي، دار عين للدراسات، القاهرة ٢٠٠٤م)، ص٨٠-٨١

[3] – الأقفهسي: أخبار نيل مصر،ص٧-٩ .

[4] – أطل المؤرخون علي النيل من نافذة النبؤات ،ومن طاقة الرموز حين جعلوا النيل ينبع من اثنتي عشر عينا ،وهو العدد الذي استفاد قدسيته من رمزيته الزمانية والمكانية (الكوزمولوجية)، فعدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً والأئمة اثنا عشر، وكان من معجزات موسي عليه السلامالعصا التي ضرب بها الحجرْ فانفجرت منه اثنتا عشر عينا لكل سبط عين.المقريزي: الخطط، جـ٢،ص٣٩٤؛ النواجي : حلبة الكميت ، ص٢٩٦.

النيل.[١]وسنجد أن رحلة اكتشاف منابع النيل في الكتابات التاريخية قد استوعبت القصص والأساطير الشعبية الإسلامية مع الرواسب الأسطورية الفرعونية والقبطية إلي جانب بعض قصص الإسرائيليات، لتصب كلها في مجري واحد، غايته – في المخيلة الشعبية– اكتشاف منابع نهر النيل التي ظلت لغزاً محيراً آلاف السنين.

وقام الوجدان الشعبي برحلة شديدة الحيوية والاستنارة، يلم فيها بمنابع النيل ويبتدع لغة يتواصل بها مع النيل، واستكشاف مجاهله والوقوف على أسراره وخوافيه، وراح يعمل على تخليق تفسيرات لما يغمض عليه، ويطلق على الأشياء مسميات ويؤلف لها تاريخا موضوعياً متسقاً،يُجيبُ فيه على ما قد يخطر بباله من تساؤلات حول شريان حياته. ويمكن أن نلمح أثر ذلك في كتب الجغرافيا أو الكتب التي تحدثت عن فضائل مصر،والتي تتفق جميعاً في أنها تنقل المأثور والمتواتر من الأساطير عن منطقة منابع نهر النيل، ولكن وصفهم لمجري النهر من منطقة الجنادل جنوب أسوان، حتى مصبه في البحر المتوسط تتسم بالدقة ؛لأنهم شاهدوا النهر في هذه المنطقة وعاينوا مجراه، ونظراً لأن مجري النيل في أعاليه كان عقبة كؤوداً في وجه من حاول تتبع مجرى النهر الأعلى حتى منطقة المنابع.[٢] .

فقد تصورت الأساطير والخرافات التي أوردها كُتَّابُ ذلك العصر منطقة المنابع أرضا خيالية. تنبتُ فيها قضبان الذهب والفضة والنحاس والحديد، كما يجري فيها بحر من الزفت تنبعثُ منه الروائح الكريهة، التي تقضي علي كل من يحاول الاقتراب من المنطقة التي تصوره أنها تعج بأحجار مغناطيسية تجتذب كل من ينظرُ إليها، وتقضي عليه. هذا الموقف الوجداني يعكس بطبيعة الحال مدي الجهل بالطبيعة الجغرافية لمنطقة منابع نهر النيل ولكنه في الوقت ذاته يكشف عن مدي الرهبة والخوف الكامنين في أعماق اللاشعور تجاه النهر الذي عليه قوام الحياة في مصر.

---

[١] – التلمساني: سكردان السلطان، ص٦٤، السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٢٦ ،ص١٢٧، ابن محشرة: الاستبصار،ص٤٥ ،المسعودي: مروج الذهب،جـ١ ،ص٩٨، الخوارزمي:كتاب صورة الأرض، ص١٠٦–١٠٩، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٢، ص٢٩٠–٢٩١،المنوفى: الفيض المديد في أخبار النيل السعيد،ص٤–٥.

[٢] – من الشائع أن المصريين كانوا يعتقدون أن منابع النيل تقع عند الشلال الأول جنوبي أسوان، وإن الكبش الذي كان حيواناً مقدسا لديهم، يحرس هذه المنابع وربما يصور لنا (ديودور الصقلي) ما كان يشاع من أمر منابع النيل بقوله: "أن كهنة مصر حدثوه بأن النيل يستمد مياهه من المياه المحيطة بالعالم المسكون" ولم يقبل ديودور هذه الفكرة لأنه ليس هناك ما يؤيدها، بل أن الكهنة من وجهة نظر ديودور: يحلون مشكلة غامضة بشكل يحتوى على المزيد من الغموض، أبو اليسر فرح: النيل في المصادر الإغريقية. ص٨٠–٨١.

ولما كان المصريون ما يزالون تحت رحمة النهر الكبير، ولم يتمكنوا من تطويعه وضبط مياهه، فإنهم ظلوا يخشونه ويترقبون مواسم فيضانه بمزيج من القلق والرهبة، والأمل. فانعكس هذا الموقف العقلي والوجداني في أساطيرهم وتصوراتهم عن نهر النيل، ومنطقة منابعه ووصل إلينا الواقع يحمل مبالغات تصل إلي حد الإغراب ، والدهشة مما يحق لنا أن نطلق عليه الأخبار الأسطورية.[١]

هذه الأخبار الأسطورية تعكس لنا بالضرورة شغف الناس بتقصي أصول ومنابع النيل، وما جُبِلَ عليه الناس من حب الاستطلاع واستكشاف المجهول، والذي يُثير فيهم نوازع تدفع بهم إلي تعويض النقص الحاد في معارفهم بالخيال المتخم بالخرافات، التي أدت إلي التشويش والارتباك في تصوراتهم. وقد أشار التلمساني إلي ذلك بقوله : " وفي أصل النيل أقوال للناس حتى ذهب بعضهم إلي أن مجراه من جبال الثلج، وهي بجبل قاق، وأنه يخرق البحر الأخضر، بقدرة الله تعالي،إلي أنه يأتي إلي بحيرة الزنج. قال المالكيُ لهذا الكلام: ولولا ذلك يعني دخوله في البحر المالح وما يختلط به منه، لما كان يُستطاع أن يشرب منه لشدة حلاوته وقال قوم: مبدؤه من خلق خط الاستواء بإحدى عشرة درجة،وقال قوم مبدؤه من جبل القمر، وإنه ينبع من اثنتي عشرة عيناً واختلف في سبب زيادته ونقصانه فقال قوم : لا يعلم ذلك إلا الله عز وجل"[٢] وعده البعض " أحد عجائب العالم إذ لا يعرف له منبع" [٣] ، " ولم يعز أصله إلي مكان"[٤].

بيد أن هذه الكتابات التي ذكرت أن النيل يخرج من جبل القمر. تذكر أيضا أن مجري نهر النيل كان من عمل البشر، إذ يذكر المؤرخون: " يقال والله أعلم : إن أول من ملك مصر عند قسمة الأرض بين ولد آدم، زمن آنوش، بوصية آدم عليه السلام، ملك يقال له نقراوش بن أضرم، وهو

---

[١] – قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (الطبعة الأولي،دار المعارف،القاهرة ١٩٧٨م)،ص١٠١؛ قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٩١.

[٢] – التلمساني: سكردان السلطان، ص ٣٦٤– ٣٦٥ ، السيوطي: كوكب الروضة، ص١٢٧، الأقفهسي: كتاب أخبار نيل مصر، ص ٥٧– ٥٨ ، المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٩٨؛ الخطط ،ج١، ص ٥٣–٥٤ ، النواجي: حلبة الكميت، ص٢٩٦.

[٣] – االحميري: الروض المعطار، ص٥٨٦.

[٤] – ابن حوقل: صورة الأرض،ص١٧٣.

أول من اتخذ المصانع، وعمل الطلسمات، وأقام الأساطين، وزبر عليها التواريخ وبني في المدن.وهو الذي حضر النيل وعمقه ووسعه، وكان قبل ذلك ينقطع ويستنفع".[١]

ورواية أخرى تقول : " أن مصرام هو الذي بني مدينة مصر، وإليه تنسب ، وكان عالماً بعلم الكهانة، والطلسمات، وكان قد كتب علي أبواب مصر، أنا مصرام بن تبليل قد بنيت هذه المدينة ،وأودعت بها الطلسمات الصادقة، والصور الناطقة، وهو الذي ساوي الأرض حتى منبع النيل، وبني به الجسور والقناطر، وأصلح مكان مجراه، قطع منها الجبال التي كانت تعوق جريان النيل.. واستمر سابحاً في الأرض نحواً من ثلاثين سنة ، ثم هلك وتولي من بعده أخوه عيقام وقد توجه عيقام إلي خلف الاستواء وبني هناك قلعة من نحاس أصفر. في سفح جبل القمر، الذي ينحدر من أعلاه النيل وصنع هناك خمسة وثلاثين تمثالاً من النحاس، يخرج من حلوها ماء النيل، ويصب في بطائح هناك، ثم ينحدر إلي أرض مصر بقانون وتدبير بما يكون فيه لأهل مصر المنفعة دون الفساد. وقدر ذلك علي ستة عشر ذراعاً تروي أرض مصر جميعها من هذه الستة عشر واستمر عيقام ساكناً في القصر النحاس[٢] الذي بناه علي سطح جبل القمر حتى هلك ".[٣]

هكذا تصورت الأساطير أن نهر النيل تم حفره بأيدي البشر، وتمضي الأسطورة عند المقريزي لتضيف عن نهر النيل أنه :" لم يكن قبل ذلك معتدل الجري، بل كان ينبطح ويتفرق في الأرض حتى وجه إلي النوبة الملك نقراوس المهندسين فهندسوه، وساقوا منه أنهاراً إلي مواضع كثيرة من مدنهم ، التي بنوها وساقوا منه نهراً إلي مدينة أمسوس. ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان، وكانت أيام (البودشير) بن فقط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، عدل جانبي النيل تعديلاً ثانياً بعدما أتلفه الطوفان".[٤]كما يشير القلقشندي إلى أن :" نقراووس بن مصريم بن براجيل بن رزائيل

---

[١] – ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص٥٠.

[٢] – وجود النحاس في القصور والمدن والتماثيل يتكرر كثيراً فيما يتعلق بمنابع النيل وعلاقة النحاس بعالم السحر قوية في الآداب الشعبية– ولعل هذا صدي من أصداء الاعتقاد العام حول خواص النحاس السحرية ، وهو كثير الظهور في وصف الأبواب السحرية عادة والقصور والتماثيل العجائبية.

[٣] – ابن إياس : بدائع الزهور ،ج١، ص١٠، ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص١٥٤– ١٥٥.

[٤] – المقريزي: الخطط، ج١، ص ٥١– ٥٢.

بن غرباب بن آدم عليه السلام نزلها في سبعين رجلاً من بني غرباب الجبابرة فعمروها ، وهو الذي هندس نيلها وحفره حتى أجراه ، ووجه إلى البرية جماعة هندسوه وأصلحوه ، وبنى المدن وأثار المعادن وعمل الطلسمات "[١]

وهناك أسطورة أخرى تناقلتها المصادر العربية التي حاولت البحث عن منابع النيل ومنطقة مجراه الأعلى، وهي خليط من المعلومات الجغرافية والخرافات، فقد نقل النويري عن الإدريسي الجغرافي الشهير (ت ٥٦٠هـ) أن اسم البطيحة الكبيرة (البحيرة) التي يخرج منها النيل " كوري" منسوبة إلي طائفة من السودان : " يسكن حولها متوحشون، يأكلون من يقع إليه من الناس فإذا خرج منها النيل، يشق بلاد كوري ثم بلاد تمنم وهم طائفة من السودان بين كانم والنوبة"[٢]، ويعتقد بعض الجغرافيين أن النيل يغوص في الرمال، ويختص في المنطقة الواقعة ما بين بلاد كانم وبلاد النوبة. ولا يظهر مرة أخرى سوي عند بلاد النوبة مثلما يغوص نهر الفرات الذي ببلاد العراق".[٣]

ولعل المسعودي أظهر اهتماماً بالنيل، يظهر من حين لحين في أكثر من جزء من أجزاء كتابة الموسوم بـ (مروج الذهب). فذكر مصر في كتابه يأتي طبيعياً بعد ذكر ملوك الروم وبعد ظهور الإسلام إلا أن ذكره للنيل لا يرتبط بهذا التسلسل المنطقي لأحداث التاريخ في العالم القديم، فالنيل هنا يستهويه ويستغرق اهتمامه في أكثر من موضع من كتابه بصرف النظر عن الحديث عن مصر، أو الارتباط بالتسلسل التاريخي أو الجغرافي الذي التزمه في نقلات حديثه وتدوينه لتاريخ العالم، فهو يذهب في سياق حديثه عن الإسكندرية إلي بعض الروايات الشعبية التي دارت حول حفر النيل بأيدي البشر في تناسق وتناغم أسرين بين الحقيقية والخرافة بقوله : " وقد كان الاسكندر بن الفيلقوس المقدوني بني الإسكندرية علي هذا الخليج من النيل، وكان يتفجر إليه عظيم ماء النيل ويسقي الإسكندرية، وبلاد مريوط وكان بلد مريوط هذا في نهاية العمارة، والجبال المتصلة بأرض برقة من بلاد المغرب وكانت السفن تجري في النيل فتتصل أسوان بالإسكندرية، وقد بلط أرض

---

[١] ـــ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣١٣.

[٢] – النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الأدب (طبعة دار الكتب المصرية)، ج١، ص٢٦٢، الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ،ج١، ص ٢٨.

[٣] – الإدريسي: نزهة المشتاق،ج١، ص٢٨، المنوفي: الفيض المديد في النيل السعيد، ورقة ٥-٦،الخطط، ج١، ص٦٧- ٦٨.

نيلها في المدينة بالرخام والمرمر، فانقطع الماء لعوارض سدت صفحاتها ومنعت النيل من دخوله، وقيل لعل غير ذلك منعت من تنفسه، وردت الماء إلي كثافة لا يحملها كتابنا هذا، فصار شربهم من الآبار، وصار النيل على نحو يوم منهم "[1]

بيد أنه ينفرد الجغرافي المصري أبو محمد الأسواني[2] في كتابه "أخبار النوبة" الذي وضع في القرن الرابع الهجري – لمساعدة الفاطميين في الدفاع عن دار الإسلام من جهة النيل الأعلى– ينفرد هذا المؤلف بإيراد معلومات تكاد تكون أقرب الأشياء إلي الدقة عن النيل أكثر من غيره من الجغرافيين، فالنيل عنده يتكون من ثمانية أو تسعة أنهار:نهر عطبره، النيل الأبيض، النيل الأزرق والذي يسميه بـ"النيل الأخضر"الذي يأتي من الجنوب الشرقي، وهو صافي جداً رغم لونه القاتم، حتى أن الأسماك تشاهد في قعره، ويمضي النيلان الأبيض والأزرق بعد لقائهما ، ثم يمتزجان في هياج الأمواج وتأتي الأنهار الأربعة الأخرى، وكلها دائمة الجريان ماعدا واحد منها من الحبشة وتصب في النيل الأزرق الذي يلتقي فيما بعد بنهر عطبره، قبل أن يلتقي بالنيل الأبيض.

ووصف الأسواني للنيل وروافده يكاد يقترب من الواقع وهو لا يأخذ بالأساطير إلا قليلا فيما يتصل بأنهار الحبشة الأربعة، لأن أحدهما يخرج من بلاد الزنج، وهو يقر مثل غيره من الجغرافيين بأن منابع النيلين؛ الأبيض والأزرق مجهولة. وحصيلة البحث الجغرافي الإسلامي، أن أساطير مصر ونهرها تتمفصل على حجر زاوية مصر الإسلامية ، وما قبل الإسلامية في آن واحد.[3]

ما يهمنا في الروايات السابقة، خصوصية الزمن المتصل بالنيل عندما قررت إحدى الروايات أن مصرايم ظل سابحا نحو ثلاثين سنة، وهى حسابات زمنية غير مألوفة عند البشر إذ هو ليس وقتاً عادياً بالمفهوم الإنساني، ووفقاً للقدرة الإنسانية على السَّير،كما أن هذه "اللامعقولية" في زمن الحادثة تجعله زمناً خاصاً يخرج عن فهمنا نحن المتلقين للزمن ، كما أنه يبعد عن زمن التجربة الواقعية اليومية وتحديداتها مما يضفي عليه سمة "الأسطورية " . فضلا عن أن تلك الروايات كشفت

---

[1] – المسعودي:مروج الذهب، جـ١ ، ص٨٣.

[2] – أبو محمد الأسواني : من أهم المصادر التي اعتمد عليها المقريزي في كتابه (الخطط) وذكر أنه أكثر النـاس علماً بالنيل غير أن كتابه لم يصلنا (مفقود) .

[3] – سيد خميس: وصل ما انقطع قراءات في التراث العربي الإسلامي(سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢م)، ص ٧٥-٧٦.

– بقصد أو بدون وعي – عما وقر في أذهان ومخيلة الناس من تصورات مفادها أن نهر النيل تم شقه بأيدي البشر وتقدم لنا تصورا خياليا عن كيفية خروج منابع النهر من تحت جبل القمر، ولكن هذه الأساطير لا تكتفي بهذا وإنما تتحدث عن تحكم البشر من ملوك مصر القدامى في مجرى النيل في منطقة المنابع. فقد رأينا كيف جرى الحديث عن أن الذين ملكوا مصر من نسل نوح عليه السلام قد حفروا مجرى النيل، ورتبوا نوعاً من السدود أو القناطر التي اتخذت شكل التماثيل. والتي يمكن بواسطتها التحكم في مقدار المياه[1]. كما تتحدث هذه الأساطير عن أعمال جبارة جرت بعد الطوفان لإعادة صيانة ضفتي النهر وتعديل مجراه. ولعل عبارة "بعد الطوفان" هى التي حذت ببعض المؤرخين، إلى قسمة تاريخ مصر. إلى ما قبل الطوفان وما بعد الطوفان، وكأن الطوفان فاصلاً بين عهدين ـــ أسطوري وتاريخي ـــ والذي انسحب بدوره علي التقسيم التاريخي للمنطقة أيضاً.

كما أن تلك التصورات الأسطورية عن تدخل ملوك مصر القدامى في حفر مجرى النيل، فضلا عن تداخل التقديرات الزمنية المبالغ فيها، تجعلنا نقف عاجزين عن استخلاص الفيصل بين الحقيقة والخيال، فقد تكون نابعة من تدخل خيال القصاصين فيها أو انبهار المؤرخين والرحالة الذين سطروها بضخامة الآثار المادية ، التي تخلّفَتْ عن عصر المصريين القدماء، كالمعابد الشاهقة، والأهرامات العملاقة والمسلات الشامخة، مما كان لهذا كله أثره البالغ على عاملين لا يخلوان من مبالغات هما: عامل القياس، وعامل الزمن.

فالعامل الأول المتصل بالقياس، فأنه يدور حول القوة الخارقة التي جعلت من مصرايم يحفر النيل بيده إضافة للتصور الشعبي عن وجود أُناسٍ عمالقة: "يتمتعون بمثل هذه القوة وطول القامة .

أما العامل الثاني، وهو عامل الزمن المتصل بمصرايم الذي حفر النيل وظل سابحا وراءه لمعرفة منابعه بنحو ثلاثين سنة إلي غير تلك التقديرات الزمنية التي ربما استقاها المؤرخون والجغرافيون من أغوار الذاكرة الشعبية للناس والتي من الممكن تأثرها بالمصادر الإغريقية وخاصة أرسطو الذي كان يري أن منابع النيل تقع عند سلسلة جبال تسمي جبال الفضة[2].

[1] – قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص٩٤.

[2] – أبو اليسر فرح: النيل في المصادر الإغريقية،ص ٨٧.

على أيَّة حال، فإن تلك التصورات الخيالية لجريان النيل، وحفر مجراه، وفروعه، وترعه وخلجانه، ولمنطقة منابع النيل ومجراه الأعلى، تظل شاهداً حياً علي ما أنشأهُ الشعبُ لنفسه عن نفسه، وما امتلكه من ملكات ذهنية تصل به إلي حد الموهبة في القدرة على تصوير موقفه الشعبي من شريان حياته وقدرته على التعبير عن ذاتيته العامة.

وهناك تصور آخر لمنطقة منابع نهر النيل ساقه الجغرافيون والمؤرخون العرب، فقد زعم البعض بأن نهر النيل ونهر السند ينبعان من أصل واحد. ودليلهم في ذلك: "اتفاق زيادتهما وكون التماسيح فيهما"[١]. وأضاف البعض أنه: "لا يوجد نهر يشابه النيل غير نهر الملتان بالهند وهو نهر يخرج أصله من جيجون.. وفيه تماسيح وفرس البحر على هيئة النيل.."[٢].

وقد غضب المؤرخ والرحالة (المسعودي) من هذا القول ونقده بشدة فنراه يقول: " وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ : أن نهر مهران الذي هو نهر السند من نيل مصر،ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه، فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل، وذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان، وهو كتاب في نهاية الغثاثة ؛ لأن الرجل لم يسلك البحار، ولا أكثر الأسفار، ولا يعرف المسالك والأمصار، وإنما كان حاطب ليل ينقل من كتب الورَّاقين. أو لم يعلم أن نهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة في أعالي بلاد السند".[٣]

وغضبة المسعودي هنا لها ما يبررها، فقد كثر الخطأ الجغرافي والتصور الخرافي في الكتابات التاريخية و الجغرافية، نتيجة جهل بأبسط قواعد الجغرافيا من ناحية، ونتيجة القصور عن محاولة استقصاء ما هو قائم وموجود، والاكتفاء بما ورد في الأخبار والكتب، وإن خالف العقل والمنطق وبسبب ذلك؛ نسب البعض نهر النيل إلي أنهار الجنة الأرضية، التي كان مكانها يقع في أقصى الشرق، وعلي الناحية الأخرى من بحر الظلمات، وفقا للتصورات الخيالية الشائعة آنذاك حيث كانت النظرية السائدة في ذلك الوقت تقول: " أن سائر مياه الأرض، وأنهارها تخرج من الصخرة

---

[١]- السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٨٦، محمود سليم: النيل في عصر سلاطين المماليك (سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ١٣٢، ص٢٦.

[٢]- الهروى: الإشارات إلي معرفة الزيارات، ص٤١، الحميري: الروض المعطار،ص٥٨٦.

[٣] - المسعودي: مروج الذهب، جـ١، ص٩٩، التنبيه والإشراف، ص٤٩، الأقفهسي: كتاب أخبار نيل مصر، ص٥٩.

بالأرض المقدسة"[١]وفي قول آخر:"أن أنهار الجنة مكانها في أقصى الشرق وعلى الناحية الأخرى من بحر الظلمات"[٢] . وقال ابن زولاق في تاريخ مصر:"أن النيل يجري من تحت سدرة المنتهي وأنه لو تفضي أثاره لوجد في أول جريانه أوراق الجنة"[٣].وهو في المخيلة الشعبية :" نهر العسل ويرفعه جبريل عند رفع القرآن ومن لم يعرف فليسأل!! ".[٤]

يُقال: ولذلك يذب إلي كل إلي أكل البلطي من السمك، لأنه يتبع أوراق الجنة فيرعاها، ويشهد لصحة ما ذكره ما روى عن النبي صلي الله عليه وسلم قال" عليكم بالجيزوم [٥] فإنه يرعى من حشيش الجنة".[٦]

الراجح؛أن هذا التصور الأسطوري للنيل ونسبته إلي أنهار الجنة نوع من التعبير الوجداني الشعبي عن الامتنان والحب للنيل النبيل الذي وهب المصريين بلدا عاش فيهم، ولم يرضوا عنه بديلا طوال تاريخهم الممتد إلي فجر الضمير الإنساني. كما أن هذه المحاولات الأسطورية لإلحاق نهر النيل بالجنة نوع من التشريف والتكريم، الذي أسبغته العقلية الشعبية على النهر الذي ارتبطت به حياتهم ارتباطا كاملا سواء في الزراعة والتجارة والصناعة أو في المواصلات أو في الفن والأدب.

ولما كان المصريون قد جعلوا من النيل إلهاً قبل اعتناقهم المسيحية والإسلام، فإنهم ظلوا يحتفظون لهذا النهر بمكانة رفيعة في وجدانهم بحيث حاولت أساطيرهم أن تجعله من أنهار الجنة وهي محاولة لم تقف عند الاستعانة بالتصور الأسطوري فحسب بل تعدته إلي السِّيَر والملاحم العربية التي أخذها الشعب المصري كما يأخذ الفنان موضوعا بارزاً من موضوعات التاريخ أو واقعة عظيمة من

---

١ – الأقفهسي: كتاب أخبار النيل، ص٣٩.

٢ – بحر الظلمات هو بحر الأقيانوس، وهو [illegible]يط الأطلنطي.

٣ – انظر: تاريخ مصر وفضائلها،ص١٦؛ النواجي : حلبة الكميت، ص٢٦٩.

٤ – السيوطي (جلال الدين السيوطي) : مقامات جلال الدين السيوطي "مقامة في وصف روضة مصر تسمى بلبل الروضة " (الجزء الأول، تحقيق:سمير الدروبي، سلسلة الذخائر، العدد١٦٣ ، القاهرة ٢٠٠٧ م) ، ص ٢٨٨.

٥ – الجيزوم: اسم فرس من خيل الملائكة، انظر الجوهرى: الصحاح، جـ٥، ص١٨٩٩(تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار الكتاب العربي، مصر د.ت)؛ النهاية في غريب الحديث والأثر، جـ١، ص٢٧٤.

٦ – الأقفهسي: مصدر سابق، ص٣٩.

وقائع الأبطال ولاءم بينهما وبين مطالب حياته الوجدانية،وخير مثال لذلك، سيرة (سيف بن ذي يزن) [١] و(سيرة بني هلال) [٢]، واللتان تردد فيهما سمات بارزة مكتسبة من النيل[٣]، مما تشكل منهما

---

١ -من المعروف أن سيف بن ذي يزن – في التراث التاريخي العربي- ملك من ملوك التبابعة الحميريين وبطل من أبطال التحرير اليمني، عندما أعلن الثورة سنة٥٧٥م للتخلص من نير الاستعمار الحبشي لبلاده بقيادة ملكها اليهودي ذي نواس على نحو ما رواه لنا وهب بن منبه في التيجان،وتعد تلك السيرة تحديداً من أخصب السيَّر الشعبية العربية والتي امتلأت بالعناصر الأسطورية المتعددة والمتنوعة ، وأكثرها لجوءاً إلى الخيال الجامح الذي يشي في الكثير من مواضعها بالاتكاء على الفكر الأسطوري كمرجعية فكرية ، وعلى بعض الحوادث الأسطورية المتضفرة داخل بنيتها. ويكاد يتفق عظم الباحثين في مجال الأدب الشعبي العربي على أنه ، على الرغم من أن الأحداث في السيَّر الشعبية العربية تتحرك على خلفيات تاريخية أو شبه تاريخية ، تمثل كل منها حلقة من حلقات الصراع بين الشعب العربي وبين أعدائه ، إلا أن تلك الأحداث تنم عن أصول ميثولوجية ومعتقدات دينية وطقوس وممارسات سحرية قديمة عرفتها المجتمعات القديمة التي شكلت فيما مضى حضارات المنطقة العربية. انظر: محمد رجب النجار: الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي، ص٢٠٥؛ كارم محمود عزيز: الأسطورة فحر الإبداع الإنساني، ص٣٧١-٣٧٣.

٢ – السيرة الهلالية :من القصص الشعبي الذي شاع في مصر ،وقد بدأت هذه السيرة في صورة غنائية ،ثم أخذت صورة قصصية منذ القرن السادس الهجري ،وتدور أحداث هذه السيرة حول أسرة بني هلال التي انتقلت من نجد إلى البلاد الإسلامية المختلفة ، واستقر بعضها بمصر ، وتفرق الكثيرون منها في الشمال الأفريقي والأندلسي وكانت لهم وقائع في تونس .وقد صورت هذه القصة بعض جوانب الشخصية المصرية من خلال السخرية التي عامل بها المصريون حكامهم كما تبدو في هذه العبارة التي أطلقها أحد المصريين معلقا على طمع الهلاليين في حكم مصر والاستغلال بها حيث قال "ولكن العرب لايملأون أعين المصريين "كما أن الشعب المصري قد هذب هذه السيرة وحضَّرها وارتفع بها ومصَّرْها رغم نواتها العربية .عبد اللطيف حمزة :الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية حتى مجيء الحملة الفرنسية (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠م)،ص٢٦٤-٢٧٣.

٣ -الأدب الشعبي الذي اهتمَّ بسير الأبطال مثل (سيف بن ذي يزن) أو(الزير سالم) أو(الهلالية) قد حُجر عليه في المقاهي، والمجالس، ولم يُدون التدوين المعروف لدينا الآن إلا بعد أوقات طويلة من معرفته وانتشاره، ولأن المقاهي يرتادها العامة فقد ظلَّ الأدب الشعبي تابعاً لهذه الطبقة التي لم تنل الرضا من قبل الطبقات العليا طبقة الحكام، والولاة، والتجار، والقضاة، والعلماء، والمتكلمين. وبسبب عدم التدوين ظلت سير الأدب الشعبي وأخباره، وحوادثه تستطيل وتمتدّ تبعاً لمواهب الحكواتيّ وقدرته، وتبعاً لشغف السامعين لما يَقصّ عليهم، فإن استمتعوا طالبوه بالمزيد، وعندئذ يشتغل ذهن الحكواتيّ بالتوصيل، والترقيع، ولحم حكاية بأخرى على نحو قد يكون بعيداً تماماً في أسلوبه عن أسلوبِ قصة الأول، لذلك نجد تعدد الأساليب الكتابية في نصوص الأدب الشعبي قبل أن تُصاغ كلها بروح واحدة من قبل كاتب بعينه، وفي عصر محدد أيضاً. ولذلك نجد مجاورة الواقعي للخيالي ومخالطة المؤنس بالغرائبي، والقريب بالبعيد، والصافي بالمزيج. وفي كل الأحوال كان تقويم الأدب الشعبي تقويماً بعيداً عن الحقيقة الفنية التي يتمتع بها، وذلك من حيث النظر إليه باعتباره خالياً من الوظيفة الاجتماعية، وأنه وجد من أجل السلوى، والدعابة، والتندر ليس إلاّ، وهو في أحسن أحواله حوادث وأخبار في الاطلاع عليها عبرة لمن يريد الاعتبار، للنظر إلى الافتتاح الذي استهلت به "ألف ليلة وليلة "والذي يحدد غايات الليالي كلها، جملةً لا تفصيلاً.. "إن سير الأولين صارت عبرة للآخرين، لكي يرى الإنسان العبر التي حصلت لغيره فيعتبر، ويطالع حديث الأمم السالفة وما جرى لهم فينزجر، فسبحان من جعل حديث الأولين عبرة لقوم آخرين". أنظر : ألف ليلة وليلة ، طبعة صبيح، ص٧.

عناصر لعوالم مائية أسطورية غير محددة في عالم السير، منها تلك المنطقة غير المحددة في سيرة(سيف بن ذي يزن) حيث تتداخل الأساطير التعليلية والشعبية والدينية وتلتقي عند (القبة) والتي فيها صخرة من الياقوت الأحمر لها لمعان يأخذ البصر، يخرج من جوانبها الأربعة ماء أبيض من اللبن، وأحلي من العسل، ورائحته أزكي من المسك شذىً وعطراً[١]. أنه الماء الذي ينحدر منه النيل، من تحت القبة فوق الجبل "الثلجي" العالي، هناك حيث " النهران الظاهران والصلاة على ملة الخليل إبراهيم عليه السلام" وحيث الياقوت ووهج اللمعان والظفر بالوصول إلي منبع النيل في السيرة[٢] تلك السيرة (سيف بن ذي يزن) هي سيرة مصرية،خلقاً وإبداعاً، على الرغم من تواتها التاريخية اليمنية المتمثلة في شخصية بطلها سيف، وهو أساسا بطل من أبطال التحرير في العصر الجاهلي وتتجلى مصريتها في التأصيل لنشأة مصر أرضا وشعبا وعمرانا ولبدء جريان نهر النيل ، وذلك الحدث في ذاته إن شئنا التاريخ له فإنه – بلا أدنى شك– سيصبح خارج إطار العصور التاريخية،وينتمي بشدة إلي عصور الأسطورة،مما يجعله يتخطى حدود الزمن الذي تنتمي إليه أحداث السيرة على اتساعها، هذا علاوة على أن فكرة النشأة والتكوين هي إحدى الأفكار الأسطورية البارزة والتي يلزمها إطار زمني أسطوري خالص[٣] ولعل مقارنة السيرة بما جاء في الكتابات التاريخية يجعلنا ندرك حقيقة مؤداها أن المخيلة الشعبية، – في العصور الإسلامية– لم تكن تختلف كثيرا عن مخيلة المتعلمين أو المخيلة العلمية آنذاك فيما يتصل بمنابع النيل ومدى الاختلاف حولها.

وقد أحسن (ابن الوزان الزيَّاتي) حين ناقش هذا الخلاف بقوله : "توجد آراء مختلفة حول موضوع أصل النيل فالبعض يقولون أنه يأتي من جبل يدعى جبل القمر ويدعي آخرون أنه ينبع في سهول مهجورة في حضيض هذا الجبل، عن طريق بضعة ينابيع شديدة التباعد بعضها عن بعض، ويؤكد أنصار الرأي الأول أن النهر يهبط من الجبل مع عنفوان شديد حتى أنه ليدخل تحت الأرض ويخرج بعدئذ بواسطة عيون مختلفة ولكن هذين الرأيين ليسا أكثر من افتراضين إذ لم ير أحد أبداً شيئا من

---

[١] – قارن ذلك الوصف مع ما ورد عند المسعودي وغيره من المؤرخين حول تلك المنطقة .مروج الذهب ، ج١ ،ص١٢٣.

[٢] – محمد رجب النجار: الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي، ص١١٥، عبد الحميد يونس: مجتمعنا (سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م) ص٢٥–٢٦، كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع، ص٣٩٦ ،قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص٨٩ :١٠٥

[٣]– كارم محمود: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، ص٣٩١.

ذلك ولا يزال من غير الممكن رؤية ذلك عيانا".[١]، ولهذا نجد : "أن الأقوال في أول مجرى النيل كثيرة، والشائع أن واحداً ما وقف على أوله بالمشاهدة، وجعل كل واحد منهم سببا يبرر به عدم مشاهدة منطقة المنابع".[٢]

إلا أن الواضح أن الوجدان الشعبي كان على معرفة وثيقة بهذا الموروث الفولكلوري الجغرافي المتعلق بمصر ونيلها على نحو يسمح له بإعادة إنتاج هذا الموروث العلمي بمفهوم ذلك الزمان، وصياغته صياغة تقدم لنا القراءة الشعبية لقصة الصراع الملحمي بين النيل والمصريين وكيف كان النهر في بداية الموقف (العنصر الطبيعي) بل إلها يعبد وكلها، أمور تتفق، كثيراً وقصة (حايد بن أبي شالوم) التي وردت تارة في الأساطير الإسلامية ــ (الإسرائيليات) ــ أو الفكر الديني الشعبي وتارة في الفكر الجغرافي القديم. وتضمنت أحداثا مواقفاً متباينة بحيث لا يكاد يتضح فيها أي نوع من المنطق. حيث نجد أفعالا خارقة تقع في مكان مجهول غالبا أو في لا مكان كما أنها تقع في زمان معين أو في لا زمان واشتملت على عوالم غريبة لها فهمها الخاص بفكرة الزمن فتقول الأسطورة:- "أن رجلا من بني العيص يقال له حايد بن أبي شالوم بن العيص بن اسحق بن إبراهيم عليه السلام، وأنه خرج هاربا من ملك من ملوكهم حتى دخل أرض مصر، فأقام فيها سنين، فلما رأى أعاجيب نيلها، وما يأتي به نذر لله تعالى ألا يفارق ساحله حتى يبلغ منتهاه، ومن حيث يخرج أو يموت قبل ذلك ، فسار عليه ثلاثين سنة في العمران، وثلاثين سنة أخرى في الخراب حتى انتهى إلى بحر أخضر، فنظر إلى النيل يشق مقبلا، فصعد على البحر فإذا رجل قائم يصلي تحت شجرة من تفاح، فلما رآه استأنس به وسلم عليه، فسأله الرجل صاحب الشجرة وقال له: من أنت؟ قال أني حايد أبن أبي شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . فمن أنت؟ قال : عمران بن فلان بن العيص."[٣]

قال: فما الذي جاء بك ها هنا يا عمران؟ قال: جاء بي الذي جاء بك حتى انتهيت إلى هذا الموضع، فأوحى الله تعالى إي أن أقف هنا حتى يأتيني أمره فقال له حايد: أخبرني يا عمران ما انتهى إليك أمر هذا النيل، وهل بلغك في الكتب أن أحداً من بني آدم يبلغه؟ قال عمران: نعم. قد بلغني أن

---

[١] -ابن الوزان الزيّاتي (جان ليون الأفريقي الحسن بن محمد الوزان الزياتي): وصف أفريقيا. (ترجمة: عبد الرحمن حميدة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٦م)، ص ٦٣٢.

[٢] -ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (الجزء الأول، تحقيق، أحمد تركي، القاهرة ١٩٤٢م)، ص ٩٧-٨١؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٤٧.

[٣] -ورد عند ابن إياس في (بدائع الزهور) أن الرجل صاحب الشجرة هو : "أبو إلياس الخضر". انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٢٥.

رجلاً من بني العيص يبلغه، لا أظنه غيرك يا حايد، قال له: يا عمران فأخبرني كيف الطريق إليه؟ فقال له عمران: لست أخبرك بشيء إلا أن تجعل لي ما أسألك، قال وما ذاك يا عمران؟ قال: إذا رجعت إليّ وأنا حيُ أقمت عندي حتى يوحي الله إلي بأمره أو يتوفاني الله فتدفنني. قال: ذلك لك عليّ، فقال له: سر كما أنت على هذا البحر، فإنه ستأتي دابة ترى آخرها ولا ترى أولها، فلا يهولنك أمرها، أركبها فإنها دابة معادية للشمس؛ إذا طلعت أهوت إليها لتلقمها حتى تحول بينها وبين حجبها، إذا غربت أهوت إليها لتلقمها، فتذهب بك إلى جانب البحر، فسر عليها حتى تنتهي إلى النيل، فسر عليه، فإنك ستبلغ أرضاً من حديد جبالها، وأشجارها وسهولها من حديد، فإن أنت جزتها وقعت على أرض من نحاس، جبالها وأشجارها وسهولها من نحاس، فإن أنت جزتها وقعت في أرض من فضة، فإن أنت جزتها وقعت في أرض من ذهب جبالها وأشجارها وسهولها من ذهب. فيها ينتهي إليك علم النيل .. فسار حتى انتهى إلى أرض الذهب فإذا فيها قبة من ذهب لها أربعة أبواب، فنظر إلى ما ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر في القبة، ثم ينصرف في الأبواب الأربعة؛ فأما ثلاثة فتغيض في الأرض وأما واحد فيسير على وجه الأرض قال حايد: فيشق على وجه الأرض وهو النيل، فشرب منه واستراح، ... فقال له: يا حايد أنه سيأتيك من الجنة رزق فلا تؤثر عليه شيئا من الدنيا، فإنه لا ينبغي لشيء من الجنة أن يؤثر عليه شيء من الدنيا، فإن فعلت بقي منك ما بقي.

فبينما هو كذلك واقف إذ نزل عنقود من عنب فيه ثلاثة أصناف: صنف لونه كالزبرجد الأخضر، وصنف لونه كالياقوت الأحمر، وصنف لونه كاللؤلؤ الأبيض، ثم قال: يا حايد أما أن هذا من حصرم الجنة وليس من طيب عنبها فارجع يا حايد فقد انتهى إليك علم النيل، فقال: هذه الثلاثة التي تفيض في الأرض ما هي؟ قال: أحدها الفرات والآخر دجلة، والآخر جيجان، فارجع.

"فرجع حتى انتهى إلى الدابة التي ركبها فركبها، فلما أهوت الشمس لتغرب قذفت به من جانب البحر، فأقبل حتى أتى عمران، فوجده ميتاً فدفنه وأقام على قبره ثلاثة أيام، فأقبل عليه شيخ مشبه بالناس أغر من السجود، فسلم عليه وقال: يا حايد، ما انتهى إليك من علم النيل؟، فأخبره فقال له: هكذا نجده في الكتب، ثم أخرج بعض التفاح، وقال وهو ينظر في عينيه: ألا تأكل منه؟ قال معي رزق قد أعطيته من الجنة، ونبهت ألاّ أُؤثر عليه شيئا من الدنيا، قال: صدقت يا حايد.. وهل رأيت في الدنيا مثل هذا التفاح؟ إنما أنبت لعمران في الأرض وليستْ في الدنيا وإنما هذه الشجرة من الجنة، أخرجها الله تعالى لعمران يأكل منها تفاحة، فعضها، فلما عضها غض يده قال له: أتعرفه؟ (يقصد التفاح) هو

الذي أخرج أباك من الجنة، أما إنك لو سلمت هذا الذي كان معك لأكل منه أهل الدنيا قبل أن ينفد، ثم أقبل حايد حتى دخل مصر، فأخبرهم بهذا الخبر، ثم مات حايد بأرض مصر".[1]

فالزمن ــ كما رأينا آنفا ــ يقترب بشدة من كونه زمناً أسطورياً عندما استخدم الضمير الشعبي وحدات زمنية خاصة للإشارة إلى المسافات بين المواقع الجغرافية اتسمت بـ "اللامعقولية" فمثلا (حايد) سار ثلاثين سنة في العامر وثلاثين سنة في الخراب وهي وحدات زمنية ووقتية غير مألوفة للبشر، فالسنين تأخذ أزماناً مختلفة عن الأزمان التي نعرفها لهذه المصطلحات في استخدامنا الإنساني،وقد بدا المكان في تلك الرحلة الخيالية ذا طبيعة خاصة له معاييره وخصائصه التي لا تخضع لمقاييس الواقع.فجاء المكان واسعاً لانهاية لامتداده، فهو في الفضاء وما وراء البحار، وفي رحاب الجنة الإلهية تارة، وضيق محدّد في أودية الجانّ والنحاس والذهب والياقوت والزمرد، أو وراء الشمس آناً آخر وهو في أغوار النفس الإنسانية الغامضة، أو هو خيالي يقع فيها وراء الحياة الكونية والإنسانية ،وتنوّعت الشخصيّات في الرحلة من إنسانية إلى حيوانية إلى شيطانية .

ولعلنا نلمح في القصة السابقة صورة قريبة الملامح جداً من فرس البحر الذي كانت تعرفه مياه النيل حتى الصعيد في العصور القديمة ، كما نشهد حيواناً ضخماً يشبه الهايشة في سيرة (سيف بن ذي يزن) التي يعلو ظهرها في حذر وهي نائمة ، وعند الفجر تتحول بجسدها إلى ناحية الشمس فتنقله بهذا من شاطئ إلى شاطئ عابرة به عرض البحر الممتد الكبير فهذه القصة الواردة في سيف بن ذي يزن شبيهة بحكاية عمران الذي عبر البحر متعلقاً بظهر دابة بحرية ضخمة ، يوردها المسعودي في مروج الذهب فيقول :"منها خبر عمران [بن جابر] الذي صعد في النيل ، فأدرك غايته ، وعَبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها وَهي دابة ينجر منها على الأرض شبر من قوائمها تُغَادي قرن الشمس من مبدأ طلوعها إلى حال غروبها[فاغرة فاها نحوها لتبتلع – عند نفسها– الشمس] فَعَبَرَ – على ما وصفنا من تعلقه بشعرها– البحر ، ودار بدورانها طالباً لعين الشمس ، حتى صار إلى ذلك الجانب ، فرأى النيل منحدراً من قصور الذهب من الجنة"[2].إلا أن المسعودي يحترز فيما يحكي فيعقب قائلاً:" إلى غير ذلك من خرافات حشدية عن أصحاب الحديث"[3]. . .

---

[1] –ابن ظهيرة:الفضائل الباهرة، ص ١٧١–١٧٤؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ١٤٢، السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٠–١٨٢؛ السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٣٢–١٣٣؛ الإسحاقي المنوفي: أخبار الأول، ص ١٨٨–١٨٩؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٥٢، ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٢٤–٢٦.

[2] – المسعودي : مروج الذهب ، ج١، ص١٢٣.

[3] – نفسه ، ص١٢٣.

كما استلهم الضمير الشعبي القصص الديني المتعلق بـــ(رحلة المعراج)[1] الواردة بالسيرة النبوية في سرد بعض أحداث الأسطورة، لما للمعراج من أثر في إثارة لخيال الناس وللرواة. فكان نواة لحياكة قصص ذات طابع أسطوري تؤدي وظائفها الاجتماعية / الثقافية وتلبي احتياجات الوجدان الشعبي، ويجد فيها مجالاً خصباً يقدم من خلالها تصوراته الخاصة لسيَّر الأنبياء وما اتصل بهم من موضوعات تخص العالم الآخر، وذكرها الفكر الديني ولم يقدمها له بأبعادها المختلفة، مثل الجنة وأنهارها. كما تحمل قصة أكل حايد من التفاح بعض الشبه في الفكرة دون التفاصيل بقصة الغواية وخروج آدم من الجنة، والتي تواترت في القصص الديني، كما وردت في الإصحاح الثالث من سفر التكوين. فالذاكرة الشعبية هنا تدمج في داخلها الموروثات السابقة عليها وتعيد انتاجها بشكل معدل، يساهم في صياغة وحي المؤمنين، كما أن ظهور الخضر (عليه السلام) في وصف طريقة معرفة منابع النيل ـــ في بعض الرواياتـــ متعاصراً مع البطل، لا يعني مثلاً أن أحداثها وقعت في زمن موسى عليه السلام أو بعده بقليل؛ ذلك لأن الخضر بذاته شخصية تتمتع في التراث العربي بأبعاد أسطورية واضحة؛ منها اكتسابه الخلود.[2]، ومن هنا فإن وجود الخضر في تلك الرواية الأسطورية لا يشير إلى زمن بعينه ووجوده كذلك في نسيج زمن كهذا يضفي شيئا من "المطلقية" على زمن الرواية، والمطلقية كما هو معلوم إحدى سمات الزمن الأسطوري.

---

١ – كانت الرحلة الخياليّة في الملاحم والسيَّر وسيلة للإنسان للوصول إلى عالم الموتى المجهول تارة، وصـــفحة يستشرف من خلالها آفاق المستقبل وغامض الغيب تارة أخرى، كما تبدو تلك الرحلة الخياليّة صـــورة معكوســـة للحياة الاجتماعية في عصر صاحبها. ثمّ جاء الإسلام فأعطى المسلمين تصوّراً غنياً وعميقاً عن اليوم الآخـــر، وهـــو حقّ وصدق، كما أغنى خيالهم، وأشبع نفوسهم، وأراح أرواحهم بحديث الإسراء والمعراج، وكان الاعتقاد به ركناً من أركان الإيمان لديهم، ولذلك استقر في نفوسهم وأشبع لديهم الرغبة في معرفة العالم الآخر. ولهذا كلّه لم يظهـــر نصّ أدبي يتصوّر الرحلة إلى العالم الآخر إلاّ في عصور متأخرة، ولعلّ أول ما ظهر في هذا المجال هو قـــصة الإســـراء والمعراج بأسطوريتها التي توسّعت في حديث الرسول ﷺ عن الإسراء والمعراج، وهي نصّ شعبيّ نـــسب إلى ابـــن عباس رضي الله عنهما ويبدو أنّ تلك الرحلة الخياليّة حاولت استشراف الغيب وساعدت على إرواء ظمأ الـــنفس التوّاقة لمعرفة شيء عن مصائر البشر بعد الموت.وكذلك كان الأمر في رحلة جلجامش تعبيراً عن توق الإنـــسان إلى المعرفة وكشف المجهول ومحاولته معرفة سرّ الحياة والخلود. والقضاء على قوة الموت والفناء.

٢ –فاز الخضر عليه السلام بالخلود في الموروث الشعبي حتى أصبح رمزاً لاستمرار الحياة ونجد بقايا ذلـــك في عادة جرت عليها بعض الأمهات، عندما يشرق الطفل وتخاف على حياته تقول له "خضر" كأنها تطلب لـــه حيـــاة (الخضرعليه السلام)، والخضر في الموروثات الشعبية هو الذي قام بدفن آدمعليه السلام، وهو صـــاحب موســـى، ووزير ذي القرنين، وصاحب الظهورات التي تدل على المقامات وعنه يقول أحد المؤرخين : "سيدنا الخضر الـــنبي : رجلاً مسناً ذا تجارب وتدبيرات عظيمة في جيش الاسكندر، وكان معه في رحلاته في أنحاء العالم، ويقال أنه لا يزال حياً يرزق ..".أوليائجلبي: سياحتنامه مصر، ص ٥٠.

كما أن الرواية السابقة تعكس التصور الشعبي لمنطقة منابع النيل التي جعلوها جزءاً من الجنة، والحوار المثير بين أبطال هذه القصة يوضح لنا بجلاء أبعاد الحب والاحترام الذي حمله الوجدان الشعبي لنهر النيل قوام الحياة المصرية ومصدر استمرارها، ومن المهم أن نشير إلى أن هذا التراث الأسطوري المتعلق بنهر النيل لم يكن وليد الفترة التي اتخذت فيها مصر ثقافتها العربية واعتنقت الدين الإسلامي، ولكنه استمرار لموروث شعبي تناقلته الأجيال عبر تاريخ مصر وهذا الموروث الشعبي يخلط بين أساطير مصرية قديمة وتصورات شائعة عن الجنة وثمارها، وهكذا فإن التصور الشعبي عن منطقة منابع نهر النيل، كما اتضح من نصوص الأساطير العربية، كان في حقيقته نتاجا لخيال المصريين ووجدانهم بسبب العجز عن معرفة الحقائق الجغرافية حول منطقة أعالي نهر النيل ومنابعه، ومن ناحية أخرى، كانت هذه الأساطير نوعا من الموروث الشعبي المصري حول النيل، والذي ظل موضوعا للتداول الشفوي والمكتوب طوال عصور التاريخ المصري، وإن جرت عليه بعض التحويرات والتعديلات بحيث يتوافق مع التطورات الاجتماعية والثقافية، وبحيث يلبي الحاجة الاجتماعية والثقافية لأبناء هذا المجتمع ــ وقد حرص الذين كتبوا عن فضائل مصر في المصادر التاريخية والجغرافية العربية على أن يجمعوا هذا التراث الشعبي ويدونوه في كتبهم باعتباره نوعاً من الحقائق المسلم بها.[1]

وإذا كان المجرى الأعلى لنهر النيل ومنطقة المنابع قد احتلا هذه المكانة في نصوص الأساطير العربية، فإن فيضان النهر السنوي قد آثار اهتمام كل من كتبوا عن فضائل مصر وتاريخها وجغرافيتها من المؤلفين العرب، وكان الفيضان وأسبابه مرتعا لخيال هؤلاء وأولئك جميعاً ومجالا لتخمينهم وقد اعتمدوا ف هذا المجال إلى ما نقلوه من كتب القدماء وما جمعوه من الموروث الشعبي المتداول، فقد كان بلوغ الزيادة في نهر النيل عند تمام الستة عشر ذراعا، يعتبر علامة الوفاء أي وفاء النيل ــ وعندئذ يستحق تحصيل الخراج الذي للسلطان كاملا.[2] وتسمى زيادة الستة عشر ذراعا هذه "بماء السلطان". ويذكر المسعودي: أن أتم الزيادات نفعا للبلاد هي زيادة السبعة عشر ذراعا، وذلك لأنها تروي جميع البلاد، أما إذا زادت عن ذلك ووصلت إلى ثمانية عشر ذراعا فإن المياه تغطي رُبع أراضي البلاد حتى يفوق أوان الزرع، وهو ما اصطلح على تسميته استبحار الأراضي، وفي هذه الحالة يعقب انصراف تلك الزيادة حدوث الأوبئة والأمراض بمصر.[3]

---

[1] –قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور، ص ٩٩.

[2] –المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٣٤٣

[3] –المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ٣٤٢.

ومن الملاحظ أيضا على بعض كتابات المؤرخين المسلمين عن نهر النيل، أنه حاولوا إرجاع زيادة أو نقص مياه النيل إلى حركة الشمس والقمر في البروج السماوية، وبسبب النور والظلمة، والبدر والمحاق".[١] فارجعوا زيادة ماء النيل إلى المد الذي يكون في البحر؛ فإذا فاض ماء البحر تراجع النيل وفاض على الأراضي، وفسروا ذلك بأن حركة البحر التي أطلق عليها (المد والجذر) تحدث في كل يوم وليلة مرتين، وفي كل شهر قمري مرتين، وفي كل سنة مرتين.[٢]

بل أن بعض الجغرافيين والمؤرخين ذكروا أنه لمعرفة زيادة النيل أو نقصانه في كل سنة قبل حدوثها، فإن ذلك يستطلع ويستنتج من حركة القمر والشمس في البروج وقسموا البروج إلى نارية، وترابية، ومائية، وهوائية، وذكروا أن القمر إذا كان في البروج النارية فهذا يدل على قلة الماء ونقصانه، وإن كان القمر في البروج الترابية تكون مياه النيل متوسطة، وإن كان القمر في البروج المائية فهذا يدل على كثرة مياه النيل وتوقع حدوث استبحار الأراضي، أما إذا كان القمر في البروج الهوائية فإن مياه النيل تكون كثيرة المنافع قليلة الضرر.[٣] .

وأضاف صاحب "ذكر ما جاء في النوروز"[٤] أنه إذا صادف النوروز يوم الأحد للشمس ، فإن النيل يكون متوسطاً في طلوعه ، ويخرج زرعاً جيداً .. وإذا صادف النوروز يوم الاثنين للقمر ، فإن النيل يكون مقبلاً مباركاً لطلوعه ، ويحسن الزرع .. وإن صادف النوروز يوم الثلاثاء للمريخ ، فإن النيل يجري بلا توقف يكون وسطاً .. وإذا وافق النوروز يوم الجمعة للزُّهرة ، فإن النيل يكون مباركاً ولا يغلو شيء ، ويكثر صيد البر والبحر ، ويعدل السلطان ، وينجب الزرّع ، ويقل الشر . وإن وافق النوروز يوم السبت لزُحَل ، فإن النيل يكون غالباً يبلغ ثمانية عشر ذراعاً ، ويغلو الزيت ، ويقع الوباء في العلماءِ وأكابرِ الناس ومتوسِّطي العرب ، ويكون آخر السنة خيراً ."[٥] كما أن كتابات أولئك

---

[١] -المصدر السابق،ص ٩٨.

[٢] -لمزيد من التفاصيل عند المد والجزر اليومي والشهري والسنوي، راجع ما ذكره المقريزي في الخطط، ج١، ص ٥٤-٥٥.

[٣] -المنوفي: الفيض المديد في أخبار النيل السعيد، ص ١٧-١٨؛ راجع أيضا الخطط، ج١، ص ٦٧-٦٨.

[٤] – النيروز : كلمة فارسية معربة ، وأصلها في الفارسية نوروز معناها اليوم الجديد.

[٥] – مؤلف مجهول : ذكر ما جاء في النوروز (تحقيق عبد السلام هارون ، نوادر المخطوطات ، ج٢ ، سلسلة الذخائر، العدد٧١ ، القاهرة ٢٠٠١م)،ص٥٥.

المؤلفين حاولت إكساب النيل طابع القداسة في هذا الصدد أيضاً، فقد ذكر بعضهم أن الله سبحانه وتعالى يأمر كل الأنهار والعيون أن تمد نهر النيل بمياهها وقت الفيضان، فإذا اكتفى الناس بري أراضيهم وزراعاتهم أمر الله النيل أن يعود كما كان.[١] ومن الملاحظ أيضاً أن العلماء المسلمين الذين كتبوا عن نهر النيل في العصور الوسطى لاحظوا أن ماء النيل يخضر مع بداية الزيادة، وقد ذكر المقريزي أن عامة أهل مصر كانوا يقولون عن هذا الاخضرار "قد توحَّم النيل"[٢]، ويرون أن الشرب منه حينئذ مضر.

أما عن سبب هذا الاخضرار في ماء النيل فيرجعونه إلى لجوء الحيوانات ـ خاصة الفيلة ـ إلى البحيرات التي في أعالي النيل، فترقد فيها بأعدادها الهائلة لمقاومة شدة الحر هناك، ولذلك يتغير لون ماء تلك البحيرات، وعندما تهطل الأمطار في الجنوب وتتكاثر السيول في تلك البحيرات، تدفع هذه المياه الخضراء أمامها فتصل إلى مصر بهذا اللون مع الزيادة، ثم يعقب ذلك احمرار المياه وتكورها لاختلاطها بالطين والصخور المتفتتة التي تجرفها الأمطار من منطقة الجبال بالحبشة.[٣]

ويضيف الاقفهسي في كتابة "أخبار نيل مصر" نقلا عن مروج الذهب تفسيراً آخر لاخضرار ماء النيل عند بدء الزيادة، فيذكر أن بعض البحيرات في أعالي النيل تنقطه عن النيل في فترة نقص المياه فتمكث في البحيرات فترة طويلة فيخضر لونها، فلما تأتي الزيادة في المياه نتيجة للأمطار، تصب هذه البحيرات مياهها في النيل فيخضر مادة مع الزيادة.[٤]

هذا المحصول الوفير من الأساطير عن النهر المعطاء يعبر في الواقع عن توق الإنسان إلى المعرفة ومحاولة فهم الطبيعة من حوله والوقوف على أصولها وأسرارها دون أن يتكئ على أية مرجعية

---

[١] -المقريزي: الخطط، ج١، ص ٤٩-٥٠؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٦٩.

[٢] - المقريزي: الخطط، ج١ ، ٥٦.

[٣] -المقريزي، ج١، ص ٥٦-٤٦؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١، صـ ٢٢٤؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٦٤؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٤٨، يذكر الدكتور محمد عوض محمد "أنه يوجد بعض البحيرات في منطقة منابع النيل الاستوائية أشبه بالمستنقعات لكثرة الأعشاب والنباتات الهائية بها، وتقلة عمقها وانخفاض مستواها عن مستوى بحرة فكتوريا، لذلك يتغير لون المياه بها إلى اللون الأخضر"، وهذا الرأي يتفق إلى حد كبير مع ما ذكره المسعودي سابقا. محمد عوض محمد: نهر النيل، ص ٤٩-٦٣.

[٤] -مروج الذهب، ج١، ص ٣٥٢؛ الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص ٦٥.

علمية فاستيقظ فيه النيل الإنساني العظيم الباعث على الرغبة في إماطة اللثام عن أغوار المجهول عن منابع النيل فخرجت من خيالاته حملات استكشافية امتلأ الحديث عنها بالعديد من العناصر الأسطورية من جن وشياطين وقصور مطلسمة وجبال شاهقة ووديان مخيفة ومغارات وكهوف إلى بحيرات وإنها غامضة وجزر عجيبة ومن عالم البشر إلى عوالم الجن والسحرة والمخلوقات العجيبة وغيرها ويمكن تنضيد معظم الروايات التي قيلت في ذلك الشأن فيما يلي:أورد ابن معصوم في رحلته أن : "جماعة صعدوا هذا الجبل (جبل القمر) ليحيطوا خبراً بمبدأ النيل فرأوا وراء بحراً عجاجاً أسود كالليل، يشقه نهر أبيض كالنهار وهو النيل".[١]

ويقال أن : "ملكاً من ملوك مصر الأول، جهز أناساً للوقوف على أول النيل فانتهوا إلى جبال من نحاس، فلما طلعت عليهم الشمس، انعكست عليهم أشعة الشمس الواقعة عليها فأحرقتهم، وقيل أنهم انتهوا إلى جبال براقة كالبلور، فلما انعكست عليهم الأشعة الواقعة عليها فأحرقتهم".[٢]

ثمة روايات عديدة عن حملات استكشاف قبل الإسلام تداولتها كتابات المؤرخين منها : "كان الوليد بن درمع العمليقي، قد خرج في جيش كثيف ينتقل في البلدان، ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها، فلما صار إلى الشام انتهى إله خبر مصر، ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل فيعرف ما بحافتيه من الأمم، فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه، وخرج في جيش عظيم فلم يمر على أمة إلا أبادها، ومرّ على أمم السودان وجاوزهم ومرّ على الأرض الذهب، فرأى قضبانا نابتة من ذهب، ولم يزلْ يسير حتى بلغ البطيحة التي ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التي تخرج من تحت جبل القمر، سار حتى بلغ هيكل الشمس وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر وهو جبل عال".[٣]

وعن محاولات كشف منابع النيل بعد الفتح الإسلامي لمصر، أورد المؤرخون قصصاً عديدة منها، قد حدث :"أن سافر أناس إلى منابع النيل عدة مرات في أيام السلطان المؤيد بلغوها بعد ثمانية

---

[١] –ابن معصوم (علي صدر الدين أحمد) (ت ١١٢٠ هـ)، رحلة ابن معصوم المدني: سلوة الغريب وأسوة الأديب(تحقيق : شاكر هادي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٨م)، ص ١٥٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٤.

[٢] –السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٤.

[٣] –المقريزي: الخطط، ج١، ص ٥٢-٥٣.

أشهر وعادوا منها حاملين أمتعة وسلعاً".[١] ويشير ابن عميرة إلى أن : "الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتهى أن يعرف أصل النيل فأمر أن يشتري عبيداً صغاراً زنوجاً أو ما شاكلهم، ثم يستوعبوا، ويسلموا لصيادي السمك والتجار ليعلموهم صنعة البحر، صيد السمك، لتكون قوقم، فإذا مهروا في ذلك، يصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل..".[٢]، ويقول: "ناصر خسرو": "يُقال أن حقيقة منابع النيل لم تعرف، وسمعت أن سلطان مصر، ارسل بعثة لتتبع شاطئ النيل سنة كاملة، ودرسه، ولكن أحداً لم يعرف حقيقة منبعه".[٣]

كما تحكي رواية أخرى وقائع مثيرة عن : "أن بعض خلفاء مصر أمر قوماً بالمسير إلى حيث مجرى النيل، فساروا حتى انتهوا إلى جبل عال، والماء يترل من أعلاه، وله دوي وهدير لا يكاد يسمع أحدهم كلام صاحبه، ثم أصعدوا واحداً منهم إلى أعلى الجبل، فلما وصل رقص وصفق وضحك، ثم مضى في الجبل ولم يعد ولم يعلم أصحابه ما شأنه، ثم ثانيا: ففعل مثل الأول، فصعد ثالث، وقال: أربطوا وسطي حبلاً فإذا وصلت وفعلت مثل ما فعلا فاجذبوني، ففعلوا، فلما صار في أعلى الجبل فعل كفعلهما، فجذبوه إليهم. فقيل: إنه خُرِسَ ولم يرد جواباً، ومات من ساعته، فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك والله أعلم...".[٤] ويفسر ابن معصوم سبب ما حدث لهؤلاء الناس بقوله: "أنهم رأوا حجر الباهت وهو نوع من المغناطيس في لون المرقشيشا يتلألأ حسنا، إذا رآه الإنسان ضحك حتى يموت ولا يمسك عنه البتة".[٥]

ما يهمنا في الروايات السابقة هو أن الضمير الشعبي في صياغته لهذا النوع من الحكايات قد استفاد من بعض التفصيلات والأسماء التاريخية في نسج الرواية لكي يضفي على روايته مصداقية زائفة لغرس الإيحاء بمصداقية ما يُروي، وإلباسه ثوب الحقيقة بهتانا، على الرغم من اتجاهه الأسطوري الواضح، مع حرص الراوي على إثارة ملكه التخيل لدى المتلقي، المهم أن مثل هذا

---

[١] –أوليايچلبي، سياحتنامه مصر، ص ٤٣٠.

[٢] –الفضائل الباهرة، ص ١٦٤.

[٣] –ناصر خسرو علوي: سفرنامة (ترجمة: يحي الخشاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ١٢٢، القاهرة ١٩٩٣م)، ص ٩٦.

[٤] –ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص ١٦٤.

[٥] –ابن معصوم: الرحلة، ص ١٥٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٤.

النوع من القصص يوضح مدى الاهتمام الذي استحوذ على الناس لمعرفة أصل الأشياء كما يؤكد على رفض العقلية الشعبية فكرة الاعتراف بالجهل فيما يتعلق بالنهر الذي ارتبطت به حياة الناس وجوداً وعدماً.

كما أن نهر النيل أخذ قسطاً موفوراً واهتمامًا ملحوظاً من القصص الديني، من جانب المؤرخين والجغرافيين، خاصة في العصر المملوكي سواء أكان ذلك القصص مما ورد في القرآن الكريم، أو في الأحاديث النبوية الشريفة، أو مما أُثر عن الصحابة والسلف الصالح، أو من أقوال المفسرين للقرآن الكريم، وعلماء اللغة، بل أن الكثير من مؤلفات ذلك العصر احتوت على الكثير من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي تنسب النيل إلى أنهار الجنة؛ وتصبغه بصبغة القدسية، وتضفي عليه صفة الإيمان.[1] فهو:" سيد الأنهار، سخر الله له كل الأنهار والعيون لتمده بمائها وقت زيادته؛ فإذا وَفَّ زيادته وزُرعت الأراضي، أمر الله النيل أن يعود كما كان".[2]

ويبدو أن هذا الاعتقاد الذي سيطر على أفكار الجغرافيين والمؤرخين المسلمين نتج من حقيقة أن الزيادة تحدث في مياه نهر النيل صيفا، في حين أن مياه معظم الأنهار المعروفة تنقص في ذلك الفصل من السنة.

ويشير الشوكاني إلى أن : " المؤرخين توسعوا في ذكر الأحاديث الباطلة في فضائل البلدان ولا سيما بلدانهم، فإنهم يتساهلون في ذلك غاية التساهل، ويذكرون الموضوع ولا ينبهون عليه، والكذب في هذا قد كثر وجاوز الحد، وسببه: ما جبلت عليه القلوب من حب الأوطان والشغف بالمنشأ".[3]، واستهدف المؤرخون عند سرد الأحاديث والقصص الديني أثبات أسماء الرواة في تسلسل لغرس الإيحاء بمصداقيته ما يروي، وإلباسه ثوب الحقيقة في محاولة دائبة للربط بين نهر النيل والقصص الديني والأحاديث المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلمأو ضمن المأثور عن الصحابة

---

[1] -المقريزي: الخطط، ج١، ص ٤٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٠٢-٣٠٣، السيوطي: الكلام على النيل، ص ١٣-١٩؛ كوكب الروضة، ص ٤٩-٥١؛ الأقفهسي: أخبار نيل مصر، ص ٣٧-٤٠.

[2] -ابن الظهيرة: الفضائل الباهرة ، ص ١٦٩؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص ٤٩-٥٠-٦٠؛السيوطي : بلبل الروضة ، ص٢٨٧

[3] -الشوكاني (محمد بن علي) (ت ١٢٥٠ هـ): الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة(تحقيق: عبد الرحمن اليماني، الطبعة الأولى، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٩٠م)، ص ٤٣٦.

والسلف الصالح، فقد اهتم الكُتّاب العرب ببيان أنه لم يرد اسم نهر سوى نهر النيل في القرآن الكريم، ويقول السيوطي: "نهر النيل من سادات الأنهار، وأشراف البحار؛ لأنه يخرج من الجنة على ما ورد به خبر صاحب الشريعةصلى الله عليه وسلم، وليس في أنهار الدنيا نهر يسمى بحرا غير نيل مصر لكبره واستبحاره".[١]، والعرب تسميه بحراً".[٢]، وليس في العالم ما يسمى بحراً ونهراً سواه".[٣]، كما لم يسم نهر من الأنهار في القرآن سوى النيل في قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾ [القصص / ٧]، قال:" وأجمع المفسرون على أن المراد باليم هنا نيل مصر".[٤]

كذلك امتلأت المؤلفات المعاصرة بأحاديث كثيرة منسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تنسب نهر النيل إلى أنهار الجنة،وتضفي عليه صفة القدسية، ومن طبيعة الأمور أن النهر الذي كان إلهاً في عصور الوثنية (حابي) لا يمكن أن يحتفظ بألوهيته في ظل الإسلام دين التوحيد، ولكن أهمية نهر النيل في حياة البلاد وساكنيها جعلت النهر يحتفظ ببعض من صفات القدسية في وجدانهم وفي آدابهم، وقد نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم قوله في حديث المعراج : "ثم رفعت إلى سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، نهران ظاهران، فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات".[٥]ويلاحظ أن حديث المعراج نفسه ملئ بالمبالغات المثيرة والتصورات الباهرة، ولذلك كان انتشارها الواسع بين عوام الناس الذين تعلقوا بها وأخذوا بما فيها من خيال خاصة وأن القصص القرآني لم يذكرها إلا مروراً عابراً. فكانت فرصة سانحة كي يلجأ الخيال الشعبي إلى كل الوسائل المتاحة لديه لإثبات موقفه خاصة لما تثيره المعجزة من خيال ومن رغبة في المبالغة والمغالاة.

---

[١] –السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٠٤.

[٢] –ابن محترة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٤٧.

[٣] –ابن معصوم: الرحلة، ص ٣١٢.

[٤] –السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٧٩.

[٥] – المقريزي: الخطط، ج١، ص ٥٠ ؛ السيوطي: كوكب الروضة، ص ١١٥؛، النويري: نهاية الأدب، ج١، ص ٢٦٣ .

أسطورية النهر لم تتكون دفعة واحدة، وإنما استمر كل جيل يضيف إليها من خياله ما يوائم تصورات عصره، وما يزيد من تأثيرها في نفوس محبيه، فتباينت أساطير النيل بحسب الزمان والمكان، ولا يوجد مصدر تناول أي جانب من جوانب الحضارة المصرية إلا وللنيل فيه مكان ومكانة، فقد ظلت أسطورية تسيطر على أذهان وعواطف الناس لقرون طويلة، ظن الوجدان الشعبي فيها أن النيل نزل على أجنحة الملائكة؛ وأن جبريل عليه السلام نزل بالنيل والفرات على جناحيه: "فكان النيل على جناحه الأيسر، والفرات على جناحه الأيمن، وقال بعض الفضلاء: أن هذا يدل على أن ماء النيل أخف من ماء الفرات لأن الشئ الثقيل من عادته يحمل على الجانب الأيمن، والخفيف على الجانب الأيسر".[1]

وجاءت رؤية الناس لنيلهم مثقلة بالخيال الذي يكشف عن ماهية القراءة الشعبية للتاريخ ــ وهي قراءة تعد سندا لوجودهم الآني ودعما لهويتهم تحقيقا للذات الجماعية التي تصر على إثبات دورها في صياغة التاريخ بشكل مباشر أو غير مباشر ــ لإزاحة الغبار الذي غطى حياة نهر النيل الذي عليه قوام حياتهم ، فتضافرت سوياً عناصر الخيال وعناصر التاريخ بشكل متناغم بات واضحاً في إسهاب المؤرخين والجغرافيين، وكُتّاب الفضائل في سياق وصفهم لعجائب النيل، والتفاعل البشري مع أسماك وحيوانات النيل المائية والي قدموها لنا مزجاً بين القياس على الكائنات المحسوسة المألوفة. وبين التصور الذي اصطنعه ذلك الخيال من هنا تأتي عجائبيتها ومطلقيتها، مثل التمساح الذي اعتقدوا أنه لا يوجد سوى في نهري النيل والسند وكان ذلك دليلا ــ في رأيهم ــ على أن النهرين يخرجان من منبع واحد قرب الجنة الأرضية.[2]

كما واصلت الكائنات المائية التي تعيش في نهر النيل القيام بدورها البارز في المعتقد الشعبي المصري، والتي صبغت صورها مزجا بين النموذج المألوف والخيال الأسطوري ففي "كوكب الروضة" يشير السيوطي إلى أنه يوجد في نهر النيل شيخ البحر، وهو سمكة على صورة آدمي، وله

---

[1] -ابن الأخوة (محمد بن أحمد القرشي) (ت ٧٢٩ هـ): معالم القربة في أحكام الحسبة(طبعة كمبردج ١٩٣٧م)، ص ٢٣٩-٢٤٠.

[2] -السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٦؛ الهروي: الإشارات، ص ٤١.

لحية طويلة، ويكون بناحية دمياط، وهو مشئوم، فإذا رأى في مكان دل على القحط والموت، والفتن، ويقال: أن دمياط تنكب حتى يظهر عندها..".[١]

كما أشار المؤرخون إلى ما أحاط بحيوان "السقنقور" الشبيه بالتمساح من خيال: "إذا وضعه خارج الماء فما قصد الماء صار تمساحا، وما قد البر صار سقنقوراً".[٢]، كما أنه :"يعض الإنسان ويطلب الماء فإن وجده دخل فيه ، وإن لم يجده بال وتمرغ في بوله ، وإذا فعل ذلك مات المعضوض لوقته ، وسلم السقنقور ، فإن اتفق أن سبق المعضوض إلى الماء فدخله قبل دخول السقنقور الماء وتمرّغه في بوله مات السقنقور لوقته ، وسلم المعضوض ".[٣]

وبرغم النزعة العلمية لدى الرحالة عبد اللطيف البغدادي إلا أنه وقع تحت تأثير العجيب والغريب في نيل مصر بقوله: "السرب وهي سمك يحدث لآكلها أحلام ردية مفزعة، ولا سيما الغريب، ومن لم يعتدها، والأحدوثات فيها مشهورة".[٤]ويحسب لأبن حوقل نقده لتلك الخرافة بقوله:" وأكلتها أنا وجماعة من ذوي التحصيل فشهدوا بكذب هذه الحكاية".[٥] ،وأشار المقريزي إلى عجائب السمكة المعروفة بـــ (سمكة الرعادة):" ونفعها في البرء من الحمى ، إذا علقت على المحموم "[٦].ويقول عنها :" قال ابن البيطار عن جالينوس هو الحيوان البحري الذي يحدث الخدر وزعم قوم أنه إذا أدني من رأس من يشتكي الصداع سكن صداعه ،إن أدني من مقعدته من انقلبت مقعدته أصلحها . وكنت أنا _ يقصد المقريزي نفسه _ جربت الأمرين جميعاً فلم أجده يفعل ولا واحداً منهما ففكرت أني أدنيته من رأس المصدوع والحيوان ما هو حيّ لأنني ظننت أنه على هذه

---

[١] -السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٤٥؛ حسن المحاضرة ج٢، ص ١٨٨.

[٢] – السيوطي: كوكب الروضة، ص ١٤١؛ حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٨٨؛ القزويني: عجائب المخلوقات، ص ١٠١.

[٣] – المقريزي : الخطط ،ج١ ، ص٦٦؛ عبد اللطيف البغدادي: الإفـادة والاعتبـار، ص ٨٥، أوليـاجلبي: سياحتنامه، ص ٤٤٤.

[٤] -عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٨٨؛ ابن حوقل: صـورة الأرض، ص ١٥٦؛ المقدسـي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢٠٨.

[٥] – ابن حوقل : صورة الأرض، ص ١٥٧.

[٦] – المقريزي : الخطط ، جـ١ ،ص٢٨؛ القزويني : عجائب المخلوقات، ص ١٦٩؛المسعودي: مروج الذهب و ج١ ، ص٣٥٦.

الحال يكون دواء يمكن أن يسكن الصداع بمنزلة الأدوية فوجدته ينفع ما دام حيًّا ".[١]وأشار القزويني إلى أن من عجائب أسماك النيل :" أن في النيل موضع يجتمع فيه السمك في كل سنة يوماً معلوماً ، فالإنسان يصيد بيده ما يشاء ثم يتفرق إلى ذلك اليوم من السنة القابلة ".[٢] ويبدو أن القزويني يتحدث عن حقيقة ربما مفقودة عن النيل حالياً إذ أن الثابت أن فكرة ظهور تجمعات للأسماك في منطقة معينة في يوم معلوم له نظائر في مناطق بحرية أخري من العالم.[٣]

وربما كان ظهور تلك الكائنات في نهر النيل عند العامة، يهدف أساسا للحفاظ على المياه من العبث والتعدي فنسجوا حول شريان حياتهم أساطير حافظة، وصلت إلى حد العبادة والتقديس أحيانا، لا سيما وأن تقديس مصادر المياه ما زال معتقداً لدى كثير من العامة إلى اليوم.

والماء هو مصدر الخصب والحياة، وهناك كثير من العادات والتقاليد تحمل هذه الرموز ومنها التعميد بالماء[٤] وقطرات الزيت كمصدرين للخصب والنور، وبالتالي لا يمكن أن نغفل الروابط بين هذا الحطام الرمزي في المعتقدات ، وبين بروز العنصر المائي في أساطير الخلق في مصر القديمة مع

---

[١] المقريزي : الخطط ، جـ١، ص٦٦؛ المسعودي: مروج الذهب و ج١ ، ص٣٥٦.

[٢] – القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، ص١٦٩.

٣ –يوجد نظائر لخاصية أسماك النيل التي تحدث عنها القزويني في وقتنا الحاضر فيظهر سمك يسمي بـ (سمك الحريد) في سواحل جزيرة فرسان بالبحر الأحمر[أحدى الجزر التابعة لمنطقة جازان السعودية] ومن الغريب أن هذا السمك لايظهر إلا في فترة واحدة من كل عام في الفترة الواقعة بين شهري إبريل ومايو ، وظهوره يكون في الصباح ومن النادر جداً خروجه إلى الشاطئ بعد الظهر و ويقوم العامة بصيده بأيديهم أو بواسطة أسياخ حديدية مدببه و ، ومن الحكايات الشعبية التي تشاع حول(الحريد) لدي أهل الجزيرة أن هذه الأسماك قادمة من بلاد الهند وأن أسماكاً أخرى تختلف عن أسماك الحريد تسمي (الحماميق) ومفردها (حُمّيقة) تظهر عند الهنود في نفس الموسم تهديها شواطئ جزيرتهم إلى الشواطئ الهندية مقابل ما تهديه شواطئ تلك البلاد إلى سكان هذه الجزر. انظر :إبراهيم عبد الله مفتاح:فَرَسَان الناس والبحر والتاريخ (الطبعة الثانية ، شركة المدينة المنورة للطباعة ، جازان ٢٠٠٥م)، ص١٢٥–١٢٧.

٤– التعميد هو أول الطقوس المسيحية وأهمها على الإطلاق، فبدونه لا يمكن أداء باقي الطقوس الأخرى فهو شرط أساسي للخلاص ودخول ملكوت الرب طبقاً لكلمات عيسي ابن مريم عليه السلام: «ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت الله إلا إذا ولد من الماء والروح» (يوحنا ٣:٥) ويجري أثناء التعميد تجديد روح المولود من خلال غمره في الماء ثلاثا باسم الأب والابن والروح القدس وبذلك يكون قد توحد مع المسيح وهيئة الكنيسة ويجب تعميد المواليد في أسرع وقت ممكن بمجرد بلوغهم ثمانين يوما للبنات وأربعين يوما للغلمان، وبعد غمر المولود في الماء ثلاثا ترشم شارة الصليب اثنين وثلاثين مرة بالزيت على بشرة المولود ذكرا كان أم أنثى.

المحيط الأزلي الذي يعد عاملاً مشتركا في جل أساطير الخليقة في العالم كله، وموارد المياه عند الإنسان مكان مقدس، فالمكان في مفهومه غير متجانس دنيويا ودينيا، وأن كانت شعائر دينية معينة تستمر في الحياة وتقع موارد المياه من ضمنها، وتحافظ على قدسية هذه الموارد.

وإذا حاولنا الوصول إلي الجذور الأسطورية للمياه فسنري أنها كانت تلعب دوراً بالغ الأهمية في المعتقدات والديانات القديمة والحديثة وسنجد شواهده ودلائل تشير إلي أي حد يقدسها الناس منذ حقب موغلة في الزمن، وصلاة الاستسقاء الجاهلية ذات دلالة تاريخية ودينية منذ القدم وكانت تعد من طقوس العرب الدينية القديمة، وكانت تشير بالمثل إلي تقديس الناس للماء لا بذاتها وإنما بالنظر إلي الأرواح التي تحل فيها. بيد أن خروج هذه الموارد المائية من دوائر الشعائر الدينية وارتباطها مباشرة بخطة تنظيمية عقلية، تقوم عليها جهات معينة مثل ما قام به المصري من تنظيم للحصول علي مياه النيل بشق الترع ،والقنوات والنهوض بإقامة الجسور، والسدود عند الفيضان ومع ظهور شبكات المياه الحديثة تخفف المصري من القلق في تأمينها أو انقطاعها. فابتعدت عن مياه النيل صفة القداسة، كما أننا اليوم نقف أمام نهر النيل وخزانات المياه الرئيسية في قري ومدن مصر فلا يثير فينا هذا الوقوف أية مشاعر قدسية !!!

الفصل التاسع

الموروث الشعبي المتعلق بالشخصية المصرية

".. نافقة بضروب المطاعم والمشارب وحسن الملابس، ولي أهلها رفاهة ، وظرف شامل وحلاوة.."

الإدريسي

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق/٣٢٤

".. مصر هي أم البلاد ، وقرارة فرعون ذي الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة ، المتناهية في كثرة العمارة ، المتناهية بالحسن والنضارة ، ومجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ،وبها ماشئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها...وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو. "

ابن بطوطة

"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"/٣٢

ظلت الشخصية المصرية عرضة للأخذ والرد وتضارب الآراء ووجدت العديد من التحليلات لها بدءاً من هيرودوت واسترابون وامتداداً عبر العصور إلي ابن زولاق والكندي والسيوطي وابن جبير، العبدري، وابن خلدون، والمقريزي وغيرهم العديد من الذين أكدوا علي أن للمصريين شخصيتهم المتفردة وسماتهم المادية والثقافية المميزة التي تفردهم عن غيرهم من الشعوب وكانت نظرة التأرجح هذه عند المؤرخين دافعاً لأن جاءت النصوص التاريخية محملة بسمة (النـــزوع الأسطوري والخرافي) في سياق حديثهم عن السمات والخصائص المميزة للمصريين.

وقد نهض (المحتسب التنسيي) على تلك النـــزعة في سياق وصفه لأخلاق أهل مصر في مدينة تنيس — المندثرة سنة ٦٢٤هـ— بقوله:" وطالع تأسيس هذه المدينة برج الحوت وصاحبه المشتري، السعد الأعظم، وصاحب الشرق الزهرة؛ لذلك كثر طرب نفوس أهلها، وفرحهم، ورغبتهم في مداومات اللذات واستماع الأغاني ومواصلة المسرات"[1]

[1] — ابن بسام(محمد بن أحمد التنيسي): أنيس الجليس في أخبار تنيس (تحقيق: جمال الدين الـشيال، الطبعـة الأولي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٠م)، ص٤٠.

وانساق المؤرخون لهذا النزوع الخرافي عندما ربطوا بين طالع السعد وأخلاق أهل القاهرة بقولهم:" ووضع البناءون الأساس في لمح البصر، فبُهِتَ المنجمون وصاحوا قائلين "القاهرة" والقاهرة اصطلاح للمنجمين يطلق على المريخ جلاد الفلك، فلذلك السبب لا تنقطع الدماء والقتال والنزاع والفتن والفساد عن القاهرة المعزية التي سميت بهذا الاسم لوضع أساسها في طالع المريخ"[١]

ولعبت الأساطير والحكايات الشعبية دوراً في وصف علاقة المرأة بالرجل في مصر[٢] فيقول المقريزي في سياق وصفه لأسماك النيل أن به سمك يسمي الرعَّاد قيل عنه :" إذا علقت المرأة شيئاً من الرعَّاد عليها لم يطق زوجها البعد عنها" [٣] . كما لجأت بعض النساء إلى التحكم فيهم حتى أننا نسمع عن بعض السلاطين والحكام ــ كالسلطان إينال ــ أنهم استسلموا لزوجاتهم حتى أصبحت الواحدة منهن على جانب كبير :"من نفوذ الكلمة ووفور الحرمة في الدولة وطواعية السلطان لأوامرها[٤]" وفي هذه الحالة يصبح السلطان أو الأمير :"لااختيار له معها " [٥] .

وعلى الرغم من سمو مكانة المرأة المصرية ، ونيّلها من حقوقها في مختلف عصورها ما لم تنله امرأة في مجتمع آخر ، وعلى الرغم من نشاط المرأة المصرية في مجال السياسة [٦] والآداب فإن أغلب

---

١ – أوليا چلبي: سياحتنا مه مصر، ص٣٩٢.

٢ ــ* لعب سحر الخرافة عند المصريين القدماء دوراً كبيراً في الحب ، فإذا أراد الرجل أن يستميل قلب أمرأة كان عليه أن يستعمل تماثيل مصنوعة من شمع العسل صورت في هيئة المنافس ويجري عليها أعمالاً سحرية فإذا حدث من مفعولها الأمل المنشود كتبت بعض صيغ سحرية تحدث عند المرأة أحلاماً يظهر فيها العاشق فتخضع لسلطانه وتهيم به (وليم نظير : العادات المصرية بين الأمس واليوم ، القاهرة ١٩٦٧م)،ص٢٧.

٣ – المقريزي: الخطط، جـ١، ص٦٦، القزويني: عجائب المخلوقات، ص١٣٤؛ المسعودي:مروج الذهب ، ج١،ص١٢٣.

٤ –أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغري بردي)(ت٨٧٤هـ):منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور (ج٢،نشر وليم بير °كاليفورنيا١٩٣١م)،ص٥٥،٥٤؛سعيد عبد الفتاح عاشور :المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك(دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٩٢م)،ص١٤١–١٥٥.

٥ – سعيد عبد الفتاح عاشور :المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك،ص١٥٠.

٦ – من سيدات مصر اللاتي لعبْن دوراً في حياة مصر السياسية ؛ سيدات القصر الفاطمي كتدبيرهن مقتل الصالح طلائع بن رزيك . والاستغاثة بجيش نور الدين ، ومن ذلك ما قامت به شجر الدر التي حكمت مصر ثلاثة شهور . وترجم العماد الأصفهاني في خريدة القصر وجريدة العصر لأديبات مصريات ، وذكر نماذج من أشعارهن . وذكر الأدفوي تراجم لأربع نساء هن : تاج النساء ابنة عيسى بن علي بن وهب ، وخديجة بنت علي بن وهب ، رقية بنت محمد علي بن وهب ،مظفرية بنت عيسى بن علي بن وهب في مقدمة الطالع السعيد للأدفوي ،نقلاً عن أحمد سيد : الشخصية المصرية،ص١٩٧.

الكتابات الأدبية لم تصور لنا إلا جانباً واحداً هو وصف جمالها وما يرتبط به من زينه وفتنة وبواعث الحب أو الجنس ومظاهر إعجاب الرجال بها والتي لعبت فيها الأسطورة والخرافة دورها الفاعل. حيث كانت زينتها أحياناً وشماً تدقه على خدها[١] . فترسم بالمسك صورة عقرب أو ثعبان إثارة أو إغراء أو معتقد في جذب الرجال إليها، فالمرأة المصرية هنا قد توحي للرجل وتناديه حينما تحذره من الاقتراب أو تخيفه من العقرب أو الثعبان. ومع ذلك فلا بأس بهذا اللدغ، ولا بأس من الاقتراب.فالشاعر ابن عرام يصف حبيبته بالقسوة ، ومع ذلك فإنه يقبلها علي الرغم من أن العقرب يلدغه :

مَنْ مُعيني على اقتناصِ غزالٍ ** نافرٍ عن حبائلي روَّاغ

قلبهُ قسوةً كجلمودِ صخرٍ** خدُّه رِقةً كزهرِ البـــاغِ

كلما رمْتُ أن أُقبِّل فاه ** لَدَغَتْني عقاربُ الأصْدَاغِ [٢]

فلقد احتل كل من الثعبان والعقرب ركناً مهماً في قائمة الأشكال الحيوانية والنباتية التي كانت المرأة المصرية تقوم بوشمها على بدنها بما تحمله تلك الأشكال من رموز ودلالات تعكس بالضرورة بعضاً من رواسب أفكار أقدم.[٣]

---

١ – الوشم الذي يزين به بعض العامة أيديهم وصدروهم وشفاههم ووجوههم لم يكن في يوم من الأيام ضـــرباً من العبث ، وإنما يعود إلى التاريخ القديم عندما كان الناس يعيشون في حياة بدائية يقدسون فيها بعض الحيوانــات ويخشون فيها من بعض مظاهر الطبيعة كالموج والرياح والمطر والرعد ، ويدخل الوشم في إطار عقيـــدة الطـــوطم Totemأو النظام التوتمي Totemisme وكلمة طوطم تطلق على كل أصل حيواني أو نباتي تتخذه عشيرة مـــا رمزاً لها ولجميع أفرادها ، ولقد مارس المصريون القدماء الوشم في ظل دياناتهم القديمة وربطوه بها ربطاً كبيراً كمـــا أنهم فوق ذلك اتخذوا من رسومه وسائل للزخرفة والتجميل ، ولم يقتصر أمر الوشم لدي المصريين على التجميـــل فحسب إلا أنه كان أيضاً وسيلة علاجية لبعض الأمراض ، كما ظن أنه يمنع الحسد .، والوحدة المثلثة الشكل الـــتي لا تزال تستعمل في أيامنا هذه في شكل حجاب وكذلك ما يسمى الآن خمسة وخميسة ما هي إلا بقية من معتقـــدات شعبنا في الماضي البعيد ، كما أن العدد خمسة وخميسة هذا له دلالة سحرية اتخذه العامة وسيلة وقائيـــة في قـــولهم " خمسة وخميسة في عين العدو" وهى تعني اليد والأصابع الخمسة حيث يرفعها المرء في وجه العدو أو الشخص الـــذي يخشاه كأنه يقول :"حوش يا حواش ". تلك هى بعض الرموز المصطلح عليها كما أن هناك وحدات تـــستعمل إلى الآن في الوشم ويرجع تاريخها إلى المصري القديم ؛ كالنخلة والسمكتين ، والأفعى ، والعقرب ، والعصفور الأخضر .انظر/سوسن عامر :الرسوم التعبيرية في الفن الشعبي (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨١م)،ص١٩

٢ – أحمد سيد محمد : الشخصية المصرية ، ص٢٠٠.

٣ – لم تقتصر عادة الوشم على النساء فقط بل قام بعض الشباب والغلمان بدق الوشم علي الأصداغ فيـــذكر الإسحاقي المنوفي عن حادثة تعرض أحد الغلمان للتحرش:"إذا كنت للتعنيق والبوس كارهاً ، فلا تمش في الأســـواق إلا منقباً ، ولا تخرج الأصداغ من من تحت طرة، وتظهر منها فوق خـــديك عقربـــاً،فتـــهتك مـــستوراً وتتلـــف عاشقاً".انظر :الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول،ص٢٨.

الموروث الشعبي الذي يربط بين المرأة المصرية وكل من العقرب والحيَّة نجد تصويره عند القاضي الفاضل حيث يعترف بفتنة العقرب[١]، ولكنه اكتشف أن لها رقية تعجزها عن اللدغ وتكف أذاها آلا وهى القبلات :

حدِّثْنا يا فتى وأخبرنا ** وأيمـا شئت منهـما فقـلْ

عن حيَّة في الخدود ظالمةٌ** تمنع من شمِّ وردها الخضلْ

إن لهـا رقيـةً مجربـةً ** وإن ألفاظهـا من القبـل

ويصور القاضي الفاضل زينة المرأة المصرية وما بها من وشم للحيَّة[٢]على الخد فيقول:

من حيَّة في الجمْرِ ما احترقَتْ ** والجمرُ فوق الخدِّ ما اشتعَلا

لو أنها تلك التي انقلبتْ ** يوم العصا لم يعصِ من جهلا[٣]

---

[١] -* العقرب :الصورة النموذجية لهذا الكائن العنكبوتي الخطر من أقدم النقوش الهيروغليفية المعروفة . وقد استعمل لكتابة اسم حاكم من عصر ما قبل الأسرات ،وهو الملك العقرب وكان العقرب إلهاً عبد بأسماء مختلفة كما كانت تعاويذ يستخدمها الناس ضد لدغة أي نوع من الزواحف ، ووردت في أساطير مصر القديمة حيث تجرأت العقارب التي هي أعداء البشر وخصوم الآلهة ذات مرة ، على أن تلدغ الألهة ولكن الآلهة كانوا أقوي من السم واستطاع البشر بواسطة السحر أن يجعلوا لحمهم كلحم الآلهة .چورچ بوزنر وآخرون :معجم الحضارة المصرية القديمة ،ص٢٣٤.

[٢] -* للثعبان أو الحيَّة دون سائر الحيوانات الأخرى تاريخ طويل تحفه الأساطير من جوانبه كافة. وتكاد لا تخلوا أمة من أساطير دارت حولها وخلاصة ما قيل عنها ؛ أنها تمتلك العشْب ذا القوة السحرية ، كما نظر إليها كجن أو شيطان له قوة خارقة تلحق الأذى أو الجنون في كل من يحاول إيذائها ، وارتبطت حياة الناس بالحية ارتباطاً وثيقاً لانتمائها إلى عالم آخر ، ويفوق طاقة الإنسان . أحمد النعيمي :الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام ،ص١٨٠؛كما أن الأفعى أو الحيَّة لعبت دوراً هاماً في الموروث الشعبي حيث قامت بدور الحارسة أو الحامية للإنسان كما تقوم بمطاردة من يمثلون الدنس في الجماعة ، وتروي الحكايات الشعبية الحكايات عن الحية التي تحرس مسجد البيومي بالحسينية وأفعى الشيخ هريدي في صعيد مصر ، وهو أحد الأولياء في أقاصي الصعيد ويستمد هذا الولي شهرته من امتلاكه أفعى عظيمة تقيم خلف مسجده، شاع عنه أنه يستطيع شفاء الناس من الأمراض والعلل عن طريق تسليط الأفعى على الجزء المريض في جسد الشخص ، فتمتص الأفعى ذلك المرض ويبرأ المريض، ولعل أشهر الأولياء الذين ارتبط اسمهم بالحيات هو الشيخ أحمد الرفاعي الذي يقوم مسجده الكبير بمنطقة القلعة في القاهرة . ثناء أنس الوجود : رمز الأفعى في التراث العربي (سلسلة ذاكرة الكتابة ،القاهرة ١٩٩٩م)، ص٧٧-٧٨.

[٣] - القاضي الفاضل: الديوان (الجزء الأول، تحقيق أحمد أحمد بدوي ، القاهرة ١٩٦١م)،ص٧٨؛ نقلاً عن أحمد سيد: الشخصية المصرية ،ص٢٠١ .

لعل ذلك ما دفع بالعديد من الكتابات التاريخية أن تصف المرأة المصرية بالتسلط والسيطرة، وتصف الرجل المصري بقلة الغيرة على امرأته مستعينة في ذلك كله بشواهد الأساطير والخرافات الممزوجة ببعض القصص الديني، مثال ذلك: ما روّجه ابن عبد الحكم من أساطير حول غرق (فرعون موسي) وجنوده فيقول: "وكان نساء أهل مصر حين غرق من غرق منهم مع فرعون من أشرافهم، ولم يبق إلا العبيد والأجراء لم يصبرن عن الرجال، فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه وتتزوج الأخرى أجيرها، وشرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئا إلا بإذنهن، فأجابوهن إلي ذلك فكان أمر النساء على الرجال، والقبط على ذلك إلي اليوم أتباعا لمن مضى منهم لا يبيع أحدهم ولا يشتري إلا قال: أستأمر امرأتي.."[1] ويضيف المقريزي:" ولهذا أيضاً صارت ألوان أهل مصر سمرا من أجل أنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق واستولدهن"[2] "فأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي"[3] وذلك بتدبير من الملكة دلوكة التي استطاعت أن تقود مصر في ظل فراغ سياسي وأمني آنذاك بها قامت به من تدريب." فلم تزل مصر ممتنعة بتدبير تلك العجوز نحوا من أربعمائة سنة".[4]

والناظر في الخرافات التي دارت حول قوة وشكيمة المرأة المصرية يدرك أنها تأثرت بالقصص العربية في العصر الجاهلي، فقد أورد لنا ابن فضل الله العمري ما استعاره الوجدان الشعبي من مضمون لقصة (الزباء ملكة الجزيرة)[5] دون التفاصيل في سياق الحديث عن بناء مدينة الإسكندرية

---

[1] – ابن الحكم: فتوح مصر ، ص٤٨، ص٤٩، المقريزي: الخطط، ج١، ص٧٩.

[2] – المقريزي: الخطط،ج١ ، ص٧٩.

[3]– المقريزي: الخطط،ج٤ ، ص٤٩٢.

[4] –الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص٣٤ ، ابن إياس : بدائع الزهور ،ج١، ص١٨.

[5] – تعد قصة (مصرع الزباء) واحدة من نماذج أساطير العرب التي تواتر ذكرها بين الناس، والتي اعتمدت دون ريب علي جزء من التاريخ ثم مزجت هذا التاريخ بالخيال ، وملخصها.إنه كان جذيمة قد ملك ما علي شاطئ الفرات، وكانت الزباء ملكة الجزيرة. وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها فكتبت إليه : إنها لم تجد مُلكُ النساء إلا قبحاً في السماع وضعفاً في السلطان، وإنها لم تجد لملكها موضعاً ولا لنفسها كفئاً غيرك، فاقبل إليّ لأجمع ملكي إلي ملكك وأصل بلادي ببلادك ، وتتوالي الأحداث وتقتل الزباء جذيمة بطريق الحيلة، وتثأر لمقتل أبيها وقام (عمرو بن عدي) ابن أخت جذيمة يثأر لمقتل خاله، وحاولت الزباء أن تهرب فأبصرت عمراً فعرفته فمصت خاتمها وكان فيه سم وقالت (بيدي لا بيد عمرو). انظر إلي عبد الحليم محمود : القصة العربية في العصر الجاهلي ، ص١٤٩–١٥٢.

حين سَلكَ مسلكاً مغايراً فتقول الرواية: " إن الذي بني الإسكندرية أول أمرها : جبير المؤتفكي ، وإن الذي دعاه إلي بنائها ، إنه غزا بعض النساء اللواتي ملكن مصر، وكان اسمها (حورية بنت البرت) وأنه لما طال بينهما الحرب أنفذت إليه تقول: إني قد رغبت في أن تتزوجني، فيصير ملكنا واحداً وداراً واحداً... فأجابها وعقد النكاح علي ما كان يعتقدون، والتمس الدخول بها فقالت: إنه يفتح بي وبك أن نجتمع في غير مدينة تبنيها لهذا الأمر في أحسن موضع وأجل مكان، وحيث لم يكن فيه بناء قط غير ما تبنيه . وإنما كان ذلك منها مكراً به لتنفذ أمواله وتبلغ منه ما تريد في لطف وموادعة، فأجابها وأنفذ مهندسين إليها واختارت موضع الإسكندرية فكان كلما بني بناء خرجت دواب البحر عبثت به وهدمته فأقام زماناً، ونفذت الأموال فوضع طلمسات وجعلها في آنية زجاج كالتوابيت، فكانت في الماء حذاء الأبنية ، فإذا جاءت دواب البحر فرأت الطلمسات والتوابيت نفرت فثبت البناء وبنيت المدينة، وتمت بعد زمان طويل ثم راسلها في المسير، فسارت بجميع قللها وعساكرها حتى نزلت حذاء عسكره وراسلته : " إني قد أحببت أن أحمل عنك مؤونة الأنفاق علي العسكريين في أطعمة تصلح وأشربه، وقد أعددت لوجوه الأمراء والقواد خلعاً وتحفاً عنك لكرمك في بناء المدينة.... فتلقاهم أصحابها بالخلع المسمومة.فلبسها وجوه العسكر،ولبس الملك جبير خلعته، وكانت أقل سماً من غيرها، إبقاء عليه لتبقي فيه بقية لخطأ بها فما أقاموا إلا ساعة بالخلع حتى طفئوا، وماتوا ورأي ذلك بقية العسكر فعلموا موضع الحيلة فبادروا مستأمنين فنودى فيهم بالأمان... ودخلت الملكة المدينة وأقامت بها زمانا وعادت إلي مصر.."[1]

فالقراءة الأولية للحكاية التي نقلها لنا (ابن فضل الله العمرى) عن دهاء المرأة المصرية تؤكد أن عناصر حكاية (مصرع الملكة زباء) سواء عناصرها التحليلية أو الأولية للحكاية لم تغب عن الضمير الشعبي وخياله الخلاّق، بل استحضرها بشخوصها وأحداثها ووقائعها ورموزها، أو على الأقل فيما يتصل ببعض العناصر التي تقاطعت مع النص المصري للحكاية على نحو ما جاء في الحكاية التي نقلها لنا (ابن فضل الله العمرى) في عنصر السم – على سبيل المثال– وكذلك في مجال اسم الشخوص، وهكذا ينطوي التَّناصْ هنا – في ضوء مفهومي الاستدعاء والتحويل– على معنى التداخل والتوالد، والتفاعل المضمر، أو غير المباشر بين النص الجاهلي العربي وبين النص الشعبي المصري .فقد قام الخيال الشعبي ببراعة بتحويل هذه الاستدعاءات الشعبية أو هذه

---

[1] – ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، السفر الثالث، ص٤٩١ – ٤٩٢.

المرويات السردية التاريخية وصهرها وأذابها في النص الخاص بالحديث عن المرأة المصرية وعلاقتها ببناء مدينة الإسكندرية وتطورها، وقدم لنا مجموعة من آداب السلوك تتلخص في وجوب أعمال الحيلة للخروج من المأزق إذا لم يستطع المرء مواجهته.

وفي تعميم غير منطقي تصف الروايات الشعبية المرأة المصرية بالتسلط والسيطرة وتصف الرجل المصري بقلة الغيرة على امرأته، فيقال:" ومن أخلاق أهل مصر قلة الغيرة، وكفاك ما قصة الله سبحانه وتعالى من خبر يوسف عليه السلام، ومراودة امرأة العزيز له عن نفسه، وشهادة شاهد من أهلها عليها، بما بيَّنَ لزوجها منها السوء ،فلم يعاقبها على ذلك بسوي قوله: "استغفري لذنبك أنك كنت من الخاطئين"[١].

وتعلق الكتابات التاريخية بقولها :" فكما أن عزيز مصر كان مغلوباً لامرأته زليخا، فإن المصريين لا يزالون مغلوبين لنسائهم وخدمهم ميالين للطرب واللذة والصفاء والشقاء رغم أنوفهم"[٢] وتذهب الروايات إلي الحد الذي تجعل عنده هذا الأمر سمة من سمات البيئة المصرية فقد أورد ابن عبد الحكم: " وأخبرني الأمير الفاضل الثقة ناصر الدين محمد بن محمد بن الغرابيلي الكركي رحمه الله: أنه منذ سكن مصر يجد في نفسه رياضة في أخلاقه ، وترخصا لأهله، وليناً ورقة طبع مع قلة الغيرة".[٣] وهو ما أنكره (ابن الحاج) في قوله:" وهذا فيه من المحرمات وجوه كثيرة، وكل من يعاينهم من الناس سكوت، لا يتكلمون، لا يغيرون، ولا يجدون لذلك غيرة إسلامية".[٤] وقد علل ابن ظهيرة هذا السلوك بقوله :" عدم الاعتراض علي الناس، فلا ينكرون عليهم ولا يحسدونهم ولا يدافعونهم بل يسلمون لكل أحد حاله، العالم مشغول بعلمه، العابد بعبادته، والعاصي بمعصيته،وكل ذي صنعة بصنعته ولا يلتفت أحد إلي أحد، ولا يلومه بسبب وقوعه في معصية أو نقيصة "[٥].

---

[١] – المقريزي: الخطط، جـ١، ص٧٩.

[٢] – المقريزي : الخطط ، ج١ ، ص٨٠ ؛أوليا چلبي:سياحتنا مه مصر،ص٥٦٦.

[٣] – ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص٤٢.

[٤] – ابن الحاج (أبو عبد الله محمد العبدري) (ت ٧٣٧هـ) :المدخل إلي الشرع الشريف (الجزء الأول، الطبعة الأولي، دار التراث، القاهرة، د.ت) ص٢٦٧.

[٥] – ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص٢٠٤.

ويتداخل الخيال مع الأسطورة لدي من وصف المصريين سواء كان مؤرخاً أو كاتباً، فيربط البعض منهم بين الأحوال الفلكية، وسمات أهل مصر؛ يقول المقريزي: " إن منطقة الجوزاء تسامت رؤوس أهل مصر فلذلك يتحدثون بالأشياء قبل كونها، ويخبرون بما يكون وينذرونه بالأمور المستقبلة، ولهم في هذا الباب أخبار مشهورة".[١]

يشير المقريزي إلي تلك الحاسة ويرجعها إلي عوامل بيئية جغرافية تتصل بموقع مصر وعلاقته بالنجوم والأفلاك، ويلحظ المرء بروز الاعتقاد في تأثير النجوم في طبائع الناس وأحوالهم ويشير (أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي) إلي ذلك فيقول :" المصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم، وتصديقاً لها وتعويلاً عليها وشغفاً بها، وسكوناً إليها .حتى أنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلي أن لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التي لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها ولا تضبط جهاتها، ولا تقيد غاياتها ولا تعد ضروبها إلا في طوالع يختارونها ونصب يعتدونها".[٢]

ويستشهد صاحب الرسالة المصرية علي ما يقول، بحكاية يرويها :" ولقد شهدت يوماً رجلاً من الوقادين في آتون الحمام يسأل رزق الله المذكور– أحد المنجمين– عن ساعة حميدة لقص أظفاره فتعجبت من سمو همته، علي خساسة قدره ووضاعة مهنته[٣]".ويضيف إلي ذلك قوله: " ومن الحكايات العجيبة، في فرط استعمالهم لأحكام النجوم ،وعنايتهم بها؛ ما شهدت بالصعيد الأعلى وذلك أن بعض الولاة حبس رجلاً من بعض أهل تلك الناحية كان ينظر في علم النجوم وشفع إليه فيه من يكرم عليه فشفعه فيه، وأمر بإطلاقه، وكان من الحبس في عذاب واصب، وجهد ناصب، فلما أتوه وقالوا له: انطلق لشأنك. أخرجَ من كمه اصطرلاباً، فنظر فيه فوجده مذموماً، فسألهم أن يتركوه مكانه إلي أن يتفق وقت يصلح للخروج من السجن، فعادوا إلي الوالي، فأخبروه بخبره فضحك منه، وتعجب من جهله وفساد عقله وأجابه إلي سؤاله وتركه علي حاله، وأطال مدة عقابه".[٤]

هكذا بلغ الاعتقاد في النجوم والطوالع وتأثيرها في أحوال الناس الحد الذي جعل وقاداً في أحد الحمامات يستشير النجوم قبل أن يقص أظافره، وجعل ذلك المنجم يرفض الخروج من السجن

---

[١] – المقريزي: الخطط، ج١، ص ٤٩.

[٢] – أبو الصلت : الرسالة المصرية ،ص ٣٩.

[٣] – المصدر نفسه، ص ٣٩.

[٤] – أبو الصلت : الرسالة المصرية ، ص٤٠.

حين أتيح له ذلك بعد شفاعة أحد المتشفعين، لأن الوقت لم يكن مناسباً حسبما قالت له الأبراج. كانت تلك سمة من سمات ذلك العصر في تلمس كل السبل للتنبؤ بالغيب حتى انتشرت الوسائل المتعلقة بها وتنوعت تلك الأمور ما بين ضرب الرمل واستنطاق الودع، وفتح المندل والاستخارة بالرؤية وبالقرآن الكريم حتى أنكر ابن الحاج ذلك علي المصريين بقوله: " أما الباطل فهو زعمهم في فتح الختمة والنظر في أول سطر يخرج منها أو غيره".[1]

واضطلع العديد من الناس بهذه المهام ليقدموا للإنسان اللاهث وراء المجهول كل ما يرضيه أو يطمئنه علي المستقبل أو ينذره من ويلاته وحسبنا هنا مشاركة المؤرخ العيني (٨٥٥هـ) حيث أشار في حديثه عن (السلطان الظاهر ططر) بقوله : " وكانت توليته في ساعة أجمع عليها أهل الحساب أنها تدل علي طول أيام مولانا السلطان خلد الله ملكه مع عافية وأمن وسرور . ثبت الله أركان دولته وأيام سطوته وعزته ".[2] بيد أن " ساعة السعد" التي أشار إليها العيني لم تكن كذلك فقد تبوأ السلطان (سيف الدين أبو الفتوح ططر) في يوم (٢٩ من شهر شعبان عام ٨٢٤هـ) ولم يمهله القدر في حكم مصر أكثر من تسعين يوماً لا غير.

ويُوردُ المقريزي أخبار واقعة تدل علي ما ذهب إليه من أن المصريين يتحدثون بالأشياء قبل كونها[3] ويخبرون بما يكون فيقول" ومن هذا الباب واقعة ألدمر ذلك أنه خرج الأمير ألدمر أمير جندار يريد الحج من القاهرة في سنة ثلاثة وسبعمائة وكانت فتنة بمكة قتل فيها ألدمر يوم الجمعة. فأشيع في هذا اليوم بعينه في القاهرة، ومصر وقلعة الجبل بأن واقعة كانت بمكة قتل فيها ألدمر، فطار هذا الخبر في ريف مصر، واشتهر فلم يكترث الملك محمد بن قلاوون بهذا الخبر فلما قدم المبشرون علي المادة أخبروا بالواقعة وقتل الأمير سيف الدين ألدمر في ذلك اليوم .الذي كانت

---

[1] – ابن الحاج: المدخل، ج١، ص ٢٧٨.

[2] – العيني (محمد بن أحمد) (ت ٨٥٥هـ): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر (تحقيق هانس أرنست، الطبعة الأولي دار إحياء الكتب، القاهرة، ١٩٦٢م)، ص٤٠.

[3] – يعلق اليعقوبي على مهارة أهل مصر في التنبؤ بالمستقبل فيقول :"يقولون أن أنبيائهم كانت تكلمهم الكواكب ، وتعلمهم أن الأرواح تنزل إلى الأصنام ، فتسكن فيها ، وتخبر بالحادث قبل أن يحدث .. وكانت لهم فطنة عجيبة ودقيقة يوهمون بها العوام أنهم يكلمون الكواكب ، وأنها تنبئهم بما يحدث ، ولم يكن ذلك إلا لجودة علمهم بالأسرار التي للطوالع ، وصحة الفراسة ، فلم يكونوا يخطئون إلا القليل ؛ وادَّعوا علم ذلك عن الكواكب، وأنها تنبئهم بما يحدث ، وهذا باطل وغير معقول ". اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، المجلد الأول ، ص١٨٨.

الإشاعة فيه بالقاهرة". وأورد المقريزي أكثر من واقعة مشابهة ثم ينتهي إلي القول" وفي هذا الباب من هذا كثير"[١]

وهكذا ظهر المصريون وكأنهم اطلعوا علي علم الغيب، ويخبرون بما يكون وينذرون بالأمور المستقبلية، وكأنهم استلقوا السمع، ولم يتبعهم شهاب ثاقب، وكأنها سمة اتسم بها المصريون منذ أقدم العصور ، حيث تنبؤا بطوفان نوح بعد أن " نظروا فيما تدل عليه الكواكب مما يحدث في العالم وعلموا أن تلك الآفة تكون ماء يغرق الأرض ومن عليها فأمر الملك ببناء الأهرام".[٢]كما تنبؤا بالمجاعات التي سوف تلم بمصر كقول المقريزي :"ثم وقع الغلاء في زمن أتريب بن مصريم، ثالث عشر ملوك مصر بعد الطوفان ، وكان سببه أن ماء النيل توقف جريه مدة مائة وأربعين سنة ، فأكل الناس البهائم حتى فنيت كلها...فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى هود عليه السلام .أن أبعث إلى أتريب بمصر أن يأتي لحف جبلها ، وليحفر بمكان كذا ...فإذا عقود قد عقدت بالرصاص ، وتحتها غلال كأنما وضعت حينئذ ، وهي باقية في سنبلها لم تدرس ، فمكثوا ثمانية شهور في نقلها ، وزرعوا منها وتقوتوا نحو خمس سنين ، فأخبره أخوه صابر بن مصريم أن أولاد قابيل بن آدم عليه السلام لما انتشروا في الأرض وملكوها ، علموا أن حادثة ستحدث في الأرض ، فبنوا هذا البناء ، ووضعوا فيه الغلال . فزرعت مصر وأخصبت ".[٣]

ويكشف لنا صاحب الرسالة المصرية عن بعض الجوانب المتعلقة بفكر المصريين وتاريخهم فيقول:" وحكى الوصيفيُّ في كتابه الذي ألفه في أخبار مصر أن أهلها في الزمن السابق كانوا يعتقدون أنَّ هذا العالم ،الذي هو عالَمُ الكون والفساد أقام برهةً من الدهر خالياً من نوع الإنسان ، وعامراً بأنواع أُخَر غير الإنسان ، وأن تلك الأنواعَ مختلفة على خِلق فاذَّة وهيئات شاذَّة ثم حدث نوع الإنسان فنازعَ تلك الأنواع فغلبها واستولى عليها ، وأفنى أكثرها قتلاً وشرَّد ما بقى منها إلى القفار ، وأن تلك المشَّردة هي الغيلان والسعالي وغير ذلك ، مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة ، وتصوراتهم الفاسدة ، وتوهماتهم النافرة ."[٤] وعلى الرغم من رأي أبي الصلت الذي حسب فيما أورد من رأي ذاع عن المصريين القدماء أنه يؤكد رأيه في عقلهم واعتقاداتهم ، إلا أنه في الحقيقة أورد ــ ربما دون أن يقصد ــ ما يعني أن المصريين القدماء قد اقتربوا من فكرة نظرية النشؤ

---

[١] – المقريزي: الخطط، ج١، ص٤٩.

[٢] – ابن محشرة: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص٥٣.

[٣] – المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة (سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة ١٩٩٩م) ،ص٣٩.

[٤] ــ أبو الصلت : الرسالة المصرية ، ص٢٤.

والارتقاء . فلا شك أن عبارة أبي الصلت هي من المتلقيات العامة والمتيسرة عن معرفة ما تبقى في الأذهان من أفكار كاملة شاعت عند المصريين وذاع أمرها ، حتى تناقلها العوام بهذه الصورة المحرفة والمشوشة والمشوهة شأنهم في ذلك شأن العوام في كل مكان وعصر . كما نلمس أن معلومات أبي الصلت عن فكر المصريين وتاريخهم ورجالهم تختلط فيها بقايا معرفة حقيقية لها أصولها الأولى الحقيقية ، بحكايات خرافية ، في نسيج متنافر من بقايا العلوم والثقافات .[1]

ويبدو أن ظروف العصر قد ساعدت الخرافات والأساطير على التغلغل والتسرب إلى نسيج المجتمع إضافة لما كان يحدث فيه من ضربات موجعة للمسلمين لأول مرة في تاريخهم تحت وطأة الحروب الصليبية واقتطاع أجزاء من المنطقة الأمر الذي كان له انعكاسات واضحة على النظام القيمي والأخلاقي في العالم العربي، فامتلأت النفوس بالغضب ومشاعر الإحباط والمرارة التي زادت من حدتها أعداد اللاجئين الهاربين من وحشية الصليبيين عند كل هجوم جديد فشعر الناس في المنطقة العربية بمدى عجز الحكام ، وامتلأت النفوس في كل مكان بروح العجز ، وشاعت روح من التقوى السلبية ، والتدين العاطفي الهروبي ، وقد تجسد هذا كله في التفاف عامة الناس حول نمط المتصوفة /الدراويش والمجاذيب كأحد مظاهر التعبير عن روح اليأس ، والهروب إلى المجهول ، والتي سيطرت على قطاعات كبيرة من سكان المنطقة العربية[2]، والتي تركت أيضاً العديد من الأفكار المحملة برواسب الرؤى والأحلام التي يرى فيها النائم النبي صلى الله عليه وسلم أو الاجتماع بسيدنا الخضر عليه السلام . كتعبير عن الآمال التي تجيش في نفوس الناس حيال الواقع المرير الذي يعيشونه ، فأصبح معتاداً أن يتكلم المتعلمون عن القيامة وأحاديث آخر الزمان[3]،

---

[1] – فاروق خورشيد : معادن الجوهر ، ص ١١٨.

[2] – قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية (دار عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ١٩٩٣م) ، ص٢٠٣،٢٠٢.

[3] – يذكر ابن إياس في (حوادث سنة ٧٥٨هـ) :"في شهر رجب هبت رياح عاصفة من جهة الغرب حتى أظلم الجو ظلمة شديدة ... حتى ظن الناس أن القيامة قد قامت ، وصار يودع بعضهم بعضاً " ؛ وفي (حوادث سنة ٩٢٨هـ) يشير ابن إياس :"أن شخصاً ادعى أن في يوم الجمعة من شهر ربيع الآخر عام ٩٢٨هـ يثور على الناس رياح عاصفة وتقع زلزلة عظيمة حتى تسقط منها الدور وتقبض الناس وهم في صلاة الجمعة ، فانتشرت هذه الشائعة في القاهرة وانطلقت ألسن الناس بذلك قاطبة ، فاضطربت القاهرة لهذه الشائعة وصار الناس يودع بعضهم بعضاً ".انظر ابن إياس :بدائع الزهور ،ج٥ ،ص٤٤٠. ويعلق (ستاللي لينبول) بقوله :" أنه من الواضح أن أهل القاهرة كانوا يؤمنون بالخرافات ؛فقد حدث في عام١٧٣٥م أن انتشرت إشاعة فحواها أن يوم البعث سوف يكون يوم الجمعة التالي ومن ثم وجدنا الناس يودعون بعضهم .. وأخذ أهل الجيزة بعد أن حركتهم خرافة قديمة يستحمون في النيل بعصبية ظاهرة الرجال والنساء على حد سواء ".ستاللي لينبول :سيرة القاهرة (ترجمة حسن إبراهيم وآخرون ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ١٩٩٧م) ،ص٢٤٢.

وبالخرافات التي شاعت حول عذاب القبر ونعيمه، والاعتقاد والتسليم بالخوارق والمعجزات ،والتي عكست أثر الشخصية المصرية على هذا النوع من الأخبار والقصص في التعبير عن اعتقاد الناس في كرامات الأولياء وشفافية النفس المصرية في تقبلها تلك الأمور الغيبية عن إيمان وصدق.

ومن أمثال هذه القصص ما رواه أبو الفتح رضوان فتح الله بن سعد الله التميمي المنفلوطي يقول :"كنت يوماً مع شيخنا أبي الحسن الصباغ رضى الله عنه على ساحل البحر ، ومعه إبريق يتوضأ منه ، فسمع بالقرب منه صياح الناس ، .فسأل الشيخ عن ذلك فقيل له قد أخذ التمساح رجلاً من الساحل فترك الشيخ الوضوء وأسرع إلى المكان الذي فيه الناس مجتمعين فرأى التمساح قد قبض على الرجل وقد توسط به لجة البحر ، فصاح الشيخ بالتمساح أن يقف فوقف مكانه لا يتحرك يميناً ولا شمالاً، فعبر الشيخ على متن الماء ، وهو يقول بسم الله الرحمن الرحيم ، وكأنه يمر على وجه الأرض وكان البحر في نهاية زيادته حتى انتهى إلى التمساح، فقال له: ألق الرجل ، فألقاه من فيه ..وقد هلك الرجل فخذه من مسكة التمساح ، فوضع الشيخ يده على التمساح وقال له : مت فمات موضعه .. وقال الشيخ للرجل قم إلى البر فقال : يا سيدي لا أستطيع من فخذي وأنا لا أحسن العوم ، فقال: اذهب فهذه سبيل النجاة ، وأشار إلى طريق البر فإذا البحر من الموضع الذي فيه الشيخ والرجل صلب قوي كالحجارة إلى البر فمشى الشيخ والرجل حتى وصلا إلى البر والناس ينظرون ، ثم عاد البحر إلى حالته المعتادة ، وجر الناس ذلك التمساح ميتاً ."[١] فالشخصية المصرية بارزة في هذا النوع من الحكايات والكرامات والتي تسربت إلينا عبر الحركة الصوفية التي نشأت بمصر في مرحلة النضج عن ظاهرة جديدة في المجتمع المصري ذات صلة بتكوينه الجغرافي والبشري والنفسي ، لاسيما وأن :" الخرافات والأسمار كانت مرغوباً فيها مشتهاة"[٢] ولا تزال رواسبها متغلغلة في الموروث الشعبي المتعلق بالحياة اليومية للمصريين والتي حفظها لنا المؤرخون في كتاباتهم في سياق حديثهم عن أعياد أهل مصر والتي كان يحتفي بها كل أهل مصر علي حد سواء مثل عيد الشهيد:" و عيد الشهيد يكون في اليوم الثامن من شهر بشنس واعتاد النصارى أن

---

[١] – علي صافي حسين : الأدب الصوفي في مصر – ابن الصباغ القوصي ،شيخ التصوف الإسلامي في القرن السابع الهجري (مكتبة المتنبي ،القاهرة ١٩٧١م) ، ص١٧٢، ١٢١نقلاًعن أحمد سيد محمّد : الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي ،ص٣١٤.

[٢] – ابن النديم: الفهرست (تحقيق : محمد عوني بالاشتراك، سلسلة الذخائر، العدد ١٤٩، القاهرة ٢٠٠٦م)، ص٣٠٨.

يحتفلوا بذلك اليوم بإلقاء تابوت في نهر النيل به أحد أصابع أسلافهم من الحواريين ويزعمون أنهم إذا لم يفعلوا ذلك فإن النيل لن يزيد"[1].

وربما كان ذلك الطقس صدى للأسطورة التي راجت في كتابات المؤرخين حول (صندوق/ تابوت) النبي يوسف عليه السلام وما دار حوله من روايات مفادها أن يوسف عليه السلام :"لما حضرته الوفاة قال :إنكم ستخرجون من أرض مصر إلى أرض آبائكم فاحملوا عظامي معكم . فمات فجعلوه في تابوت ،ودفن في أحد جانبي النيل فأخصب الجانب الذي كان فيه وأجدب الآخر. فحوّلوه إلى الجانب الآخر فأخصب الجانب الذي حولوه إليه وأجدب الآخر . فلما رأوا ذلك جمعوا عظامه فجعلوها في صندوق من حديد . وأقاموا عموداً على شاطئ النيل ، وجعلوا في أصله سكّة من حديد، وجعلوا في الصندوق سلسلة أثبتوها في السكة ، وألقوا الصندوق في وسط النيل ، فأخصب الجانبان جميعاً ".[2]

وهذا الصندوق وما أحاط به من طقوس تتفق كثيراً مع بعض التفاصيل في ســـــيرة "سيف بن ذي يزن" والتي تحدث فيها الراوي عن (كتاب النيل) الموضوع في صندوق من خشب الأبنوس الأسود مصفح عليه بصفائح الذهب الأحمر فعيد الشهيد هنا يحمل ظلالاً وإمدادات كثيرة الماضي في تداخل مع الرواسب الفرعونية والقبطية لتصنع كتاب النيل.

علي أن كلمة (كتاب) هنا تذكرنا بكتاب (عمر بن الخطاب) الذي أرسله رداً علي كتاب (عمرو بن العاص) إليه بشأن العروس (أسطورة عروس النيل التي كانت تلقي في النيل سنوياً) . فعمر رضى الله عنه لم يكتف بالزجر والمنع بل كتب كتاباً ليلقي به في النيل علي نحو ما هو معروف ونقله إلينا ابن عبد الحكم المسئول الأول عن نص الخرافة التي وصلتنا في قوله :" لما فتح عمرو بن العاص مصر، أتى أهلها إلي عمر حين دخل شهر بؤونة : فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سُنّة لا يجري إلا بها فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه كلما جاءت الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر ، عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في النيل... فقال لهم عمرو هذا لا يكون في الإسلام. إن الإسلام يهدم ما قبله فأقاموا شهور بؤنة وأبيب ومسري. والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء.. فلما رأي عمرو ذلك كتب إلي عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك فكتب إليه عمر أن قد أصبت إن الإسلام

---

[1] – التلمساني: سكردان السلطان، ص ٣٦٤، المقريزي: الخطط، ج١، ص١١٠.

[2] – ابن سعيد الأندلسي : النجوم الزاهرة في حُلى حضرة القاهرة ، ص٣٨٤.

يهدم ما كان قبله وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في النيل إذ أتاك كتابي. فلما قدم الكتاب علي عمرو فتح البطاقة فإذا بها:

" من عبد الله أمير المؤمنين إلي نيل مصر، أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك".

فألقي عمرو البطاقة في النيل، وكان أهل مصر قد تهيأوا للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل وأصبحوا وقد أجراه الله تعالي ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة"[١] ويعلق الإسحاقي قائلاً :"وقطع الله تلك السنة السيئة عن أهل مصر وصار يعمل في ليلة وفاء النيل المبارك في كل سنة إشارة عظيمة كبيرة ينصب بها قناديل تعلق بحبال كثيرة على أخشاب مرتفعة توضع بمركب وتوقد القناديل وتسير في البحر يميناً وشمالاً وتزف بالطبول وتسمى عروسة البحر وذلك مستمر إلى تاريخه".[٢]

والواجح فيما يتعلق بتلك الخرافة التي نقلها لنا ابن عبد الحكم قد جانبه التوفيق فنقل تلك الأسطورة علي أنها حقيقة واقعة ، كما أن جميع المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن عبد الحكم وتناولوا بعض الموضوعات المتعلقة بالواقعة التي حفظها لنا ابن عبد الحكم قبلهم، فقد ذكروا هذه الخرافة وكرروها علي أنها معلومة تاريخية .نقلاً عما كتبه ابن عبد الحكم سواء بإسنادها إليه مباشرة أو بذكرها دون إسناد كما لو كانت حقيقة واقعة حيث كانت تلك الأسطورة هى غاية علمهم آنذاك ولم يعرفوا أنها أساطير، كالمقريزي، والكندي، وابن تغري بردي، وابن دقماق، والسيوطي، وياقوت، وابن إياس وغيرهم[٣].

---

[١] – ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ١٧٦– ١٧٧ ، المقريزي: الخطط، ج١، ص ٥٨؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣،ص٢٩١؛القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، ص١٦٨–١٦٩؛ الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول،ص٣٠.

[٢] – الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ،ص٣١.

[٣] ــ ظلت هذه الخرافة تروي علي مدي أكثر من ألف سنة والعديد من الشواهد حالياً تؤكد أن هذه الرواية لا تستند علي أي أساس وأنها مجرد أسطورة من الأساطير التي أطلقها بعض المؤرخين عن الحضارة المصرية القديمة، فقبل أن يدون ابن عبد الحكم هذه الحكاية قام العديد من المؤرخين اليونانيين والرومان بزيارة مصر وكتبوا عن كل ما شاهدوه بأنفسهم وكل ما حكي لهم عن تاريخ مصر والمصريين وكان أشهر هؤلاء المؤرخين القدامى: هيرودوت واسترابون وديودور الصقلي وغيرهم.وقد سجل هؤلاء المؤرخون القدامى التاريخ المصري وذكروا قصصاً كثيرة عن المصريين القدماء وعن حياة وعادات وتقاليد أهل مصر كما ذكروا الكثير من الخرافات والأساطير التي لا تصدق عن مصر والمصريين. ومع ذلك لم يذكر أحد من هؤلاء المؤرخين أن المصريين كانوا يزفون للنيل في كل عام

ولعلنا نتسأل كيف تمر ثلاثة شهور هي بؤنة وأبيب ومسري" والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً"!. إن ذلك لو كان حدث لكانت هناك كارثة تزول فيها الحياة تماماً ولا يبقي بعدها إنسان أو حيوان أو نبات، وكيف يرتفع النيل ١٦ ذراعاً ليلة واحدة !!. كما أن الفتح الإسلامي كان سنة ٦٤١ ميلادية وكان المصريون آنئذ قد اعتنقوا المسيحية وهي دين سماوي ولا يمكن أن يقبل أو يقر حكاية إلقاء عروسة بكر حية لتموت غريقة في النيل فالأديان السماوية الثلاث لا تقر ولا تعرف تقديم ضحية بشرية كقربان لله.[1]

كما أن الثابت تاريخياً عن المصريين القدماء؛ أنه لم يعرف عن تاريخهم المعروف والمدون أُهم كانوا يقدمون ضحية بشرية لأي إله أو معبود مهما علا شأنه لأُهم كانوا علي يقين من أن البشر هم الثروة الحقيقية لحضارتهم ووقودها الفاعل والدافع.

فالثقافة المصرية وما أنتجته من العادات والتقاليد، عبرت عن نفسها في عدد من الأعياد والاحتفالات التي اهتم المصريون بإحيائها والاحتفال بها، ومن الطبيعي أن عدداً من هذه الأعياد

عروسة حية، ولو أن ذلك قد حدث ولو مرة واحدة عبر آلاف السنين لكانت فرصة أمام هؤلاء المؤرخين ليكتبوا لقرائهم المزيد من عجائب وغرائب المصريين. أضف لذلك أن المؤرخ ابن عبد الحكم قد كتب هذه الحكاية بعد فتح مصر علي يد عمرو بن العاص بأكثر من قرنين من الزمان، أي أنه كان غير معاصر للحكاية علي فرض حدوثها– إن كانت قد حدثت فعلاً وعلي هذا فإما أن تكون هذه الحكاية قد رويت له بمعرفة أحد رواة التاريخ الشعبي فغلفتها الخرافة وساقها لنا الخيال .

[1] ـــ تضاربت الآراء في أصل فكرة "عروس النيل " فزعم بعض المؤرخين العرب كان المصريون يقدمون في كل عام عروساً من أجمل النساء إلى النيل في يوم وفائه "فيضانه" ويزفونها في مهرجان شعبي وتركب العروس سفينة مزينة بالزهور والأعلام ، وتسير على صفحة النهر ويدفعون لأهلها تعويضاً اعتقاداً منهم أن هذا القربان يرضي النيل فلا يحرمهم من خيره وبركاته ،ولم يقلعوا عن هذه العادة ـــ في زعم هؤلاء المؤرخين ـــ إلا في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بحسب ما نقله لنا المؤرخ العربي ابن عبد الحكم ، ويقول فريق آخر : إن الأصل في فكرة عروس النيل هو أن المصريين القدماء كانوا يقدسون النيل ويقيمون له تماثيل مختلفة ، وكان يوجد في جزيرة فيلة بأسوان هيكل لا تزال آثاره باقية يحتفل القوم فيه كل عام بهذا العيد ، وذلك بإلقاء الحلي والقطع الذهبية تكريماً لهذا النهر ، بينما يقول البعض الآخر :كان المصريون يلقون في كل عام عروساً من الذهب أو البرونز أو الفخار وقت الفيضان حتى تكثر خيراته ، والواقع أن تلك الأسطورة ليس لها نصيب من الصحة ، وذلك أن المصريين القدماء كانوا يقصدون بهذه العروس "أرض مصر " أي أن النيل متى فاض دخل على أرض مصر تشبهاً بالرجل عندما يلتقي بعروسه يوم الزفاف يؤكد ذلك أنهم لم يشيروا فيما تركوه لنا من آثار ونقوش وبرديات إلى عروس النيل هذه . انظر . وليم نظير : العادات المصرية بين الأمس واليوم (القاهرة ١٩٦٧م)،ص٤٩– ٥١؛ محمد لطفي جمعة:مباحث في الفولكلور(سلسلة الدراسات الشعبية ، العدد٣٤، القاهرة١٩٩٩م)،ص٧٠.

كان يتمثل بعقائد المصريين ودياناتهم، بل هناك من الأعياد ما كان يأخذ شكل الاحتفال القومي، وذلك لارتباطه بحياة المصريين جميعاً مثل الاحتفال بوفاء النيل الذي ارتبط بالتراث المصري القديم[١].

ومن الأعياد التي كان المصريون يحتفلون بها قبل الإسلام وبعده عيد " الغطاس" إذ يقول المسعودي عن احتفالات المصريين بذلك العيد: " ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها، وهي ليلة إحدى عشرة تمضي من طوبه، وستة من كانون الثاني، ويصف المسعودي ما ارتبط بهذا العيد من اعتقادات خرافية بقوله:" وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ من الداء".[٢]

فقد كان المصريون يحتفلون بـــ " ليلة الغطاس" مسيحيون ومسلمون يتجمعون علي شاطئ النيل ويشعلون المشاعل والشموع يأكلون ويشربون ويمرحون ويغطسون في ماء النيل حتى يبرؤا من كل داء– بحسب اعتقادهم – وهو اعتقاد مرتبط بالتراث المصري القديم الأمر الذي يؤكد صدق تواصل أجيال الشعب المصري وامتداد المعتقدات والممارسات الشعبية المصرية التي تبرز القسمات الواضحة للشخصية المصرية.

وربما كانت كثرة الاحتفالات والأعياد المصرية وراء تلك الملاحظة التي سجلها أحد الرحالة بقوله " أصل كثرة السرور والأفراح بمصر ناشئ عن كونها إقليماً أخر لأن طبع مصر" زهري" فلذا يميل أهلها إلي الموسيقي والغناء واللهو واللعب، ثم أن شعبها الكبير العدد كثير المال مما يساعده علي الإنفاق في الطرب والذوق والصفا"[٣]ويقال أن بين مباهج الأعياد ، ومباهج بعض أعياد الفراعنة قرابة وصلة و ومن تلك الأعياد عيد بوباسطيس(تل بسطة بالزقازيق) وقد وصف لنا هيرودوت[٤] كيف أن الرجال والنساء كانوا يركبون قوارب تسير بهم في النيل ، وهم يرقصون ويغنون ، ويسرفون في تناول الطعام والشراب .

---

١ – قاسم عبده قاسم: التكوين الحضاري للمصريين من الفتح الإسلامي حتى الغزو العثماني (الطبعة الأولي، سلسلة مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد ٣٦، القاهرة ١٩٩٩م)، ص٢١٠.

٢ – المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٣٤٤.

٣ – أولياچلبي : سياحتنامه مصر، ص ٥٦٦.

٤ – هيرودوت يتحدث عن مصر ، فقرة ٦٠ ، ص١٦٠.

هذه الاحتفالات التي كانت سمة بارزة من سمات الحياة الاجتماعية المصرية كانت تعبيراً عن ثقافة شعب متجانس تكشف عن أن المجتمع المصري عاش حياته الاجتماعية بالشكل الذي يوافق موروثه الثقافي الموغل في أعماق الزمن ، والذي يحمل العديد من الممارسات التي تداخل فيها الموروث الشعبي بكل ما يحمله من أساطير ورموز وحكايات وأشعار وخير مثال لذلك، احتفالهم (بسبت النور) حيث :"أعتاد أهل مصر علي أن يتكحلوا اعتقاداً أن من يتكحل في ذلك اليوم يقوي بصره، وأن من يشرب الدواء في هذا اليوم أيضا يكون ذا فائدة عظيمة في الشفاء، كذلك يخرج إلي شاطئ النيل من يعاني من أمراض جلدية ويدهنون أجسامهم بالكبريت ويستلقون طوال اليوم تحت أشعة الشمس"[١] ويهمنا أن نلاحظ تلك الصلة بين المعتقد الشعبي والعادات الجارية . وإذا كان قد نسى هذا المعتقد إلا أننا نستطيع أن نتعرف عليه من هذه العادات ذاتها، فعادة الاستحمام وتدليك الجسم بالكبريت فتذكرنا بالمعتقدات الخاصة بشفاء أيوب في بلواه.

وأما أيوب نفسه ، الذي تحول في القصص الشعري الغنائي الشعبي ؛ إلى إنموذج لصفة الصبر ، فنحن نعرف قصته الأصلية الواردة في سفر التكوين (الإصحاح الأول إلى الإصحاح الثاني والأربعين من سفر التكوين) وكيف كان رجلاً على قدر كبير من التقوى ووفرة المال وطيب النفس ، ثم امتحنه ربه في ماله فصبر ، وامتحنه في جسمه "وضرب أيوب بقرح ردئ في باطن قدمه إلى هامته ، فأخذ أيوب لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس في وسط الرماد فقالت له إمرأته :أنت متمسك بعد بكمالك بارك الله فقال : لها أألخير نقبله من عند الله والشر لانقبل" وتنتهي القصة المقدسة بأن "بارك الله آخرة أيوب أكثر من أولاده" وضاعف له الراحة ومد في عمره عشرة سنين ومائة ورأى أربعة أجيال من ذريته ، وماله يزيد ويثرو.

ويعزو الذهن الشعبي إلى أيوب أنه دهن جسمه بدهان معين فشفى. ،أما عادة الاكتحال ، في تلك الفترة التي يقع فيها شم النسيم ، فتتصل باتقاء أمراض العين (الرمد) الذي كان كثيراً ما يصيب الناس عند انقلاب الجو وتكاثر الذباب ، وأتربة الخماسين [٢].وهو الأمر الذي لاحظه الرحالة جوزيف بتس بقوله:"الناس هنا ذوو عيون متقرحة وسيقان متورمة".[٣]

---

[١] – ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص ٥٧.

[٢] – أحمد رشدي صالح :الأدب الشعبي (سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٢م)،ص١٣٧–١٣٨.

[٣] –جوزيف بتس : رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة والمدينة ، ص٣٩.

كما اعتاد المصريون علي شراء السلاحف اعتقاداً منهم أنها تطرد الشياطين من البيت الذي تكون فيه[١]. كما اعتقدوا أن المرء:"إذا علق منقار الغراب على إنسان حفظ من العين وإذا غمس الغراب الأسود جميعه في الخل بريشه وطلى به الشعر سوده.. وإذا صر في خرقة وعلق على الصبي الذي لم يبلغ الحلم نفعه من السعال المزمن وقطعه ".[٢]

أضف لتلك الممارسات والعادات حرص الناس علي تخصيص أيام معلومة لزيارة الأولياء والتبرك بهم:"فجعلوا يوم الخميس والجمعة للقرافة ولزيارة الإمام الشافعي "[٣]. وأورد المقريزي حكاية عجيبة عن القرافة (أي مدافن القاهرة) نصها : " وفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ظهر شيء يقال له القطرية تنـــزل من جبل المقطم فاختطفت جماعة من أولاد سكانها ،حتى رحل أكثرهم خوفاً منها، وكان شخص من أهل كبارة مصر يعرف بحميد الفوال، خرج من أطفيح علي حماره، فلما وصل حلوان عشاء رأي امرأة جالسة علي الطريق فشكت إليه ضعفاً وعجزاً، فحملها خلفه، فلم يشعر بالحمار إلا وقد سقط، فنظر إلي المرأة فإذا بها أخرجت جوف الحمار بمخالبها. ففر وهو يعدو إلي والي مصر، وذكر له الخبر فخرج بجماعته إلي الموضع فوجد الدابة قد أكل جوفها ثم صارت تتبع الموتى بالقرافة وتنبش قبورهم وتأكل أجوافهم وتتركهم مطروحين فامتنع الناس من الدفن في القرافة زمناً حتى انقطعت تلك الصورة".[٤] أضف لهذه الحكاية العديد من الخرافات والتي شاعت ولا تزال في المجتمع المصري عن عالم القبور والموتى فيذكر الإسحاقي:"أن رجلاً من البهنسا أخبرني شفاهاً أن بها شخصاً مشهوراً بابن الميتة قال وذلك أن أمه ماتت وهي حامل به فلما مضي مدة من دفنها ماتت امرأة من أقاربها ففتحوا قبرها لدفن تلك الميتة فأحس الحفار بشئ يدور حول الميتة. فطلع الحفار وهو مرعوب وأخبر من حضر بما شاهده في القبر فظنوه وحشاً، ثم أوقدوا ناراً وأشرفوا على داخل القبر، فوجدوا ولداً معلقاً بالميتة ملتقماً ثديها، وقد أجرى الله فيه اللبن؛ لرضاعه فأخذ الحفار الولد، وضمه إلى صدره وعصب عينيه؛ خوفاً من مفاجأة النور. وأطلعه من القبر وعاش، وتزوج ورزق الأولاد ".[٥]

---

[١] – ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٥٥.

[٢] – الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ،ص٣٢.

[٣] – نفسه، ج١، ص ٢٦٩.

[٤] – المقريزي : الخطط ،ج١ ، ص ٤٤٥.

[٥] – الإسحاقي المنوفي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، ص٣٢.

وهكذا كانت عناصر الموروث الشعبي التي تتناول شخصية المصري وحياته مرآه تضئ الخبر التاريخي عن جوانب الحياة في مصر اقتصاديا وسياسياً واجتماعيا وفكريا وهذه القصة التي أوردناها عن القرافة مثال جيد علي نوعية قصص الرعب التي كان أهل مصر يتداولونها حول المقابر والرهبة التي أحاطت بالموتى والقبور، وهي تذكرنا بتلك القصص المرعبة التي سمعناها كثيراً في طفولتنا عن النداهة والعفاريت والمارد، بيد أن أهم ما تدل عليه هو مدي سيطرة الخيال والخرافة علي حكي القصص آنذاك.

الخـــاتمـــة

لقد آن لنا أن نضع رحلنا، ونشرع بكتابة تصوراتنا، واستنتاجاتنا بعد تلك السفرة المضنية التي قمنا بها إلى عالم الأسطورة في الكتابات التاريخية. مع الأخذ بأن الدراسة لا تدعي أنها قد وصلت إلى نتائج هامة، أو أحكام مقررة في الموضوع. فقد شغلت الدراسة بالبحث نفسه في أكثر الأحيان عن النظر إلى غاية أخرى غير الاستمرار فيه، على أمل أن تصل الدراسة إلى غايتين: الأولى؛ أن نقف على بعض سمات الكتابة التاريخية، وروحها لدى المؤرخين المسلمين، وأنماط التفكير السائد آنذاك. وأما الغاية الثانية ؛فهي محاولة الوصول إلى تفهم نفسية هذا الشعب؛ لأنها أصدق مما قد توصلنا إليه دراسات أخرى، أدق وأعمق، ومرجع ذلك ما حمله الموروث الشعبي لرؤية الشعب لتاريخه ،وتفسيره لمسيرته الحضارية ،كما تشي بكل ما كان يحركه من قيم، أو مثل عليا، في إطار من النظام الأخلاقي الذي حكم حركته في الزمان والمكان. ومما يعبر به الناس عن أنفسهم بشكل تلقائي.

كما أن التاريخ كثيراً ما يمحو فواصله بين الحقيقة الموضوعية والحقيقة المتخيلة، وقد يحتاج في بحثه عن الحقيقة إلى ترميمات. لا يقربها منه إلا الأسطورة، التي ترتكز على القرابة مع التاريخ. بل إن التاريخ – عبر مراحله المختلفة – قد رافق الأسطورة طوال حقب زمنية عدة ولا عجب – بعدئذ – أن أصبح التاريخ والأسطورة شيئاً واحداً خلال أحد أطوار حياتهما، قبل أن يحدث ذلك الانفصال غير التام بينهما – فيما بعد – إذ تبين لنا من خلال كتابات المؤرخين أن التاريخ بعد دخول أجواء المرحلة الواقعية بنضجه المنهجي أيضاً يرقد إلى أجواء الأساطير، والحكايات الشعبية في رحلة البحث المستميتة، والصعبة في العناصر المنسية، والقلقة لمسيرته، التي تفصح عنها الإشارات ،والإيحاءات، والرموز، والعلامات التي كان قد اختزنها "اللاشعور الجمعي" لدى الجماعات بعامة، والمؤرخين بخاصة، ملتمسين انعكاساتها على كتاباتهم ،ولتقيم القناعة بوجود "الملحمة" بين التاريخ والأسطورة. وإن بدت – تلك الرموز – مستغلقة، أحياناً لطول العهد، وانقطاع بعض الخيوط، وإعادة صياغتها على يد المؤرخين والرواة.

ولكن دخول هذه الصياغات – في كتب التاريخ التي كتبها المسلمون، لا ينفي أن علم التاريخ عندهم ولد علماً أصيلاً، قائماً على نفس الأصول التي قام عليها علم الحديث وهي؛ الضبط، والدقة والأمانة، وتحري الصدق. لأن هذه التفاصيل الأسطورية لا تدخل إلا فيما يتعلق بأخبار

الأمم الغابرة، أو الأمم البعيدة في العصور الماضية – كمصر القديمة – أما صلب تاريخ الإسلام نفسه فقد ظل – إلى حد ما – سليماً في جملته.

كما اتضح أن الأساطير في الدرس العربي نالت الكثير من أصناف التجني؛ فلتلك الأساطير خصوصية، ينبغي أن تبحث وتدرس بمعزل عن أساطير الشعوب الأخرى. لكي لا تختلط علينا الأمور فنستطيع التعرف على سبب نشأتها، ونتمكن من الوصول إلى مراميها لأنها تنطوي على حقائق دينية، وعلوم سماوية، لا على إكثار خيالي خرافي. مما أضحى الأمر في حاجة ماسة إلى إعادة قراءة الكتابات التاريخية مع ضرورة أن ندقق في روايات كتابنا القدامى. وأن نكون حذرين في قراءة أصولنا وهذه قاعدة أساسية ينبغي أن نسير عليها، حتى نطمئن على صحة نصوصنا ،ولا أقصد بذلك أن نتدخل في النصوص فإن النصوص تراث والتراث لا يمس . ولكن يكفي أن ننبه إلى مواضع الخرافة والأسطورة وتحليل فحواها، والبحث في أصولها ومدلولاتها، مع الحفاظ على خصوصيتها العربية. وضرورة عدم تبني المنظور الغربي لها – بشكل مطلق – حيث أن تبني هذا المنظور عادة ما ينتهي بالباحث إلى حالة من التشكك في بعض الأحيان، أو التشويش في أحيان أخرى.أما مجرد ترديد هذا الاصطلاح والترويج لمفاهيمه في تراثنا العربي والإسلامي، فإنه يفضي إلى حالة من التشتت التي تفتقد إلى أي مدلول.

كما لا يمكن القول: إن مفهوم الأسطورة اصطلاحاً ينتمي إلى الغرب أو الشرق على حد سواء؛ لاختلاف مفهومها في تراث كل منهما .غير أن القرينة التي تجمع بينهما هي مفردة "الأباطيل". بوصفها معنى الأسطورة في جانبها اللغوي، الذي يمكن إسقاطه على الرؤية غير العربية للأسطورة. فحواها أن الأسطورة حكاية مقدسة حول الآلهة وأشباه الآلهة، والقوى الخفية والبشر المتفوقين، لأن هذه الحكاية تغدو محض "أباطيل" أيضاً. من وجهة نظر دينية سماوية حقه وعلمية صرف.

واتخذت الدراسة من النصوص التاريخية المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين موضع اختبار حقيقي للنهج الذي رسمناه، في استقصاء ملامح الأسطورة من خلال المحاور داخل إطار النص التاريخي ليغدو وسيلتنا، وغايتنا، في آن واحد.لأن ما شجعنا على السير في هذا الاتجاه ؛هو أن الخط الفارق بين التاريخ والقصص ظل غير واضح طوال العصور القديمة والوسطى، فظل المؤرخون – حتى كبارهم – رواة أساطير في نفس الوقت.

تلك الأساطير والخرافات التي تسربت إلى علم التاريخ عند المسلمين قد أتى معظمها من مصدر آخر غير الحديث وهو التفسير. ذلك أن أوائل من تعرضوا لتفسير القرآن الكريم لم يجدوا بين أيديهم تفاصيل يشرحون بها الكثير مما ورد في النص القرآني من أخبار الأمم الماضية فالتمسوا المادة

فيما وصل إليهم من تفاصيل ما روي من هذه الأحداث في الكتب الدينية المتداولة بين اليهود والنصارى وغيرهم. كما أن الأسطورة لم تكن مجرد موروث ثقافي أودع في نص تاريخي، يؤشر سعة اطلاع المؤرخ، ومقدار ثقافته، بل غدت وسيلة لدى المؤرخ لمعالجة النقص الحاد في العناصر المنسية من الماضي، بما يحويه من أصول الكون ،والظواهر والأشياء، الماثلة أمام ناظريه في الطبيعة، أو لتفسير العقائد، والعادات ،والتقاليد، والممارسات الاجتماعية. ولم يكن ثمة بديل عن الأسطورة، التي قامت بتلك الوظيفة الاجتماعية / الثقافية الضرورية.

فضلاً عن تلقي المؤرخ الاستجابة من جمهوره، الذي كان تواقاً إلى معرفة الجديد، ويسره جداً أن يسمع عن الأعاجيب، وهو يميل إلى تصديق كل ما يمكن أن يحسن المؤرخ تصويره له ،ولقد اشبع المؤرخون في الناس هذه الرغبة، بما يمكن أن يتقبلوه، فأتوا بقصص وحكايات، كالقصص المرتبطة بأصل اسم مصر، وأصول المصريين أنفسهم، في مزيج من الخيال، وبين المعلومات الصحيحة المشوهة. بما حملته من دلالات عن اعتزاز المصريين ببلادهم، وعن تنازع نسبة أصولهم إلى الحاميين، تأكيداً لتميزهم عن غيرهم من أهل البلاد المجاورة، أو اليونانيين تحت تأثير التراث الثقافي السائد، بتأثيراته المختلفة أو العرب. بفعل الواقع الجديد الناتج عن فتح مصر. مما يشير إلى أن تلك الاتجاهات كانت ترضى حاجة ثقافية \ اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك واستطاع المؤرخ – من خلال الموروث الشعبي – أن يحل أكثر المشاكل تعقيداً لاسيما هاجس الأصل والنشأة والجذور.

وعالج المؤرخون قضية فضائل مصر، بنظرة شيفونية يغلب فيها حب الوطن على التحليل الموضوعي، وأودعوها إطاراً تاريخياً، محملاً بالخرافات والأساطير والحكايات الشعبية، أيضاً بعد أن أصبحت النظرة إلى مصر مشدودة بمعتقد ديني ومتشحة بإطار من التأليف، جمع بين التاريخ والأساطير، والموروث الشعبي ،فضلاً عن الأدب، والدين. كإفراز طبيعي نتيجة التفاعل بين ما جاء به الإسلام، واللغة العربية والموروثات الثقافية المحلية، في كل مصر من أمصار دار الإسلام. إضافة إلى رواسب باقية في النفس. ترجع إلى آلاف السنين، احتفظت بها الذاكرة الجماعية بشكل رموز عن طريق "اللاشعور". وأدرجتها في الموروث الشعبي ،وكان ذلك وحده كاف لتفسير ورصد ما احتوته الذاكرة الشعبية عن رمزية العدد سبعة وارتباطه بمصر من خلال رمزية تندرج في نطاق الرمزية الكوزمولوجية ،والتي ظلت محافظة على قدسيتها ،واستسراريتها عبر العصور. رغم تغير الأديان، والمعتقدات ،ومنها يدخل أثر المعتقدات التي حامت حول طوفان نوح، وعلاقته بتاريخ مصر، وما اكتنفه من الغموض، والخرافة، في آراء المؤرخين الذين قالوا بعالميته . رغم عدم تصريح النصوص الدينية بذلك، فلم يكن الطوفان عالمياً ،ولم يكن الناجون هم نوحاً وأبناءه وزوجاتهم فقط

،ولم يكن المغرقون كل من على وجه الأرض ،بما في ذلك مصر، بيد أن طوفان نوح كان الباب الذي دخل منه المؤرخون إلى الأساطير، والخرافات التي شاعت عن تاريخ مصر القديمة .والتي تكشف عن مدى انبهار الناس بالحضارة المصرية القديمة ،كما تكشف عن عجزهم في الوقوف على إجابات تاريخية حقيقة ليبدأ ترقيع هذا النقص عن طريق الخيال المشبع بالمعتقدات الدينية المشوشة. بيد أن بعض تلك الحكايات عن آثار مصر ما برحت تحمل ظلاً أو نواة من الحقيقة التاريخية في غالب الأحوال، خاصة فيما يتعلق بالقصص والحكايات التي دارت في المجتمع المصري ،عن كنوز قدماء المصريين ،التي كانت مخبأة في مقابرهم ومعابدهم والتي ما تزال تكتشف كل حين إلى الآن، فقد كان بعضها حقيقياً على حين حمل الآخر رائحة المبالغة والشطط.

ولكون الخيال ميدانه طلق تختلط فيه الصور وتتوالد كما تشاء دون قيد حتى ليصعب إيجاد الفواصل أحياناً عندما نؤصل لنشأة مصر أرضاً وشعباً وعمراناً فذلك الحدث في ذاته إن شئنا التأريخ له فإنه بلا أدنى شك سيصبح خارج إطار العصور التاريخية وينتمي بشدة إلى عصور الأسطورة مما يجعله يتخطى حدود الزمن وهو ما نتلمسه في كتابات المؤرخين في سياق محاولاتهم للتأصيل لنشأة المدن المصرية وتسجيلهم لتجاربهم ومشاهداتهم الواقعية متعدين منطق العقل أحياناً ومقتربين من الخيال الشعبي والانغماس في عالم الأساطير في وصفهم التفصيلي لمدن مصر التي قد يكون لها وجود فعلي ملموس أو مدن لا وجود لها في عالم الواقع التي كثيراً ما كانت مرتعاً خصباً للخيال تلعب فيه الملائكة وبعض المخلوقات الأسطورية دوراً لا بأس به لاسيما المعالم العمرانية والآثار الإسلامية في مصر التي لفتت انتباه المؤرخين والرحالة مثلما لفتت أنظارهم طبيعة الأرض والنباتات والثروات الطبيعية والآثار المصرية واختلطت الخرافات والعجائب التي سمعوها من أهل مصر ،بالحقائق التي عاينوها وشاهدوها بأنفسهم أو نقلوها عن الكتب والروايات الموثوقة وخلفوا لنا تفاصيل عديدة عن المباني العظمى التي شيدها حكام مصر، وما دار حولها من غرائب وحكايات خيالية، منبعها الموروث الشعبي.

وتنوع المكان عندهم تنوعاً كبيراً؛ فمن المدن والآثار والأصنام التي تسكنها الروحانيات، والكنوز المرصودة، والجبال الشاهقة، والمقدسة والأحجار السحرية.إلى العيون والآبار، والبرك الغامضة، والقصور المطلسمة، ومن عالم الجن والشياطين والسحرة إلي الحيوانات والطيور، والنباتات العجيبة. في إطار غرائبي أبدعه المعتقد الشعبي المصري، ونقله لنا المؤرخون في كتاباتهم، مستعيرين هيكل الأساطير والحكايات الشعبية، دون المضمون. فلم يستعينوا بشكل الأساطير، الحكايات الشعبية الرائجة، آنذاك. بل اكتفوا فقط بروحها، وصبوه في شكل جيد ممزوج بالحقائق التاريخية.

وفي المصادر العربية اجتمع الخيال بالواقع، فأخرجا لنا صورة نادرة عن نهر النيل.لم تحل دون وجود روايات وتقارير "جغرافية" اقتربت من الحقيقة، إلى حد ما خلت من المساحة الأسطورية، وإن لم تخل من الخيال الذي عوض الجهل بالحقائق الجغرافية بطبيعة الحال. وإذا تتبعنا سيرة النيل في الكتابات التاريخية لوجدنا أن الخيال يسبق الواقع في وجوده لديها، خاصة فيما يتعلق بمنطقة منابع النيل. بيد أن وصفهم لمجرى النهر من منطقة الجنادل جنوب أسوان حتى مصبه في البحر المتوسط تتسم بالدقة؛ لأنهم شاهدوا النهر في هذه المنطقة وعاينوا مجراه وربما كان لهذا الخيال الأسطوري عن تاريخ النيل يد في تقديس واحترام الناس للنيل وحين أُبعد النيل عن الأساطير والخيال ازداد بُعد العامة عن تقديسه، واحترامه وزادوا في جفائهم له.

وبالرغم من أن أعمال المؤرخين قد كتبت بغرض التأريخ أو وصف الأحداث أو حتى بغرض الإرشاد الديني (كما في حالة ابن الحاج) إلا أنها تحوي الكثير من عادات المصريين، وتراثهم وأساليب حياتهم في تقييم للشخصية المصرية. التي ظلت عرضة للأخذ والرد وتضارب الآراء ، ووجدت العديد من التحليلات لها. بدءاً من هيرودوت، واسترابون، وامتداداً عبر العصور والأزمنة إلى ابن زولاق ،والكندي، والمقدسي، والسيوطي ،وابن جبير، والعبدري ،وابن خلدون، والمقريزي، وابن إياس وغيرهم العديد. من الذين أكدوا على أن للمصريين شخصيتهم المتفردة، وسماتهم المادية والثقافية المميزة، التي تفردهم عن غيرهم من الشعوب. وكانت نظرة التأريخ هذه دافعاً لأن جاءت النصوص التاريخية محملة بسمة النزوع الأسطوري والخرافي. تلك الدراسات وإن كانت غير متعمقة وانطباعية إلا أنها ظلت مشبعة بالخيال والحقيقة في آن واحد.

وختاماً... فما من خاتمة فنحن لم نبدأ بعد. في دراسة وتحليل المصادر التاريخية المتعلقة بمصر ، على الوجه الأمثل. ولم نبرز دلالات ما حملته من أخبار وحكايات شعبية لا نزال نرفضها في البحث، ولا نعتمد عليها بالرغم أنها كانت هي التاريخ الذي يصدقه آلاف وآلاف من الناس – عامة وخاصة – والتي كانت هي التاريخ الذي عاش ولا يزال يعيش عليه الكثير ممن يفوقون قراء الكتب العلمية عدداً وإيماناً بصدق التاريخ.. فلنبدأ.

اللهم هبنا القوة لنغير بها ما يمكن أن يتغير ، والصبر على أن نتحمل ما لا يتغير، والحكمة لنميز بها، بين ما يمكن وما لا يمكن أن يتغير، والقدرة على أن نفتح في حائط الجهل شقاً يسيراً، يدخل منه شعاع من النور، كهذا الذي صنعه الحسن بن الهيثم في حجرة السجن ،الذي كان فيه فأنشأ بهذا الشعاع المفرد علماً خالداً، هو علم البصريات. التماساً لنيل أجريْ المجتهد المصيب، أو أجر المجتهد المخطئ، ممن علمنا هذه الفضائل، وزرعها في نفوسنا وكان لنا عوناً في كل دروب العلم، وحسبنا أن نبقى مدينين لهم بذلك ما حيينا، فهم خير الأهل والأحبة والمربين.

ربنا زدنا علماً وتواضعاً ﴿ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴾

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصـــــــادر :

١- الأبشيهي: (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتحي الأبشيهي المحلي) (٧٩٠-٨٥٠هـ): المستطرف في كل فن مستظرف، جزآن، الطبعة لأخيرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٥٢م.

٢- ابن الأخوة: (محمد بن محمد بن أحمد القرشي) (ت٧٢٩هـ): معالم القربة في أحكام الحسبة، طبعة كمبردج ١٩٣٧م.

٣- الإدريسي: (أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبدالله الشريف الحمودي) (ت٥٦٠هـ:١١٦٥م) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلدان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٤م.

٤- الأدفوي : (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر بن على) (ت٧٤٨هـ: ١٣٤٧م) الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، نشر عبد الرحمن على قريط، طبع مطبعة الجمالية بمصر، القاهرة ١٩١٤م.

٥- الأزهري: (أبو منصور محمد بن أحمد) (ت٣٧٠هـ): تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، الدار القومية للطباعة، القاهرة ١٣٨٤هـ.

٦- الإسحاقي :(محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد الغني بن على المنوفي): أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، سلسلة الذخائر، العدد ٣٥، القاهرة ١٩٩٨م.

٧- اسحق بن حسين المنجم(أحد علماء القرن الخامس الهجري): آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٨م.

٨- الإصطخري: (أبي اسحق إبراهيم محمد الفارسي) : المسالك والممالك، تحقيق: محمد عبد العال، سلسلة الذخائر، العدد ١١٩، القاهرة ٢٠٠٤م.

٩- أولياچلبي : سياحتنا مه مصر، ترجمة محمد على عونه، تحقيق: عبد الوهاب عزام، وأحمد السعيد سليمان، مراجعة: أحمد فؤاد متولي ، الطبعة الأولى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٥م.

١٠- أولياجلبي:الرحلة الحجازية، ترجمة : الصفصافي أحمد المرسي، الطبعة الأولى ،دار الآفاق العربية ،القاهرة ١٩٩٩م.

١١- ابن إياس: (أبو البركات محمد بن أحمد) (ت ٩٣٠هـ): كتاب تاريخ مصر المسمى بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق، مصر المحمية، القاهرة ١٣١١هـ.

١٢- ـــــــــ: كتاب تاريخ مصر المسمى بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الخامس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥م.

١٣- ـــــــــ: بدائع الزهور في وقائع الدهور (مختصر)، طبعة مكتبة الفجر الجديد، القاهرة ٢٠٠٥م.

١٤- ابن بسام: (محمد بن أحمد بن بسام التنيسي) (عاش أواخر القرن السادس الهجري): أنيس الجليس في أخبار تنيس، تحقيق : جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٠م.

١٥- ابن بطوطة : (عبد الله بن محمد اللواتي): (٧٣٢-٨٠٨هـ): رحلة ابن بطوطة، تقديم: كرم البستاني، دار بيروت للطبعة والنشر، بيروت ١٩٦٠م.

١٦- ـــــــــ: رحلة ابن بطوطة، تحقيق محمد السعيد محمد الزيني، طبعة المكتبة التوفيقية بالحسين ، القاهرة، بدون تاريخ.

١٧- بطرس البستاني: كتاب قطر المحيط، القاهرة، بدون تاريخ.

١٨- البغدادي: (عبد القادر بن عمر)(ت ١٠٩٣هـ): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧م

١٩- البغدادي :(موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على بن أبي سعد ابن اللباد البغدادي) (القرن السادس الهجري): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر: ضمن كتاب عبد اللطيف البغدادي طبيب القرن السادس الهجري، بول غليونجي، سلسلة أعلام العرب، العدد ١١٤، القاهرة ١٩٨٥م.

٢٠- البغدادى :رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ٣١٤، تقديم: عبد الرحمن الشيخ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٨م.

٢١- البكري: (محمد بن أبي السرور البكري) (ت١٠٨٧هـ): الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة، تحقيق وتعليق: عبد الرازق عيسى، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٧م.

٢٢- البلوي : (خالد بن عيسى) (ت٧٦٥هـ): تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، الجزء الأول، تحقيق: الحسن السائح، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الإمارات، بدون تاريخ.

٢٣- البلوي (أبي محمد عبدالله بن محمد المديني البلوي) :سيرة أحمد بن طولون (تحقيق:محمد كرد علي) ، سلسلة الذخائر ، العدد ٥٥ القاهرة ١٩٩٩م

٢٤- بنيامين :(ابن يونه التطيلي النباري الأندلسي)(٥٦١-٥٦٩هـ): رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزرا حداد، دراسة: عبد الرحمن الشيخ، الطبعة الأولي، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ٢٠٠٢م.

٢٥- البيروني: (أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني)(ت١٠٥٠:٤٤٢م): الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق: إدوارد ساخو (ليبزج ١٩٢٣).

٢٦- التجيبي: (أبو القاسم بن يوسف السبتي) (ت٧٣٠هـ): مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبد الحفيظ منصور ، الدار العربية للكتاب، تونس: ليبيا، ١٩٧٥م.

٢٧- ابن تغري بردي: (جمال الدين يوسف أبو المحاسن) (ت٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٢م.

٢٨- الجبرتي : (عبد الرحمن بن حسن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مجموعة أجزاء، تحقيق: عبدالرحيم عبدالرحمن، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة٢٠٠٣م.

٢٩- ابن جبير: (أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني)(١١٤٥م:٥٣٩هـ-١٢١٧م:٦١٤هـ): رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٩٢م.

٣٠- الجزيري: (عبد القادر بن محمد الأنصاري)(ت٩٧٧هـ): درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٨٤هـ.

٣١- جوزيف بتس : (رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة والمدينة)، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ١٨٩، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

٣٢- ابن الحاج: (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي)(ت٧٣٧هـ): المدخل إلى الشرع الشريف، أربعة أجزاء، ط١، دار التراث، القاهرة، بدون تاريخ.

٣٣- أبي حامد :(أبي حامد محمد بن عبد الرحمن الغرناطي الأندلسي)(ت٥٦٥هـ): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٣م.

٣٤- الحميري :(محمد بن عبد المنعم)(ت٩٠٠هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٩م.

٣٥- ابن حوقل : (أبو القاسم النصيبي): صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م

٣٦- الخزرجي :(ابن أبي أصيبة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن يونس): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الجزء الثاني، ط١، المطبعة الوهابية، القاهرة ١٢٩٩هـ.

٣٧- ابن خرداذبة: (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله)(ت٣٠٠هـ): كتاب المسالك والممالك، طبعة بريل ١٨٨٩م، وطبعة ليدن ١٨٨٣م.

٣٨- ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي)(ت٨٠٨هـ): مقدمة ابن خلدون، دار الأمين للنشر، القاهرة ١٩٩٦م.

٣٩- ــــــــــ:التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، تقديم: عبادة كحيلة، سلسلة الذخائر :العدد ١٠٠، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م.

٤٠- ــــــــــ: مقدمة ابن خلدون، ثلاثة أجزاء، تحقيق: علي عبد الواحد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م.

٤١- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، سبعة أجزاء، تقديم: عبادة كحيلة، سلسلة الذخائر، الأعداد١٥٣-١٥٩، القاهرة ٢٠٠٧م.

٤٢- ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد)(ت٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الجزء٣، تحقيق: محمد محيي الدين، ط١،القاهرة ١٩٤٨م.

٤٣- ـــــــــ: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: يوسف على الطويل، مريم قاسم، المجلد الأول، الجزء٣، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨م.

٤٤- ابن دقماق: (إبراهيم بن محمد بن أيدمر)(ت ٨٠٩هـ): الانتصار بواسطة عقد الأمصار، منشورات المكتب التجاري، بيروت، بدون تاريخ.

٤٥- ابن دريد :(أبو بكر محمد بن الحسين)(ت٣٢١هـ): جمهرة اللغة، نسخة مصورة عن طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن ١٣٤٥هـ، دار صادر، بيروت ، د.ت.

٤٦- الدمشقي :(شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري الصوفي)(ت٧٢٧هـ): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، طبعة بطربورغ المحروسة، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، ١٨٦٥م.

٤٧- الرازي :(أبو بكر عبد الله بن شاهاور)(ت٦٥٤هـ): متارات السائرين ومقامات الطائرين، تحقيق: سعيد عبد الفتاح، القاهرة ١٩٩٩م.

٤٨- الرازي :(محمد بن أبي بكر بن عبد القادر): مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، الطبعة العاشرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ١٩٦٤م.

٤٩- ابن رستة : (أبي على أحمد بن عمر بن رستة): الأعلاق النفسية، المجلد السابع، طبعة ليدن، ١٨٩١م.

٥٠- الزبيدي : (محمد مرتضى الحسيني)(ت١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، منشورات دار الحياة ، بيروت، بدون تاريخ.

٥١- الزمخشري: (جار الله أبي القاسم محمود بن عمر): أساس البلاغة ، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٥م.

٥٢- الزهري: (عبد الله محمد بن أبي بكر) (ت أواسط القرن السادس الهجري): كتاب الجعرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٠م.

٥٣- ابن زولاق : (الحسن إبراهيم بن الحسين الليثي) (٣٠٦:٣٨٧هـ): فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق: على عمر،س.مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م.

٥٤- ابن الزيات: (شمس الدين محمد ابن الزيات): الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، المطبعة الأميرية بمصر، القاهرة ١٩٠٧م.

٥٥- السبكي : (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب)(ت٧٧١هـ): معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق:محمد علي النجار وآخرون ،الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

٥٦- السخاوي: (شمس الدين محمد عبد الرحمن) (ت٩٠٢هـ): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق: محمد الخشت، الطبعة١، دار ابن سينا، القاهرة ١٩٨٩م.

٥٧- ابن سعيد الأندلسي : (أبي الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي)(ت٦٦٢٥هـ): كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، الطبعة الأولى، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٧٠م.

٥٨- ـــــــــــ:المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨م.

٥٩- ـــــــــــ:المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، تحقيق: زكي حسن وآخرون، سلسلة الذخائر، العدد ٨٩، القاهرة ٢٠٠٣م.

٦٠- السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر الشافعي)(ت٩١١هـ): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزآن، المكتبة التجارية بمصر، القاهرة ١٩٠٨م.

٦١- السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر الشافعي)(ت٩١١هـ): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، الجزء الأول، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٧م.

٦٢- ــــــــــ: كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة، تحقيق: محمد الشنتاوي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٧م.

٦٣- ــــــــــ: كتاب التحدث بنعمة الله، تحقيق: اليزابث ماري سارتين، تقديم: عوض الغباري، سلسلة الذخائر،العدد ١٠٦، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م.

٦٤- ــــــــــ:مقامات جلال الدين السيوطي "مقامة في وصف روضة مصر تسمى بلبل الروضة " (الجزء الأول، تحقيق/سمير الدروبي، سلسلة الذخائر، العدد١٦٣) ، القاهرة ٢٠٠٧ م.

٦٥- الشافعي: (محمد بن أبي السرور الصديق) (ت ١٠٨٧هـ): القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب، تحقيق: السيد إبراهيم سالم، مراجعة : إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٢.

٦٦- الشرقاوي: (عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الفاقوسي): تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، الطبعة الأولى، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة ١٣١١هـ.

٦٧- الشوكاني : (محمد بن علي)(ت١٢٥٠هـ): الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، تحقيق: عبد الرحمن اليماني، تصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الأولى، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٦٠م.

٦٨- أبو الصلت: (أمية بن عبد العزيز الأندلسي)(ت٥٢٨هـ): الرسالة المصرية، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ضمن نوادر المخطوطات، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٢م.

٦٩- طافور : (بيرو طافور): رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي ، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، وطبعة مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٧٠- الطاهر: (أحمد الزاوي): ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، الجزء الرابع، الطبعة الثانية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

٧١- الطبري: (أبو جعفر محمد بن جرير)(ت٣١٠هـ): تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية بمصر، القاهرة ١٩٣٩م.

٧٢- الظاهري: (غرس الدين خليل بن شاهين): كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس ١٨٩٥م.

٧٣- ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، مركز تحقيق التراث، دار الكتب، القاهرة ١٩٦٩م.

٧٤- ابن عبد الحكم: (عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عثمان عبد الحكم بن أعين بن الليث بن رافع)(ت٢٥٧هـ): فتوح مصر والمغرب، تحقيق: على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م.

٧٥- ابن عبد الظاهر: (محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري)(ت٦٩٢هـ): الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن سيد، الطبعة الأولى، الدار العربية للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م.

٧٦- العبدري : (أبي عبد الله محمد بن سعود العبدري) (ت٧٠٠هـ): رحلة العبدري، تحقيق: على إبراهيم كردي، تقديم شاكر الفحام، الطبعة الأولى، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق ١٩٩٩م.

٧٧- العسقلاني: (أحمد بن على بن حجر): فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبدالله بن محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، الطبعة الثالثة، الجزء السابع، القاهرة ١٩٨٧م.

٧٨- العمري: (شهاب الدين أحمد بن فضل)(ت٧٤٢هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الأول، تحقيق: أحمد زكي، القاهرة ١٩٤٢م.

٧٩- ــــــــ: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث، تحقيق: أحمد الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٣م.

٨٠- ابن فارس: (أبو الحسين أحمد بن زكريا)(ت٣٩٥هـ): مجمل اللغة، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٤م.

٨١- أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، الجزء٣، المطبعة الحسينية بمصر، القاهرة، د.ت.

٨٢- الفراهيدي: (الخيل بن أحمد)(ت١٧٥هـ): العـين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٤م.

٨٣- الفيروز آبادي: (أبو طاهر محمد الدين بن يعقوب)(ت٨١٧هـ):القاموس المحيط، مطبعة السعادة بمصر، د.ت.

٨٤- القزويني: (زكريا بن محمد بن محمود)(ت٦٨٢هـ): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، الطبعة الخامسة، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٨٠م

٨٥- ـــــــــ :آثار البلاد وأخبار العباد، جزآن، الطبعة الأولى، سلسلة الدراسات الشعبية، العددان ٧٧، ٧٨، القاهرة ٢٠٠٣م.

٨٦- ـــــــــ:عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تقديم وتحقيق: محمد بن يوسف القاضي، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م.

٨٧- القلصادي: (أبي الحسن على القلصادي الأندلسي)(ت ٨٩١هـ): رحلة القلصادي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٧٨م.

٨٨- القلقشندى: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على)(ت٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، القاهرة ١٩١٣م.

٨٩- الكتبي: (محمد بن شاكر بن أحمد)(ت٧٦٤هـ): فوات الوفيات ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية،مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٥١م.

٩٠- ابن كثير: (الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي)(ت٧٧٤هـ): البداية والنهاية، الطبعة السادسة، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠١م.

٩١- الكندي (أبوعمر محمد بن يوسف التجيبي)(ت٣٥٠هـ):ولاة مصر (تحقيق:حسين نصار ، سلسلة الذخائر ، العدد ٦٦)، القاهرة ٢٠٠١م.

٩٢- الكندي: (عمر بن محمد بن يوسف): فضائل مصر، تحقيق: إبراهيم العدوي، على عمر، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٧١م.

٩٣- أبو المحاسن: (جمال الدين يوسف ابن تغري بردي)(ت ٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الخامس، القاهرة ١٩٣٥م.

٩٤- ــــــــ: منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، الجزء الثالث، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٠م.

٩٥- ابن محشرة: (كاتب مراكشي مجهول)(ت٥٩٨هـ تقريباً): الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتحقيق: سعد زغلول عبدالحميد، الإسكندرية ١٩٥٨م.

٩٦- المسعودي: (أبو الحسن على بن الحسين)(ت٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، أربعة أجزاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض ١٩٧٣م.

٩٧- ــــــــ:أخبار الزمان ومن إبادة الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤١٥هـ.

٩٨- ابن معصوم : (على صدر الدين أحمد نظام الدين بن محمد)(ت١١٢٠هـ): رحلة ابن معصوم المدني سلوة الغريب وأسوة الأريب، تحقيق: شاكر هادي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٨م.

٩٩- المقدسي: (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية، مطبعة ليدن ١٩٠٩م.

١٠٠-المقريزي: (تقي الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد)(ت٨٤٥هـ): ضوء الساري لمعرفة خبر تميم الداري،(مخطوط مطبوع غير محقق)، تقديم : ناصر السكران، الطبعة١ ،الرياض ، ١٤٢٣هـ.

١٠١-ــــــــ : الخطط المقريزية المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أربعة أجزاء، مطبعة النيل، القاهرة ١٣٢٥هـ.

١٠٢-المقريزى: الخطط المقريزية المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،أربعة أجزاء ، طبعة سلسلة الذخائر من طبعة بولاق ،الأعداد٥١-٥٤ ، القاهرة ١٩٩٩م.

١٠٣-ــــــــــ: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، نشر: محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٦م.

١٠٤-ــــــــــ: إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: ياسر سيد، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٩م.

١٠٥-ابن مماتي : (الأسعد بن مماتي الوزير الأيوبي)(ت٦٠٦هـ): قوانين الدواوين ، تحقيق: عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣م.

١٠٦-موفق الدين: (موفق الدين بن عثمان)(ت٦١٥): مرشد الزوار إلى قبور الأبرار المسمى الدر المنظم في زيارة الجبل المقطم، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٥م.

١٠٧-ابن منظور: (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري)(ت٧١١هـ): لسان العرب، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، ١٨٩١م.

١٠٨-النابلسي: (عبد الغني بن إسماعيل النابلسي النقشبندي)(ت١١٤٣هـ): الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر الحجاز، تقديم وإعداد: أحمد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م.

١٠٩-النابلسي: (أبو عثمان النابلسي الصفدي الشافعي)(ت٦٦٠هـ): تاريخ الفيوم وبلاده، دار الجيل، بيروت ١٩٧٤م.

١١٠-ناصر خسرو علوي: سفرنامة، ترجمة: يحيي الخشاب، تقديم: عبد الوهاب عزام، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م.

١١١-ابن النديم: (محمد بن إسحاق الوراق)(ت٣٨٠هـ): الفهرست، جزآن، تحقيق: محمد عوني وإيمان السعيد، سلسلة الذخائر، العددان ١٤٩، ١٥٠، القاهرة ٢٠٠٦م.

١١٢-النواجي(شمس الدين محمد بن الحسن)(ت٨٥٩هـ):حلبة الكميت في الأدب والنوادر والفكاهات المتعلقة بالخمريات ،سلسلة الذخائر ، العدد٢٧، القاهرة ١٩٩٨م.

١١٣-النويري: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري)(ت٦٧٧هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر الأول، سلسلة تراثنا ، وزارة الثقافة، ، القاهرة ١٩٧٩م.

١١٤-الهروي: (أبي الحسن على بن أبي بكر الهروي)(ت٦١١هـ): الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٢م.

١١٥-هيردوت: هيردوت يتحدث عن مصر، ترجمة: محمد خفاقة، دار القلم، القاهرة ١٩٦٦م.

١١٦-ابن الوزان: (الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بجان ليون الإفريقي) (ت٩٥٧هـ): وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، مراجعة: على عبد الواحد، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٥م.

١١٧-ابن الوردي: (سراج الدين أبي حفص عمر): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، الطبعة الأخيرة، مكتبة عبد السلام شقرون، بدون تاريخ.

١١٨-ابن الوكيل: (أبو الحجاج يوسف بن محمد الملواني)(ت١١٣١هـ): تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق: محمد الششتاوي، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٩م.

١١٩-ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي)(ت٦٢٦هـ): معجم البلدان، خمسة مجلدات، طبعة بيروت، ١٩٥٥م.

١٢٠-اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح)(ت٢٨٤هـ): كتاب البلدان، ليدن ١٧٩٢م.

١٢١-ــــــــــ: تاريخ اليعقوبي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م.

ثانيا: المراجع العربية:

١- إبراهيم أحمد شعلان: موسوعة الأمثال الشعبية، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢م.

٢- ــــــــــ: الشعب المصري في أمثاله العامية،الدراسات الشعبية، العدد ٨٧ – ٨٨،القاهرة ٢٠٠٤م.

٣- إبراهيم حلمي: كسوة الكعبة المشرفة وفنون الحجاج، سلسلة كتابك اليوم، العدد ٣٢٠، القاهرة ١٩٩١م.

٤- إبراهيم خليفة شعلان: النحو بين العرب واليونان، ط١،الدار الأندلسية، الإسكندرية ١٩٩١م.

٥- ــــــــــ:ثنائية الألفاظ في العربية أسبابها وأصولها،ط الأولى، الزقازيق ١٩٩٨م.

٦- إبراهيم العدوي:ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣م.

٧- إبراهيم كامل أحمد: النبش في ركام الخرافة ،مجلة الفنون الشعبية، عدد٦٢/٦٣، القاهرة ٢٠٠٢م.

٨- أبو اليسر فرج:النيل في المصادر الإغريقية، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ٢٠٠٤م.

٩- أبو عبد الفتاح علي بن حاج: فصل الكلام في مواجهة ظلم الحكام، الطبعة الأولى، دار العقاب، بيروت ١٩٩٤م.

١٠- أحمد أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة، بدون تاريخ.

١١- أحمد أبو زيد: الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي، مجلة عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الثالث، الكويت ١٩٨٥م.

١٢- ــــــــــ: فريزر والغصن الذهبي، مقدمة كتاب الغصن الذهبي، الجزء الأول، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٨م.

١٣- أحمد إسماعيل النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، الطبعة الأولى، دار سيناء للنشر، القاهرة ١٩٩٥م.

١٤- أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى،مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٣م.

١٥- أحمد عبد الغفور عطار:الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم، بيروت ١٩٧٧م.

١٦- أحمد شمس الدين الحجاجي:مولد البطل في السيرة الشعبية، دار الهلال، القاهرة ١٩٩١م.

١٧- أحمد صبحي منصور: العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ١٨٦، القاهرة ٢٠٠٠م.

١٨- أحمد عثمان: تاريخ اليهود، الجزء الثالث، مكتبة الشروق، القاهرة ١٩٩٤م.

١٩- أحمد علي مرسي: الثقافة الشعبية والحداثة، مجلة فصول، العدد ٦٠، القاهرة ٢٠٠٢م.

٢٠- أحمد فؤاد متولي : مقدمة رحلة أولياچلبي ،تحقيق عبد الوهاب عزام وآخرون، الطبعة الأولى، دار الكتب ، القاهرة ٢٠٠٥م

٢١- أحمد كمال ذكي:الأساطير دراسة حضارية مقارنة،الطبعة الثانية، قصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٠م.

٢٢- آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، الجزء الثاني، الألف كتاب الثاني، الطبعة الثالثة، القاهرة ٢٠٠٣م.

٢٣- أرنست كاسيرر: الدولة والأسطورة، ترجمة: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥م.

٢٤- إسماعيل عبدالمنعم قاسم: الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية في مصر زمن المماليك البحرية، رسالة ماجستير – غير منشورة – كلية الآداب ، جامعة عين شمس، ١٩٨٨م.

٢٥- ألفرد . ج . بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٦م.

٢٦- أليكسي لوسيف: فلسفة الأسطورة، ترجمة: منذر حلوم، الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر، دمشق ٢٠٠٠م.

٢٧- إميل لودفيغ:النيل حياة نهر، ترجمة: عادل زعيتر، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠م.

٢٨- آن وولف: كم تبعد القاهرة؟، ترجمة: قاسم عبده قاسم، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد ١٠٥٣، القاهرة ٢٠٠٦م.

٢٩- آنار رويز: روح مصر القديمة، ترجمة: إكرام يوسف، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد ٩٦٥، الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠٥.

٣٠- أنطوان ثورلبي: اللغة والأسطورة، ترجمة: منيرة كروان، سلسلة دار عين للدراسات ، العدد ٨، الطبعة الأولى، دار عين، القاهرة ١٩٩٧م.

٣١- بريان . م . فاجان: نهب آثار وادي النيل ودور لصوص المقابر، ترجمة: أحمد زهير أمين، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣م.

٣٢- بيريل سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، ترجمة: قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م.

٣٣- توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، الجزء الثاني، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢٣، القاهرة ١٩٨٨م.

٣٤- ثناء أنس الوجود:رمز الماء في الأدب الجاهلي،ط الأولى، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٨٦م.

٣٥- ـــــــــ: تجليات الطبيعة والحيوان في الشعر الأموي ، طبعة الشركة المصرية العالمية للنشر، ، القاهرة ١٩٩٨م .

٣٦- ـــــــــ :رمز الأفعى في التراث العربي، سلسلة ذاكرة الكتابة، العدد١١، القاهرة١٩٩٩م.

٣٧- جمال عبد الهادي، وآخرون: تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام وإيران وتركيا منذ أقدم العصور، دار الشروق، جدة، د. ت.

٣٨- چورج بوزنر وآخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة: أمين سلامة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠١م.

٣٩- چون أنتيس :مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر(١٧٧٠-١٧٨٢)،(ترجمة سيد الناصري ،سلسلة المشروع القومي للترجمة ، العدد٢٢، القاهرة ١٩٩٧م

٤٠- چيمس فريزر: الغصن الذهبي- دراسة في السحر والدين، ترجمة: أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف، القاهرة ١٩٧١م.

٤١- ــــــــــــ: الفولكلور في العهد القديم (التوراة)، جزءان، ترجمة: نبيلة إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢م.

٤٢- چيمس هنري برستد:فجر الضمير،ترجمة: سليم حسن، س مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠م.

٤٣- حسن إبراهيم حسن:الأزهر تاريخه وتطوره، ط وزارة الأوقاف، القاهرة ١٩٦٤م.

٤٤- حسني محمود حسين : أدب الرحلة عند العرب. الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٧٦م .

٤٥- حسين مؤنس: نشأة التدوين التاريخي عند العرب، النهضة المصرية، القاهرة،د.ت.

٤٦- ــــــــــــ: ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل،دار المعارف،القاهرة١٩٨٠م

٤٧- ــــــــــــ:التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م.

٤٨- ــــــــــــ: الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها،الطبعة الثانية، سلسلة عالم المعرفه، العدد ٢٣٧، الكويت ١٩٩٨م.

٤٩- ــــــــــــ: تنقية أصول التاريخ الإسلامي ، القاهرة ٢٠٠٥م.

٥٠- حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣٨ ، الكويت ١٩٨٩م.

٥١- دونالد مالكولم ريد: فراعنة من؟، ترجمة: رؤف عباس، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد ٧٠٨، القاهرة ٢٠٠٥م.

٥٢- رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الطبعة الثانية، مكتبة الخانكي، القاهرة ١٩٨٥م.

٥٣- سامي عبدالوهاب بطة: الحكاية الشعبية دراسة في الأصول والقوانين الشكلية، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٨٦، القاهرة ٢٠٠٤م.

٥٤- ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة: حسن إبراهيم وآخرون ، مكتبة الأسرة، ١٩٧٧م.

٥٥- سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، جزءان، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣م.

٥٦- ـــــــــ:المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، النهضة العربية،القاهرة ١٩٩٢م.

٥٧- ـــــــــ: السيد البدوي شيخ وطريقة، سلسلة تاريخ المصريين،ع ١٢٣، القاهرة ١٩٩٨م.

٥٨- ـــــــــ: الظاهر بيبرس. سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢٠٧، القاهرة ٢٠٠١م.

٥٩- سليم حسن: أبو الهول تاريخه في ضوء الكشوف الحديثة، ترجمة: جمال الدين سالم، مراجعة: أحمد بدوي، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م.

٦٠- سليم عرفات المبيض: ملامح الشخصية الفلسطينية في أمثالها الشعبية، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م.

٦١- سَهير القلماوي:القصص الشعبي،مجلة عالم الفكر، المجلد٣، العدد الأول، الكويت ١٩٧٢م.

٦٢- ـــــــــ: ألف ليلة ولية، تقديم: جابر عصفور، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٧م.

٦٣- سيد أحمد الناصري:الإغريق تاريخهم وحضارتهم، الطبعة٣،النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٧م

٦٤- سيد خميس: القصص الديني بين التراث والتاريخ، مكتبة الأسرة٢٠٠١م.

٦٥- ــــــــــ: وصل ما انقطع قراءات في التراث العربي، مكتبة الأسرة،القاهرة ٢٠٠٢م

٦٦- سيدة إسماعيل كاشف: دراسة نقدية لكتاب حسن المحاصرة للسيوطي، ضمن كتاب "جلال الدين السيوطي"،الأولى، الهيئة العامة، القاهرة١٩٧م.

٦٧- سيمسون نايوفتس: مصر أصل الشجرة، السياقات، الجزء الأول، سلسلةالمشروع القومي للترجمة، العدد ٩٩٣، القاهرة ٢٠٠٦م.

٦٨- شفيق مقار: السحر في التوراة والعهد القديم، الطبعة الأولى، دار رياض الريس، بيروت/ لندن ١٩٩٠م.

٦٩- شكرى محمد عياد:البطل في الأدب والأساطير، الطبعة الثانية، دار المعرفة، القاهرة ١٩٦٠م.

٧٠- صلاح الراوي: الفلكلور في كتاب حياة الحيوان للدميري، الجزء الأول، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٧٣، القاهرة ٢٠٠٣.

٧١- صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، ترجمة: أحمد عبد الحميد يوسف، مراجعة: عبد المنعم أبو بكر، ، القاهرة ١٩٧٤م.

٧٢- عبد الباسط سيدا: من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري بلاد ما بين النهرين تحديداً، ط.١، دار الحصاد ، دمشق ١٩٩٥م.

٧٣- عبد الحميد يونس: الحكاية الشعبية،س المكتبة الثقافية، العدد ٢٠٠، دار القلم، القاهرة ١٩٦٨م.

٧٤- ــــــــــ: التراث الشعبي، سلسلة كتابك، العدد ٩١، دار المعارف،القاهرة ١٩٧٩م.

٧٥- ــــــــــ: الفولكلور والميثولوچيا،عالم الفكر،المجلد٣، العدد١،الكويت ١٩٧٢م.

٧٦- عبد الحميد يونس:الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي،الدراسات الشعبية، العدد٨١، ٢٠٠٣م.

٧٧- ــــــــــــــــ: مجتمعنا، سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٤م.

٧٨- عبد العزيز صالح: حضارة مصر القديمة وآثارها، جـ١، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ١٩٦٢م.

٧٩- عبد العزيز غنيم: على هامش الفتح الإسلامي لمصر، ضمن كتاب مصر والإسلام، إعداد لجنة السيرة والتاريخ الإسلامي، القسم الأول، سلسلة دراسات إسلامية، العدد ٩٦، القاهرة ٢٠٠٣م.

٨٠- عبد الفتاح رواس قلعة جي: رموز وأساطير في الموروثات الشعبية، مجلة التراث العربي، العدد ٦٨، دمشق ١٩٩٧م.

٨١- عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي، الطبعة الأولى، مطبعة دار التأليف، القاهرة . د . ت.

٨٢- عبده الراجحي: اللهجات العربية في القراءات القرآنية، الطبعة الأولى ، مكتبة المعارف، الرياض ١٩٩٩م .

٨٣- علي عبدالحليم محمود: القصة العربية في العصر الجاهلي، الطبعة الثانية، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩م.

٨٤- عمرو عبد العزيز منير :العمران في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين دراسة مقارنة في كتابات الرحالة ، رسالة ماجستير ــ غير منشورة ــ ، آداب الزقازيق ٢٠٠٤م.

٨٥- فاروق أحمد مصطفى: الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٩٦، القاهرة ٢٠٠٤م.

٨٦- فاروق خورشيد: الأسطورة عند العرب، مجلة الدوحة القطرية،قطر١٩٧٦

٨٧- ــــــــــــــــ : جولة في التراث، معادن الجوهر، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م.

٨٨- فتحي الصنفاوي: مدخل إلى دراسة المأثورات الشعبية الغنائية الفلكلور الغنائي، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠١م.

٨٩- فراس السواح: مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة السورية وبلاد الرافدين، الطبعة العاشرة، دار علاء الدين، دمشق ١٩٩٣م.

٩٠- ــــــــــــ: الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، الطبعة الأولى، دار علاء الدين، دمشق ١٩٩٧م.

٩١- فوزي العنتيل: عالم الحكايات الشعبية،س الدراسات الشعبية،ع ٣٦، القاهرة ١٩٩٩م

٩٢- قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨م.

٩٣- ــــــــــــ: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩م.

٩٤- ــــــــــــ: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، الطبعة الثانية، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣م .

٩٥- ــــــــــــ:الرؤية الحضارية للتاريخ قراءةفي التراث التاريخي العربي ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥م .

٩٦- ــــــــــــ: ماهية الحروب الصليبية ، دار عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ١٩٩٣م.

٩٧- ــــــــــــ:عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي ، الطبعة الأولى، دار عين للدراسات ، القاهرة ١٩٩٣م.

٩٨- ــــــــــــ : بين التاريخ والفولكلور ، الطبعة الثانية ، دار عين للدراسات ، القاهرة ١٩٩٨م.

٩٩- كارم محمود عزيز: دراسة لأهم العناصر الأسطورية في كتاب العهد القديم في ضوء أساطير الشرق الأدنى القديم، رسالة ماجستير – غير منشورة– المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق ١٩٩٣م.

١٠٠–ـــــــــــــ :النموذج الفولكلوري للبطل في العهد القديم دراسة مقارنة، رسالة دكتوراه غير منشورة – المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق ١٩٩٧م.

١٠١–ـــــــــــــ: الأسطورة فجر الإبداع الإنساني، سلسلة الدراسات الشعبية، العدد ٦٦، القاهرة ٢٠٠٢م.

١٠٢–ك . ج . يونج: علم النفس التحليلي، ترجمة: نهاد خياطة، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٣م.

١٠٣–لطفي حسين سليم:الأسطورة والإسرائيليات، س الدراسات الشعبية ،ع ٥٢،القاهرة ٢٠٠٠م.

١٠٤–ـــــــــــــ: الأسطورة في الأدب العربي أولا في الأدب الجاهلي، مجلة الفنون الشعبية، العدد ٦٠–٦١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م.

١٠٥–ـــــــــــــ: الأسطورة في التراث الديني، مجلة الفنون الشعبية، عدد ٦٤–٦٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣م.

١٠٦–مجدي محمد شمس الدين:القص بين الحقيقة والخيال، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م.

١٠٧–مجموعة من الباحثين: الأسطورة توثيق حضاري، جمعية التجديد الثقافية، الطبعة الأولى، البحرين ٢٠٠٥م.

١٠٨–ـــــــــــــ: اللسان العربي بُعد فطري وارتباط كوني، جمعية التجديد الثقافية، الطبعة الأولى، البحرين ٢٠٠٥م).

١٠٩–ـــــــــــــ : طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، جمعية التجديد الثقافية، الطبعة الأولى، البحرين ٢٠٠٥م.

١١٠–مجموعة من الباحثين:مسخ الصورة سرقة وتحريف تراث الأمة، جمعية التجديد الثقافية، الطبعة الأولى، البحرين ٢٠٠٥م.

١١١–محاسن محمد الوقاد: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ١٥٢، القاهرة ١٩٩٩م.

١١٢–مختار علي أبو غالي: الأسطورة المحورية في الشعر العربي المعاصر، مشروع نظري، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦م.

١١٣–محمد الحامدي: الطوفان بين الحقيقة والأسطورة،مجلة التراث العربي ،العدد ٥٨،دمشق ١٩٩٥م

١١٤–محمد حرب: قاهرة القرن السابع عشر في رحلة أولياچلبي، دراسة بمجلة الهلال، عدد يناير، القاهرة ١٩٨٦م

١١٥–محمد حسن محمد: الأسرة المصرية في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير – غير منشورة – آداب الزقازيق ١٩٨٩م.

١١٦–ــــــــــــــــ:الأبعاد الاجتماعية لظاهرة التصوف عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه – غير منشورة – آداب الزقازيق ١٩٩٦م.

١١٧–محمد خليفة حسن: آثار الفكر الإستشراقي في المجتمعات الإسلامية، الطبعة الأولى، دار عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٧م.

١١٨–ــــــــــــــــ: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم دراسة في ملحمة جلجامش، دار عين للدراسات، القاهرة ١٩٩٧م.

١١٩–ــــــــــــــــ: رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٨م.

١٢٠–محمد رجب النجار: الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، الكويت ١٩٨٢م.

١٢١–ــــــــــــــــ: الأدب الملحمي في التراث الشعبي العربي، سلسلة الدراسات الشعبية العدد ١١٠، القاهرة ٢٠٠٧م.

١٢٢–محمد عبد السلام إبراهيم: مصر في التراث الإسلامي، طبعة جامعة الزقازيق ١٩٩٨م.

١٢٣–محمد عبد الله عنان:مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م.

١٢٤–ــــــــــــــــ: مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، سلسلة مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩م.

١٢٥-محمد عبد المعين خان: الأساطير والخرافات عند العرب، الطبعة الثالثة، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨١م.

١٢٦-محمد عمارة: عندما دخلت مصر في دين الله دراسة ضمن كتاب (أثر الإسلام في مصر) إشراف: قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، هيئة قصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٩م.

١٢٧-————— ::أثر الإسلام في مصر وأثر مصر في الحضارة العربية الإسلامية، دراسة ضمن كتاب (أثر الإسلام في مصر) إشراف: قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى، هيئة قصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٩م.

١٢٨-محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة ١٩٩٦م.

١٢٩-محمد كمال الدين عز الدين محمد: الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الچراكسة دراسة عن التاريخ والمؤرخون، المجلد الثالث، رسالة دكتوراه - غير منشورة - كلية البنات، جامعة عين شمس ١٩٨٩م.

١٣٠-محمود رزق سليم: النيل في عصر المماليك، سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ١٣٢، دار القلم، القاهرة ١٩٦٥م.

١٣١-مصطفى عبد الحليم متولي :قصة موسى في أعمال المفسرين دراسة مقارنة ، رسالة ماجستير -غير منشورة -، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ١٩٨٤م

١٣٢-ـ ميكل ونتر : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني ، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٧م.

١٣٣-ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، الطبعة الأولى، دار النشر للجماعات، القاهرة ١٩٩٥م.

١٣٤-نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني المصري، القاهرة ١٩٦٢م .

١٣٥-هاري إلمر بارنر: تاريخ الكتابة التاريخية، الجزء الأول، ترجمة: محمد عبدالرحمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م.

١٣٦-وديع بشور: الميثولوجيا السورية أساطير آرام،ط١، دار الحوار للنشر، دمشق ٢٠٠١م.

١٣٧-ويليام رو، وفيفيان شلنج: الذاكرة والحداثة الثقافية الشعبية، ترجمة: منى برنس، مراجعة : أحمد علي مرسي، سلسلة المشروع القومي للترجمة، العدد ٧٠١، القاهرة ٢٠٠٥م.

١٣٨-ي. ب. ليبنر: كل أساطير إسرائيل (معدة وفقا للمصادر الأولى ومكتوبة بلغة المقرا وفق ترتيب زمني)، القسم الأول، نشر، دار "أحيا ساف"، "وعيفر"، أورشليم ١٩٥٠م.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

١. Cassirer, Ernest, Lang uoge and My th, translated from German by Susanne K. Langer. Bover publications, Inc., U.S.A 1946.

٢. David, Adam Leeming, My theology the voyage of Hero. New York, 1973.

٣. Malinowsk. Magic. Science, and Religion: Garden city. New York. 1954.

٤. Malinowski, Bronislaw, Magic. Science and Religion, and other Essays, Doubleday, Company, Inc, New York, 1954,

٥. Montague, Ashley, Man: his first million yers. The New American Library, New York, 1957 Money – Kyrle, Roger. Superstition and society Hogarth Press. London, 1939

٦. Robertson smith, the Religion of thesemites. The meribian library published by Merid and Books .New York 1956. P.18.

٧. Tiliyard, E.M.W, My the and the English Mind, Col-lier Books, New York, 1961.

محتويات الكتاب

صفحة

رقم الإيداع ٣١٩٥ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولى L.S.B.N. 977 - 322 - 230 -6

مطبعة صحوة

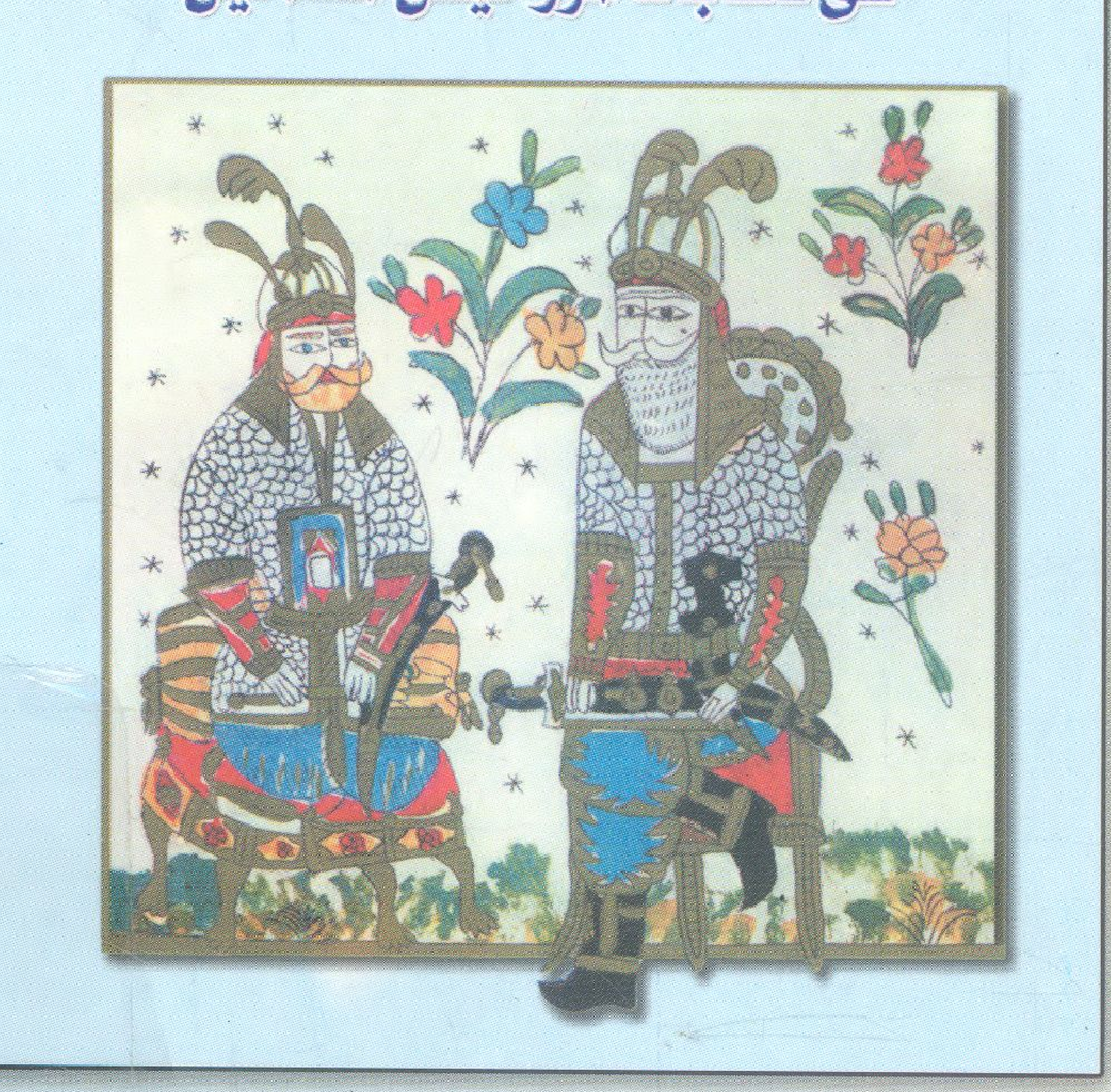
٧ شارع اسماعيل رمضان - الكوم الأخضر- فيصل
تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠١٠٠٩٦٧٨



د. عمرو عبد العزيز منير

الأساطير المتعلقة بمصر

فى كتابات المؤرخين المسلمين





للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES